أعلام القادة العسكريين في التاريخ الإسلامي

إعداد
دكتور/ رجب محمود إبراهيم بخيت



بطاقة فهرسة

مكتبة كنوز المعرفة

اسم الكتاب: أعلام القادة العسكريين في التاريخ الإسلامي

إعـــــداد: د. رجب محمود بخيت

رقم الإيداع:

الطبعة الأولى ٢٠١١



شارع جيهان - أمام بوابة الجامعة ت: ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦
Tokoboko_5@yahoo.com

المقدمة

الحمد لله القديم بلا غاية، والباقي بلا نهاية، الذي علا في دنوه ودنا في علوه فلا يحويه زمان ولا يحيط بـه مكـان ولا يؤوده حفظ مـا خلـق ولـم يخلقـه علـى مثـال سبق، بل أنشـأه ابتداعا وعدلـه اصطناعا فأحسن كل شيء خلقه وتمم مشيئته وأوضح حكمتـه فدل علـى ألوهيتـه فسبحانه لا معقب لحكمه ولا دافع لقضائه تواضع كل شيء لعظمتـه وذل كـل شـيء لسلطانه ووسع كل شـيء فضلـه لا يعزب عنـه مثقـال حبـة وهو السميع العليم.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده إلها تقدست أسماؤه وعظمت آلاؤه وعلا عن صفات كل مخلوق وتنزه عن شبيه كل مصنوع فلا تبلغـه الأوهام ولا تحيط به العقول ولا الأفهام، يعصى فيحلم.

ويدعى فيسمع ويقبل التوبـة من عبـاده، ويعفو عن السيئات ويعلـم مـا تفعلون.

وأشهد شهادة حق وقول صدق بـإخلاص نيـة وصـحة طويلـة أن محمد بن عبد الله عبده ونبيه وخالصته وصفيه ابتعثه إلى خلقه بالبينـة والهدى ودين الحق فبلغ مألكته ونصح لأمتـه وجاهد فـي سبيل الله لا تأخذه فـي الحق لومة لائم ولا يصده عنه زعم زاعم ماضيا على سنته موفيـا علـى قصده حتى أتاه اليقين فصلى الله على محمد وعلى آل محمد.

أما بعد...

فالقدوة الحسنة عنصر مهم في كل مجتمع، فمهما كان أفراده صـالحين فهم في أمس الحاجة لرؤية القدوات، وكما قيل: جالسوا من تذكّركم بالله رؤيتُهم، كيـف لا وقد أمـر اللهُ نبيَـه بالاقتـداء فقـال:{أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ} [الأنعام: ٩٠].

وتشتدّ الحاجة إلى القدوة كلما بَعُد الناس عن الالتزام بقيم الإسلام وأحكامه، وتتأكد الحاجة بل تصل إلى درجة الوجوب إذا وُجدت قدواتٌ سيئةٌ فاسدةٌ تُحْسِن عرضَ باطلها.

إن القدوةَ - سواءً أكانت حسنةً أو سيئة - أكثرُ أثرًا وإقناعًا من الكلام النظري مهما كان بليغًا ومؤثرًا، ولعل هذا هو السرُ في إرسالِ اللهِ رسلاً من البشر عبر التاريخ مع أنه تعالى قادر - وهو الذي لا يعجزه شيء - على أن يلهم الناس شرعه، خاصة أن بشرية الرسل تعلّلَ بها الجاحدون لرفض الإيمان كما قال تعالى:{ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾} [الإسراء: ٩٤]، لكن الذي قال عن نفسه:{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ} [الملك: ١٤]، اقتضت حكمته إرسال الرسل من البشر؛ ليكونوا منارات هدى وقدوات حسنةً عبرالتاريخ، فهم التطبيق النموذجي لشرع الله في كل عصر، وتطبيقهم حجةٌ على العباد ودليلٌ على واقعيةِ الشرع.

وأوضح دليل على هذا الأثر ما وقع في يوم الحديبية، ففي صحيح البخاري قال عمر: فلما فرغ من قضية الكتاب - أي: بنود الصلح - قال رسول الله لأصحابه:﴿قوموا، فانحروا ثم احلقوا﴾، قال: فوالله، ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة ﵂: يا نبيّ الله، أتحبّ ذلك؟ اخرُج لا تكلّم أحدًا منهم كلمةً حتى تنحر بُدْنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلّم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بُدْنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضُهم يقتل بعضًا.

إنّ هذا التأثيرَ القويَ والمباشرَ للقدوة يرجع إلى عدة أسباب منها:

أن الإنسان مفطور على حب التقليد، وكثيرًا ما يكتسب معارفه وخبراته

ومهاراته بالتقليد والمحاكاة، انظر إلى الطفل كيف يحاكي أباه ويتقمص شخصيته؛ لأن التعلم بالرؤية والمشاهدة أسهلُ وأيسر بل وأسرع، والنفس بطبعها تحبّ الحصولَ على الشيء بأسهل الطرق وأسرعها ولو كان محرّمًا، لكن الشرع والعقل يضبطها.

وقوعُ الإنسان - مهما كان كسولاً أو مقصرًا - أسيرًا للقدوة، فيحمله ذلك الإعجابُ على التقليد والمحاكاة، وهنا تكمن خطورةُ الموضوع؛ لأنّ القدوةَ إما أن تكون حسنة لها بريقها الذاتي فتَنجذبُ إليها النفوسُ تلقائيًا وتتأثر بها إيجابيًا، وإمّا أن تكون قدوةً سيئةً زخرفت وزينت بالأصباغ والألوان الخادعة، وسُلِّط عليها الأضواءُ الإعلاميةُ الباهرة، وأُضفيَ عليها عباراتُ الثناء والتمجيد الكاذبة لإثارة إعجاب المخدوعين، وحقًّا منهم من يقع في حبائلهم وشراكهم، حتى إذا فحصه عن قرب أدرك أنه كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، بل تبين له الوجهُ الحقيقيُّ، فما كان إلا إثارةً للغرائز والشهوات وتمجيدًا للكفرةِ والفساق والفجار باسم الفن والأناقة والرقص والغناء، وترويجًا للمنكرات والفواحش والرذائل باسم الترويح والسياحة، ومحاربةً للفضائل والحياء باسم الحرية والحضارة، وتنفيرًا من دين الله باسم التأخر والجمود، وتهجينًا لأحكامه باسم الكبت والقسوة،{وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ} [النور: ٤٠]، وتحقيرًا لدعاته باسم التطرف والإرهاب. نعم، هذا هو البديل عند غيابِ أو تغيّبِ القدواتِ الصالحة الحسنة.

وللأسف فإنّ دعاةَ الشر وشياطينَ الفساد استطاعوا أن يغزونا في عُقْرِ دارنا بهذه القدوات السيئة الفاسدة المفسدة عبر فضائياتهم، وبدأ المخطط - ولمّا يمضي عليه سنوات - يؤتي أكلَه الفاسد بمباركة الشيطان، فوُجد في فتيانِنا وفتياتنا من يقلّد أعداء الإسلام والساقطين في كل شيء، في مظهرهم وملبَسِهم، بل حتى في القضايا الجبلّية من أكل وشرب ومشي.

إنّ هذه المظاهرَ الشاذةَ لهي دليلٌ قويٌ على الشعور بالنقص والانهزام النفسي، وصدق ابنُ خلدون في قوله: " المغلوب مولعٌ بتقليد الغالب أبدًا في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده ".

أيها الأحبة: في هذه الأيام وفي هذه الظروف المحيطة بنا ما أحوجنا إلى الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة، فهي محطّ آمال العقلاء وغاية أمانيهم؛ لأنها نهج راشد وطريق مستقيم لا اعوجاج فيه ولا التواء.

وإن في طليعة من يجب أخذ الأسوة الحسنة منهم والاقتداء بأفعالهم وأقوالهم وكريم شمائلهم رسلَ الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فهم الصفوة من خلق الله، المهتدون بهداية الله، المسارعون إلى فعل الخير والحرص عليه، قال الله تعالى:{إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء: ٩٠].

وقد أمر الله تعالى رسوله الكريم بالاقتداء بهم والسير على نهجهم حيث قال:{أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: ٩٠].

ولكي ندرك خطورة وأهمية القدوة الحسنة في تاريخ الأمة؛ فلنتأمل هذه القصة:

يروي أن أبا جعفر الأنباري صاحب الإمام أحمد عندما أخبر بحمل الإمام أحمد للمأمون في الأيام الأولى للفتنة؛ عبر الفرات إليه فإذا هو جالس في الخان، فسلم عليه، قال: يا هذا أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلق من خلق الله، وإن أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل - يعني المأمون - إن لم يقتلك فأنت تموت، ولابد من الموت فاتق الله ولا تجبهم إلى شيء. فجعل أحمد يبكي ويقول: ما قلت؟ فأعاد عليه فجعل يقول: ما شاء الله، ما شاء الله.

وتمر الأيام عصيبة على الإمام أحمد، ويمتحن فيها أشد الامتحان ولم ينس نصيحة الأنباري، فها هو المروزي أحد أصحابه يدخل عليه أيام المحنة ويقول له: يا أستاذ قال الله تعالى:{وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ} [النساء: ٢٩]. فقال أحمد: يا مروزي اخرج، انظر أيّ شيء ترى!! قال: فخرجت على رحبة دار الخليفة فرأيت خلقًا من الناس لا يحصى عددهم إلا الله والصحف في أيديهم والأقلام والمحابر في أذرعتهم، فقال لهم المروزي: أي شيء تعملون؟ فقالوا: ننظر ما يقول أحمد فنكتبه، قال المروزي: مكانكم. فدخل إلى أحمد بن حنبل فقال له: رأيت قومًا بأيديهم الصحف والأقلام ينتظرون ما تقول فيكتبونه فقال: يا مروزي أضل هؤلاء كلهم!! أقتل نفسي ولا أضل هؤلاء ".

فمن أبرز أسباب أهمية القدوة أنها تساعد على تقويم الفرد المسلم دونما توجيه خارجي وهذا بالتالي يساعد علي خلق أجيال صالحة لقيادة العالم.

أيها المسلمون: أما الأسوة السيئة التي تَبَنّتْها المجتمعات الإسلامية في العصر الحاضر وفي كل مجالات الحياة فهي في الواقع وفي الحقيقة نكسة في الظاهرة الدينية والأخلاقية، يجب أن يترقّع عنها المسلم حفاظًا على دينه وإيمانه، وصونًا لأخلاقه، حتى ولو انتشرت هذه الأسوة السيئة بين الناس، وشملت جميع الطبقات والفئات، حيث أصبح العلماء الذين لا يعملون بعلمهم، ولكن يقصدون به المنصب والجاه والسلطان، وأصبح يمثلها أيضًا الوعّاظ والمرشدون الذين لا يأتمرون بما يأمرون به، والذين يصفون الدواء للأمراض التي هم بها مصابون، فمخبَرهم لا يطابق مظهرهم، فبئست الأسوة والقدوة بهم، قال الله تعالى:{أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾} [البقرة: ٤٤].

والحقيقة أن كل مجتمع مهما بلغ من الفضل والاستقامة لا بد له من طائفة تتمثل فيها المُثُل العليا، تحفظ للمجتمع وجوده المعنوي المتمثل في صلاح عقيدته وحسن أخلاقه وأدب تعامله، على حد قول الله عزَّ وجلَّ: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾} [آل عمران: ١٠٤].

إنهم طائفة تمثل الخيرية في المجتمع، وتحافظ عليها وتحميها.

إن في أرواحها من التوهج، وفي نفوسها من الحيوية ما يجعل هم مجتمعها هو همها الأكبر، فيسعد بها المجتمع، إذ تحفظ عليه توازنه واستقامته، وعناصر استمراره وبقائه.

إنهم فئة من المجتمع مسموعة الصوت، واضحة التأثير، تملأ الفراغ، وتملك من التأثير ما يجعل جادة الحق واضحة، وطريق الصواب بارزة، ومسالك الخير بينة، فتستمر سُنَّة المدافعة بين الحق والباطل.

إنهم{أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ } [هود: ١١٦]، مشاعل وسرج يصلحون ما أفسد الناس، بدين الله قائمون، وعلى الحق حراس، يدعون من ضل إلى الهدى، ويبصرون من العمى، ويصبرون على الأذى، همهم - أثابهم الله وأعظم أجورهم - إقامة دين الله، وإعلاء كلمته، وإعزاز أوليائه.

إنهم صمام الأمان بإذن الله، وسبب نجاة الأمة من الهلاك.

وأخيرًا: فإنني لأرجو أن أكون قد وفقت في عرضي لجانب من الجوانب المشرقة من حياة بعض أعلام الأمة، وذلك تذكيرا بجهادهم وسبقهم وتنويها بمنزلتهم وفضلهم سائلا الله أن يجزيهم عنا خير الجزاء، وأن يمتن علينا بحسن الاتباع والاقتداء.

تشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ::: إن التشبه بالكرام فلاح

وأسأل الله عز وجل أن ينفع بهذا العمل وأن يتقبله مني ويثيبني عليه.
رب تقبل عملي ولا تخيب أملي.
أصلح أموري كلها قبل حلول الأجل.
سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.
وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

الفقير إلي عفو ربه ومغفرته ورضوانه

رجب محمود إبراهيم بخيت

* * *

الحرب في الإسلام

توجد بعض العوامل التي تؤثر في شخصية الإنسان بحيث تؤثر فيه فيمكن تصنيفها من حيث كونها عدوانية أو مسالمة أو تجنح للعنف والحرب أو تميل للموادعة والسلام في غير ضعف ولا وهن قد يجبرها على ذلك، من تلك العوامل الثقافة المجتمعية، وهي جملة المعارف المكتسبة التي يتلقاها الإنسان منذ ولادته حتى لحظة وفاته، هذا التراكم المعرفي الثقافي يظهر على سلوك الإنسان على شكل عادات وتقاليد تؤثر في سلوك الإنسان عبر ما يسمي بالتنشئة الاجتماعية في نطاق الأسرة والمدرسة والبيئة المحيطة بالإنسان، والدين الذي يتدين به الإنسان هو العامل الأساسي والعنصر الرئيسي المكون لشخصية الإنسان ويجعل له إرثًا ثقافيًا ومجتمعيًّا يتحرك الإنسان من خلاله، هذه حقيقة لا مراء فيها، والدليل على ذلك أن هناك مجتمعات توصف بأنها مسالمة أكثر من غيرها وبعضها الآخر أكثر عدوانية، فمثلاً المجتمع الصيني الذي اخترع البارود منذ القرن السابع الميلادي، لكنه اقتصر في استخدامه على الأسهم والألعاب النارية، ولم يستخدمه كسلاح متفجر أبداً، لأن الثقافة الصينية المتأثرة بمبادئ الكونفوشية كانت تمنع اللجوء إلي القتل، وظل الأمر كذلك إلي أن انتقل سر البارود إلي أوروبا عن طريق الرحالة الإيطالي المعروف ماركوبولو حيث تم استخدام البارود كسلاح متفجر في المدافع والبنادق، وفي عصرنا الحالي تم اكتشاف الطاقة النووية بكافة أنواعها وقدراتها الفتاكة وامتلكتها بلدان كثيرة ولم يستخدمها ببشاعة في القتل والفتك إلا الأمريكان واليهود.

أما الإسلام فإننا نجد منظومة ثقافية رائعة تكرس السلام الدولي من خلال مجموعة القيم والمبادئ والمعاني السامية التي تدعوا المسلم

في أحيان وتلزمه في أحيان كثيرة أخرى إلي الميل إلي السلم والسلام وجعله شعاراً للبشرية جمعاء.

فالسَّلام مبدأ من المبادئ التي عمَّق الإسلام جذورها في نفوس المسلمين فأصبحت جزءاً من كيانهم وعقيدة من عقائدهم.

لقد صاح الإسلام منذ مطلع فجره وأشرق نوره صيحته المدوية في آفاق الدنيا يدعو إلي السلام ويضع الخطة الرشيدة التي تبلغ بالإنسانية إليه.

إن الإسلام يحب الحياة ويقدسها ويحبّب الناس فيها، فهو لذلك يحررهم من الخوف، ويرسم الطريقة المثلي لتعيشه الإنسانية متجهة إلى غاياتها في الرقي والتقدم وهي مظللة بظلال الأمن الوارفة.

ولفظ الإسلام - الذي هو عنوان هذا الدين - مأخوذ من مادة السلام؛ لأن السلام والإسلام يلتقيان في توفير الأمن والسكينة.

واسم الإسلام نفسه مشتق من صميم مادة السلام والمؤمنون بهذا الدين لم يجدوا لأنفسهم اسماً أفضل من أن يكونوا مسلمين.

{وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨} [الحج: ٧٨].

ومن الأدلة على أن السلام هو أساس الإسلام أن لفظ الإسلام الذي اختاره الله - تعالى - ليكون الدين المقبول عنده فقال - تعالى:

{إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩} [آل عمران: ١٩].

ولفظ السلام قد تكرر في القرآن أكثر من ثلاثين مرة، وكثرة ذكره فـي هـذه المواضـع فـي مناسـبات متنوعـة وبأسـاليب متعـددة يلفـت الأذهـان إلـي هـذا المبـدأ السـامي الجليـل، ويـوقظ القلـوب والعقـول والمشاعر إلي غرس فضيلة الإخاء الإنساني بين البشر، وإلـي تبـادل المنافع التي أحلها الله تعالى فيما بينهم، ويغري بإشـاعة روح الأمـان والاطمئنان بين الأفراد والجماعات.

وربُّ هذا الدين من أسمائه " السَّلام " لأنه يؤمن الناس بما شرع من مبادئ وبما رسم من خطط ومنـاهج، كمـا فـي قولـه - تعـالى: وقولـه: {ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ} [الحشر: ٢٣].

والإيمـان بـالله هو إخـلاص القلـب وإسـلام الوجـه للخـالق - سبحانه - والانقيـاد لله رب العـالمين، كمـا فـي قولـه - تعـالي -:{فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟} [الحج: ٣٤].

والحقيقة أن الصراع بين الحق والباطل قديم قدم الإنسانية، فمنذ خلق الله تعـالى آدم عليـه السـلام، وقـف الشـيطان موقفـه الجاحـد المعانـد المستكبر، قضى الله عليه بالطرد واللعن. كانت - منذ ذلك الوقت - بدايـة الصـراع... الصـراع بـين الخيـر والشـر، وبـين الحـق والباطـل وبين المعتدي والمعتدي عليه.

وتطور ذلك الصراع بتطور الجنس البشري وازداد ضراوة بازديـاد تمكن الباطل من نفوس الناس واستحواذ الشيطان عليهم.

وكانت أشد أشكال ذلك الصراع هي التي دارت بين أنبياء الله ورسله وبين المعاندين المكذبين من أقوامهم.

وقد جرت سنة الله في خلقه أن ينصر رسله والذين آمنوا معهم ويهلك أعداءهم الذين كذبوا بـه وبرسـله، وهـلاك المعانـدين إمـا بأيـدي رسـل

الله والذين آمنوا معهم وإما بعذاب يرسله الله - تعالى - فلا يبقي ولا يذر، ولا يكون على الأرض إلا مؤمن صادق، فالجهاد إذن ضد الباطل وجنده قديم قدم الباطل نفسه.

وقد عرفت الإنسانية الحرب على مر الدهور وكر العصور، فالحرب ضرورة إنسانية واجتماعية، فكانت سنوات الحرب في تاريخ البشرية أكثر من سنوات السلام، فعلى مدى خمسة آلاف سنة حدثت (١٤٥٥) حرباً تسببت في موت (٢٥) مليار إنسان تقريباً، وعلى مدى (٣٤٠٠) سنة من حياة البشرية لم تنعم البشرية إلا بمائتين وخمسين سنة سلام فقط.

وفي إحصاء آخر فإن البشرية تشهد كل (٢١٣) سنة حرب سنة واحدة سلام، وأنه خلال (١٨٥) جيل لم ينعم بسلم مؤقت إلا عشرة أجيال فقط، فمنذ الحرب العالمية في القرن العشرين، شهد العالم ما يقرب من مائتين وخمسين نزاعاً مسلحاً دولياً وداخلياً بلغ عدد ضحاياها (١٧٠) مليون شخص، أي يحدث كل خمسة شهور تقريباً نزاعاً مسلحاً ينتج عنه خسائر في الأرواح والممتلكات والمعدات وتترك أثارها على البيئة البشرية [١].

هذه الإحصاءات وإن كانت تقريبية فإنها تمثل الحقيقة التي تعيشها البشرية.

وعليه فإن الجهاد والحرب في الإسلام لم يكونا من الأشياء المبتدعة ولا الحدث المخترع.

وحقيقة الأمر فإن الحرب هي وسيلة من وسائل حل المشاكل الاجتماعية، إلي هذا العهد الذي بلغت الإنسانية فيه أشدها، ونالت

(١) د/ سعيد جويلي، المدخل لدراسة القانون الدولي الإنساني، القاهرة، ٢٠٠٣م، المقدمة ص١.

العقول رشدها، فإلي أي مآل كانت تؤول حالة الجماعة الإسلامية التي دعيت إلي نشر الدين العالمي في عهد كان الحق لا يمكن الاحتفاظ به إلا بالقوة والحكمة لا يستطيع الإدلاء بها إلا إذا حاطتها القوة، بل والحياة لا يتأتى أن تبقي إلا إذا نافحت عنها القوة.

والأمم الغربية بعد أن نالت ما نالته من ثقافة علمية عالية وألمعية فلسفية سامية، ومدنية مادية راقية لا تزال تعمد في العصر الحديث لحل مشاكلها المختلفة إلي الحرب، فلماذا إذن تحرم هذه الأمم الغربية على الأمم الإسلامية - التي تألفت منذ أربعة عشر قرنا - الحرب، وقد أنيط بها إحداث تطور عالمي من الناحيتين المدنية والاجتماعية، وهما أدعى إلي إثارة النفوس من جميع الخلافات البشرية؟

والذي لا خلاف عليه أن الحق لا بد له من قوة تحرسه وتصونه، وإلا ضاع تحت جبروت الباطل، والعامة تقول: المال السايب يعلم السرقة وكذلك قيل: من لم يتذأب أكلته الذئاب.

فالمسلم وهو في داره وعقاره، وسكنه ووطنه، وزرعه وضرعه، وكل ما يحوزه ويملكه - يجب أن يكون محروسا بعدته وعتاده، مستظلا بسلاحه ورماحه، ومن هنا قال الله في القرآن الكريم:{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ } [الأنفال: ٦٠].

وليست الحرب في الإسلام غاية مقصودة لذاتها، ولكنها خطة يدفع إليها بغي الباغين وظلم الظالمين، ولذلك قال الله تعالى في التنزيل المجيد:{ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠} [البقرة: ١٩٠]، وقال أيضا:{فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ} [البقرة: ١٩٤].

وصيانة الحق والرزق تستلزم أن يكون أبناء الإسلام دائما على إعداد واستعداد، وأن تكون طائفة منهم على الدوام في حالة رباط، أو على أرض الميدان، حتى يظل الجهاد فريضة قائمة باقية، وصلوات الله وسلامه على رسوله حين مجد شأن المؤمن المجاهد الموصول النضال، فقال: **﴿خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار إليها﴾** (١).

ومن الأهداف السامية للجهاد في سبيل الله: حرية العقيدة - ضمان إقامة الشعائر والعبادات - رفع الفساد عن الأرض - الابتلاء والتربية والإصلاح - رد كيد المعتدين - كشف المنافقين والخائنين - إقامة الحق والعدل في الأرض - نصرة المستضعفين في الأرض - تأمين طريق الدعوة وهداية العالم، الاستعداد لرد كيد المعتدين.

وقد اختلف الإسلام عن غيره من الأديان بأنه ليس دينا فقط يتعبد به بل هو دين وشريعة - قانون - وهذه الشريعة كاملة تتضمن جميع أوجه الحياة المختلفة وجميع الأزمنة حيث تمتاز بتطورها وصلاحيتها لكل زمان ومكان، والشريعة الإسلامية هي الوحيدة التي رفعت المبادئ الأخلاقية إلي مستوى القواعد القانونية الشرعية وجعلتها إلزامية في مجال التعامل بين المسلمين وبينهم وبين البشر عامة في حالات السلم والحرب، هذه الأخلاق الحميدة أصبحت قانوناً التزم به الخلفاء والولاة والقادة قبل الجنود في حربهم وسلمهم، وهناك من الدلائل التي تؤكد على أن الفارق كبير بين الأخلاق والقوانين الوضعية، حيث إن الأخلاق لها من الضوابط والمميزات ما يجعلها جديرة بالالتزام والاحترام من أي قانون وضعي.

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٩٣/٧، رقم ٩٥٩٦).

ومن الحقائق التي لا يمكن إنكارها أن قاعدة الإسلام الأساسية هي السلام، والحرب هي الاستثناء، فلا مسوّغ لهذه الحرب - في نظر الإسلام - مهما كانت الظروف إلا في حالات محدَّدة.

وإذا كان الإسلام قد أتاح الحرب ولكنه حاطها بالملطفات بما لم تبلغ إليه مدينة القرن العشرين، ولا إلي ما يقرب منه، وخلصها مما كانت تنشره الكتب التي يعتبرها الأوروبيون مقدسة، فقد جاء في الكتاب الخامس من الزبور قوله: " إذا أدخلك ربك في أرض لتملكها، وقد أباد أمما كثيرة من قبلك، فقاتلهم حتى تفنيهم عن أخرهم، ولا تعطهم عهداً، ولا تأخذك عليهم شفقة أبداً " (١).

وقد خاض الأوربيون باسم الدين حروباً كانت شر الحروب التي شبت بين البشر عامة، في قسوتها وتناسى كل الحقوق الإنسانية فيها، فحينما شرع الإسلام الحرب فلم يشهد التاريخ أيمن منها وأقل إراقة للدماء وذهاباً بالنفس ولا أعود منها على الإنسانية بالصلح العام والخير المشترك والسعادة جمعاء، فلا يربو عدد المقتولين من الفريقين (المسلم والكافر) في جميع الغزوات والسرايا والمناوشات التي ابتدأت من السنة الثانية للهجرة، ودامت إلي السنة التاسعة على ألف وثمانية عشر نفساً ١٠١٨، المسلمون منهم ٢٥٩، والكفار ٧٨٩؛ أما المصابون في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ م فيبلغ عددهم على الأصح واحد وعشرين مليون نسمه، ٢١.٠٠٠.٠٠٠؛ عدد المقتولين منهم سبعة ملايين ٧.٠٠٠.٠٠٠، وقدر الغربيون أن المصابين في الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩م لا يقل عددهم عن خمسين مليونا ٥٠.٠٠٠.٠٠٠، وقد كلف قتل رجل واحد في الحرب العالمية الأولي عشرة آلاف جنيه، أما مجموع نفقاتها فيبلغ ٣٧.٠٠٠.٠٠٠ جنيه، وأما نفقات الحرب العالمية

(١) محمد فريد وجدى، من معالم الإسلام، ط الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٠، ص ١٠٣ - ١٠٤.

الثانية لساعة واحدة فمليون من الجنيهات، وكانت البشرية أحوج إلى القليل منها.

ثم كانت الحروب الدينية الإسلامية حاقنة للدماء عاصمة للنفوس والأموال، وفاتحة عهد السعادة والغبطة في العالم، أما حرب التنافس والحمية الجاهلية التي تدعى الحرب الكبرى، فقد كانت مقدمة لحروب متسلسلة، وإليك ما قال المستر (لويد جورج) بطل الحرب العالمية ورئيس الوزارة الإنجليزية حينئذ:

" لو رجع سيدنا المسيح إلي العالم لما عاش إلا قليلاً، إنه سيري الإنسان لا يزال بعد مضي ألفي سنة مشغولاً بالشر والإفساد والقتل والفتك ببني نوعه، والنهب والإغارة، بل إن أكبر حرب في التاريخ قد استنفذت دم جسم الإنسانية وأهلكت الحرث والنسل حتى أصابت الناس مجاعة، وماذا يري المسيح يا تري؟ هل يري الناس يتصافحون كالإخوان والأصدقاء؟ لا. بل يراهم يتهيئون لحرب أشد هولاً من الأولي، وأعظم فتكاً وتعذيباً. يراهم يتسابقون في اختراع الآلات الجهنمية ويبتدعون وسائل التعذيب [١].

فالإسلام إذاً لم ينفرد بين الأديان السابقة والفلسفات المعاصرة بأنه دين يقر الحرب ولكنه انفرد كعادته بتلطيف هذه المجازر الإنسانية إلي آخر حد يمكن الوصول إليه، بدون الإخلال بسلامة الحوزة، فوضع للحرب حدوداً وشرط على الغزاة شروطاً، كلها ترقى إلى احترام الدماء البشرية والعمل بأرقي ضروب العطف على الإنسانية، ولم يهمل مع هذا أن يشير على ذويه بأنه إن جاء وقت

ترى فيه الإنسانية أن الحرب أصبحت أداة وحشية، وأن التفاهم فيه

(١) الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ط دار التراث ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٧م، ص ٢٢٩.

العطف خير بدلاً منها، فإنهم عليهم أن يتابعوا الإنسانية في ترقيتها ويدخلوا فيما يدخل فيه الناس من اعتبار الحرب وحشية، والجري على ما يجري عليه الناس من حلول الخلافات بالطرق السلمية [1].

* * *

(١) محمد فريد وجدي، من معالم الإسلام، ص ١٠٤.

الأحنف بن قيس

أعـــلام القــادة

القائد الأحنف بن قيس

هو أبو بحر، الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين بن حفص بن عبادة التميمي، واسمه الضحاك وقيل: صخر.

كان من سادات التابعين وأكابرهم، وسيدا مطاعا في قومه، وسيد أهل البصرة، وكان موضع ثقة الناس جميعا بمختلف طبقاتهم وأهوائهم وميولهم، وكان أحد الحكماء الدهاة العقلاء، ذا دين وذكاء وفصاحة، وكان سيد قومه موصوفا بالعقل والدهاء والعلم والحلم، يضرب بحلمه المثل، وقد قال فيه الشاعر:

إذا الأبصار أبصرت ابن قيس ::: ظللن مهابة منه خشوعا

وقال عنه خالد بن صفوان: كان الأحنف يفر من الشرف والشرف يتبعه.

وكان الأحنف حليما يضرب بحلمه المثل، سئل عن الحلم: ما هو؟ فقال: الذل مع الصبر.

وكان يقول - إذ عجب الناس من حلمه - إني لأجد ما تجدون، ولكني صبور، ما تعلمت الحلم إلا من قيس بن عاصم المنقري؛ لأنه قتل ابن أخ له بعض بنيه، فأتى القاتل مكتوفا يقاد إليه، فقال: ذعرتم الفتى، ثم أقبل على الفتى فقال: بئس ما فعلت، نقصت عددك وأوهنت عضدك، وأشمت عدوك، وأسأت لقومك، خلوا سبيله واحملوا إلى أم المقتول ديته فإنها غريبة، ثم انصرف القاتل وما حل قيس حبوته ولا تغير وجهه[١].

كما كان الأحنف عاقلا راجح العقل، قال مرة: من كان فيه أربع خصال ساد قومه غير مدافع: من كان له دين يحجزه، وحسب

(١) وفيات الأعيان، ٢/١٨٨.

يصونه، وعقل يرشده، وحياء يمنعه[١].

كما كان عالما ثقة مأمونا، قليل الحديث، وقد روى عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وأبي ذر الغفاري، وروى عنه الحسن البصري وعروة بن الزبير وغيرهما، وقد كان من الفقهاء البارزين أيام معاوية[٢].

كما كان حكيما ينطق بالحكمة والموعظة الحسنة، سئل عن المروءة، فقال: التقى والاحتمال، ثم أطرق ساعة وقال:

وإذا جميل الوجه لم ::: يأتِ الجميل فما جماله؟
ما خير أخلاق الفتى ::: إلا تقاه واحتماله

وسئل عن المروءة فقال: العفة في الدين، والصبر على النوائب، وبر الوالدين، والحلم عند الغضب، والعفو عند المقدرة.

وكان فصيحا مفوَّها، خطب مرة فقال: بعد حمد الله والثناء عليه: يا معشر الأزد وربيعة: أنتم إخواننا في الدين، وشركاؤنا في الصهر، وأشقاؤنا في النسب، وجيراننا في الدار، ويدنا على العدو، والله لأزد البصرة أحب إلينا من تميم الكوفة، ولأزد الكوفة أحب إلينا من تميم الشام، فإن استشرف شنئان حسد صدوركم، ففي أحلامنا وأموالنا سعة لنا ولكم.

لقد كان حاضر البديهة قوي الحجة منطقيا، جاء الأحنف إلى قوم يتكلمون في دم فقال: احكموا، فقالوا: نحكم بديتين، فقال: ذلك لكم، فلما سكتوا قال: أنا أعطيكم ما سألتم، غير أني قائل لكم شيئا: إن الله - عز وجل - قضى بدية واحدة، وإن النبي ﷺ قضى بدية واحدة،

(١) محمود خطاب، قادة فتح السند وأفغانستان، ص٣١٣، الصلابي، سيرة عثمان بن عفان رضي الله عنه، ١ /٢٢٦.
(٢) محمود خطاب، قادة فتح السند وأفغانستان، ص٣١٥.

وأنتم اليوم طالبون، وأخشى أن تكونوا غدا مطلوبين، فلا يرضى الناس منكم إلا بمثل ما سننتم لأنفسكم، فقالوا: نردها دية واحدة[١].

وكان يحب لغيره ما يحبه لنفسه، بل كان يؤثر غيره على نفسه بالخير والمعروف، ويرضى نفسه الرضية المطمئنة إلى ما أصاب غيره بجهده من خير، فعندما جاء الأحنف إلى عمر في المدينة، عرض أمير المؤمنين عليه جائزة، فقال: يا أمير المؤمنين، والله ما قطعنا الفلوات ودأبنا الروحات والعشيات للجوائز، وما حاجتي إلا حاجة من خلفي، فزاده ذلك عند عمر خيرا.

وكان الأحنف أمينا غاية الأمانة، فعندما استعمل ابن عمه على أهل بلخ، وقد قبض ابن عمه ما صالحوه عليه من آنية الذهب والفضة ودنانير ودراهم ومتاع وثياب، فقال ابن عمه لهم: هذا ما صالحناكم عليه؟ فقالوا: لا، ولكن هذا شيء نضعه في هذا اليوم بمن ولينا نستعطف به، قال: وما هذا اليوم؟ فقالوا: المهرجان [٢]. فقال: ما أدري ما هذا، وإني لأكره أن أرده ولعله من حقي، ولكن أقبضه وأعزله حتى أنظر، فقبضه، وقدم الأحنف فأخبره، فسألهم عنه، فقالوا مثل ما قالوا لابن عمه، فقال: آتي به الأمير، فحمله إلى عبد الله بن عامر فأخبره عنه، فقال: اقبضه يا أبا بحر فهو لك، فقال الأحنف: لا حاجة لي فيه. لقد كان يتحرج حتى من الهدايا، وكان يكتفي بسهمه من الغنائم[٣].

وكان الأحنف شديد الأناة، لا يقدم على عمل إلا بعد أن يحسب له ألف

---

(١) محمود خطاب، قادة فتح السند وأفغانستان، ص٣١٨، الصلابي، سيرة عثمان بن عفان ☺، ١/ ٢٢٦.

(٢) المهرجان: أحد أعياد الفرس.

(٣) محمود خطاب، قادة فتح السند وأفغانستان، ص٣٢١.

حساب. قيل له: يا أبا بحر، إن فيك أناة شديدة، فقال: قد عرفت من نفسي عجلة في أمور ثلاثة: في صلاتي إذا حضرت حتى أصليها، وجنازتي إذا حضرت حتى أغيبها في حفرتها، وابنتي إذا خطبها كفيئها حتى أزوجه[1].

كما كان الأحنف مؤمنا ورعا قوي الإيمان، فقد سارع إلى اعتناق الإسلام أول ما بلغته الدعوة الإسلامية، وأسلم قومه بإشارته، وبسط حمايته القوية الأمينة على الدعاة الأولين، وثبت على عقيدته عندما ارتد أكثر قومه وأكثر العرب بعد وفاة النبي ، وجاهد للدفاع عنها ونشرها حق الجهاد، وأبلى في ذلك أعظم البلاء. قال الحسن البصري عنه: ما رأيت شريف قوم أفضل منه. قال الأحنف: حبسني عمر بن الخطاب عنده بالمدينة سنة، يأتيني كل يوم وليلة فلا يأتيه عني إلا ما يحب. فكتب عمر بعد نجاح الأحنف في الاختبار العمري - وما أصعبه وأدقه من اختبار - معه كتبًا إلى الأمير على البصرة يقول: الأحنف سيد أهل البصرة. وكتب إلى موسى الأشعري أن يشاور الأحنف ويسمع منه، وقال له عمر بعد أن حبسه حولا عنده: يا أحنف، قد بلوتك وخبرتك، فلم أر إلا خيرا، ورأيت علانيتك حسنة، وأنا أرجو أن تكون سريرتك مثل علانيتك.

لقد كان الأحنف رجلا صالحا كثير الصلاة بالليل، وكان يسرج المصباح ويصلي ويبكي حتى الصباح، وكان يضع أصبعه في المصباح ويقول لنفسه: إذا لم تصبر على المصباح، فكيف تصبر على النار الكبرى. وقيل له: إنك تكثر الصوم وإن ذلك يرق المعدة، فقال: إني أعده لسفر طويل. واستعمل الأحنف على (خراسان) فلما أتى فارس أصابته جنابة في ليلة باردة، فلم يوقظ أحدا من غلمانه ولا

(١) طبقات ابن سعد، ٩٦/٧.

جنده، وانطلق يطلب الماء، فأتى على شوك وشجر حتى سالت قدماه دمًا، فوجد الثلج فكسره واغتسل.

وكان قلما خلا إلا دعا بالمصحف، وكان النظر في المصاحف خلقا في الأولين.

وكان يقول في دعائه: اللهم إن تغفر لي فأنت أهل ذاك، وإن تعذبني فأنا أهل ذاك.

ومن دعائه: اللهم هب لي يقينا تهون به عليَّ مصيبات الدنيا.

ومرت به جنازة فقال: رحم الله من أجهد نفسه لمثل هذا اليوم.

وكان يقول: عجبت لمن يجري في مجرى البول مرتين كيف يتكبر.

هذه بعض صفات شخصية الأحنف، استحوذ بها على ثقة الناس به وحبهم وتقديرهم له، وهذه الصفات تجعل من يتحلى بها شخصية قوية نافذة يندر وجودها بين الناس في كل زمان ومكان، وقلما يجود بها الدهر إلا نادرا[(١)].

لقد كان الأحنف من قادة الفتوحات في عهد عثمان ﷺ، وقد تميز في قيادته لجيوش الفتح لبلاد المشرق بقدرته على إعداد الخطط الصحيحة الناجحة، وإعطاء القرارات السريعة الصائبة، كما كان لشجاعته الشخصية وإقدامه أثر كبير في وضع تلك الخطط والقرارات في حيز التنفيذ، لقد كان يبذل قصارى جهده في إعداد خططه العسكرية وإعطاء ذوي الرأي، بل يتجول سرًّا في الليل بين عامة رجاله يتسمع أحاديثهم، فإذا وجد رأيا سديدا يبدونه فيما بينهم سارع إلى العمل به، لا يهمه أن يأخذ الحكمة من أي وعاء، وقد كان هذا القائد الميداني في عهد عثمان يقاتل عدوه بسيفه وعقله معًا؛ فقد

(١) قادة فتح السند وأفغانستان، ص٣٢٥، سيرة عثمان بن عفان رضي الله عنه، ١ /٢٣٠.

كان على جانب عظيم من الشجاعة والإقدام، حتى أنه كان يستأثر بالخطر دون رجاله، ويؤثرهم بالراحة والأمن، كما كان على جانب عظيم من الدهاء، فيوفر بدهائه على قواته كثيرًا من الجهود والمشقات.

لقد كان الأحنف رجلا في أمة، وأمة في رجل، إنه سيد أهل المشرق المسمى بغير اسمه، كما كان يقول عنه عمر بن الخطاب [(١)].

ومما يؤثر أن الأحنف بن قيس غير مجرى التاريخ، بعد أن أثنى عمر ابن الخطاب عن رأيه بعدم الانسياح في الأرض ونشر الإسلام في ربوع المعمورة، فقد كان عمر متمسكاً برأيه في الاقتصار على ما فتح من فارس ومنع جيوشه من التوغل في المشرق ولا سيما بعد أن انكسر الهرمزان وفتح المسلمون الأهواز.

فقال عمر: حسبنا لأهل البصرة سوادهم والأهواز، وددت أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم،وقال لأهل الكوفة: وددت أن بينهم وبين الجبل جبلاً من نار لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم.

وفاوض عمر الوفد في هذا الأمر فقال له الأحنف: يا أمير المؤمنين

(١) طبقات ابن سعد ٧ / ٩٣، طبقات خليفة ت ١٥٥٥، تاريخ البخاري ٢ / ٥٠، المعارف ٤٢٣، الجرح والتعديل القسم الأول من المجلد الثاني ٣٢٢، أخبار أصبهان ١ / ٢٢٤، الاستيعاب ت ١٦٠، تاريخ ابن عساكر ٨ / ٢١٠ ب، أسد الغابة ١ / ٥٥، وفيات الأعيان ٢ / ٤٩٩، تهذيب الكمال ص ٧٢، تاريخ الإسلام ٣ / ١٢٩، العبر ١ / ٨٠، البداية والنهاية ٨ / ٣٢٦، الإصابة ت ٤٢٩، تهذيب التهذيب ١ / ١٩١، النجوم الزاهرة ١ / ١٨٤، خلاصة تذهيب الكمال ٤٤، شذرات الذهب ١ / ٧٨، تهذيب ابن عساكر ٧ / ١٠، الأعلام للزركلي،١ /٢٧٧، سيرة عثمان بن عفان رضي الله عنه، ١ /٢٣٢.

أخبرك إنك نهيتنا عن الإنسياح في البلاد وأمرتنا بالاقتصار على ما في أيدينا وإن ملك فارس حيٌّ بين أظهرهم وإنهم لا يزالون يساحلوننا مادام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتفقا - أي التقيا - حتى يخرج أحدهما صاحبه - وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئاً إلا بانبعاثهم وإن ملكهم هو الذي يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسح في بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته وغرامته، فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس ويُضربون جأشاً.

فقال عمر للأحنف: صدقتني والله وشرحت لي الأمر على حقه.

وأذن عمر بالانسياح في بلاد فارس وانتهى في ذلك إلى رأي الأحنف،وعرف فضله وصدقه فساحوا في تلك البلاد ودفع لواء خراسان إلى الأحنف، ووزع بقية الألوية إلى الأبطال من قادة المجاهدين، ورسم لهم خطة الحرب والتقدم، ثم جعل يمدهم بالجيوش من ورائهم[١].

مواقف من حياته:

عـلام تلومونني:

وخطب معاوية يوماً فقال: أيها الناس إن الله تعالى قال:{ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾} [الحجر: ٢١]، فعلام تلومونني إذا قصرت عنكم في عطاياكم؟ فقال له الأحنف بن قيس: إنا والله ما نلومك فيما في خزائن الله، ولكن وضعت يدك على ما أنزل الله من خزائنه فجعلته في خزائنك وحلت بيننا وبينه[٢].

عزلك وأعادك إلى الولاية:

(١) محب الدين الخطيب، مع الرعيل الأول، ص١٤٦.
(٢) الإتليدي، إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص١١.

ذكر ابن خلكان في ترجمته: ثم إن عبيد الله - يعني ابن زياد أمير العراق - جمع أعيان العراق وفيهم الأحنف وتوجه بهم إلى الشام للسلام على معاوية، فلما وصلوا دخل عبيد الله على معاوية وأعلمه بوصول رؤساء العراق، فقال: أدخلهم عليَّ أوَّ لاً فأوَّل على قدر مراتبهم عندك، فخرج إليهم وأدخلهم على الترتيب كما قال معاوية، وآخر من دخل الأحنف، فلما رآه معاوية - وكان يعرف منزلته ويبالغ في إكرامه لتقدمه وسيادته - قال: إليَّ يا أبا بحر، فتقدم إليه فأجلسه معه على مرتبته، وأقبل عليه يسأله عن حاله ويحادثه، وأعرض عن بقية الجماعة. قال: ثم إن أهل العراق أخذوا في الشكر في عبيد الله والثناء عليه، والأحنف ساكت، فقال له معاوية: لم لا تتكلم يا أبا بحر؟ فقال: إن تكلمت خالفتهم، فقال له معاوية: اشهدوا على أنني قد عزلت عبيد الله عنكم، قوموا انظروا في أمير أوليه عليكم وترجعون إليَّ بعد ثلاثة أيام. قال: فلما خرجوا من عنده كان فيهم جماعة يطلبون الإمارة لأنفسهم، وفيهم من عيَّن غيره، وسعوا في السَّر مع خواص معاوية أن يفعل لهم ذلك، ثم اجتمعوا بعد انقضاء الثلاثة كما قال معاوية، والأحنف معهم، ودخلوا عليه فأجلسهم على ترتيبهم في المجلس الأول، وأخذ الأحنف إليه كما فعل أوّلا وحادثه ساعة، ثم قال: ما فعلتم فيما انفصلتم عليه؟ فجعل كل واحد يذكر شخصاً وطال حديثهم في ذلك وأفضى إلى منازعة وجدال، والأحنف ساكت، ولم يكن في الأيام الثلاثة تحدث مع أحد في شيء، فقال له معاوية: لم لا تتكلم يا أبا بحر؟ فقال الأحنف: إن ولَّيت أحداً من أهل بيتك لم تجد من يعدل عبيد الله ولا يسد مسدَّه، وإن وليت من غيرهم فذلك إلى رأيك، ولم يكن في الحاضرين الذين بالغوا في المجالس الأول في الثناء على عبيد الله، من ذكره في هذا المجلس ولا سأل عوده إليهم. قال: فلما

سمع معاوية مقالة الأحنف قال للجماعة: اشهدوا علي أني قد أعدت عبيد الله إلى ولايته، فكل منهم ندم على عدم تعيينه، وعلم معاوية أن شكرهم لعبيد الله لم يكن لرغبتهم فيه، بل كما جرت العادة في حق المتولي. قال: فلما فصل الجماعة من مجلس معاوية خلا بعبيد الله وقال له: كيف ضيعت مثل هذا الرجل - يعني الأحنف - فإنه عزلك وأعادك إلى الولاية وهو ساكت، وهؤلاء الذين قدمتهم عليه واعتمدت عليهم لم ينفعوك ولا عرجوا عليك لما فوضت الأمر إليهم، فمثل الأحنف من يتخذه الإنسان عوناً وذخراً قال: فلما عادوا إلى العراق أقبل عليه عبيد الله وجعله بطانته وصاحب سره [١]

من هذا الذي يتهدد ويتوعد؟

وعندما استقر الأمر لمعاوية دخل عليه يوما، فقال له معاوية: والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين إلا كانت حزازة في قلبي إلى يوم القامة؟ فقال له الاحنف: والله يا معاوية إن القلوب التي ابغضناك بها لفي صدورنا، وإن السيوف التي قاتلناك بها لفي أغمادها، وإن تدن من الحرب فتراً ندن منه شبراً، وإن تمشى إليها نهرول إليها، ثم قام وخرج وكانت أخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه فقالت: يا أمير المؤمنين من هذا الذي يتهدد ويتوعد؟ قال هذا الذي إذا غضب غضب لغضبه مائة ألف من تميم لا يدرون فيم غضب[٢].

أنا والله قطعتها:

جاء رجل إلى الأحنف بن قيس فلطم وجهه فقال: بسم الله يا بن أخي ما دعاك إلى هذا؟ قال: آليت أن ألطم سيد العرب من بني تميم. قال: فبرّ يمينك فما أنا بسيدها، سيدها حارثة بن قدامة! فذهب الرجل

(١) ابن خلكان، وفيات الاعيان،١٨٦/٢.
(٢) المصدر السابق.

فلطم حارثة فقام إليه حارثة بالسيف فقطع يمينه. فبلغ ذلك الأحنف فقال: أنا والله قطعتها [(١)].

فإني أكره أن تقتلن في داري:

وقال أبو عبد الله الكواز: حدثتني حبيبة مولاة الأحنف أنها رأت الأحنف بن قيس رحمه الله ورآها تقتل قملة فقال: لا تقتليها، ثم دعا بكرسي، فجلس عليه، فحمد الله وأثنى عليه فقال: إني أحرج عليكن إلا خرجتن من داري، فإني أكره أن تقتلن في داري. قال: فخرجن فما رئي منهن بعد ذلك اليوم واحدة[(٢)].

ما حملك علي ما صنعت!؟

وكان الأحنف بن قيس يقدم إصبعه إلى المصباح فإذا وجد حرارة النار قال لنفسه: ما حملك علي ما صنعت يوم كذا [(٣)].

أتقدر أن تمشي على شُرُفِ المسجد!

عن الأصمعي أن الأحنف بن قيس كان يُجالسه رجلٌ يُطيل الصَّمت حتى أُعجِبَ به الأحنف ثم إنه تكلم فقال: يا أبا بحر أتقدر أن تمشي على شُرُفِ المسجد قال: فتمثّل الأحنف:

وكائِنْ ترى مِنْ صامتٍ لك مُعجِبٌ ::: زيادتُه أو نقصُهُ في التَّكَلّمِ[(٤)]

ما يمنعه من الرد عليَّ:

عن عبد الله بن بكر المزني قال جاء رجل إلى الأحنف بن قيس فشتمه، فسكت عنه، فأعاد عليه ولح والأحنف ساكت فقال الرجل

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ٢٢١/١.
(٢) ابن مفلح، الآداب الشرعية، ٣٣/٤.
(٣) الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، التبصرة، ٢٦٩/١.
(٤) أبو بكر أحمد بن مروان بن محمد الدينوري القاضي المالكي، المجالسة وجواهر العلم، دار ابن حزم - لبنان/ بيروت - ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ١١٤/١.

وا لهفاه ما يمنعه من الرد عليَّ إلا هواني عليه[١].

فالحق يسعهم ويخرجهم:

قال المدائني: أتى الأحنف بن قيس مصعب بن الزبير فكلمه في قوم حبسهم فقال: أصلح الله الأمير إن كان حبسوا في باطل فالحق يسعهم ويخرجهم وإن كانوا حبسوا بحق فالعفو يسعهم[٢].

أولادنا ثمار قلوبنا:

عن أبي عبيدة قال دخل الأحنف بن قيس على معاوية ويزيد بين يديه وهو ينظر إليه إعجابا به، فقال: يا أبا بحر ما تقول في الولد، فعلم ما أراد، فقال: يا أمير المؤمنين، هم عماد ظهورنا، وثمر قلوبنا، وقرة أعيننا بهم نصول على أعدائنا، وهم الخلف منا لمن بعدنا، فكن لهم أرضا ذليله وسماء ظليله إن سألوك فأعطهم وإن استعتبوك فأعتبهم لا تمنعهم رفدك فيملوا قربك ويكرهوا حياتك، ويستبطؤوا وفاتك، فقال: لله درك يا أبا بحر هم كما وصفت[٣].

احذر الجواب:

سمع الأحنف بن قيس رجلا ينازع رجلا في أمر، فقال: إني ما أظنك إلا ضعيفا فيما تحاول، فقال الرجل: ما على ظنك خرجت من عند أهلي فقال الأحنف: لأمر ما قيل احذر الجواب[٤].

(١) الدينوري، المجالسة وجواهر العلم، ١٧٣/١.
(٢) المصدر السابق، ١٧٨/١.
(٣) أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، الأمالي في لغة العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م، ٤٣/٢ - ٤٤.
(٤) الدينوري، المجالسة وجواهر العلم، ٤٥٦/١.

كيف يحسدونك على الصلب:

عن الأصمعي قال كان رجل من بني يشكر كان له إحسان وأياد جميلة، وكان له بنو أعمام يحسدونه، فقال يوما: إن لي بني أعمام يحسدونني على كل شيء حتى على الصلب، قال: فقالوا: وكيف يحسدونك على الصلب؟ قال: إذا أخذت مجلسي من المسجد الجامع فاحضروا حتى تروا قال: وكان مجلس له في المسجد يجلس فيه، فجلس وبنو عمه حوله فالتفت إليه بعضهم، فقالوا: ما لنا نراك مغموماً فقال: قد ورد كتاب معاوية على زياد أن أؤخذ فأصلب مع الأحنف بن قيس، فالتفت إليه بعض بني أعمامه فقالوا: بلغ من قدرك أن تصلب مع الأحنف بن قيس، فالتفت إلى من حوله، فقال: اسمعوا (١).

ما من عمل شيء أرجى لي منه:

وعن الحسن أن الأحنف بن قيس قال: بينما أنا أطوف بالبيت في زمن عثمان بن عفان إذ أخذ رجل من بني لبت بيدي فقال: ألا أبشرك؟ قلت: بلى. فقال: هل تذكر إذ بعثني رسول الله إلى قومك بني سعد، فجعلت أعرض عليهم الإسلام وأدعوهم إليه؟ فقلت: أنت إنه يدعو إلى الخير ويأمر به إنه ليدعو إلى الخير ويأمر بالخير، فبلغت ذلك إلى النبي فقال:اللهم اغفر للأحنف بن قيس》 فكان الأحنف يقول ما من عمل شيء أرجى لي منه (٢).

(١) المصدر السابق، ٦٠٨/١.

(٢) محمد بن محمد بن علي بن همام بن راجي الله بن سرايا بن داود، سلاح المؤمن في الدعاء والذكر،، تحقيق محيي الدين ديب مستو، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م، ٢١٩/١.

لعلك من العارضين:

دعا رجل الأحنف بن قيس في سفر إلى طعامه فقال له الأحنف: لعلك من العارضين، قال: وما العارضون؟ قال: الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فسكت الرجل فلم يجبه الأحنف إلى الطعام(١)

ممن تعلمت الحلم؟

حكي أن الأحنف بن قيس قيل له: ممن تعلمت الحلم؟ فقال: " من قيس بن عاصم، قيل له: " وما بلغ حلمه؟ " قال: " بينما هو جالس في داره إذ أتته جارية له بسفود عليه شواء فسقط من يدها " فوقع على ابن له صغير فمات، فدهشت الجارية، فقال لها: " لا روع عليك، أنت حرة لوجه الله تعالى " (٢).

من خليلك؟

وعن الأحنف بن قيس قال: جلستُ إلى ملأ من قريش، فجاء رجلٌ خَشِنُ الشعر والثياب والهيئة، حتى قام عليهم فسلَّم، ثم قال: " بشِّر الكانزين برضف (٣) يُحمى عليه في نار جهنم، ثم يوضع على حَلَمة ثَدي أحدهم حتى يخرج من نُغضِ (٤) كتفِهِ، ويوضع على نُغض كتفه حتى يخرج من حَلَمة ثديه يتزلزل ".

ثم ولَّى فجلس إلى سارية، وتَبِعْتُه، وجلستُ إليه، وأنا لا أدري من هو؟ فقلت: لا أرى القومَ إلا قد كرهوا الذي قلت. قال: إنهم لا يعقلون

(١) محمد بن علي بن عطية الحارثي المشهور بأبي طالب المكي، قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، تحقيق: د.عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة: الثانية ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م، ٣١٠/٢.
(٢) محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، ص ١٨٣.
(٣) الرَّضف: بفتح الراء وسكون الضاد المعجمة: هو الحجارة المحماة.
(٤) النغض: بضم النون وسكون الغين المعجمة بعدها ضاد معجمة، وهو غضون الكتف.

شيئاً، قال لي خليلي.. قلت: من خليلك؟ قال: النبي : " يا أبا ذر! أتبصر أحداً؟ ".

قال: فنظرت إلى الشمس ما بقي من النهار؟ وأنا أرى رسول الله يرسلني في حاجة له - قلت: نعم. قال: " ما أُحِبُ أن لي مثل أحدٍ ذهباً أنفقه كلّه إلا ثلاثة دنانير ".

وإن هؤلاء لا يعقلون، إنما يجمعون الدنيا، لا والله لا أسألهم دُنيا ولا أستفتيهم عن دينٍ، حتى ألقى الله عز وجل (١).

وفي رواية لمسلم أنه قال:

" بشر الكانزين بكيٍّ في ظهورهم يخرج من جنوبهم، وبكيٍّ من قبل أقفائهم يخرج من جباههم ".

قال: ثم تَنحَّى فقعد. قال: قلتُ: من هذا؟ قالوا: أبو ذر.

قال: فقمت إليه فقلت: ما شيءٌ سمعتُك تقول قُبيلُ؟

قال: ما قلت إلا شيئاً قد سمعته من نبيهم قال: قلت: ما تقول في هذا العطاء؟

قال: خُذه، فإن فيه اليوم معونةً، فإذا كان ثمناً لدينك فَدَعه (٢).

يغلبن الكرام ويغلبهنّ اللئام:

كان الأحنف بن قيس يوماً جالساً مع معاوية، إذ مرّت بهما وصيفة فدخلت بيتاً من البيوت، فقال معاوية: يا أبا بحر، أنا والله أحبّ هذه الجّارية وقد أمكنتني منها لولا الحياء من مكانك. فقال الأحنف: فأنا أقوم. بل تجلس لئلّا تستريب بنا فاطمة. فقال الأحنف: شأنك. فقام

(١) رواه البخاري في كتاب الزكاة برقم (١٤٠٧ و ١٤٠٨)، ومسلم في كتاب الزكاة برقم (٩٩٢).

(٢) ماجد إسلام البنكاني أبي أنس العراقي، تحذير الأنام بما في الأقوال والأفعال من الآثام، ص ٨٥.

معاوية إليها. فبينا هو يماجنها إذ خرجت بنت قريظة فقالت للأحنف: يا قوّاد، أين الفاسق. فأومأ الأحنف إلى البيت الذي هو فيه، فأخرجته ولحيته في يدها، فقال لها الأحنف: ارفقي بأسيرك، رحمك الله. فقالت: يا قوّاد، وتتكلّم أيضاً؟ فقال معاوية: يغلبن الكرام ويغلبهنّ اللئام(١).

لقد أوتيت تميم الحكمة:

ودخل الأحنف بن قيس على معاوية بن أبى سفيان فأشار له إلى الوساد، فقال له: اجلس فجلس على الأرض فقال معاوية: ما منعك يا أحنف من الجلوس على الوساد، فقال يا أمير المؤمنين: إن فيما أوصى به قيس بن عاصم المنقري ولده أن قال: لا تغش السلطان حتى يملك، ولا تقطعه حتى ينساك، ولا تجلس له على فراش ولا وساد، واجعل بينك وبينه مجلس رجل أو رجلين، فإنه عسى أن يأتي من هو أولى بذلك المجلس منك فتقام له فيكون قيامك زيادة له ونقصا عليك حسبي بهذا المجلس يا أمير المؤمنين لعله أن يأتي من هو أولى بذلك المجلس مني، فقال معاوية: لقد أوتيت تميم الحكمة مع رقة حواشي الكلام وأنشأ يقول:

(يأيها السائل عما مضى ::: وعلم هذا الزمن العائب)
(إن كنت تبغي العلم أو أهله ::: أو شاهدا يخبر عن غائب)
(فاعتبر الأرض بسكانها ::: واعتبر الصاحب بالصاحب) (٢)

تأبين الأحنف بن قيس :

وقامت فرغانة بنت أوس بن حجر على قبر الأحنف بن قيس وهي على راحلة فقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، رحمك الله أبا بحر من

(١) ابن الجوزي، أخبار النساء، ص٥٦.
(٢) أبي عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: المحامي فوزي عطوي، دار صعب – بيروت ص٤٣.

مجن في جنن ومدرج في كفن، فوالذي ابتلاني بفقدك وبلغنا يوم موتك لقد عشت حميدا ومت فقيدا: ولقد كنت عظيم الحلم فاضل السلم رفيع العماد واري الزناد منيع الحريم سليم الأديم وإن كنت في المحافل لشريفا وعلى الأرامل لعطوفا، ومن الناس لقريبا وفيهم لغريبا وإن كنت لمسودا وإلى الخلفاء لموفدا وإن كانوا لقولك لمستمعين ولرأيك لمتبعين ثم انصرفت [1].

لماذا سوِّد الأحنف؟

عن خالد بن صفوان انّه كان بالرصافة عند هشام بن عبد الملك. فقدم العبّاس بن الوليد بن عبد الملك فغشيه الناس، فكان خالد في من أتاه، وكان العباس يصوم الاثنين والخميس؛ قال خالد: فدخلت عليه في يوم خميسٍ فقال: يا ابن الأهتم، خبّرني عن تسويدكم الأحنف وانقيادكم له، وكنتم حيّاً لم تملكوا في جاهليّةٍ قط. فقلت: إن شئت أخبرتك عنه بخصلة لها سوِّد، وإن شئت بثنتين، وإن شئت بثلاث، وإن شئت حدّثتك بقية عشيَّتك حتّى تنقضني ولم تشعر بصومك. قال: هات الأولى فإن اكتفينا وإلاّ سألناك. قال: فقلت: كان أعظم من رأينا وسمعنا - ثم أدركني ذهني فقلت: غير الخلفاء - سلطاناً على نفسه فيما أراد حملها عليه وكفهَّا عنه. قال: لقد ذكرتها نجلاء كافيةً، فما الثانية؟ قلت: قد يكون الرّجل عظيم السلطان على نفسه ولا يكون بصيراً بالمحاسن والمساوىء ولم يُرَ ولم يسمع بأحدٍ كان أبصر بالمحاسن والمساوىء منه، فلا يحمل السلطنة إلاّ على حسن، ولا يكفّها إلاّ عن قبيح. قال:قد جئت بصلةٍ للأولى لا تصلح إلاّ بها، فما الثالثة؟ قلت: قد يكون الرجل عظيم السلطان على نفسه بصيراً بالمحاسن والمساوىء ولا يكون حظيظاً، فلا يفشو ذلك له في النّاس

(١) أبي عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ص٣٦٣.

ولا يذكر به فيكون عند النّاس مشهورا. قال: وأبيك لقد جئت بصلة الأولتين فما بقية ما يقطع عني العشي قلت: أيّامه السالفة قال: وما أيامه السالفة؟ قلت: يوم فتح خراسان، اجتمعت له جموع الأعاجم بمرو الرّوذ فجاءه ما لا قبل له به، وهو في منزل مضيعةٍ، وقد بلغ الأمر به فصلّى عشاء الآخرة ودعا ربَّه وتضرَّع إليه أن يوفقه، ثمّ خرج يمشي في العسكر مشي المكروب يتسمَّع ما يقول النّاس، فمرّ بعبدٍ يعجن وهو يقول لصاحبه: العجب لأميرنا يقيم بالمسلمين في منزل مضيعةً وقد جاءه العدوُّ من وجوه، وقد أطافوا بالمسلمين من نواحيهم ثمّ اتّخذوهم أعراضاً وله متحوَّل. فجعل الأحنف يقول: اللهمَّ وفّق، اللهمَّ وفّق، اللّهم سدِّد. فقال صاحب العبد للعبد: فما الحيلة؟ قال: أن ينادي الساعة بالرحيل، فإنما بينه وبين الغيضة فرسخ، فيجعلها خلف ظهره فيمنعه الله بها، فإذا امتنع ظهره بعث بمجنَّبته اليمنى واليسرى فيمنع الله بهما ناحيته ويلقى عدوَّه من جانب واحد.فخرَّ الأحنف ساجداً، ثم نادى بالرحيل مكانه، فارتحل المسلمون مكبّين على رايتهم حتى الغيضة، فنزل في قبلها واصبح فأتاه العدوّ، فلم يجدوا إليه سبيلاً إلاّ من وجهٍ واحد، وضربوا بطبولٍ أربعةٍ، فركب الأحنف وأخذ الراية وحمل بنفسه على طبلٍ ففتقه وقتل صاحبه وهو يقول:

إنّ على كلِّ رئيسٍ حقّا ::: أن يخضب الصَّعدة أو تندقّا

ففتق الطبول الأربعة وقتل حملتها. فلمّا فقد الأعاجم أصوات طبولهم انهزموا، فركب المسلمون أكتافهم فقتلوهم قتلاً لم يقتلوا مثله قطّ، وكان الفتح. واليوم الثاني أنّ عليّاً حين ظهر على أهل البصرة يوم الجمل أتاه الأشتر وأهل الكوفة بعدما اطمأنّ به المنزل وأثخن في القتل، فقالوا: أعطنا، إن كنا قاتلنا أهل البصرة حين قاتلناهم وهم

مؤمنون فقد ركبنا حوباً كبيراً، وإن كنّا قاتلناهم كفّاراً وظهرنا عليهم عنوةً فقد حلّت لنا غنيمة أموالهم وسبي ذراريهم، وذلك حكم الله تعالى وحكم نبيّه في الكفّار إذا ظهر عليهم. فقال علي: إنّه لا حاجة بكم أن تهيجوا حرب إخوانكم، وسأرسل إلى رجلٍ منهم فأستطلع رأيهم وحجّتهم فيما قلتم. فأرسل إلى الأحنف بن قيس في رهط فأخبرهم بما قال أهل الكوفة، فلم ينطق أحدٌ غير الأحنف فإنّه قال: يا أمير المؤمنين لماذا أرسلت إلينا؟ فوالله إنّ الجواب عنّا لعندك، ولا نتبع الحقَّ إلاّ بك، ولا علمنا العلم إلاّ منك. قال: أحببت أن يكون الجواب عنكم منكم ليكون أثبت للحجّة وأقطع للتهمة،فقل.فقال: إنهم قد أخطأوا وخالفوا كتاب الله تعالى وسنّة نبيّهم ، إنّما كان السبي والغنيمة على الكفّار الّذين دارهم دار كفرٍ، والكفر لهم جامعٌ ولذراريهم، ولسنا كذلك، وإنّها دار إيمانٍ ينادي فيها بالتوحيد وشهادة الحقّ وإقام الصلاة، وإنّما بغت طائفةٌ أسماؤهم معلومة، أسماء أهل البغي؛ والثاني: حجّتنا أنّا لم نستجمع على ذلك البغي، فإنّه قد كان من أنصارك، من أثبتهم بصيرةً في حقّك وأعظمهم غناءً عنك، طائفةٌ من أهل البصرة، فأيُّ أولئك يجهل حقُّه وتنسى قرابته؟ إن هذا الذي أتاك به الأشتر وأصحابه قول متعلّمة أهل الكوفة، وايم والله لئن تعرضوا لها ليكرهنَّ عاقبتها ولا تكون الآخرة كالأولى. فقال عليّ : ما قلت إلا ما نعرف، فهل من شيءٍ تخصُّون به إخوانكم لما قاسوا من الحرب؟ قالوا: نعم، أعطياتنا ما في بيت المال ولم نكن لنصرفها في عدلك عنّا، فقد طبنا عنها نفساً في هذا العام فاقسمها فيهم. فدعاهم عليّ كرّم الله وجهه فأخبرهم بحجج القوم وبما قالوا وبموافقتهم إيّاه، ثم قسم المال بينهم خمسمائة لكل رجل. فهذا اليوم الثاني. وأمّا اليوم الثالث

فإنّ زياداً أرسل إليه بليلٍ وهو جالسٌ على كرسيّ في صحن داره، فقال: يا أبا بحر ما أرسلت إليك في أمر تنازعني فيه مخلوجة [١]، ولكنّي أرسلت إليك وأنا على صريمة[٢]، وكرهت أن يروعك أمرٌ يحدث لا تعلمه. قال: ما هو؟ قال: هذه الحمراء قد كثرت بين أظهر المسلمين وكثر عددهم وخفت عدوتهم، والمسلمون في ثغرهم وجهادهم عدوَّهم، وقد خلفوهم في نسائهم وحريمهم، فأردت أن أرسل إلى كلِّ من كان في عرافةٍ من المقاتلة فيأتوا بسلاحهم ويأتيني كلُّ عريف بمن في عرافته من عبدٍ أو مولىً فأضرب رقابهم فتؤمن ناحيتهم. قال الأحنف: ففيم القول وأنت على صريمة؟ قال: لتقولنَّ. قال: فإنّ ذلك ليس لك، يمنعك منه خصالٌ ثلاثٌ: أمّا الأولى فحكم الله في كتابه وحكم رسول الله عن الله، وما قتل رسول الله من الناس من قال: لا لا إله إلا الله وأن محمّداً رسول الله، بل حقن دمه، والثانية: أنّهم غلّة النّاس لم يغز غازٍ فخلّف لأهله ما يصلحهم إلاّ من غلاتهم، وليس لك أن تحرمهم، وأما الثالثة: فهم يقيمون أسواق المسلمين، أفتجعل العرب يقيمون أسواقهم قصّارين وقصّابين وحجّامين؟؟! قال: فوثب عن كرسيّه ولم يعلمه أنّه قبل منه، وانصرف الأحنف. قال:فما بتُّ بليلةٍ أطول منها أتسمَّع الأصوات، قال: فلمّا نادى أول المؤذنين قال لمولى له: إيت المسجد فانظر هل حدث أمرٌ، فرجع فقال: صلّى الأمير ودخل وانصرف ولم يحدث إلاّ خير[٣].

(١) قول زياد للأحنف " تنازعني فيه مخلوجة ": أي تعترضني فيه عارضةٌ متعرجةٌ ليست على سمتٍ ولا استقامة، فتقطعني عن الاستمرار فتجذبني إلى الانحراف عن المحجّة إلى الشبهة المؤدّية إلى الحيرة، وأصل الاختلاج الاقتطاع والاجتذاب، ومنه سمّي الخليج خليجاً لأنّه مخلوجٌ من البحر ومعظم الماء، بمنزلة مجروح وجريح ومقتول وقتيل.
(٢) وأنا على صريمة " أي على أمر أنا قاطعٌ عليه وواثقٌ به، من صرم الحبل إذا قطعه، فصريمة ذاك مقطوعٌ عليها غير مرتابٍ بها.
(٣) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ٤٣٥ - ٤٣٦.

كذلك نلي آدابكم:

وقف الأحنف بن قيس ومحمد بن الأشعث بباب معاوية، فأذن للأحنف ثم أذن لابن الأشعث، فأسرع في مشيته حتى تقدم الأحنف ودخل قبله. فلما رآه معاوية غمه ذلك وأحنقه، فالتفت إليه، فقال: والله إني ما أذنت له قبلك وأنا أريد أن تدخل قبله. وإنا كما نلي أموركم كذلك نلي آدابكم، ولا يزيد متزيد في خطوه إلا لنقص يجده من نفسه(١).

ما ترى في بيعة يزيد:

فلما كانت سنة خمس وخمسين كتب معاوية إلى سائر الأمصار أن يفدوا عليه. فوفد عليه من كل مصر قومُ. وكان فيمن وفد عليه من المدينة محمد بن عمرو بن حزم، فخلا به معاوية وقال له: ما ترى في بيعة يزيد؟ فقال: يا أمير المؤمنين، ما أصبح اليوم على الأرض أحدٌ هو أحب إلي رشداً من نفسك سوى نفسي، وإن يزيد أصبح غنياً في المال، وسيطاً في الحسب، وإن الله سائل كل راع عن رعيته، فاتق الله وانظر مَن تولى أمرَ أمة محمد. فأخذ معاوية بَهْر حتى تنفّس الصُعداء، وذلك في يوم شات، ثم قال: يا محمد، إنك امرؤ ناصحٌ، قلت برأيك ولم يكن عليك إلا ذاك. ثم، قال معاوية: إنه لم يَبق إلا ابني وأبناؤهم، فابني أحبّ إليّ من أبنائهم، اخرُج عني. ثم جلس معاويةٌ في أصحابه وأذن للوفود، فدخلوا عليه، وقد تقدَّم إلى أصحابه أن يقولوا في يَزيد، فكان أوَّلَ من تكلَّم الضحاكُ بن قيس فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنه لا بُد للناس مِن والٍ بعدك، والأنفس يُغْدَى عليها ويُراح. وإن اللّه قال: كُلّ يومٍ هو في شَان. ولا ندري ما يختلف به العصرْان، ويزيدُ ابن أمير المؤمنين في حُسن مَعْدِنه، وقصْد سيرته، من أفضلنا حِلما، وأحكمنا عِلماً، فولّه عهدك، واجعله لنا عَلماً بعدك.

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ٢٠/١.

وإنّا قد بَلَونا الجماعة والأُلفة فوجدناه أحقن للدماء، وآمَن للسُّبل، وخيراً في العاجلة والآجلة. ثم تكلّم عمرو بن سَعيد فقال: أيها الناس، إن يزيدَ أملٌ تأمُلونه، وأجل تأمنونه؛ طويل الباع، رَحْب الذراع، إذا صِرتم إلى عَدله وَسِعكم، وإن طلبتم رِفْده أغناكم؛ جَذَع قارح، سُوبق فسَبق، ومُوجِد فمَجَد، وقُورع فقرع، خلف من أمير المؤمنين ولا خَلَف منه. فقال: اجلس أبا أمية، فلقد أوسعت وأحسنت. ثم قام يزيد بن المُقفّع فقال: أمير المؤمنين هذا، وأشار إلى معاوية، فإن هلك فهذا، وأشار إلى يزيد، فمن أبي فهذا، وأشار إلى سيفه. فقال معاوية: اجلس، فإنك سيّد الخطباء. ثم تكلم الأحنف بن قيس فقال: يا أميرَ المؤمنين، أنت أعلم بيزيد في ليله ونهاره، وسره وعَلانيته، ومَدخله ومَخرجه، فإن كنت تَعلمه لله رضا ولهذه الأمة، فلا تُشاور الناسَ فيه، وإن كنت تعلم منه غيرَ ذلك، فلا تُزوّده الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة. قال: فتفرّق الناس ولم يذكروا إلا كلامَ الأحنف(١).

يا هذا! إن غداءنا قد حضر:

وقف رجل علي الأحنف بن قيس يسبه، فأمسك عنه الأحنف، فأكثر الرجل، إلى أن أراد الأحنف القيام للغداء؛ فأقبل على الرجل، فقال له: يا هذا! إن غداءنا قد حضر، فانهض بنا إليه إن شئت، فإنك مذ اليوم تحدر بجمل ثفال (٢).

وُعدَّت على الأحنف سقطة، وهو أن عمرو بن الأهتم دس عليه رجلاً ليسفهه. فقال له: يا أبا بحر، ما كان أبوك في قومه؟ قال: كان من أوسطهم، لم يسدهم، ولم يتخلف عنهم، فرجع إليه ثانية، ففطن الأحنف أنه من قبل عمرو، فقال: ما كان مال

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١٢٩/٢.
(٢) والثفال من الإبل: البطيء الثقي الذي لا يكاد ينبعث.

أبيك؟ فقال: كانت له صرمة[١] يمنح منها ويقري، ولم يك أهتم سلاحاً [٢].

إذا نعفيك يا أبا بحر:

وحكي أن معاوية رضي الله تعالى عنه بينما هو جالس في بعض مجالسه، وعنده وجوه الناس فيهم الأحنف بن قيس؛ إذ دخل رجل من أهل الشام، فقام خطيبا، وكان آخر كلامه أن لعن عليا رضي الله تعالى عنه، ولعن لاعنه، فقال الأحنف: يا أمير المؤمنين، إن هذا القائل لو يعلم أن رضاك في لعن المرسلين للعنهم، فاتق الله يا أمير المؤمنين، ودع عنك عليا رضي الله تعالى عنه، فلقد لقي ربه، وأفرد في قبره، وخلا بعمله، وكان والله المبرور سيفه، الطاهر ثوبه، العظيمة مصيبته، فقال معاوية: يا أحنف لقد تكلمت بما تكلمت، وايم الله لتصعدن على المنبر، فتلعنه طوعا أو كرها فقال له الأحنف: يا أمير المؤمنين إن تعفني فهو خير لك، وإن تجبرني على ذلك فوالله لا تجري شفتاي به أبدًا فقال: قم فاصعد، قال: أما والله لأنصفنك في القول والفعل، قال: وما أنت قائل إن أنصفتني، قال: أصعد المنبر، فأحمد الله وأثني عليه، وأصلي على نبيه محمده ثم أقول: أيها الناس، إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن عليا، ألا وإن معاوية وعليا اقتتلا فاختلفا، فادعى كل واحد منهما أنه مبغي عليه وعلى فئته، فإذا دعوت فأمنوا رحمكم الله، ثم أقول اللهم ألعن أنت وملائكتك وأنبياؤك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه، والعن الفئة الباغية اللهم العنهم لعنا كثيرا، أمنوا رحمكم الله يا معاوية، لا أزيد على هذا ولا أنقص حرفا، ولو كان فيه ذهاب روحي، فقال معاوية: إذا نعفيك يا أبا

(١) الصرمه: القطعة من الإبل لم تبلغ السنين.
(٢) السلاح: كثير السلح. يعرض بأبي عمرو. والسَّلحُ هو الغائط.

بحر[١].

فقد كفيت الشاهد والغائب:

وقيل قدم وفد من العرب على معاوية وفيهم الأحنف بن قيس فقال الحاجب: إن أمير المؤمنين يعزم عليكم ألاّ يتكلم منكم أحد إلا لنفسه فلما وصلوا إليه قال الأحنف: لولا عزم أمير المؤمنين لأخبرته أن رادفه ردفت ونازلة نزلت، ونائبة نابت الكل بهم حاجة إلى المعروف من أمير المؤمنين، فقال له معاوية: حسبك يا أبا بحر فقد كفيت الشاهد والغائب [٢].

بخلاف ما فيك:

وقال رجل للأحنف: بم سدت قومك وما أنت بأشرفهم بيتا ولا أصبحهم وجها ولا أحسنهم خلقا؟ فقال: بخلاف ما فيك. قال: وما ذاك؟ قال: تركي من أمرك مالا يعنيني، كما عناك من أمري ما لا يعنيك[٣].

ما الشيء الملفَّف في البجاد؟

دخل الأحنف بن قيس التميمي على معاوية بن أبي سفيان يوماً، فقال: يا أحنف ما الشيء الملّفف في البجاد؟ يعرض له بقول الشاعر:

إذا ما مات ميتٌ من تميمٍ ::: فسرّك أن يعيش فجيء بزاد
بخبزٍ أو بتمرٍ أو بسمنٍ ::: أو الشيء الملّفف في البجاد
تراه يطوف في الآفاق حرصاً ::: ليأكل رأس لقمان بن عاد

---

(١) شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق د.مفيد محمد قميحة، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦، ١٠١/١.
(٢) الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ٢٩٧/١.
(٣) المصدر السابق، ٢٩٧/١.

والشيء الملفف في البجاد: وطب اللبن. فعلم الأحنف ما أراد معاوية بتعريضه، فقال: الشيء الملفف في البجاد هو السخينة يا أمير المؤمنين. وذلك أن قريشاً كانت تعّير بأكل السخينة. وهي حساء من دقيق كانوا يصنعونها عند المسغبة وغلاء السعر[١].

- الأدب نور العقل، كما أنّ النار في الظلمة نور البصر[٢].

أدخل والله قدميك في خف واحدة:

ولما حُكم أبو موسى الأشعري بين علي ومعاوية أتاه الأحنف بن قيس فقال له: يا أبا موسى إن هذا مسير له ما بعده من عز الدنيا أو ذلها آخر الدهر ادع القوم إلى طاعة علي، فإن أبوا فادعهم أن يختار أهل الشأم من قريش العراق من أحبوا ويختار أهل العراق من قريش الشأم من أحبوا، وإياك إذا لقيت ابن العاص أن تصافحه بنية وأن يقعدك على صدر المجلس، فإنها خديعة وأن يضمك وإياه بيت فيكمن لك فيه الرجال ودعه فليتكلم لتكون عليه بالخيار فالبادئ مستغلق والمجيب ناطق.

فما عمل أبو موسى إلا بخلاف ما قال الأحنف وأشار به فكان من الأمر ما كان، فلقيه الأحنف بعد ذلك فقال له: أدخل والله قدميك في خف واحدة [٣].

ذكرت من لا ينكر فضله:

قال الأحنف: دخلت على معاوية، فقدم لي من الحار والبارد، والحلو والحامض ما كثر تعجبي منه، ثم قدم لي لوناً لم أدر ما هو، فقلت: ما

(١) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ١/١٨.
(٢) المصدر السابق، ١/١٩.
(٣) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية - بيروت، ١/٣٨٨.

هذا؟ قال: مصارين البط محشوة بالمخ قد قلي بدهن الفستق وذر عليه الطبرزد. فبكيت. فقال: ما يبكيك؟ قلت: ذكرت عليا . بينا أنا عنده وحضر وقت إفطاره فسألني المقام، إذ دعا بجراب مختوم، قلت: ما في الجراب؟ قال: سويق شعير، قلت: ختمت عليه أن يؤخذ أو بخلت به؟ قال: لا ولا أحدهما، ولكني خفت أن يلته الحسن أو الحسين بسمنٍ أو زيتٍ. قلت: محرم هو يا أمير المؤمنين؟ قال: لا ولكن يجب على أئمة الحق أن يعتدوا أنفسهم من ضعفة الناس؛ لئلا يطغي الفقير فقره، فقال معاوية: ذكرت من لا ينكر فضله [١].

فاضطرب العسكر بمجيء زبراء مرتين:

لما خرج الأحنف مع مصعب أرسل إليه بمائة ألف درهم ولم يرسل إلى زبراء جاريته بشيء، فجاءت حتى قعدت بين يدي الأحنف ثم أرسلت عينيها. فقال لها: ما يبكيك؟ قالت: مالي لا أبكي عليك، إذ لم تبك على نفسك. أبعد نهاوند ومرو الروذ [٢]صرت إلى أن تجمع بين غارين من المسلمين؟ فقال: نصحتني والله في ديني، إذ لم أنتبه لذلك. ثم أمر بفساطيطه فقوضت.

قال: فبلغ ذلك مصعباً، فقال: من دهاني في الأحنف؟ فقيل: زبراء. فبعث إليها بثلاثين ألف درهم. فجاءت حتى أرخت عينيها بين يديه فقال: ما لك يا زبراء؟ قالت: جئت بإخوانك من أهل البصرة تزفهم كما تزف العروس، حتى إذا صيرتهم في نحور أعدائهم أردت أن تفت في أعضادهم. قال: صدقت والله. يا غلام؛

(١) أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، تحقيق خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، ٢٠٧/١.
(٢) من المعارك التي انتصر فيها المسلمون علي الفرس.

دعها. قال: فاضطرب العسكر بمجيء زبراء مرتين فذهبت مثلاً [١].

وترك ما كان هم به:

وذكر أن الأحنف اعتم ونظر في المرآة، فقالت امرأته: كأنك قد هممت أن تخطب امرأة. قال: قد كان ذلك. قالت: فإذا فعلت فاعلم أن المرأة إلى رجلين أحوج من الرجل إلى امرأتين. فنقض عمته وترك ما كان هم به[٢].

معي وديعة:

وجلس على باب زياد، فمرت به ساقيةٌ، فوضعت قربتها، وقالت: يا شيخُ. احفظ قربتي حتى أعودَ، ومضت، وأتاهُ الأذنُ فقال: انهض. قال: لا، فإن معي وديعة. وأقامَ حتى جاءَت [٣].

يا مُخَذِّلُ:

ومر بعكرَاش بن ذُؤيب - وكان ممن شهد الجمل مع عائشة - فقُطعت يداه جميعاً. فصاح به عكراش: يا مخّذلُ. فقال الأحنفُ إنك لو كنت أطعتني لأكلت بيمينك وامتسحت بشمالك.

إذا متُّ فادفع القميص إلى هذا:

ويقال: إنه لم يُرَ قطُّ ضجرا إلا مرةً واحدة، فإنه أعطى خياطاً قميصاً بخيطهُ، فحَبسه حولين. فأخذ الأحنفُ بيَد ابنه بحر، فأتى به الخياط، وقال: إذا متُّ فادفع القميص إلى هذا.

ومن أتاهم منا احترق:

كتب عبد الملك إلى الأحنف بن قيس يدعوه إلى نفسه، فقال الأحنف:

(١) أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، ٨٢/٤.
(٢) أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، ١٩٣/٤.
(٣) أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، ٥ /٣٦.

يدعوني ابن الزرقاء إلى ولاية أهل الشام؟! فو الله لقد وددت بأن بيننا وبينهم جبلاً من نار، فمن أتانا منهم احترق، ومن أتاهم منا احترق[١].

أفيأس ورواح أم حبس ونجاح:

يحكى أن الأحنف بن قيس قدم على معاوية فأقام شهراً لا يسأله فيما جاء، فقال: يا أمير المؤمنين، إنك ترعيني مرعى وبيلاً، وتوردني ظمأ طويلاً، أفيأس ورواح أم حبس ونجاح؟ فقضى حاجته[٢].

من كلامه:

- مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُحْفَظُ الأَحْمَقُ إلاَّ مِنْ نَفْسِهِ [٣].

- حكي أن الأحنف بن قيس سمع رجلا يقول:التعليم في الصغر كالنقش على الحجر. فقال الأحنف: الكبير أكثر عقلا ولكنه أشغل قلبا[٤].

- وقال الأحنف بن قيس: فلو كنت مثرى بمال كثير لجدت وكنت له باذلا، فإن المروءة لا تستطاع إذا لم يكن مالها فاضلا وكان يقال: الدراهم مراهم؛ لأنها تداوي كل جرح، ويطيب بها كل صلح [٥].

- من ظلم نفسه كان لغيره أظلم، ومن هدم دينه كان لمجده أهدم[٦].

- عجبت لمن جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر[٧].

- وقال الأحنف بن قيس: ألا أخبركم بأدوأ الداء؟ قالوا بلى.

(١) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ٤/١.
(٢) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ١٥١/١.
(٣) المصدر السابق، ص١٧.
(٤) المصدر السابق، ص٥١.
(٥) المصدر السابق، ص٢٧٤.
(٦) المصدر السابق، ص٢٨٩.
(٧) المصدر السابق، ص٢٩٣.

قال الخلق الدني واللسان البذي [١].

- وقد حكي عن الأحنف بن قيس أنه قال: ما عاداني أحد قط إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث خصال: إن كان أعلى مني عرفت له قدره، وإن كان دوني رفعت قدري عنه، وإن كان نظيري تفضلت عليه[٢].

- وحكي عن الأحنف بن قيس أنه قال: سهرت ليلتي أفكر في كلمة أرضي بها سلطاني ولا أسخط بها ربي فما وجدتها[٣].

- وسئل الأحنف بن قيس عن المروءة فقال: العفة والحرفة[٤].

- وقد قال الأحنف بن قيس: فلو مد سروي بمال كثير لجدت وكنت له باذلا فإن المروءة لا تستطاع إذا لم يكن مالها فاضلا وأما صيانتها عن تحمل المنن والاسترسال في الاستعانة؛ فلأن المنة استرقاق الأحرار تحدث ذلة في الممنون عليه وسطوة في المان به[٥].

- سئل الأحنف بن قيس عن المروءة فقال: صدق اللسان ومؤاساة الإخوان وذكر الله تعالى في كل مكان[٦].

- حق الصديق أن تحتمل له ثلاثا: ظلم الغضب، وظلم الدالة، وظلم الهفوة[٧].

- ذكر عند الأحنف بن قيس الصمت والكلام فقال قوم الصمت أفضل قال الأحنف الكلام أفضل لأن الصمت لا يعدو صاحبه والكلام ينتفع

(١) المصدر السابق، ص٢٩٩.
(٢) علي بن محمد الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص٣١٢.
(٣) المصدر السابق، ص٣٥٠.
(٤) المصدر السابق، ص٤١٧.
(٥) المصدر السابق، ص٤١٨.
(٦) المصدر السابق، ص٤٢٥.
(٧) المصدر السابق، ص٤٢٨.

به من سمعه ومذاكرة الرجال تلقيح لعقولها (١).

- كثرة الأماني من غرور الشيطان(٢).

- جنِّبوا مجالسنا ذكر النساء والطعام، فإني أُبغض الرجلَ أن يكون وصَّافاً لفرجه وبطنه، وإن من المُروءة والدِّيانة أن يترك الرجل الطعام وهو يشتهيه (٣).

- قال الأحنف بن قيس: ما دخلت بين اثنين قط حتى يكونا هما الذين يدخلاني في أمرهما ولا أقمت من مجلس قط ولا حجبت عن باب قط يقول لا أجلس إلا مجلسا أعلم أني لا أقام عن مثله ولا أقف على باب أخاف أن أحجب عن صاحبه، قال الأصمعي: وقال: إني ما رددت عن حاجة قط قيل له: ولِمَ؟ قال: لأني لا أطلب المحال (٤).

- ما خان شريف ولا كذب عاقل ولا اغتاب مؤمن(٥).

- السؤدد مع السواد يعني من أتته السيادة في حداثته وسواد رأسه ولحيته، ويقال أيضا: سواد الناس وعامتهم يريد أن السؤدد يكون بتسويد العامة (٦).

- ثلاثة ما أقولهن إلا ليعتبر بهن معتبر لا أخلف جليسي بغير ما أحضره به ولا أدخل نفسي في أمر لم أدخل فيه ولا آتي سلطانا حتى يرسل إلي (٧).

---

(١) يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري أبو يوسف، أدب المجالسة وحمد اللسان وفضل البيان وذم العي وتعليم الإعراب، تحقيق: سمير حلبي، دار الصحابة للتراث - طنطا، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ - ١٩٨٩، ص٤٢.

(٢) ابن مفلح، الآداب الشرعية، ١/١٨٠.

(٣) الدينوري، المجالسة وجواهر العلم، ١/١٤٢.

(٤) المصدر السابق، ١/١٧٧.

(٥) المصدر السابق، ١/٢٥٢.

(٦) المصدر السابق، ١/٣٤٤.

(٧) المصدر السابق، ١/٣٩١.

- كاد العلماء أن يكونوا أرباباً وكل عز لم يؤيد بعلم فإلى ذل ما يصير [١].

- سئل الأحنف بن قيس، ما المروءة؟ قال: كتمان السر، والتباعد من الشر [٢].

- الرفق والأناة محمود إلا في ثلاث. قالوا: ما هن يا أبا بحر؟ قال: تبادر بالعمل الصالح، وتعجل إخراج ميتك وتنكح الكفء أيمك[٣].

خير الإخوان من إن استغنيت عنه لم يزدك في المودة، وإن احتجت إليه لم ينقصك منها، وإن كوثرت عضدك وإن احتجت إلى معونته رفدك. وأنشد:

أخــوك الّــذي إن تدعـــه لملمّـــة ::: يجبك وإن تغضب إلى السّيف يغضب[٤]

- الصمت أمان من تحريف اللفظ وعصمة من زيغ المنطق وسلامة من فضول القول وهيبة لصاحبه [٥].

- من جالس عدوه حفظ عليه عيوبه [٦].

- الوالي من الرعية مكان الروح من الجسد الذي لا حياة له إلا به وموضع الرأس من أركان الجسد الذي لا بقاء له إلا معه [٧].

- الأدب نور العقل كما أن النار نور البصر[٨].

---

(١) الدينوري، المجالسة وجواهر العلم، ٤٠٥/١.
(٢) المصدر السابق، ٤١٩/١.
(٣) المصدر السابق، ٥٧٤/١.
(٤) المصدر السابق، ٦٩٠/١.
(٥) محمد بن حبان البستي أبو حاتم، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٣٩٧ - ١٩٧٧م، ص٤٣.
(٦) محمد بن حبان البستي أبو حاتم، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ص ٩٨.
(٧) محمد بن حبان البستي أبو حاتم، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ص٢٧١.
(٨) محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الثانية، -

- الإنصاف يثبت المودة، ومع كرم العشرة تطول الصحبة.

- وكان يقول: ثلاث خلال تجلب بهن المحبة: الإنصاف في المعاشرة، والمواساة في الشدة والانطواء على المودة [١].

- - قال: " الأحنف بن قيس ": " كنت في نفر من قريش فمر " أبو ذر " فقال: " بشر الكانزين بكي في ظهورهم يخرج من جنوبهم، وبكي في أقفائهم يخرج من جباههم " [٢].

- الإنصاف يثبت المودة، ومع كرم العشرة تطول الصحبة.

- وكان يقول: ثلاث خلال تجلب بهن المحبة: الإنصاف في المعاشرة، والمواساة في الشدة والانطواء على المودة [٣].

- وعن الأحنف بن قيس: " أنه قيل له إنك شيخ كبير وإن الصيام يضعفك، فقال: إني أعده لسفر طويل، والصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذابه[٤].

- كتب الاحنف بن قيس مع رجل إلى صديق له: " أمّا بعد، فإذا قدم عليك أخ لك موافق، فليكن منك مكان سمعك وبصرك، فإنّ الأخ الموافق أفضل من الولد المخالف، ألا تسمع إلى قول الله - عزّ وجلّ

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م، ٢٧/١.

(١) محمد بن علي بن عطية الحارثي المشهور بأبي طالب المكي، قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، ٣٦٨/٢.

(٢) محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ)، موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، تحقيق مأمون بن محي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، سنة النشر: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، ص٤٩.

(٣) محمد بن علي بن عطية الحارثي المشهور بأبي طالب المكي، قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، ٣٦٨/٢.

(٤) أبو التراب سيد بن حسين بن عبد الله العفاني، نداء الريان في فقه الصوم وفضل رمضان، قدم له: أبو بكر الجزائري - محمد صفوت نور الدين - محمد عبد المقصود، توزيع: دار ماجد عسيري - جدة،ص ٣٨٥.

- لنوح في شأن ابنه: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ يقول: ليس من أهل ملّتك. فانظر إلى هذا وأشباهه.

فاجعلهم كنوزك وذخائرك، وأصحابك في سفرك وحضرك، فإنّك إن تقرّبهم تقرّبوا منك، وإن تباعدهم يستغنوا بالله - عزّ وجلّ – والسّلام " (١).

- وقال الأحنف بن قيس:

أنت للمال إذا أمسكته :: وإذا أنفقته فالمال لك(٢)

عن التوزي، قال: أخبرني رجل من أهل البصرة عن رجل من بني تميم، قال: حضرت مجلس الأحنف بن قيس، وعنده قوم مجتمعون في أمر لهم، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الكرم منع الحرم ما أقرب النقمة من أهل البغى، لا خير في لذة تعقب ندما، لن يهلك من قصد ولن يفتقر من زهد، رب هزل قد عاد جدا من أمن الزمان خانه، ومن تعظم عليه أهانه، دعوا المزاح فإنه يؤرث الضغائن، وخير القول ما صدقه الفعل، احتملوا لمن أدل عليكم، وأقبلوا عذر من اعتذر إليكم، أطع أخاك وأن عصاك، وصله وإن جفاك، أنصف من نفسك قبل أن ينتصف منك، وإياكم ومشاورة النساء، واعلم أن كفر النعمة لؤم، وصحبة الجاهل شؤم، ومن الكرم الوفاء بالذمم، ما أقبح القطيعة بعد الصلة، والجفاء بعد اللطف، والعداوة بعد الود، لا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان، ولا إلى البخل أسرع منك إلى البذل، واعلم أن لك من دنياك ما أصلحت به مثواك، فأنفق في حق، ولا تكونن

(١) عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة الطبعة: الرابعة، ١١٣/٢.
(٢) مصطفى شيخ إبراهيم حقي، رد البلاء بالصدقة، ص٤٠.

خازنا لغيرك، وإذا كان الغدر في الناس موجودا، فالثقة بكل أحد عجز أعرف الحق لمن عرفه لك، واعلم أن قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل (قال): فما رأيت كلامًا أبلغ منه فقمت وقد حفظته[١].

- العقل خير قرين والأدب خير ميراث والتوفيق خير قائد[٢].

- الملول ليس له وفاء والكذاب ليست له حيلة والحسود ليست له راحة والبخيل ليست له مروءة ولا يسود سيئ الخلق[٣].

- من لم يصبر على كلمة يسمع كلمات.
- الكامل من عدت هفواته.
- أبعد ما يكون الساعي من الله إذا صدق.
- ولما قال معاوية أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة وأنقص الناس عقلاً من ظلم من دونه. قال الأحنف: وأحق الناس بالإحسان من جار حكمه. فقال معاوية. هذه والله أحسن من الأولتين[٤].

- لا يشاور الجائع حتى يشبع، ولا العطشان حتى يروى، ولا الأسير حتى يطلق، ولا المضل حتى يجد، ولا الراغب حتى ينجح[٥].

- من فسدت بطانته كان كمن غص بالماء، ومن غص بالماء فلا مساغ له، ومن خانه ثقاته فقد أتي من مأمنه[٦].

(١) أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، الأمالي في لغة العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م، ٢٢/٢ - ٢٣.
(٢) أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، الأمالي في لغة العرب، ١٦٩/٢.
(٣) أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، الأمالي في لغة العرب، ٢١٨/٣.
(٤) أبو منصور عبد الملك عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، الإعجاز والإيجاز، دار الغصون - بيروت / لبنان - ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ص ٦٧.
(٥) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ٤٣٥ - ٣٦.
(٦) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ /٩.

- إن رأيت الشر يتركك إن تركته فاتركه[١].

- أسرع إلى الفتنة أقلهم حياء من الفرار[٢].

- ما أدخرت الآباء للأبناء، ولا أبقت الموتى للأحياء، شيئاً أفضل من اصطناع المعروف عند ذوي الأحساب والآداب[٣].

- رأسُ الأدب المَنْطِق، ولا خَيْر في قوْل إلاّ بِفِعْل، ولا في مال إلا بجُود، ولا في صَدِيق إلا بوَفاء، ولا في فِقه إلا بورَع، ولا في صدق إلا بنيّه[٤].

- بئس الرفيقان الدراهم والدنانير فإنهما لا ينفعانك حتى يفارقاك[٥].

- لا تزال العرب عرباً ما لبست العمائم، وتقلدت السيوف، ولم تعدد الحلم ذلاً، ولا التواهب فيما بينها ضعةً[٦].

- وما شاتمت رجلاً، ولا زحمت ركبتاي ركبتيه، وإذا لم أصل مجتدي[٧] حتى ينتح جبينه عرقاً كما ينتح الحميت، فو الله ما

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ٢٨/١.
(٢) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ٣٩/١.
(٣) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ٦٥/١.
(٤) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ٢٢٩/١.
(٥) المبرد، الفاضل، ص١٣.
(٦) محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (المتوفى: ٢٨٥هـ)، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار الفكر العربي - القاهرة، الطبعة: الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، ١٤٥/١.
(٧) " مجتدي " يريد الذي يأتيه يطلب فضله، يقال: اجتده يجتديه، واعتفاه يعتفيه، واعتراه يعتريه، واعتره يعتره، وعراه يعروه: إذا قصده يتعرض لنائله. وأصل ذلك مأخوذ من الجدا مقصور، وهو المطر العام النافع، يقال: أصابتنا مطرة كانت جداً على الأرض، فهذا الاسم، فإذا أردت المصدر، قلت: فلان كثير الجداء، ممدودة، كما تقول: كثير الغناء عنك، ممدودة، هذا المصدر، فإذا أردت الاسم الذي هو خلاف الفقر قلت: الغنى بكسر أوله وقصرت. قال خفاف بن ندبة يمدح أبا بكر الصديق رضي الله عنه:

وصلته[1].

- ما تكبر أحد إلا من ذلة يجدها في نفسه ولم تزل الحكماء تتحامي الكبر وتأنف منه ونظر أفلاطون إلى رجل جاهل معجب بنفسه فقال وددت أني مثلك في ظنك وأن أعدائي مثلك في الحقيقة ورأى رجل رجلا يختال في مشيه فقال جعلني الله مثلك في نفسك ولا جعلني مثلك في نفسي[2].

- وقال الأحنف بن قيس:

وذي ضغن أبيت القول عنه ::: بحلم فاستمر على المقال
ومن يحلم وليس له سفيه ::: يلاق المعضلات من الرجال
فإن كنت محتاجا إلى الحلم إنني ::: إلى الجهل في بعض الأحايين أحوج
ولي فرس للخير بالخير ملجم ::: ولي فرس للشر بالشر مسرج
فمن رام تقويمي فإني مقوم ::: ومن رام تعويجي فإني معوج [3]

- وقال الأحنف بن قيس لابنه: يا بني إذا أردت أن تؤاخي رجلا فاغضبه فإن أنصفك وإلا فاحذره[4].

- لو جلس إليّ مائةٌ لأحببت أن ألتمس رضا كلّ واحدٍ منهم[5].

- لأن أدعى من بعدٍ أحبّ إليّ من أن أقصى عن قرب.

- ما جلست مجلساً قطّ، أخاف أن أقام منه لغيري[1].

ليس لشيء غير تقوى جداء ::: وكل شيء عمره للفناء
إن أبا بكر هو الغيث إذ ::: لم تشمل الأرض سحاب بماء
تالله لا يدرك أيامه ::: ذو طرةٍ حاف ولا ذو حذاء
من يسع كي يدرك أيامه ::: يجتهد الشد بأرضٍ فضاء

(١) المبرد، الكامل في اللغة والأدب، ١ /١٩٧.
(٢) الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ٢٨٤/٢.
(٣) المصدر السابق، ٣٤٢/١.
(٤) المصدر السابق، ٤١٩/١.
(٥) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ٣/١.

- آفة الحرص الحرمان، ولا ينال الحريص إلاّحظّه[٢].

- كلّ ملك غدور، وكلّ دابة شرود، وكل امرأة خؤون [٣].

- اضربوا الرأى بعضه ببعض يتولّد منه الصّواب، وتجنّبوا منه شدة الحزم، واتّهموا عقولكم، فإن فيها نتائج الخطأ، وذمّ العاقبة[٤].

- إيّاك وما يعتذر منه، فإنّه قلمّا اعتذر أحدٌ فسلم من كذب[٥].

- إذا اعتذر إليك معتذر،فلتلقه بالبشر[٦].

- قال الأحنف بن قيس يوماً لقومه:إنّما أنا رجل منكم ليس لي فضل عليكم،ولكني أبسط لكم وجهي،وأبذل لكم مالي،وأفضي حقوقكم،وأحفظ حرمتكم،فمن فعل مثل فعلي فهو مثلي، ومن زاد عليّ فهو خير مني، ومن زدت عليه فأنا خير منه.قيل له:يا أبا محمد!ما يدعوك إلى هذا الكلام؟قال:أحضّهم على مكارم الأخلاق[٧].

- سئل الأحنف عن الحلم، فقال: هو الذلّ والصبّر.

- كان الأحنف إذا عجبوا من حلمه،قال:إني لأجد ما تجدون،ولكنّي صبور.

- وقال أيضاً:وجدت الحلم أنصر لي من الرجال[٨].

- سئل الأحنف عن المروءة، فقال: التفقه في الدين، وبرّ الوالدين،

(١) المصدر السابق، ٤/١.
(٢) المصدر السابق، ٢٨/١.
(٣) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ٧٣/١.
(٤) المصدر السابق، ٩٩/١.
(٥)المصدر السابق، ١٠٥/١.
(٦)المصدر السابق، ١٠٦/١.
(٧)المصدر السابق، ١٣١/١.
(٨)المصدر السابق، ١٣٤/١.

والصبر على النوائب[١].

- العتاب مفتاح التقالى، والعتاب قرين الحقد[٢].

- إذا أردتم الحظوة عند النساء فأفحشوا في النكاح، وأحسنوا الأخلاق[٣].

- وقال ألا أدلكم على المحمدة بلا مرزئة الخلق السجيح والكف عن القبيح.

- كثرة الضحك تذهب الهيبة، وكثرة المزاح تذهب المروءة، ومن لزم شيئا عرف به.

- وسمع رجلا يقول: ما أبالي أمدحت أم ذممت. فقال له: لقد استرحت من حيث تعب الكرام.

- وقال: جنبوا مجلسنا ذكر الطعام والنساء فإني لأبغض الرجل يكون وصافا لفرجه وبطنه وإن المروءة أن يترك الرجل الطعام وهو يشتهيه.

- من المروءة إذا كان الرجل بخيلا أن يكتم ذلك ويتجمل.

- أربع من كن فيه كان كاملا، ومن تعلق بخصلة منهن كان من صالحي قومه: دين يرشده، أو عقل يسدده، أو حسب يصونه، أو حياء يقناه.

- وقال: المؤمن بين أربع: مؤمن يحسده، ومنافق يبغضه، وكافر يجاهده وشيطان يفتنه، وأربع ليس أقل منهن: اليقين، والعدل، ودرهم حلال، وأخ في الله.

(١)المصدر السابق، ١٣٩/١.
(٢)المصدر السابق، ١٥٥/١.
(٣) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس،١٨٢/١.

- رب غيظ تجرعته مخافة ما هو أشد منه.
- من كثر كلامه كثر سقطه ومن طال صمته كثرت سلامته.
- لأفعى تحك في ناحية بيتي أحب إلي من أيم رددت عنها كفءًا(١).

خطبة الأحنف بن قيس بين يدي عمر بن الخطاب:

يا أمير المؤمنين، إن مفاتيح الخير بيد الله، والحرص قائد الحرمان، فاتق الله فيما لا يغني عنك يوم القيامة قيلا ولا قالا، واجعل بينك وبين رعيتك من العدل والإنصاف شيئا يكفيك وفادة الوفود، واستماحة الممتاح، فإن كل امرئ يجمع في وعائه إلا الأقل ممن سعى أن تقتحمه الأعين فلا يوفد إليك (٢).

خطبة الأحنف بن قيس بين يدي عمر بن الخطاب :

قدم الأحنف بن قيس التميمي على عمر بن الخطاب في أهل البصرة، وأهل الكوفة فتكلموا عنده في أنفسهم وما ينوب كل واحد منهم وتكلم الأحنف فقال:

يا أمير المؤمنين، إن مفاتيح الخير بيد الله، وقد أتتك وفود أهل العراق، وإن إخواننا من أهل الكوفة والشام ومصر نزلوا منازل الأمم الخالية والملوك الجبابرة، ومنازل كسرى وقيصر وبني الأصفر فهم من المياه العذبة والجنان المخصبة في مثل حولاء السلى، وحدقة البعير الغاسقة تأتيهم ثمارهم غضة قبل أن تتغير وإنا معشر أهل البصرة نزلنا أرضا سبخة هشاشة زعقة نشاشة طرف في فلاة وطرف في ملح أجاج جانب منها منابت القصب وجانب سبخة نشاشة لا يجف ترابها ولا ينبت مرعاها تأتينا منافعها في مثل مرئ النعامة

(١) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ٢ /٣٦١.
(٢) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ٤٥٠/١.

يخرج الرجل الضعيف منا يستعذب الماء من فرسخين وتخرج المرأة بمثل ذلك ترنق ولدها ترنيق العنز تخاف عليه العدو والسبع دارنا فعمة ووظيفتنا ضيقة وعددنا كثير وأشرافنا قليل وأهل البلاء فينا كثير ودرهمنا كبير وقفيزنا صغير وقد وسع الله علينا وزادنا في أرضنا فوسع علينا يا أمير المؤمنين وزدنا وظيفة توظف علينا ونعيش بها فإلا ترفع خسيستنا وتنعش ركيستنا وتجبر فاقتنا وتزد في عيالنا عيالا وفي رجالنا رجالا وتصفر درهمنا وتكبر قفيزنا وتأمر لنا بحفر نهر نستعذب به الماء هلكنا.

قال عمر: هذا والله السيد هذا والله السيد قال الأحنف: فما زلت أسمعها بعدها [(١)].

خطبة الأحنف بن قيس :

قام الأحنف بن قيس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أصلح الله أمير المؤمنين، إن الناس قد أمسوا في منكر زمان قد سلف ومعروف زمان مؤتنف، ويزيد ابن أمير المؤمنين نعم الخلف، فإن توله عهدك فعن غير كبر مفن، أو مرض مضن وقد حلبت الدهور، وجربت الأمور، فاعرف من تسند إليه عهدك ومن توليه الأمر من بعدك، واعص رأي من يأمرك ولا يقدر لك ويشير عليك ولا ينظر لك وأنت أنظر للجماعة، واعلم باستقامة الطاعة مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا ولا يبايعون ليزيد ما كان الحسن حيا [(٢)]

خطبة للأحنف بن قيس :

قام الأحنف بن قيس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أمير المؤمنين،

(١) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ٤٥١/١ - ٤٥٢.
(٢) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ٢٤٢/٢.

إنا قد فررنا عنك قريشا فوجدناك أكرمها زندا، وأشدها عقدا وأوفاها عهدا، وقد علمت أنك لم تفتح العراق عنوة، ولم تظهر عليها قعصا، ولكنك أعطيت الحسن بن علي من عهود الله ما قد علمت ليكون له الأمر من بعدك، فإن تف فأنت أهل الوفاء، وإن تغدر تعلم والله أن وراء الحسن خيولا جيادا، وأذرعا شدادا، وسيوفا حدادا، إن تدن له شبرا من غدر تجد وراءه باعا من نصر، وإنك تعلم أن أهل العراق ما أحبوك منذ أبغضوك، ولا أبغضوا عليا وحسنا منذ أحبوهما، وما نزل عليهم في ذلك خبر من السماء، وإن السيوف التي شهروها عليك مع علي يوم صفين لعلى عواتقهم، والقلوب التي أبغضوك بها لبين جوانحهم، وايم الله إن الحسن لأحب إلى أهل العراق من علي [١]

خطبة الأحنف عند استخلاف معاوية لابنه يزيد :

تكلم الأحنف بن قيس، فقال: يا أمير المؤمنين أنت أعلمنا بيزيد في ليله ونهاره وسره وعلانيته ومدخله ومخرجه، فإن كنت تعلمه لله رضا ولهذه الأمة، فلا تشاور الناس فيه، وإن كنت تعلم منه غير ذلك فلا تزوده الدنيا، وأنت صائر إلى الآخرة فإنه ليس لك من الآخرة إلا ما طاب، واعلم أنه لا حجة لك عند الله، إن قدمت يزيد على الحسن والحسين وأنت تعلم من هما وإلى ما هما، وإنما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فتفرق الناس ولم يذكروا إلا كلام الأحنف[٢].

خطبة أخرى له:

واستخلف ابن زياد مسعود بن عمرو الأزدي على البصرة، فقالت بنو تميم وقيس: لا نولي إلا رجلا ترضاه جماعتنا، فقال مسعود: قد

(١) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ٢٤٣/٢.
(٢) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ٢٤٦/٢.

استخلفني فلا أدع ذلك أبدا، وبينما هو على المنبر يبايع من أتاه إذ رماه رجل من الخوارج فقتله، فخرجت الأزد إلى الخوارج، فقتلوا منهم وجرحوا وطردوهم عن البصرة، وجاءهم الناس فقالوا لهم: تعلمون أن بني تميم يزعمون أنهم قتلوا مسعود بن عمرو، فبعثت الأزد تسأل عن ذلك، فإذا أناس منهم يقولونه، فاجتمعت الأزد عند ذلك، وازدلفوا إلى بني تميم، وخرجت مع بني تميم قيس، وخرج مع الأزد بكر بن وائل فالتقى القوم، واقتتلوا أشد القتال، فقتل من الفريقين قتلى كثيرة، فقالت لهم بنو تميم: الله الله يا معشر الأزد في دمائنا ودمائكم بيننا، وبينكم القرآن، ومن شئتم من أهل الإسلام، فإن كانت لكم علينا بينة أنا قتلنا صاحبكم فاختاروا أفضل رجل فينا فاقتلوه بصاحبكم، وإن لم تكن لكم بينة فإنا نحلف بالله ما قتلنا، ولا أمرنا، ولا نعلم لصاحبكم قاتلا، وإن لم تريدوا ذلك فنحن ندي صاحبكم بمائة ألف درهم، فاصطلحوا فأتاهم الأحنف ابن قيس، فقال: يا معشر الأزد، أنتم جيرتنا في الدار، وإخوتنا عند القتال وقد أتيناكم في رحالكم لإطفاء حشيشتكم، وسل سخيمتكم، ولكم الحكم مرسلا فقولوا على أحلامنا وأموالنا فإنه لا يتعاظمنا ذهاب شيء من أموالنا كان فيه صلاح بيننا، فقالوا: أتدون صاحبنا عشر ديات قال هي لكم فانصرف الناس واصطلحوا.

وروى الجاحظ وابن عبد ربه هذه الخطبة بصورة أخرى وها هي ذي.

قال بعد حمد الله والثناء عليه: يا معشر الأزد وربيعة أنتم إخواننا في الدين، وشركاؤنا في الصهر، وأشقاؤنا في النسب، وجيراننا في الدار ويدنا على العدو، والله لأزد البصرة أحب إلينا من تميم الكوفة، ولأزد الكوفة أحب إلينا من تميم الشأم، فإن استشرف شنآنكم وأبى حسد

صدوركم ففي أموالنا وسعة أحلامنا لنا ولكم سعة(١).

ثم قام وخرج وكانت أخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه فقالت يا أمير المؤمنين من هذا الذي يتهدد ويتوعد قال هذا الذي إذا غضب غضب لغضبه مائة ألف من بني تميم لا يدرون فيم غضب.

وفود الأحنف بن قيس والنمر بن قطبة على معاوية :

دخل الأحنف بن قيس على معاوية وافدا لأهل البصرة ودخل معه النمر بن قطبة وعلى النمر عباءة قطوانية وعلى الأحنف مدرعة صوف وشملة فلما مثلا بين يدي معاوية اقتحمتهما عينه فقال النمر: يا أمير المؤمنين، إن العباءة لا تكلمك وإنما يكلمك من فيها، فأومأ إليه فجلس ثم أقبل على الأحنف فقال: ثم مه فقال: يا أمير المؤمنين أهل البصرة عدد يسير وعظم كسير مع تتابع من المحول واتصال من الذحول فالمكثر فيها قد أطرق، والمقل قد أملق وبلغ منه المخنق، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينعش الفقير، ويجبر الكسير ويسهل العسير ويصفح عن الذحول ويداوي المحول ويأمر بالعطاء ليكشف البلاء ويزيل اللأواء وإن السيد من يعم ولا يخص ومن يدعو الجفلى ولا يدعو النقري إن أحسن إليه شكر وإن أسيء إليه غفر، ثم يكون من وراء ذلك لرعيته عمادا يدفع عنهم الملمات ويكشف عنهم المعضلات فقال له معاوية ها هنا يا أبا بحر ثم تلا (ولتعرفنهم في لحن القول) (٢).

-من لم يصبرْ على كلمة سَمِعَ كلماتٍ وقيل له: مَن السيد؟ قال: الذي إذا أقبَل هابوه، وإذا أدبَر عَابُوه.

- سِرُك مِنْ دَمِكَ.

(١) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ٢٣٣/٢.
(٢) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة،٢ /٣٦٤.

- مَنْ تَسَرَّع إلى الناس بما يَكْرَهون قالوا فيه ما لا يَعْلمون [(١)].

-سُئِل الأحنف بن قيس عن العقل؟ فقال: رأس الأشياءة فيه قوامُها، وبه تمامُها؛ لأنه سراجُ ما بَطَن، وملاك ما عَلَن، وسائس الجسَدِ، وزينة كل أحد، لا تستقيم الحياة إلا به، ولا تدور الأمور إلا عليه.

-ولما خطب زياد خطبته المشهورة قام الأحنف بن قيس، فقال: الفرس بشَدِّه، والسيف بحده، والمرء بجدِّه، وقد بلغ بك جدّك ما أرى، وإنما الثناءُ بعد البلاء، فإنا لا نُثني حتى نَبْلُو [(٢)].

-رأى مع رجل درهماً، فقال: تحِبُّه؟ قال: نعم. أما إنه لا ينفعكُ حتى تفارقه.

-ما عرضتُ الإنصاف على رجل فقبله إلا هِبْتُه، ولا أباهُ إلا طمعتُ فيه.

-وقيل له: من السيد؟: قال: الذليلُ في نفسه، الأحمقُ في مالهِ، المعْنيُّ بأمر قومه، الناظر للعامّة.

- رُب رجل لا تُملُّ فوائده وإنْ غاب، وآخر لا يسلَمَ جليُسه وإن احُترس.

-أكرموا سفهاءَكم فإنهم يكفونكُم العار والنار.

-وإياكم والكسل والضجر، فإنك إن كسلت لم تؤردِّ حقاً، وإن ضَجِرت لم تصبر على حقٍّ.

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، زهر الأداب وثمر الألباب، تحقيق: أ. د / يوسف على طويل، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م، ٦٣/١.

(٢) أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، زهر الأداب وثمر الألباب، ٣٩٩/٢.

-الشرفُ مَن عُدَّت سقطاتُه.

- وقيل له: ما اللؤْم؟ قال: الاستعصاءُ على الملهوف.

- قيل: فما الجود؟ قال: الاحتيالُ للمعروف.

- وسمع رجلا يقول: ما بتُّ البارحةَ من وجع ضرس. وجعل يُكثر، فقال له الأحنف: كم تكثر فو الله لقد ذهبت عيني منذ ثلاثين سنة، فما قلتُ لأحد.

- استميلُوا النّساء بحسن الأخلاق وفُحْشِ النكّاح.

- وقال: وجدتُ الحلمَ أنصر لي من الرِّجال [1].

- وكان إذا أتاهُ إنسانٌ أوسع لهُ، فإن لم يجد موضعاً تحرك ليريه أنه يَوسعُ له[2].

- ما بعدَ الصواب إلا الخطأُ، وما بعد مَنْعِهِنَّ الأكْفاءَ بذلُهن للسلفة والغوغاء.

- لا تطلُبوا الحاجة إلى ثلاثة: إلى كذوبٍ فإنه يُقرِّبها عليك وهي بعيدةٌ، ويباعدُها وهي قريبةٌ، ولا أحمق فإنه يريد أن ينفعَك فيضرك، ولا إلى رجل له إلى صاحب الحاجة حاجةٌ، فإنه يجعلُ حاجتك وقاية لحاجته.

- وقال: ما كشفتُ أحداً قطُّ عن حال عنده إلا وجَدتُها دون ما كنتُ أظنُّ.

- وجرى ذكْر رجل عنده فاعتابوه. فقال الأحنفُ: ما لكُم ولهُ؟ يأكل لذَّته، ويكفي قِرنه، وتحملُ الأرض ثقله.

(١) أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، ٥ /٣٣ - ٣٥.
(٢) أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، ٥ /٣٦.

- لا تَعْدَّنَّ شتم الوالي شتماً، ولا إغلاظهُ إغلاظاً، فإن ريحَ العزة تبسط اللّسان بالغِلظةِ في غير بأس ولا سَخط.

- وقال: لا تنقبضُوا عن السُّلطان، ولا تتهالكُوا عليهِ، فإنه من أشرف للسلطان ازدراه، ومَنْ تفرغ له تخطاه. وقال: ما جَلستُ مذ كنت مَجلِسَ قُلعَةٍ ولا رددتُ على كُفو مقالةً تُسوءُه ولا خاصمتُ في أمرٍ كريهةٍ لي، لأن ما بذلتُ لصاحِبها أكثرُ مما أخاصِمُه فيه من أجْلِها.

- وقال كفى بالرجلِ حَزْماً إذا اجتمع عليه أمْران، فلم يدرِ أيُّهما الصَّوابُ أن ينظُرَ أغلبهما عليه فيحذرهُ.

- وقال بخُراسان: يا بني تَميم، تحابُّوا وتباذلوا تعْتدل أمورُكم، وابدءُوا بجهادِ بطونكم، وفروجِكم يصلُح دينكم، ولا تَغُلُّوا يسلم لكم جهادكم.

- وقال لأهل الكوفة: نحن أبعدُ منكم سرِّيةً، وأعظمُ منكم تجربةً، وأكثر منكم ذُرِّيةً، وأعْدى منكم برِّية (١).

(١) أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، ٥ /٤٢.

- لا تشاور المعزول فإن رأيه مغلول[١].

- اللسان قيمة الانسان فمن قومه زادت قيمته[٢].

- قال الأحنف بن قيس: يا معشر بني تميم لا تسرعوا إلى الفتنة فإن أسرع الناس إلى القتال أقلهم حياء من الفرار. وقد كانوا يقولون: إذا أردت أن ترى العيوب جمة فتأمل عياباً فإنه يعيب بفضل ما فيه من العيب. وأول العيب أن تعيب ما ليس بعيب. وقبيح أن تنهى عن مرشد أو تغري بمشفق. وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويمكم وإلا إصلاح فسادكم وإبقاء النعمة عليكم ولئن أخطأنا سبيل إرشادكم فما أخطأنا سبيل حسن النية فيما بيننا وبينكم[٣].

(١) الوطواط، غرر الخصائص الواضحة، ٤٩/١.
(٢) الوطواط، غرر الخصائالواضحة، ٩٥/١.
(٣) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البخلاء، تحقيق: أحمد العوامري بك - علي الجارم بك، دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت - ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، ص٣٣.

قتيبة بن مسلم

أعـــلام القـــادة

القائد قتيبة بـن مسلم

هو قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلي، أبو حفص: أمير، فاتح، من مفاخر العرب.

كان أبوه كبير القدر عند يزيد بن معاوية. ونشأ هو في الدولة المروانية. فولي الري في أيام عبد الملك ابن مروان، وخراسان في أيام ابنه الوليد. ووثب لغزو ما وراء النهر، فتوغل فيها.

وافتتح كثيرا من المدائن، كخوارزم، وسجستان، وسمرقند. وغزا أطراف الصين وضرب عليها الجزية.وأذعنت له بلاد ما وراء النهر كلها. واشتهرت فتوحاته، فاستمر ولايته ثلاث عشرة سنة، وهو عظيم المكانة مرهوب الجانب. ومات الوليد،واستخلف سليمان بن عبد الملك، وكان هذا يكره قتيبة، فأراد قتيبة الاستقلال بما في يده، وجاهر بنزع الطاعة. واختلف عليه قادة جيشه، فقتله وكيع ابن حسان التميمي، بفرغانة. وكان مع بطولته دمث الاخلاق، داهية، طويل الروية، راوية للشعر عالما به. قال أحد الاعاجم بعد مقتله: يا معشر العرب قتلتم قتيبة، ووالله لو كان فينا لجعلناه في تابوت واستفتحنا به غزونا. وقال المرزباني: وأهل البصرة يفخرون به وبولده.

كان أحد الأبطال والشجعان، ومن ذوي الحزم والدهاء والرأي والغَنَاء، وهو الذي فتح خوارزم وبخارى وسمرقند وكانوا قد نقضوا وارتُدوا. ثم أنه افتتح فرغانه، وبلاد الترك في سنة ٩٥هـ، ولي خراسان عشر سنين وله رواية عن عمران بن حصين، وأبي سعيد الخدري، ولم ينال قتيبة أعلى الرتب بالنسب، بل بكمال الحزم والعزم والإقدام، والسَّعد، وكثرة الفتوحات ووفور الهيبة.

كان قتيبة ومن معه من الفاتحين يحرصون على دعوة الناس

للإسلام، وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام، فكان قتيبة يهتم ببناء المساجد في المدن والقرى والأرياف ويصنع فيها العلماء والفقهاء لتربية الناس وتعليمهم الإسلام، وقام بتسكين المسلمين بين السكان الأصليين، ليطلعوا على تعاليم الإسلام وعادات المسلمين واخلاقهم عن طريق الاحتكاك بهم، مثل ما حدث مع أهل بخارى فأظهر الإسلام بهذه الطريقة، وأزال آثار الكفر ورسم المجوسية وبني ببخارى المسجد الجامع وأمر المسلمين باداء صلاة الجمعة فيه، ومن اساليب قتيبة في ترغيب الناس في الدخول في الإسلام، كان يأمر بمنادٍ كل يوم يقول: بأن كل من يأتي لصلاة الجمعة يعطى درهمين، ويعد هذا العمل طريقة جديدة في ذلك العهد في تأليف قلوب الناس للإسلام والحفاظ على الذين اعتنقوه.

وكان في جيشه مجموعة من العلماء، كمحمد بن واسع، والقاضي يحيى بن يعمر والضحاك بن مزاحم صاحب التفسير فقد ساهم أمثال هؤلاء في نشر الإسلام.

وكان محمد بن واسع ينافس قتيبة في بناء المساجد وقد صاحب عمليه انتشار الإسلام بين سكان ما وراء النهر سرعة تعلمهم اللغة العربية، حيث كان قتيبة يصدر أوامره ببناء المساجد ولم تكن تقتصر على إقامة شعائر الصلاة فقط وإنما فيها حلقات الدرس في تعليم القران الكريم والأحاديث النبوية الشريعة، وكان للمسجد والعلماء الذين أشرفوا عليها دور عظيم في تعليم السكان اللغة العربية.

وقد قال ابن كثير عن قتيبة: إنه ما انكسرت له راية وكان من المجاهدين في سبيل الله واجتمع له من العسكر ما لم يجتمع لغيره. وكان من نتائج الجهود التي بذلها قتيبة في نشر الإسلام، أن أصبحت بخارى وسمرقند وإقليم خوارزم مراكز للثقافة العربية ونشر الإسلام

في آسيا الوسطى، كما كانت مرو ونيسابور في خراسان، ومنها أيضاً دخول كثير من أهلي ما وراء النهر في دين الله أفواجا، فظهر بينهم عدد من الكتاب والمحدثين والفقهاء والمؤرخين، ممن لا يزال ذكرهم خالد، وآثارهم عظيمة في تاريخ الإسلام[١].

وقد مدحه الشعراء فقال نهار بن توسعة يذكر انتصار قتيبة على الاتراك:

أراك الله في الأتراك حكماً ::: كحكم في قريظة والنفير
قضاء من قتيبة غير جور ::: به يُشفي الغليلُ من الصدور

وقال كعب الأشقري يمدح قيادة قتيبة:

كل يوم يحوي قتيبة نهباً ::: ويزيد الأموال مالا جديداً
باهليٌ قد ألبس التاج حتى ::: شاب منه مفارق كنّ سُودا
دوّخ (السُّغد) بالكتائب حتى ::: ترك (الصُّغد) بالعراء قُعودا
فوليد يبكي لفقد أبيه ::: وأب موجع يبكي الوليدا
كلما حلّ بلدة أو أتاها ::: تركت خيله بها أخدودا

انتهت حياة هذا القائد الكبير نهاية حزينة أليمة، فقد مات الخليفة الوليد وتولى أخوه سليمان بن عبد الملك ٩٦ - ٩٩هـ وكانت العلاقة بين سليمان والحجاج ورجاله، ومنهم قتيبة غير حسنة، قيل: لأنهم كانوا وافقوا الوليد على خلع أخيه سليمان، وتولية ابنه عبد العزيز بن الوليد، فخشي قتيبة أن يعزله سليمان، فأرسل إليه رسائل يعزيه في الوليد ويهنئه بالخلافة، ويختبر نواياه نحوه، لكن سليمان لم يعزله، بل أرسل له عهداً بولاية خراسان، مع رسول خاص من عنده، تكريماً له ولكن قتيبة تعجل وخلع طاعة سليمان قبل وصول ذلك العهد، فغضب الناس واستنكروا خلع سليمان وثار الجند على قتيبه

(١) غانم السلطاني، قتيبة بن مسلم الباهلي ص ١٤٠.

فقتلوه، يقول الذهبي: ولما بلغه موت الوليد، نزع الطاعة، فاختلف عليه جيشه، وقام عليه رئيس تميم وكيع بن حسَّان، وألَّب عليه، ثم شَدَّ عليه في عشرة في فرسان تميم فقتلوه في ذي الحجة سنة ستٍّ وتسعين، وعاش ثمانياً وأربعين سنة [١].

وقال ابن كثير في سبب مقتل قتيبة بن مسلم: وذلك أنَّه جمع الجند والجيوش، وعزم على خلع سليمان وترك طاعته وذكر لهم همّته وفتوحه وعدله فيهم ودفعه الأموال الجزيلة إليهم، فلما فرغ من مقالته، لم يجبه أحد منهم إلى مقالته، فشرع في تأنيبهم وذمِّهم قبيلة قبيلة وطائفة طائفة، فغضبوا عند ذلك ونفروا عنه وتفرَّقوا، وعملوا على مخالفته وسعوا في مقتله وكان القائم بأعباء ذلك رجل يقال له: وكيع بن أبي سُود، فجمع له جموعاً كثيرة، ثم ناهضه فلم يزل به حتى قتله في ذى الحجة من هذه السنة، وقتل معه أحد عشر رجلا من إخوته وأبناء إخوته، ولم يبق سوى ضرار بن مسلم وكانت أُمُّه الغراء بنت ضرار بن القعقاع بن معبد بن سعد بن زُرارة، فحمته أخواله - وعمرو بن مسلم، وكان عامل الجوزجان وقتل قتيبة وعبد الرحمن وعبد الله وعبيد الله وصالح، وبشار، وهؤلاء أبناء مسلم وأربعة من أبنائهم فقتلهم كلهم وكيع بن سُود، وقد كان قتيبة بن مسلم من سادات الأمراء وخيارهم، وكان من القادة النجباء الكبراء، والشجعان وذوي الحروب والفتوحات السعيدة والآراء الحميدة، وقد هدى الله على يديه خلقاً لا يُحصيهم إلا الله فأسلموا ودانوا لله عز وجل، وفتح من البلاد والأقاليم الكبار والمدن العظام شيئاً كثيراً، كما تقدم ذلك مفصَّلاً مبيَّناً والله سبحانه لا يضيِّعُ سعيه ولا يخيِّبُ تعبه وجهاده، ولكن زلَّ زلة كان فيه حتفه وفعل فعلة رغم فيها أنفه،

(١) سير أعلام النبلاء،٤/٤١٠.

وخلع الطاعة فبادرت إليه المنية، وفارق الجماعة، فمات ميتة جاهلية، لكن سبق له من الأعمال الصالحة ماقد يكّفرُ الله بها عنه من سيئاته، ويمحو عنه من خطيَّاتِه والله يسامحه ويعفو عنه ويتقبَّلُ منه، ما كان يكابده من مُناجرة الأعداء[1].

مواقف من حياته:

مائة سيف شهير وشاب طرير :

لما صافَّ قتيبة بن مسلم للترك، وهاله أمرهم، سأل عن محمد بن واسع، فقيل: هو ذاك في الميمنة جامح على قوسه، يبصبص بأصبعه نحو السماء. قال: تلك الأصبع أحب إليّ من مئة ألف سيف شهير وشاب طرير، وهذا فهم راسخ من قتيبة بن مسلم الباهلي لأسباب النصر، ألا وهو التوكل على الله تعالى، وتوثيق الصلة به واستلهام النصر منه، ولقد عبأ جيشه وتأكد من حسن إعداده ولكنه بحاجة إلى التأكد مما هو أهم من الإعداد المادي حيث يتجاوز المسلمون بالسلاح المعنوي حدود التكافؤ المادي في القُوَى بمراحل عديدة ولما كان محمد بن واسع في جيشه سارع إلى السؤال عنه، فلما أخبر بأنه مستغرق في مناجاة الله تعالى ودعائه واطمأن قلبه وارتفع مستوى الأمل بالنصر عنده قال تلك الكلمات الإيمانيه الرفيعة: تلك الإصبع أحب إلى من مائة ألف سيف شهير وشاب طرير. إن قوى الأرض كلها بيد الله تعالى، وإن النظر إلى القوى المادية من حيث العدد

---

(١) البيان والتبيين ٢ / ١٣٢، المعارف ٤٠٦، الكامل للمبرد ٣ / ١٣، تاريخ الطبري ٦ / ٥٠٦، وما بعدها، معجم المرزباني ٢١٢، تاريخ ابن الأثير ٥ / ١٢، وفيات الأعيان ٤ / ٨٦، تاريخ الإسلام ٤ / ٤٥، العبر ١ / ١١٤، سرح العيون ١٨٦، تاريخ ابن خلدون ٣ / ٥٩ و٦٦، النجوم الزاهرة ١ / ٢٣٣، شذرات الذهب ١ / ١١٢، خزانة الأدب ٣ / ٦٥٧، رغبة الآمل ٣ / ٦ و٦ / ١١٨. البداية والنهاية، ٦١٦/١٢، الصلابي، الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار، ٣ /١٨٥.

والعُدد والمواقع، إنما هو حسابات البشر والله جل جلاله قادر على تغيير هذه الموازين في لحظة، وإن من أهم استجلاب نصر الله تعالى دعاء الصالحين، فلذلك استبشر قتيبة خيراً حينما علم باستغراق محمد بن واسع في الدعاء، وهذا الفهم الرفيع من قتيبة رحمه الله يبين لنا سبباً مهما من أسباب انتصاراته الباهرة، التي ظلت تتولى أكثر من عشر سنوات فبالرغم من كونه بطلا لا يُشَقّ له غبار، وقائداً مخططا يضع للأمور أقرانها، وسياسيا محنكا لا يُخدع، فإنه لم يغتر بكل ذلك بل اعتبر ذلك كله من الأمور الثانوية، ونظر قبل ذلك إلى مدى توثيق الحبل الذي يصل جيشه بالله تعالى فلما عرف بأن محمد بن واسع قد وصل ذلك الحبل بالدعاء وبما سبق ذلك من شهرته بالإيمان القوي والعمل الصالح حصل له اليقين وزال عنه سبب من أسباب الخوف المتمثل بضعف الصلة بالله تعالى(١).

فأشكو ربي:

عن المدائني قال: دخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم في مدرعة صوف فقال: ما يدعوك إلى لبس هذه؟ فسكت فقال له بعض جلسائه: يكلمك الأمير ولا تجيبه! فقال: أكره أن أقول زاهدا فأزكي نفسي أو أقول فقيرا فأشكو ربي(٢).

هذا وأبيك السؤدد والشرف:

قال قتيبة بن مسلم أرسلني أبي إلى ضرار بن القعقاع بن معبد بن زرارة فقال: قل له: كان في قومك دم وجراح وحمالات وقد اجتمعوا في المسجد وأحبوا حضورك وأن يحملوك بعض ذلك ويقسم باقي

---

(١) سير أعلام النبلاء، ١٢١/٦، الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، ٣ /١٨٦.

(٢) الدينوري، المجالسة وجواهر العلم،٣٥٠/١.

ذلك على من حضر المسجد قال قتيبة فدخلت عليه منزله فأخبرته، فقال:يا جارية غديني فجاءت له بكسيرات خشن وبتميرات وشيء من زيت فجعلتهن في مريس، ثم صبت عليه من الزيت والماء فأكل ثم شرب عليه شربة من ماء ومسح يده. قال قتيبة: فجعل شأنه يصغر في عيني، وقلت: وما عسى أن يكون من هذا، فلما فرغ قال: الحمد لله حنطة الأهواز وتمر وزيت الشام من يقدر يؤدي شكر هذا، ثم أخذ نعليه وارتدى بردائه، ثم انطلق معي إلى المسجد الجامع، فصلى ركعتين، فجعلت أنظر إلى كسوته فإذا هي رثة تساوي دريهمات، فقلت في نفسي: ما يغني هذا لو صلح صلح لنفسه، ثم قام حتى أتى حلقة القوم، فلما أتاهم قام له وجوه أشراف البصرة، فجلس واحتبى وداروا حوله حلقة، فاجتمع الطالبون والمطلوبون، فأكثروا الكلام فقال: إلى ماذا صار أمرهم؟ قالوا: إلى خمس وأربعين دية، فقال لهم: هي علي كلها، ثم قام فالتفت أبي إلى من حضر فقال هذا وأبيك السؤدد والشرف [1].

طالما لفظها الكرام:

اغتاب رجل رجلا عند قتيبة بن مسلم، فقال له قتيبة: أمسك أيها الرجل، فوالله لقد تلمظت بمضغة طالما لفظها الكرام[2].

حمدنا الله وعذرناك:

دخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم، فقال له: أتيتك في حاجة رفعتها إلى الله قبلك، فإن تقضيها حمدنا الله وشكرناك، وإن لم تقضها حمدنا الله وعذرناك، فأمر له بحاجته[3].

(١) الدينوري، المجالسة وجواهر العلم،٤٠٧/١.
(٢) المصدر السابق،٤٦٥/١.
(٣) المصدر السابق،٧٠٢/١.

قال المدائني: أراد الحجاج قتل من بقي في ديوان ابن الأشعث من أصحابه حين ظفر بهم، فقال له قتيبة بن مسلم: أصلح الله الأمير، إن الله قد أعطاك ما تحب من الظفر، فأعطه ما يحب من العفو، فبلغ ذلك عبد الملك، فقال: لله در قتيبة لقد أبلغ في الموعظة، ولقد أحسن الحجاج في القبول(١).

اسقِهِ ماءً:

قالوا: مدَّ الشعبي يدهُ وهو على مائدة قتيبة بن مسلم يلتمس الشرابَ فلم يَدْرِ صاحبُ الشرابِ اللبن أم العسلَ أم بعضَ الأشربة فقال له: أي الأشربةِ أحبُّ إليك قال: أعزُّها مفقوداً وأهونُها موجوداً قال قُتيبة: اسقِهِ ماءً(٢).

ويحك! بأي وجه تلقاني؟

هجا نهار بن توسعة قتيبة بن مسلم، وكان ولي خراسان بعد يزيد ابن المهلب، فقال:

كانت خراسان أرضاً إذ يزيد بها ::: وكل باب من الخيرات مفتوح
فبدلت بعده قرداً نطوف به ::: كأنما وجهه بالخل منضوح

فطلبه فهرب منه، ثم دخل عليه بكتاب أمه، فقال له: ويحك! بأي وجه تلقاني؟ قال: بالوجه الذي ألقى به ربي وذنوبي إليه أكثر من ذنوبي إليك. فقر به ووصله وأحسن إليه(٣).

بادِل! بهم مَن شئت وجَنِّبني باهلة:

قال قُتيبة بن مُسلم لهُبيرة بن مَسْروح: أي رجل أنت لو كانت أحوالك

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ٤٤٧/٢.
(٢) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الجيل، لبنان/ بيروت، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، ١٣٧/٥.
(٣) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١٣٦/١.

من غير قبيلة سَلولِ! فبادل بهم، قال: أصْلح اللّه الأمير، بادِل! بهم مَن شئت وجَنِّبني باهلة. وكان قتيبة من باهلة(١).

في مجلس قتيبة بن مسلم الباهلي:

ويزعم الرواة: أن قتيبة بن مسلم لما فتح سمرقند أفضى إلى أثاث لم ير مثله، وإلى آلات لم ير مثلها، فأراد أن يرى الناس عظيم ما فتح الله عليه، ويعرفهم أقدار القوم الذين ظهر عليهم، فأمر بدار ففرشت، وفي صحنها قدور ترتقي بالسلالم، فإذا بالحضين بن المنذر بن الحارث بن وعلة الرقاشي قد أقبل. والناس جلوس على مراتبهم، والحضين شيخ كبير. فلما رآه عبد الله بن مسلم قال لقتيبة: ائذن لي في معاتبته. قال: لا ترده فإنه خبيث الجواب، فأبى عبد الله إلا أن يأذن له - وكان عبد الله يضعف، وكان قد تسور حائطاً إلى امرأة قبل ذاك - فأقبل على الحضين بن المنذر فقال: أمن الباب دخلت يا أبا ساسان؟ قال: أجل، أسن عمك عن تسور الحيطان، قال: أرأيت هذه القدور؟ قال: هي أعظم من ألا ترى. قال: ما أحسب بكر بن وائل رأى مثلها! قال: أجل، ولا عيلان، لو كان رآها سمي شعبان، ولم يسم عيلان، قال له عبد الله: يا أبا ساسان، أتعرف الذي يقول:

عزلنا وأمرنا وبكر بن وائل ::: تجر خصاها تبتغي من تحالف

قال:أعرفه، وأعرف الذي يقول:

خيبة من يخيب على غني ::: وباهلة بن يعصر والركاب

يريد يا خيبة من يخيب. قال. أفتعرف الذي يقول:

كأن فقاح الأزد حول ابن مسمع ::: إذا عرقت أفواه بكر بن وائل

قال: نعم. وأعرف الذي يقول:

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ٤٨٣/١.

قــــوم قتيبــــة أمهـــم وأبـــوهم ::: لولا قتيبــــة أصـــبحوا في مجهـــل

قال: أما الشعر فأراك ترويه. فهل تقرأ من القرآن شيئاً؟ قال أقرأ منه الكثر الأطيب:{هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا} [الإنسان: ١]، قال: فأغضبه. فقال: والله لقد بلغني أن امرأة الحضين حملت إليه وهي حبلى من غيره. قال: فما تحرك الشيخ عن هيئته الأولى. ثم قال على رسله: وما يكون! تلد غلاماً على فراشي فيقال: فلان ابن الحضين، كما يقال: عبد الله بن مسلم. فأقبل قتيبة على عبد الله فقال: لا يبعد الله غيرك(١).

هكذا يفعل بالحرة:

قال: خرج رجل مع قتيبة بن مسلم إلى خراسان، وخلف امرأة يقال لها: هند من أجمل نساء زمانها، فلبث هناك سنين، فاشترى جارية اسمها جمانة، وكان له فرس يسميه الورد، فوقعت الجارية منه موقعاً، فأنشأ يقول:

ألا لا أبالي اليوم ما فعلـــت هنـــد ::: إذا بقيت عندي الجمانـــة الـــورد
شديد مناط القصريين إذا جـــرى ::: وبيضاء مثل الرئم زينـــها العقـــد
فهـــذا لأيـــام الهيـــاج وهـــذه ::: لحاجة نفسي حين ينصرف الجنـــد

فبلغ ذلك هنداً فكتبت إليه:

ألا أقره مني الســـلام وقـــل لـــه ::: عنينـــا بفتيـــان غطارفـــةٍ مـــرد
فهـــذا أمـــير المـــؤمنين أميرهـــم ::: سبانا وأغنـــاكم أراذلـــة الجنـــد
إذا شاء منهم ناشـــئٌ مـــد كفـــه ::: إلى كبد ملســـاء أو كفـــلٍ نهـــد

فلما قرأ كتابها، أتى به إلى قتيبة، فأعطاه إياه، فقال له: أبعدك الله، هكذا يفعل بالحرة وأذن له في الانصراف(٢).

(١) الكامل في اللغة و الأدب،٣ /١٢.
(٢) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري،المحاسن والأضداد، ١٥٤/١.

أفٍ لك إن كنت كما تقول:

تزوج فضالة بن عبد الله الغنوي امرأة بخراسان فأبغضته فنافرته إلى قتيبة بن مسلم قال له: هل بينك وبينها قرابة؟ قال: لا. قال: ففيم تحتمل هذا لها وقد جعل الله لك إلى الراحة منها سبيلاً؟ قال: إني أحبها ولقد كنت أهزأ بالرجل تبغضه المرأة وهو يحبها، فابتليت فقال قتيبة: فلا تحبن من لا يحبك، فهي والله تنظر إليك بعين فارك، ثم قال لها: مالك ويحك ولزوجك قالت: أبغضته لخصال أذكرها: هو والله قليل الغيرة، سريع الطيرة، كثير العتاب، شديد الحساب قد أقبل، بخره وأدبر ذفره، واسترخى ذكره وطمحت عيناه، واضطربت رجلاه، يفيق سريعاً، وينطق رجيعاً وهو أيضاً يأكل هرساً، ويمشي خلساً ويصبح رجساً لا يغتسل من جنابة ولا يأمن من شره أصحابه، إن جاع جزع وإن شبع خشع، فقال له قتيبة: أفٍ لك أن كنت كما تقول، طلقها قبح الله رأيك فطلقها " (١)

أنت عندي مثل سالم:

ومن الكنايات، ما حكى أن قتيبة بن مسلم دخل على الحجاج وبين يديه كتاب قد ورد إليه من عبد الملك، وهو يقرؤه، ولا يعلم معناه، وهو مفكر، فقال: ما الذى أحزن الامير؟ قال: كتاب ورد من أمير المؤمنين، لا أعلم معناه؟ فقال: إن رأى الامير إعلامى به! فناوله إياه، وفيه: (أما بعد، فإنك سالم، والسلام).

فقال قتيبة: مالى إن استخرجت لك ما أراد به؟ قال: ولاية خراسان، قال: إنه ما يسرك أيها الامير، ويقر عينك، إنما أراد قول الشاعر:

يديرونني عــن ســالم وأديــرهم ::: وجلدة بين العين والأنــف ســالم

(١) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص٤٣.

أي أنت عندي مثل سالم عند هذا الشاعر، فولاه خراسان [١].

أماني قوم بحسب أحوالهم:

قال قتيبة بن مسلم للحصين بن المنذر: ما تتمنى؟ فقال: لواء منشور وجلوس على السرير وسلام عليك أيها الأمير. وقيل لعبد الله بن الاهتم ذلك فقال: رفع الأولياء وقمع الأعداء وطول البقاء مع القدرة والنماء. وقيل ذلك للفضل بن سهل فقال: توقيع نافذ وأمر جائر. وقيل لحكيم تمن فقال: محادثة الأخوان وكفافاً من عيش والانتقال من ظل إلى ظل. وقيل ذلك لمطرف فقال: مركب وطي ومطعم شهي وملبس دفي. وقيل لآخر فقال: شواء مستنشل وغناء مسترسل ونكاح مستعجل. وقال بعضهم: العي كله في صحة البدن وكثرة المال وخمول الذكر. وقيل لحكيم فقال: هوى وافق حقاً. وقيل لرجل فقال: أن تعطي جوارحك لذاتها. وقيل لأعرابي فقال: خباء في أرض خلاء وكلب إذا أصابه المطر زاحمني فيه. وقيل لابن سنان فقال: ليل طويل الطرفين أقرن بينهما بذكر الله تعالى. وقيل لمأبون فقال: لذة الابنة وحك الجرب فمن حرمهما فقد حرم لذات الدنيا! نعوذ بالله من بعض الأماني[٢].

مدح اللحية والاعتذار لها:

دخل رجل على قتيبة بن مسلم، وكان عظيم اللحية وقتيبة خفيف اللحية فقال: لقد كبرت لحيتك، فقال: والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، والذي خبث لا يخرج إلا نكداً، فقال قتيبة: قل لا يستوي الخبيث

(١) عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد، أبو حامد، عز الدين (المتوفى: ٦٥٦هـ)، شرح نهج البلاغة، المحقق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، ٣٦/٥.
(٢) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ٢٠٦/١.

والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث[١].

باب من أبواب الجنة:

قيل: موت الأبوين سد بابين من أبواب الجنة. قال قتيبة بن مسلم: لما ماتت أمه لأبي مجلز: لقد سد دوني باب من أبواب الجنة. قال: نعم وباب من أبواب النار لأنك ما كنت تأمن أن تعقها[٢].

ويَل أمِّ قتيبة:

كتب الحجاجُ إلى قتيبة بن مُسلم: أني قد طلقت أم خالد بنت قطن الهلالية عن غير ريبة، ولا سوءٍ، فتزوَّجْها. فكتب إليه قتيبة: إنه ليس كلُّ مَطالع الأمير أحِبُّ أن أطلع. فقال الحجاج: ويَل أمِّ قتيبة. وأعجبه ذلك [٣].

ذلك الظن بك:

قال أخبرنا عبد القاهر بن السرى قال: أصاب قتيبة بن مسلم قميصاً منسوجاً باللؤلؤ فبعث به إلى الحجاج بن يوسف فبعث به الحجاج إلى الوليد ثم تتبعته نفس الحجاج فكتب إلى قتيبة أما بعد:فإنا كنا أنفذنا ما أنفذته إلينا إلى الوليد وما أحسبك إلا قد احتسبت مثله قبلك لنسائك وبناتك، فآثرنا بما قبلك منه فكتب إليه: لأن آكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله أحب إلي من أن أدخر عنك علقاً.فكتب إليه ذلك الظن بك[٤].

(١) المصدر السابق، ٤٦١/١.
(٢) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء،٦٣/٢.
(٣) أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، تحقيق خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، ٥٨/٥.
(٤) الزجاجي، الأمالي، ٢٦/١.

قبَّحك الله من مُشير:

قام بعض الشعراء إلى قُتيبة بن مسلم الباهليّ أول ما وافى خراسان والياً عليها فأنشده:

شُدَّ العِقابَ على البريء وما جنى ::: حتَّى يكونَ لغيره تنكيلا
والجهلُ في بعض الأمور وإنْ علا ::: مُستخرجٌ للجاهلين عُقولا

فقال له قتيبة: قبَّحك الله من مُشير، لا أقمتَ معي في بلدة، ونفاه إلى خراسان(١).

بلغني أنك تشرب النبيذ:

قال قتيبة بن مُسلم لقاضي مَرو: بلغني أنك تشرب النبيذ، فقال: نعم أصلحك الله أشرب منه ما يبل العقل ويُطيب النفس ويغني عن الماء ويهضم الطعام، قال: فما أبقيت منه، قال: أبقيت أخبثه وأرداه؛ الاتكاء على الشمال، ومنادمة الأوغاد والاختلاف إلى المَبال(٢).

من كلامه:

- الخطأ مع الجماعة أحب إلي من الصواب مع الفرقة وإن كانت الجماعة لا تخطئ والفرقة لا تصيب(٣).

- وكان قتيبة بن مسلم يقول لأصحابه: إذ غزوتم فأطيلوا الأظفار وقصروا الشعور، والحظوا الناس شزراً، وكلموهم رمزاً، واطعنوهم وخزاً(٤).

- لا تطلبن الحوائج من كذوب،فإنه يقربها وإن كانت بعيدة، ويبعدها إن كانت قريبة؛ ولا إلى رجل قد جعل المسألة مأكلة، فإنه يقدم

(١) الخالديان، الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين، ١٢٢/١.
(٢) الرقيق القيرواني، قطب السرور في اوصاف الخمور، ٥٠/١.
(٣) الآداب الشرعية، ٤٠٥/١.
(٤) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ٣٨/١.

حاجته قبلها، ويجعل حاجتك وقاية لها؛ ولا إلى أحمق فإنه يريد نفعك فيضرك [١].

- ملاك الأمر في السلطان: الشّدة على المذنب، واللّين للمحسن، وصدق القول [٢].

- من أعجب برأيه، لم يشاور كفيا، ولم يوات نصيحاً[٣].

- الخطأ مع الجماعة خيرٌ من الصواب مع الفرقة، وإن كانت الجماعة لا تخطئ، والفرقة لا تصيب [٤].

- اعتذر إلى قتيبة بن مسلم رجل فقبل منه،ثم قال:لا يدعونك أمرٌ قد تخلصت منه إلى الدخول فيما لعّلك لا تتخلص منه[٥].

- قال قتيبة بن مسلم لبنيه: لا تمازحوا فيستخف بكم، ولا تدخلوا الأسواق فترقَّ أخلاقكم، ولا تبخلوا فيزدريكم أكفاؤكم[٦].

خطب قتيبة بن مسلم الباهلى

- خطبته يحث على الجهاد وقد تهيأ لغزو طخارستان

قدم قتيبة بن مسلم الباهلي خراسان واليا عليها من قبل الحجاج سنة ٨٦، فلما تهيأ لغزو أخرون و شومان وهما من بلاد طخارستان خطب الناس وحثهم على الجهاد فقال: إن الله أحلكم هذا المحل ليعز دينه، ويذب بكم عن الحرمات، ويزيد بكم المال استفاضة والعدو وقما ووعد نبيه النصر بحديث صادق، وكتاب ناطق فقال:{ هُوَ

(١) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري،المحاسن والأضداد، مكتبة الخانجي - القاهرة / مصر - ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، ص٣٠.
(٢) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ص٧١.
(٣) المصدر السابق، ص٩٩.
(٤) المصدر السابق، ص٩٩.
(٥) المصدر السابق، ص١٠٦.
(٦) المصدر السابق، ص١٢٥.

ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾} [التوبة: ٣٣]، ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده فقال:{ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ} [التوبة: ١٢٠ - ١٢١]، ثم أخبر عمن قتل في سبيله أنه حي مرزوق فقال:{وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾} [آل عمران: ١٦٩]، فتنجزوا موعود ربكم ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضي ألم وإياكم والهوينى.

- خطبته وقد تهيأ لغزو بلاد السغد

ولما صالح قتيبة أهل خوارزم وسار إلى السعد سنة ٩٣هـ خطب الناس فقال: إن الله قد فتح لكم هذه البلدة في وقت الغزو فيه ممكن وهذه السغد شاغرة برجلها قد نقضوا العهد الذي كان بيننا ومنعونا ما كنا صالحنا عليه طرخون، وصنعوا به ما بلغكم وقال الله تعالى:{فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ} [الفتح: ١٠]، فسيروا على بركة الله فإني أرجو أن يكون خوارزم والسغد كالنضير وقريظة وقال الله تعالى:{وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا} [الفتح: ٢١] (١).

- خطبته وقد سارت إليه جيوش الشاش وفرغانة:

وأتي قتيبة السغد فحصرها شهرا وخاف أهلها طول الحصار فكتبوا إلى ملك الشاش وفرغانة: إنا نحن دونكم فيما بينكم وبين العرب فإن

(١) جمهرة خطب العرب، ٢ /٣٠٥.

وصل إلينا كنتم أضعف وأذل فمهما كان عندكم من قوة فابذلوها، فجمعوا جموعهم، وولوا عليهم ابنا لخاقان، وساروا وقد أجمعوا أن يبيتوا عسكر قتيبة ونمي ذلك إليه فانتخب أهل النجدة والبأس ووجوه الناس وخطبهم فقال: إن عدوكم قد رأوا بلاء الله عندكم، وتأييده إياكم في مزاحفتكم ومكاثرتكم كل ذلك يفلجكم الله عليهم فأجمعوا على أن يحتالوا غرتكم وبياتكم واختاروا دهاقينهم وملوكهم وأنتم دهاقين العرب وفرسانهم وقد فضلكم الله بدينه فأبلوا لله بلاء حسنا تستوجبون به الثواب مع الذب عن أحسابكم[1].

- خطبه حين دعا إلى خلع سليمان بن عبد الملك:

وقام بخراسان حين خلع سليمان بن عبد الملك ودعا الناس إلى خلعه، فقال للناس: إني قد جمعتكم من عين التمر وفيض البحر فضممت الأخ إلى أخيه والولد إلى أبيه، وقسمت بينكم فيئكم وأجريت عليكم أعطياتكم غير مكدرة ولا مؤخرة وقد جربتم الولاة قبلي أتاكم أمية، فكتب إلى أمير المؤمنين: إن خراج خراسان لا يقوم بمطبخي ثم جاءكم أبو سعيد فدوم بكم ثلاث سنين لا تدرون أفي طاعة أنتم أم في معصية لم يجب فيئا ولم ينكأ عدوا ثم جاءكم بنوه بعده يزيد فحل تباري إليه النساء وإنما خليفتكم يزيد بن ثروان هبنقة القيسى فلم يجبه أحد فغضب فقال: لا أعز الله من نصرتم، والله لو اجتمعتم على عنز ما كسرتم قرنها يأهل السافلة، ولا أقول أهل العالية يا أوباش الصدقة جمعتكم كما تجمع إبل الصدقة من كل أوب، يا معشر بكر بن وائل يأهل النفخ والكذب والبخل بأي يوميكم تفخرون، بيوم حربكم أم بيوم سلمكم، فوالله لأنا أعز منكم يا أصحاب مسيلمة يا بني ذميم، ولا أقول تميم بأهل الخور والقصف والغدر كنتم تسمون الغدر

(١) جمهرة خطب العرب، ٢ /٣٠٦.

في الجاهلية كيسان يا أصحاب سجاح.

يا معشر عبد القيس، القساة تبدلتم بأبر النخل أعنة الخيل يا معشر الأزد تبدلتم بقلوس السفن أعنة الخيل والحصن إن هذا لبدعة في الإسلام، والأعراب وما الأعراب لعنة الله على الأعراب يا كناسة المصرين جمعتكم من منابت الشيح والقيصوم ومنابت القلقل تركبون البقر والحمر في جزيرة ابن كاوان حتى إذا جمعتكم كما يجمع قزع الخريف قلتم كيت وكيت أما والله إني لابن أبيه وأخو أخيه أما والله لأعصبنكم عصب السلمة إن حول الصليان الزمزمة يأهل خراسان هل تدرون من وليكم وليكم يزيد بن ثروان كأني بأمير مزجاء وحكم قد جاءكم فغلبكم على فيئكم وأطلالكم، إن هاهنا نارا ارموها أرم معكم ارموا غرضكم الأقصى، قد استخلف عليكم أبو نافع ذو الودعات إن الشأم أب مكفور حتى متى ينبطح أهل الشأم بأفنيتكم وظلال دياركم يأهل خراسان انسبوني تجدوني عراقي الأم عراقي الأب عراقي المولد عراقي الهوى والرأي والدين، وقد أصبحتم اليوم فيما ترون من الأمن والعافية قد فتح الله لكم البلاد وآمن سبلكم فالظعينة تخرج من مرو إلى بلخ بغير جوار، فاحمدوا الله على النعمة وسلوه الشكر والمزيد ثم نزل[١].

وورد كلام قتيبة في هذا الصدد في العقد الفريد والبيان والتبيين في ثلاث خطب هذا نصها:

من عظم كبره اشتد عجبه ومن أعجب برأيه لم يشاور كفيا ولم يؤامر نصيحا ومن تفرد بالنظر لم يكمل له الصواب ومن تبجح بالانفراد وفخر بالاستبداد كان من الصواب بعيدا ومن الخذلان قريبا - ومن تكبر على عدوه حقره وإذا حقره تهاون بأمره ومن تهاون بخصمه

(١) جمهرة خطب العرب، ٢ /٣٠٦ - ٣٠٩.

ووثق بفضل قوته قل احتراسه ومن قل احتراسه، كثر عثاره، وما رأيت عظيم الكبر صاحب حرب إلا كان منكوبا، فلا والله حتى يكون عدوه عنده وخصمه فيما تغلب عليه أسمع من فرس، وأبصر من عقاب وأهدي من قطاة، وأحذر من عقعق، وأشد إقداما من الأسد وأوثب من الفهد، وأحقد من جمل وأروغ من ثعلب، وأغدر من ذئب، وأسخى من لافظة، وأشح من صبي، وأجمع من ذرة وأحرس من كلب وأصبر من ضب، فإن النفس تسمح من العناية على قدر الحاجة وتتحفظ على قدر الخوف، وتطلب على قدر الطمع وتطمع على قدر السبب(١).

- ملاك السلطان الشدة على المريب، والإغضاء عن المحسن، ولين القول لأهل الفضل (٢).

- إذا تخالجتك الأمور فاستقل بأعظمها خطراً، فإن لم يستبن فأرجاها دركاً، فإن اشتبهت عليك فأحراها أن لا يكون لها مرجوع عليك(٣).

- خير الخير وأحصنه خيرٌ عيش فيه. وكلُّ خيرٍ كان يرضخ بذلاً كان من المتالف ممنوعاً، ومن الغير آمناً.

وحسَّاد النعمة إن أعطوا منها وتبحبحوا فيها، ازدادوا عليها غيظاً وبها إغراء.

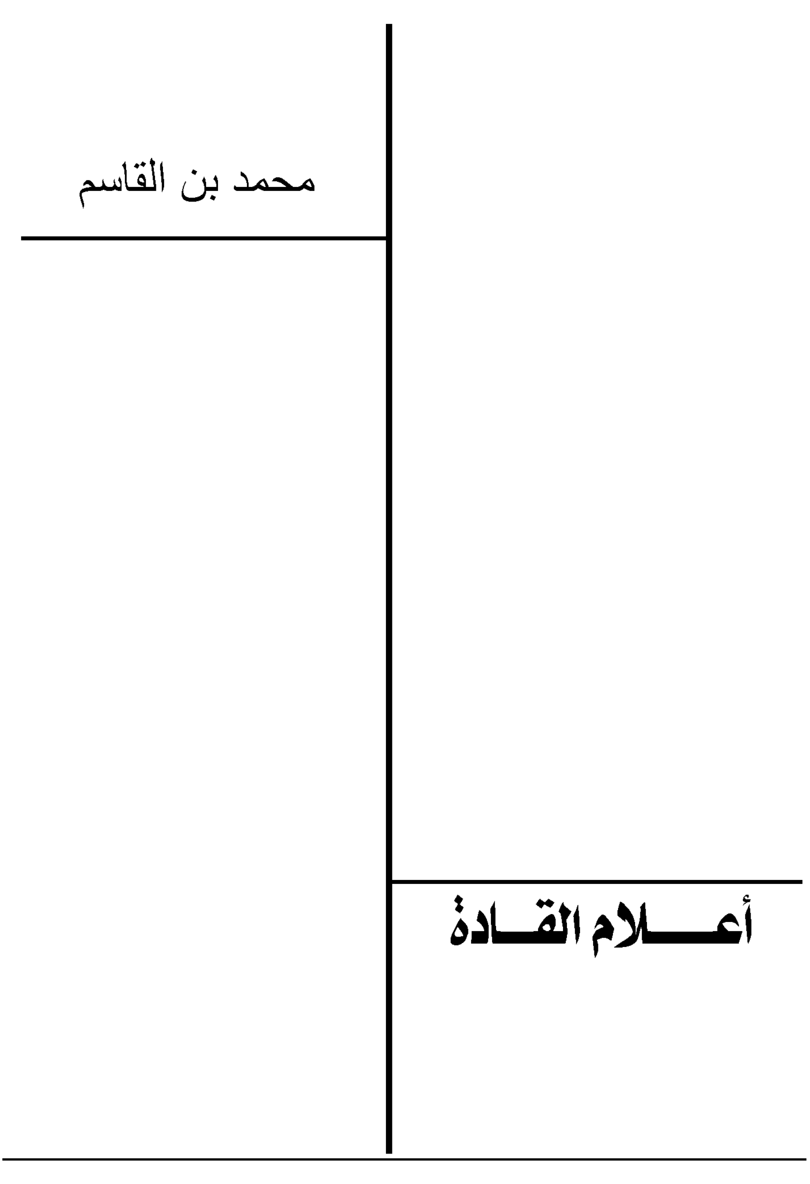
---

(١) جمهرة خطب العرب، ٢ /٣١٣.
(٢) أسامة بن منقذ، لباب الآداب، ص١٣.
(٣) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ٣٧٥/١.

- العداوة تُخلِقُ وتُمَلُّ، والحسد غضٌّ جديد، حرم أو أعطي، لا يبيد. فكلُّ حاسد عدو بحاسد. وإنما حمل اليهود على الكفر بمحمد - وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم أنه نبيٌّ صادق ورسول محق، يقرءون بعثه في توراتهم، ويتدارسونه في بيت مدْراسهم - الحسد، وحجز بين علمائهم والإيمان به، ثم نتج لهم الحسد عداوته[1].

* * *

(١) الجاحظ، الرسائل، ١/٧٥.


محمد بن القاسم
أعـــلام القـــادة

القائد محمد بن القاسم

محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم ابن أبي عقيل الثقفي: فاتح السند، وواليها. من كبار القادة، ومن رجال الدهر في الدولة الأموية، قاد الجيوش لسبع عشرة سنة، كان أبوه والي البصرة للحجاج.

افتتح عددا من البلاد وانساح فيها فتحا وتنظيما، إلى أن جاءته الأنباء بوفاة الحجاج ثم الوليد ابن عبد الملك. وولاية سليمان بن عبد الملك. وكان سليمان شديد النقمة على الحجاج وعماله، فلما ولي، بعد موت الحجاج عمد إلى أقربائه وكتابه وعماله فنكبهم، وعزل محمد ابن القاسم وأمر بحمله من السند مقيدا، فحمل إلى واسط، وعذب بها، فقال شعرا يعاتب به بني مروان، فأمر سليمان بإطلاقه فأطلق، ثم قتله معاوية ابن يزيد بن المهلب. وقيل: مات في العذاب. وقال ابن حزم: قتل نفسه في عذاب يزيد بن المهلب [1].

محمد بن القاسم الثقفي وفتح السند: ٨٩ - ٩٦هـ:

كان انتصار المسلمين في معركة القادسية في عهد عمر بن الخطاب إيذاناً لهم بفتح السند، فقد استنجد كسرى الفرس ببعض ملوك البلاد المجاورة ومنها مملكة السند حيث أمده ملك السند بالمال والرجال الأمر الذي اضطر المسلمين بمهاجمة السند رداً على تدخلهم ضدهم في معركة القادسية ولذلك فإن البلاذري يحدثنا عن حملات إسلامية مبكرة على السند كان أولها في عهد عمر بن الخطاب، وكان ثانيها في عهد علي بن أبي طالب، كما نفهم من رواية البلاذري أن عثمان بن عفان كان أيضا مهتما بتقصي تحركات السند، كما أن البلاذري

(١) خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢ م، ٦ / ٣٣٣.

يوضح الأسباب التي حولت هذه الحملات إلى فتح منظم للسند في الأسباب الآتية

- اكتشاف تحالف آخر بين السند والترك حيث لقي المهلب في عهد معاوية بن أبي سفيان ثمانية عشر فارساً من الترك ببلاد القيقان بالهند، لذلك تلاحقت حملات معاوية فأغار عبد الله بن سوار وسنان بن سلمة ابن المحبق الهذلي فأتى الثغر ففتح مكران عنوة ومصرها وأقام بها.

- أعمال القرصنة البحرية التي كان يقوم بها الهنود حيث يذكر البلاذري أن البوارج الهندية قد استولت على سفينة كانت تحمل نساء مسلمات أرسلهن ملك جزيرة الياقوت هدية إلى الحجاج بن يوسف فنادت امرأة من تلك النسوة وكانت من يربوع: يا حجاج وبلغ الحجاج ذلك فقال: يا لبيك فأرسل إلى داهر يسأله تخلية النسوة. فقال أخذهن لصوص لا أقدر عليهم، لذلك أرسل الحجاج بن يوسف عبيد الله بن نبهان إلى الديبل " كراتشي اليوم " فقتل، فكتب إلى بديل بن طهفة البجلي وهو بعمان يأمره أن يسير إلى الديبل، لكن الهنود استطاعوا محاصرته وقتله أيضا(١).

وتبدّى للحجاج مدى الإهانة التي تلحق بهيبة المسلمين وخطورتها إن هو سكت على هذا الأمر، فاختار محمد بن القاسم وكان بفارس، وكان قد أمره أن يسير إلى (الريّ)، فردّه إليه، وعقد له على ثغر (السند)، وضمّ إليه ستة الآف من جند أهل الشام، وجهّزه بكلِّ ما احتاج اليه - حتى الخيوط والإبر والمال - وأمره أن يقيم بشيراز حتى يكمل حشد رجاله ويوافيه ما أعدّ له، واهتمّ الحجاج اهتماما

(١) محمد النجرامي، العلاقات السياسية بين الهند والخلافة العباسية، ص٣٠،الصلابي، الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار، ٣ /١٨٩.

بالغاً في إنجاز إستحضارات جيش محمد بن القاسم حتى بلغ بذلك حدّ الروعة حقاً فلم ينس أصغر التفاصيل الإدارية لإكمال الستحضارات هذا الجيش، حتى إنه عمد إلى القطن المحلوج فنُقع في الخل الأحمر الحاذق، ثم جُفّف في الظل وقال لهم: إذا صرتم إلى (السِّند) فإن الخل بها ضيِّق، فانقعوا هذا القطن في الماء، ثم اطبخوا به واصطبغوا. ويقال: إن محمداً لما صار إلى ثغر السِّند، كتب يشكو ضيق الخلِّ عليهم، فبعث الحجاج إليه بالقطن المنقوع في الخل.

مضى محمد إلى إقليم السند ففتحها، واستولى علي عاصمة الإقليم مدينة الديبل وأنزل فيها محمد بن القاسم أربعة الآف من المسلمين وبنى عليها جامعها، فكان أول جامع بني في هذه المنطقة، وبعد ذلك تمكن من قتل داهر ملك الهند، ولما قتل (داهر) غلب محمد على بلاد السند فتح.

وعظمت فتوح محمد، فراجع الحجّاج حساب نفقاته على هذه الحملة، فكانت ستين ألف ألف درهم فقال: شفينا غيضنا، وأدركنا ثأرنا، وازددنا ستين ألف ألف درهم ورأس داهر.

لقد أنجز محمد هذا الفتح كله في المدة بين سنة تسع وثمانين الهجرية وأربع وتسعين الهجرية[١].

و بينما محمد بن القاسم يدبر أمر السند وينظم أحواله بعد الفتح ويستعد لفتح إمارة قنوج وهي أعظم الإمارات في شمال الهند توفي الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦هـ وتولى أخوه سليمان ٩٦ـ ٩٩ هـ الذي بدأ يغير ولاة الحجّاج، فعين على العراق رجلاً من ألد أعداء الحجّاج، وهو صالح بن عبد الرحمن، الذي كان الحجّاج قد قتل أخاً

(١) الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار، ٣ /١٩٤.

له اسمه آدم بن عبد الرحمن كان يرى رأي الخوارج، فقرر صالح بن عبد الرحمن أن ينتقم من أقرب الناس إلى الحجّاج، وهو محمد بن القاسم فعزله عن السند وولى رجلاً من صناعه وهو يزيد بن أبي كبشة، وأمره بالقبض على محمد، فقبض عليه وأرسله إليه، فحبسه في واسط في رجال من آل أبي عقيل، وقد ادعت ابنة ملك السند الذي قتله ابن القاسم أنه راودها عن نفسها أو نالها قسراً، ولذا فقد سجن في واسط وعذب، ثم تضاربت الروايات بشأنه فقيل إنه مات تحت العذاب، وقيل: إنه أطلق سراحه ثم قتل، وقيل بل قتل بدسائس من أتباع داهر فأتهم به الخليفة، ثم اعترفت ابنة داهر فيما بعد بأنها كانت كاذبة في إدعائها، وهكذا انتهت حياة هذا البطل وهذا الفاتح الكبير هذه النهاية الأليمة، وحرمت الأمة الإسلامية من هذه العبقرية الشابة، فإن محمداً حقق هذه الأمجاد وهو في مقتبل العمر حتى قال فيه الشاعر:

إن الشجاعة والسماحة والندى ::: لمحمد بن القاسم بن محمد
قاد الجيوش لسبع عشرة حجة ::: يا قرب ذلك سؤدداً من مولد

وقد ساس الجيوش وقادها وعمره سبع عشرة سنة قال فيه الشاعر يزيد بن الأعجم:

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ::: ولداته عن ذاك في أشغال فغدت
بهم أهواؤهم وسمت به :: همم الملوك وسورة الأبطال

وكان محمد بن القاسم يهتف في أعماق سجنه وفي ظلماته:

أتنسى بنو مروان سمعي وطاعتي ::: وإني على ما فاتني لصبور
فتحت لهم ما بين (سابور) بالقنا ::: إلى الهند منهم زاحف ومغير
فتحت لهم ما بين جُرجان بالقنا ::: إلى الصين ألقى مرة وأغير
وما وطئت خيل السكاسك عسكري ::: ولا كان من (عك) عليّ أمير

مات محمد بن القاسم بالتعذيب، أو قتل بعد تعذيبه، دون أن يشفع لهذا القائد الشاب، بلاؤه الرائع في توسيع رقعة الدولة الإسلامية، ولا مهارته الفذة في القيادة والإدارة ولا انتصاراته الباهرة في السند، ولكنَّ آثاره الخالدة وأعماله المجيدة باقية بقاء الدهر، ولم يختره الله إلى جواره إلا بعد أن أبقى اسمه على كلِّ لسان وفي كل قلب، رمزاً للجهاد الصادق والتضحية الفدّة والصبر الجميل. أما الذين عذبوه فقد ماتوا وهم أحياء ولانزال حتى اليوم نذكر محمد بن القاسم بالفخر والاعتزاز، ونذكر الذين عذّبوه بالخزي والاشمئزاز.

رحم الله محمد بن القاسم الشاب المظلوم، الأمير العادل الإداري الحازم، لقد بكاه أهل السند من المسلمين، لأنه كان يساويهم بنفسه ولا يتميز عليهم بشيء، ويعدل بالرعية ولأنه نشر الإسلام في ربوعهم فأرسل دعاته شرقاً وغرباً يجوبون البلاد التي فتحها وكان أكثر من هداهم الله إلى الإسلام من أهل السند على يديه، فمنذ الخطوات الأولى للفتح بدأت شخصيات كبيرة تعتنق الإسلام فعندما فتح محمد بن القاسم مدينة الديبل واستولى على قلعتها التي كان بها الأسرى من الجنود والتجار المسلمين والنساء المسلمات وقتل حرّاس القلعة بناء على أوامر الحجّاج انتقاماً لشهداء المسلمين، عندئذ جاء مدير السجن الذي كان به المسلمون طالباً العفو عنه لأنه كان محسناً للأسرى المسلمين ويعاملهم معاملة كريمة، فلما تأكد محمد بن القاسم من صدقه عفا عنه، بل فوض إليه مهمة الإشراف على الشؤون الاقتصادية بمدينة الديبل ثم أعلن الرجل إسلامه، فقربه محمد أكثر، وعينه مترجماً لرئيس الوفد الذي أرسله إلى داهر ملك السند لتوجيه الإنذار إليه، وعندما تقدم محمد بن القاسم في السند، بعد فتح الديبل، وجه الدعوة إلى الأمراء والحكام والوزراء والأعيان وعامة الشعب

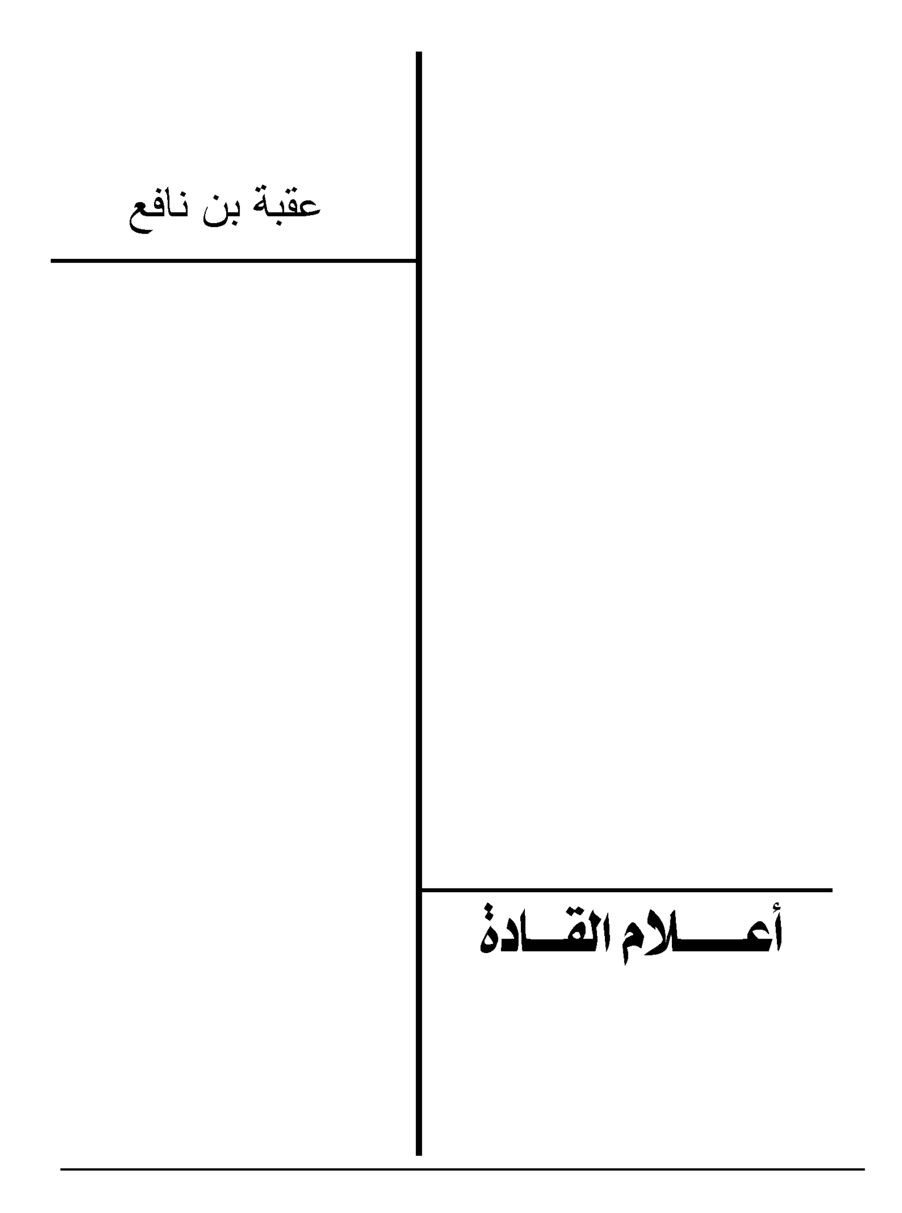
للدخول في الإسلام، فاستجاب له كثيرون وبصفة خاصة من البوذيين، وقد كان لسلوك المسلمين وقائدهم الشاب، واهتمامه بإقامة المساجد وأداء شعائر الإسلام، أثر كبير في جذب الأهلين إلى الإسلام، فلم يكن محمد القاسم يدخل مدينة إلا ويبني فيها مسجداً، فقد بنى مساجد في الديبل والرور والبيرون والملتان وغيرها من المدن السندية، فرحمة الله على هذا الفاتح الكبير[١].

ومن كلامه:

- من لم يكن في أغلب خصال الخير عليه عقله كان في أغلب الخصال عليه حتفه[٢].

* * *

(١) الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار، ٣ /١٩٦.
(٢) أبو أحمد العسكري، المصون في الأدب، ص٢٢.


عقبة بن نافع
أعـــلام القــادة

القائد عقبة بن نافع

يعتبر عقبة بن نافع الفهري [١] من أكابر التابعين وأفاضلهم، فقد ولد قبل وفاة الرسول بعام واحد، وكان من أعرف الناس بأحوال المغرب العربي، وكان قوي الإيمان بدينه، شديد الحماس لنشره، فكان يتخذ من من الفتوحات وسيلة لنشر الإسلام، وكان بالإضافة إلي ذلك قائدا قديرا، ساهم في فتوحات عمرو بن العاص الأولي في إفريقية، كما ساهم في فتوحات عبد الله بن سعد [٢].

كان والده من المسلمين الأوائل الذين جاهدوا في سبيل الله، فلم يكن غريبًا أن يشب (عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري) وحب الجهاد يجري في عروقه، وتمنى أن يكون أحد أبطال مكة وفرسانها، تعلم المبارزة، وتدرب مع الشباب المسلم على حمل السلاح، وازداد عقبة حبًّا واشتياقًا للجهاد من سماعه لقصص البطولة التي قام بها المسلمون أثناء حروبهم ضد أعداء الإسلام، حكاها له ابن خالته (عمرو بن العاص).

ولما بلغ عقبة مبلغ الشباب أصبح يجيد المبارزة وكل فنون الحرب والقتال، منتظرًا اللحظة المواتية ليدافع عن دين الله، وجاءت الفرصة عندما أسند الخليفة العادل (عمر بن الخطاب) فتح بعض بلاد الشام إلى عمرو بن العاص، وجعل عمرو (عقبة بن نافع) في مقدمة الجيش

(١) هو عقبة بن نافع القرشي الفهري، نائب إفريقيا لمعاوية وليزيد، وهو الذي أنشأ القيروان وأسكنها الناس وكان ذا شجاعة، وحزم، وديانة، لم يصحّ له صحبة، شهد فتح مصر، واختطّ بها، فقد أسند معاوية بن أبي سفيان قيادة حركة الفتح في إفريقية إلى هذا القائد الكبير الذي خلد التاريخ اسمه في ميدان الفتوحات، وكان عقبة قد شارك في غزو إفريقية منذ البداية مع عمرو بن العاص واكتسب في هذا الميدان خبرات واسعة، وكان عمرو بن العاص قد خلفه على برقة عند عودته إلى الفسطاط، فظل فيها يدعو الناس إلى الإسلام.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٣٣.

وهو لم يبلغ بعد سن العشرين، وكان عقبة عند حسن ظن عمرو بن العاص، فقد أظهر مقدرة بطولية على اختراق صفوف الأعداء، ونجح نجاحًا كبيرًا في أول امتحان له في الجهاد في سبيل الله.

وفي أثناء فتح عمرو بن العاص لمصر أظهر عقبة تفوقًا ملحوظًا، واستطاع بمهارته الحربية أن يساعد عمرو بن العاص في هزيمة الروم، وكان كل يوم يمر على عقبة يزداد حبًّا للجهاد في سبيل الله، وشغفًا بنشر دين الإسلام في كل بقاع الأرض؛ حتى ينعم الناس بالأمن والعدل والرخاء، وظل عقبة بن نافع جنديًّا في صفوف المجاهدين دون تميز عن بقية الجنود، على الرغم من براعته في القتال وشجاعته التي ليس لها حدود في مقاتلة أعدائه، إلى أن كلفه عمرو بن العاص ذات يوم أن يتولى قيادة مجموعة محدودة من الجنود يسير بهم لفتح فزان (مجموعة الواحات الواقعة في الصحراء الكبرى شمال إفريقيا).

وانطلق عقبة إلى (فزان) وكله أمل ورجاء في النصر على أعدائه، وعندما وصل عقبة إليها دارت معارك عنيفة بين البربر والمسلمين أظهر فيها عقبة شجاعة نادرة حتى فرَّ البربر من أمامه ورفعوا راية الاستسلام، وأراد عمرو بن العاص فتح إفريقية كلها، لكنه كان في حاجة إلى عدد كبير من الجنود، فبعث إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في فتحها، لكن الخليفة عمر كان من رأيه الانتظار عدة سنوات حتى يرسخ المسلمون في مصر وتثبت إمارتهم ويزداد جيش المسلمين ويقوى عدةً وعتادًا.

انتقل عقبة إلى برقة (منطقة في ليبيا) بأمر من عمرو بن العاص ؛ لِيُعَلِّمَ المسلمين فيها أمور دينهم، وينشر الإسلام في هذه المنطقة، ومكث مخلصًا في نشر نور الإسلام، وتدعيم شعائره في نفوس الذين

أقبلوا على تعلم لغة القرآن.. فأسلم على يديه كثير منهم، وأحبوه حتى استطاع عقبة أن يكتسب خبرة واسعة بكل أحوال البربر.

وتمر الأيام والسنون وعقبة يواصل جهاده في سبيل الله، حتى كانت سنة (٤٠هـ) وهي السنة التي تولي فيها معاوية بن أبي سفيان الخلافة، وعاد عمرو بن العاص واليًا على مصر، وحين أراد عمرو بن العاص أن يستكمل الفتوحات الإسلامية التي كان قد بدأها في برقة رأى أن خير من يقوم بهذه الفتوحات عقبة بن نافع؛ لإقامته بين البربر لسنوات عديدة، فأصبح من أكثر الناس معرفة بحياة البربر وعاداتهم وتقاليدهم.

وبدأ عقبة الجهاد في سبيل الله، ونشر الإسلام بين قبائل البربر، وكانت برقة آنذاك قد تغيرت معالمها بعد أن اعتنق أهلها الدين الإسلامي، وانتشرت المساجد في كل مكان فيها، وظل عقبة واليًا على برقة يدعو إلى الإسلام إلى أن جاءته رسالة من الخليفة يخبره فيها بأنه قد اختاره لفتح إفريقية.

وقد جاء إسناد قيادة الجيش الإسلامي إلى عقبة بن نافع خطوة موفقة في طريق فتح شمال إفريقيا كله، ذلك أنه لطول إقامته في برقة وزويلة وما حولها، منذ فتحها أيام عمرو بن العاص، أدرك أنه لكي يستقر الأمر للمسلمين في إفريقية ويكف أهلها عن الارتداد، فلا بد من بناء قاعدة ثابتة للمسلمين ينطلقون منها في غزواتهم، ويعودون إليها ويأمنون فيها على أهلهم وأموالهم، فلما أسند إليه معاوية بن أبي سفيان قيادة الفتوحات في إفريقية، أرسل إليه عشرة آلاف فارس وانضم إليه من اسلم من البربر فكثر جمعه[1]، وسار في جموعة حتى

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (٤٨٣/٢)، السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٣٣.

نزل بمغمداش من سرت، فبلغه أن أهل ودان[١] قد نقضوا عهدهم مع بسر بن أبي أرطأة الذي كان عقده معهم حين وجهه إليهم عمرو بن العاص ومنعوا ما كانوا اتفقوا عليه من الجزية، فوجه إليهم عقبة قسماً من الجيش عليهم عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي، وسار معهم بالقسم الآخر من الجيش واتجه إلى فزان[٢]، فلما دنا منها دعاهم إلى الإسلام فأجابوا[٣]

ثم واصل فتوحاته، فتح قصور كُوّار[٤]، وخاور[٥]، وغدامس[٦]، وغيرها، ومما يلاحظ أن عقبة تجنّب في مسيرة المناطق الساحلية، فقصد المناطق الداخلية يفتحها بلداً بلداً، ويبدو أنه فعل ذلك ليأخذ البربر إلى جانبه ويقيم جبهة داخلية تحيط بالبيزنطيين على الساحل وتمدّه بالطاقات البشرية للاستقرار والإطاحة بالوجود البيزنطي[٧].

ومن أجل مآثر عقبة بن نافع بناء مدينة القيروان،ففي سنة ٥٠هـ بدأت إفريقية الإسلامية عهداً جديداً مع عقبة بن نافع، المتمرس بشؤون إفريقية منذ حداثة سنّه، فقد لاحظ كثرة ارتداد البربر، ونقضهم العهود، وعلم أن السبيل الوحيد للمحافظة على إفريقية ونشر الإسلام بين أهلها هو إنشاء مدينة تكون محط رحال المسلمين، ومنها تنطلق جيوشهم فأسس مدينة القيروان وبنى جامعها، وقد مهد عقبة قبل بناء

(١) ودان جنوب إفريقية بينها وبين زويلة عشرة أيام من جهة إفريقية،ياقوت الحموي، معجم البلدان (٣٦٥/٥، ٣٦٦).
(٢) فزان: جنوب ليبيا ولاية واسعة كانت عاصمتها زويلة، الصلابي، الدولة الأموية، (٢ / ٥٥).
(٣)ابن عبد الحكم، فتوح مصر، صـ١٣٢.
(٤) إقليم ببلاد السودان الغربي جنوب فزان. ياقوت الحموي، معجم البلدان (٤٨٦/٤).
(٥) خاور: مدينة جنوب فزان.
(٦) غدامس: مدينة جنوب ليبيا قرب الحدود الجزائرية.
(٧) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين صـ٢٨٠، الدولة الأموية، (٢ / ٥٥).

المدينة لجنوده بقوله: إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر، فاتفق الناس على ذلك وأن يكون أهلها مرابطين، وقالوا: نقرب من البحر ليتم لنا الجهاد والرباط، فقال عقبة إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يوجب فيه التقصير للصلاة فهم مرابطون، ولم يعجبه موضع القيروان الذي كان بناه معاوية بن حديج قبله، فسار والناس معه حتى أتى موضع القيروان اليوم، وكان موضع غيضة لا يرام من السباع والأفاعي، فدعا عليها، فلم يبق فيها شئ، وهربوا حتى أن الوحوش لتحمل أولادها، وعن يحي بن عبد الرحمن بن حاطب قال: يا أهل الوادي! إنا حالون إن شاء الله، فظعنوا، ثلاث مرات فما رأينا حجراً ولا شجراً إلا يخرج من تحته دابة حتى هبطنا بطن الوادي: ثم قال للناس: انزلوا بسم الله[١]، وكان عقبة بن نافع مجاب الدعوة، وقد رأى قبيل من البربر كيف أن الدواب تحمل أولادها وتنتقل، فأسلموا ثم شرع الناس في قطع الأشجار وأمر عقبة ببناء المدينة فبنيت وبني المسجد الجامع، وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم وتم أمرها سنة ٥٥هـ وسكنها الناس، وكان في الناس، وكان في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا، فتغير وتنهب ودخل كثيراً من البربر الإسلام، واتسعت خطة المسلمين وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها[٢]، وتم

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص٣٤، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ١٩، الصلابي، الدولة الأموية - ٢ / ٥٨.
(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (٤٨٤/٢). السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص٣٤، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ١٩.

تخطيط مدينة القيروان على النمط الإسلامي، فالمسجد الجامع ودار الإمارة توأمان، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، فهما دائماً إلى جوار بعضهما، ويكونان دائماً في قلب المدينة التي يختطها المسلمون ويرتكزان في وسطها[1]، وبينهما يبدأ الشارع الرئيسي للقيروان، الذي سيسمى باسم السماط الأعظم، ثم ترك عقبة فراغاً حول المسجد ودار الإمارة في هيئة دائرة واسعة، ثم قسمت الأرض خارج الدائرة إلى خطط القبائل، ليكون استمراراً للشارع الرئيسي في الاتجاهين إلى نهاية المدينة، وانجفل البربر من نواحي إفريقية إلى القيروان، وسكنوا حولها وكان الكثير منهم دخل في الإسلام، وشرعوا في تعلم اللغة العربية والقرآن الكريم وأمور دينهم وهكذا نشاهد فيما بين سنتي ٥٠ و٥٥هـ حركة قوية بدأت في تعريب الشمال الأفريقي[2].

وبينما كان عقبة يواصل فتوحاته، وينظم مدينته الجديدة، إذ بوالي مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري يعزله سنة ٥٥ هـ / ٦٧٤ م، ويولي مكانه مولاه أبا المهاجر بولاية إفريقية، وقد صرح هو نفسه بذلك حينما قالوا له: لو أقررت عقبة فإن له جزالة وفضلاً فقال:... إن أبا المهجر صبر علينا في غير ولاية، ولا كبير نيل فنحن نحب أن نكافئه، ولما عزل عقبة ذهب إلى معاوية في دمشق معاتباً، وقال له: فتحت البلاد، وبنيت المنازل، ومسجد الجماعة ودانت لي، ثم أرسلت عبد الأنصار، فأساء عزلي. فاعتذر إليه معاوية، وقال له: عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الإمام المظلوم، وتقديمه إياه، وقيامه بدمه وبذله مهجته، ووعد معاوية عقبة برده إلى ولايته، ولكن الأمر

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٣٥، محمد سيد الوكيل، الأمويون ٧٢/١.
(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص٣٥، الصلابي، الدولة الأموية، ٢ / ٥٨.

تراخي كما يقول ابن عذارى حتى توفي معاوية وأفضى الأمر إلى يزيد، فرد عقبة والياً على إفريقية. وهناك نقطة في هذا الموضوع، وهي الإساءة التي تعرض لها عقبة من أبي المهاجر أثناء عزله فقد ذكرت المصادر أن أبا المهاجر أساء إلى عقبة إساءة بالغة، فقد سجنه وأوقره حديداً، ولا ندري ما الذي حمل أبا المهاجر على هذا؟ قال الدكتور عبد الشافي محمد عبد اللطيف في كتابه القيم: ولا ندري ما الذي حمل أبا المهاجر على هذا؟ ويصعب علينا أن نقبل اتهام الدكتور حسين مؤنس لمسلمة بن مخلد، بأنه هو الذي أوعز إلى أبي المهاجر أن يسيء إلى عقبة. فهذا اتهام لا يستند إلى دليل، خصوصاً وأن ابن عبد الحكم يقول عن مسلمة حين ولي أبا المهاجر: وأوصاه حين ولاه أن يعزل عقبة بأن يحسن العزل، فخالفه أبو المهاجر، فأساء عزله وسجنه وأوقره حديداً، حتى أتاه كتاب من الخليفة بتخلية سبيله وإشخاصه إليه. ثم يذكر أن مسلمة ركب إلى عقبة حين مر بمصر وترضاه وأقسم له بالله لقد خالفه ما صنع أبا المهاجر وقال له: ولقد أوصيته بك خاصة[1]، ولكن لماذا خالف أبو المهاجر وصية مولاه مسلمة وأساء إلى عقبة، مع أنه هو شخصياً كان يجل عقبة، ويعرف مقامه، وقد جزع عندما دعا عليه عقبة، وقال هذا رجل لا يرد له دعاء، هذا هو السؤال الذي لا نملك عليه جواباً شافياً.. اللهم إلا الاستنتاج الذي أخذ به محمد علي دبوز، وهو أن أبا المهاجر ربما يكون قد أضطر اضطراراً إلى القبض على عقبة وسجنه، لأن عقبة خاشنه ولم يرضخ للعزل بسهولة لأنه كان يرى نفسه أحق بالولاية والقيادة من أبي المهاجر: ولعل أبا المهاجر قد خاف من خلاف يقع بين المسلمين لعدم رضوخ عقبة له فيستغله

(١) ابن عبد الحكم، فتوح مصر صـ١٣٤، الدولة الأموية،٢ / ٦٥.

أعداؤهم الروم، فاضطر إلى سجنه حتى لا يحدث خلل بين المسلمين. إن كان هذا الاستنتاج صحيحاً وهو على كل حال معقول، فقد يخفف من شدة اللوم الذي يوجهه إلى أبي المهاجر كل مسلم حريص على أن تسود روح الاحترام والإجلال بين القادة المسلمين مهما كانت خلافاتهم، وأن يحاول اللاحق منهم الاستفادة من جهود السابق وخبرته، بدلاً من الإساءة وتبادل الأحقاد وأن يكون السابق منهم حريصاً كذلك على أن يعطي خبرته وتجاربه ونصائحه للاحق، حتى ينجح في مهمته لأن هدفهم واحد وهو الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته ونشر دينه[1].

... على الرغم... من الخطأ الكبير الذي ارتكبه أبو المهاجر في حق سلفه، المجاهد الكبير عقبة بن نافع، إلا أن الإنصاف يقتضينا أن نقول أنه قام بدور عظيم في فتح المغرب وتمهيده لقبول الإسلام ديناً ونظام حياة، فقد كان أبو المهاجر يتمتع بقدر كبير من الكياسة والسياسة وحسن التصرف، وقد رأى - بثاقب نظرة - أن سياسة الشدة التي كان يسير عليها عقبة بن نافع لا بد أن تغير، وعليه أن يصطنع بدلها سياسة كسب القلوب، فالبربر قوم أشداء يعتدون بكرامتهم وحريتهم فسياسة اللين معهم قد تكون أجدى من سياسة الشدة وقد نجح أبو المهاجر في سياسته تلك نجاحاً كبيراً، كما أن أبا المهاجر قد أدرك أن الذين يحركون البربر في شمال أفريقيا ضد المسلمين ويؤلبونهم عليهم، هم الروم، الذين أخذوا يتحببون إلى البربر ولذلك انتهج سياسة تقوم على كشف حقيقة الروم وعلى إقناع البربر أن المسلمين ما جاءوا إلى هذه البلاد يستعمروهم ويستعبدونهم ويستغلوا بلادهم، كما

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٦ - ٣٧، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ٢٠ - ٢١، الدولة الأموية، ٢ / ٦٥.

يحاول الروم أن يفهموهم، وإنما جاءوا لهدايتهم ولخيرهم ودعوتهم إلى الإسلام الذي فيه سعادتهم ومساعدتهم على التحرر من ربقة الروم، الذين يستغلون بلادهم منذ قرون، وكان الروم رغم الهزائم التي حلت بهم في وسط إقليم إفريقية وجنوبه، لازالوا قوة في الشمال، ولازالت عاصمتهم قرطاجنة عذراء لم يقصدها أحد من الفاتحين الأولين، ثم إنهم لا زالوا قوة في ساحل المغرب من بنزرت إلى طنجة، فكان على أبي المهاجر أن يضرب الروم ضربة قوية ليضعضع نفوذهم في تلك النواحي، ويكسر الحلف الذي عقدوه مع البربر، فسار إلى قرطاجنة ونازلها[1]، فاستغلقت وتحصنت بالأسوار العالية، فشدد أبو المهاجر الحصار عليها فعلم الروم أنه لا قبل لهم بالجيش الإسلامي، وأن أبا المهاجر لا بد أن ينتصر عليهم، فيدخل العاصمة باقتداره وقوته، فطلبوا الصلح فصالحهم بإخلاء جزيرة شريك، لتنزل فيها جنوده، وكان أبو المهاجر يهدف من احتلال جزيرة شريك، القريبة من قرطاجنة، أن يراقب الروم وتحركاتهم، وترك فيها حامية من الجيش جعل على رأسها قائده حنش الصنعاني ليصد الروم إذا حاولوا مهاجمة المسلمين أثناء غزوهم للبلاد. رفع أبو المهاجر الحصار عن قرطاجنة بعد أن انتزع من الروم جزيرة شريك، ذلك الموقع الاستراتيجي الهام، وترك فيها حامية تؤمن ظهر المسلمين، وتراقب تحركات الروم، ثم اتجه بعد ذلك مسايراً الساحل ناحية الغرب، وقد خافه الروم والبربر جميعاً، فلم يتعرض له أحد، حتى وصل إلى مدينة ميلة، على خمسين ميلاً من بجاية في جنوبها الشرقي فوجدها مستعدة للقتال، وكان فيها طائفة من البربر والروم،

(١) أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة (١٥٢/١)، السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٣٦ - ٣٧، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ٢٠ - ٢١، الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٦٦).

تحصنوا بها، فنازلها أبو المهاجر واحتلها، وغنم ما فيها واستقر بها، وكانت ميلة تتوسط المغربين الأدنى والأوسط، فهي أحسن مكان يراقب منه أمور البربر والروم في هذه البقاع، فجعلها مقره، وأقام بها نحواً من سنتين وقد استثمر هذه المدة في الاتصال بالبربر، وإفهامهم حقيقة الإسلام، ودعوتهم إليه، وقد نجح في سياسته نجاحاً كبيراً فأقبل البربر على الإسلام وآية ذلك أن المؤرخين لم يتحدثوا عن معارك وقعت له في هذه النواحي من المغرب، قسطنطينية الآن ونواحيها إلى بجاية. لأن الروم كانوا يتقوون بالبربر، وها هو أبو المهاجر قد نجح في اجتذاب البربر وفصلهم عن الروم، فسكنت تلك النواحي، سكون البحر بعد العاصفة، وترامت الأخبار إلى أبي المهاجر أن جمعاً من الروم والبربر يستعد لحربه، فقرر المسير إليهم، وكانت زعامة المغربين الأوسط والأقصى لقبيلة أوربة، وهي قسم كبير من أقسام البربر البرانس، وكان زعيم هذه القبيلة كسيلة بن لمزم، وكان كسيلة قوي الشخصية ذكي الفؤاد، غيوراً على وطنه وكان البربر يجلونه ويحبونه وكان نصرانياً متمسكاً بدينه، وكان لا يعرف حقيقة الإسلام والمسلمين،فاستطاع الروم أن يوحوا إليه ما أرادوا في الإسلام والمسلمين فرآهم عدواً لدينه ووطنه، ورأى أن أبا المهاجر في ميلة، فعلم أنه لا بد أن يسير لافتتاح المغرب الأوسط والأقصى، فذهب يدعو البربر لمكافحة المسلمين والاستعداد لحربهم وإجلائهم عن بلادهم، فتحمس البربر بثورة أميرهم كسيلة فلبسوا لامة الحرب، واستعدوا للقراع، فتجمع لكسيلة جيش كثيف من البربر والروم[1].

١ - معركة تلمسان: بعد أن استكمل كسيلة عدته عسكر في

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٦ - ٣٧، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ٢٠ - ٢١، الدولة الأموية - ٢ / ٦٨.

تلمسان، وانتظر اللقاء المرتقب مع أبي المهاجر ولم يطل انتظاره، فقد وصل أبو المهاجر، وعسكر بجيشه حول تلمسان، فألتقى الجيشان ودارت معركة قاسية، أبلى فيها كل من الفريقين بلاءً كبيراً، وأدركوا خطورتها وأن لها ما بعدها، وكثر القتلى من الجيشين، ثم أنزل الله نصره على المسلمين، فهزموا جيش كسيلة فولى الأدبار[١].

ظل أبو المهاجر علي ولاية إفريقية حتي مات معاوية سنة ٦٠ هـ وأفضت الخلافة من بعده لابنه يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وكان يزيد مقتنعا بفضل عقبة علي الإسلام وحسن بلائه في غزو إفريقية، فاستقطع ولاية إفريقية من مسلمة بن مخلد والي مصر، وعزل أبا المهاجر بن دينار، ورد عقبة بن نافع إلي ولاية إفريقية للمرة الثانية.

وصل عقبة بن نافع إلى إفريقية ورتب أمورها وعامل أبا المهاجر معاملة قاسية، فقد أوثقه في وثاق شديد[٢]، ومع هذا فقد كان أبو المهاجر مخلصاً وفياً شهماً غيوراً فلم يبخل بنصائحه لعقبة بالرغم ما حدث بينهما من الجفوة ومن أبرز هذه النصائح إشارته على عقبة بإكرام زعيم البربر كسيلة، ومحاولة تأليفه ليبقى على الإسلام، ولكن عقبة أهان ذلك الزعيم، حيث أمره يوماً أن يسلخ شاة بين يديه، فدفعها كسيلة إلى غلمانه، فأراده عقبة على أن يتولاها بنفسه وانتهره، فقام كسيلة مغضباً وجعل كلما دس يده في الشاة مسح بلحيته، وبلغ ذلك أبا المهاجر فبعث إليه ينهاه ويقول: كان رسول الله يتألف جبابرة العرب وأنت تعمد إلى رجل جبَّار في قومه وبدار عزه حديث عهد بالشرك فتفسد قلبه؟ توثَّق من الرجل فإني أخاف فتكه ولاشك أن عقبة حينما

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٧.

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر صـ١٣٤، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٤ / ٤٥، السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٦ - ٣٧، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ٢٠ - ٢١، الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٧٠).

أهان ذلك الزعيم البربري لم يكن يعتقد بصحة إسلامه إذ أن عقبة كان في غاية التواضع للمسلمين وكان اجتهاده يقضي بمحاولة إذلال ذلك الرجل حتى يتحطم طغيانه وتهون مكانته في نفوس قومه فلا يستطيع بعد ذلك أن يستنفرهم لحرب ضد المسلمين، ولكنه أخطأ في اجتهاده لأن قوم ذلك الرجل كانوا حديثي عهد بالإسلام، ومهما كان لظن عقبة فيه من احتمال في عدم الصدق في الولاء فإن كسبه وبقاءه في جيش المسلمين وتحت سلطتهم أولى بكثير من معاداته وإتاحة الفرصة له لضرب المسلمين من مكامن الخطر، وهو الذي صحبهم وحاز على شيء من ثقتهم، ومن موقف عقبة المذكور تظهر لنا نتيجة مهمة من نتائج العمل بسنن الإسلام التي من أهمها العمل بالشورى وأخذ رأي أهل الحل والعقد خاصة في الأمور المهمة، وعلى أي حال فإن كلا القائدين كان مجتهداً في تصرفه ولا يظن بواحد منهما أنه كان يعمل لصالح نفسه أو لصالح عشيرته وإنما كان رائدهما النظر في مصلحة الإسلام والمسلمين، ولكن كان اجتهاد أبي المهاجر أقرب إلى الصواب في هذه القضية[(١)].

بعد اكتمال بناء القيروان عام خمسة وخمسين عُزل عقبة بن نافع عن ولاية إفريقية، ثم أُعيد إليها عام اثنين وستين قام برحلته الجهادية المشهورة التي قطع فيها ما يزيد على ألف ميل من القيروان في تونس إلى ساحل المحيط الأطلسي في المغرب، وقد استخلف على القيروان زهير بن قيس البلوي ودعا لها قائلاً: يا رب املأها علماً وفقهاً وأملأها بالمطيعين لك، واجعلها عزاً لدينك وذلاً على من كفر بك.. وامنعها من جبابرة الأرض، وخرج عقبة بأصحابه الذين قدم بهم من الشام وعددهم عشرة ألف إلى جانب عدد كبير انضم إليهم من

(١) الدولة الأموية، ٢ / ٧١.

القيروان، ودعا بأولاده قبل سفره وقال لهم: إني قد بعت نفسي من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله ثم قال: - يا بني أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها: إياكم أن تملئوا صدوركم بالشعر وتتركوا القرآن، فإن القرآن دليل على الله عز وجل، وخذوا من كلام العرب ما يهتدي به اللبيب ويدلكم على مكارم الأخلاق، ثم انتهوا عما وراءه، وأوصيكم أن لا تُداينوا ولو لبستم العباء فإن الدّين ذُلٌّ بالنهار وهم بالليل، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم وتبق لكم الحرمة في الناس ما بقيتم، ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين فيجهلوكم دين الله ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى، ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط فهو أسلم لكم، ومن احتاط سلم ونجا فيمن نجا - ثم قال: عليكم سلام الله وأُراكم لا ترونني بعد يومكم هذا - ثم قال: اللهم تقبّل نفسي في رضاك واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك[1]. وهكذا ما ان وطئت أقدام عقبة أرض القيروان حتى عزم على الخروج للجهاد غير هياب ولا متردد، ومما يدل على مبلغ حبه للجهاد وهيامه به قوله في وصيته لأولاده: إني قد بعت نفسي من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله. فهو قد باع نفسه من الله عز وجل، واشتاق إلى الثمن العظيم الغالي:{إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ} [التوبة: ١١١]. فجعل عمله الذي نذر حياته لأجله هو الجهاد، ونصب أمام عينيه الهدف السامي، وهو إعلاء كلمة الله في الأرض، وفي وصيته المذكورة لأولاده فوائد جليلة، فقد أوصاهم بثلاث وصايا:

---

(١)ابن عذاري، البيان المغرب ٢٣/١، الدولة الأموية، ٢ / ٧٢.

أ - الوصية الأولى: الاهتمام بانتقاء العلم واختيار أطيبه، وذلك بالاهتمام أولاً بالقرآن الكريم، حيث إنه الكتاب الذي يدل على الله عز وجل، وما ابلغه من وصف يهدي إلى بلوغ الهدف السامي الذي يسعى إليه كل مؤمن، وهو ابتغاء رضوان الله تعالى ونعيمه، ولا شك أن سنة رسول الله مما يدخل في مقاصد القرآن الكريم لقوله تعالى: {وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ} [الحشر: ٧]. ثم انتقاء الطيب من كلام العرب الذي يرشد إليه العقل السليم ويحث على مكارم الأخلاق.

ب - الوصية الثانية: البعد عن الاستدانة ولو دفع إليها الفقر لأن الدين ذل بالنهار حيث يدفع المستدين إلى بعض مواقف الذل أمام الدائن ومن لهم علاقة به، وهمٌّ بالليل حيث يخلو المستدين إلى نفسه فيتذكر حقوق الناس عليه.

جـ - الوصية الثالثة: التحري في تلقي العلم، وذلك باختيار العلماء الربانيين أهل الورع والتقوى، والبعد عن العلماء المغرورين أهل الدنيا والجاه، فإنهم يزيدون المتعلم جهلاً حيث يبعدونه عن حقيقة العلم وثمرته وهي تقوى الله عز وجل. ونجد عقبة في نهاية وصيته لأولاده يسلمّ عليهم سلام المودع، مما يدل على استماتته في سبيل الله تعالى، ثم يقول: اللهم تقبل نفسي في رضاك، واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك. وبهذا الاهتمام الكبير نجح عقبة بن نافع رحمه الله في فتوحاته حيث جعل الجهاد قضيته الكبرى في هذه الحياة. سار عقبة في جيش عظيم متجهاً إلى مدينة باغية[1]، حيث واجه مقاومة عنيفة من البيزنطيين الذين انهزموا أمامه ودخلوا مدينتهم وتحصنوا بها، فحاصرهم مدة ثم سار إلى تلمسان وهي من أعظم مدائنهم فانضم

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٥٨٩/٢، الدولة الأموية،٢ / ٧٤.

إليها من حولها من الروم والبربر فخرجوا إليه في جيش ضخم والتحم القتال، وثبت الفريقان حتى ظن المسلمون أن في تلك المعركة فناءهم ولكن منَّ عليهم بالصبر فكانوا في ذلك أشدَّ وأصبر من أعدائهم فهاجموا الروم هجوماً عنيفاً حتى ألجئوهم إلى حصونهم فقاتلوهم إلى أبوابها وأصابوا منهم غنائم كثيرة، ثم استمر غربا قاصداً بلاد الزاب، فسأل عن أعظم مدنها فقيل له " أرَبَه " وهي دار ملكهم وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية كلها عامرة، فامتنع بها من كان هناك من الروم وأهل المدينة وهرب بعضهم إلى الجبال، فاقتتل المسلمون مع أهل تلك المدينة فانهزم أهل تلك البلاد وقُتل كثير من فرسانهم ورحل عقبة إلى " تاهرت " فاستغاث الروم بالبربر فأجابوهم ونصروهم، وقام عقبة بن نافع في الناس خطبةً فقال بعدما حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس إن أشرافكم وخياركم الذين رضي الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه بايعوا رسول الله بيعه الرضوان على من كذب بالله إلى يوم القيامة، وهم أشرافكم والسابقون منكم إلى البيعة، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة، وأنتم اليوم في دار غربة وإنما بايعتم رب العالمين، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلبا لرضاه وإعزازاً لدينه، فأبشرو فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى وربكم عز وجل لا يُسلمكم، فالقوهم بقلوب صادقة، فإن الله عز وجل جعلكم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين[1]. وهذه خطبة عظيمة تدل على أن عقبة بن نافع قد اعتمد في حروبه على السلاح الأعظم الذي

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ١/٢٣-٢٧،السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٨، الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٧٥).

فيه سر انتصارات المسلمين الباهرة.. ألا وهو التوكل على الله تعالى، واستحضار عظمته وجلاله، ومعيته لأوليائه المؤمنين بالنصر والتأييد، فهو لا يبالي بجيوش الأعداء مهما كثرت، وإنما الذي يهتم به أن يتأكد جيداً من أن هذا السلاح المعنوي الفعال قد توفر في جيشه، وحينما يضمن ذلك فإنه يرحب باجتماع جيوش الأعداء ليكون ذلك أسرع في هلاكهم وتمزيق جمعهم على يد أولياء الله الصالحين وما أعظم شبه عقبة بخالد بن الوليد ، الذي كان يُسَرُّ ويداخله شعور بالقوة والتعاظم - من غير غرور ولا استهانة - كلما تضخم جيش الأعداء وتعددت عناصره، وكأن عقبة قد تأس به واتخذه له قدوة في القيادة والإقدام الذي لا يعرف التردد والسآمة، وهو في إقدامه واندفاعه يدرك أن جنود الإسلام الصادقين هم بأس الله تعالى المسلط على أعدائه الكفار، والله تعالى لا يُردّ بأسه عن القوم المجرمين. إن شعوره الدائم بأن المجاهدين المسلمين هم سيف الله تعالى وبأسه الموجه ضد أعدائه يجعله عظيم الثقة بنصر الله تعالى وحسن الظن به. هذا وقد التقى المسلمون بأعدائهم في مدينة " تاهرت " وقاتلوهم قتالاً شديداً، فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة عدوهم، ولكنهم انتصروا أخيراً، وانهزم أعداؤهم من الروم والبربر، وقتل منهم عدد كبير، وغنم منهم المسلمون أموالهم وسلاحهم، ثم توجه إلى جهات المغرب الأقصى فوصل إلى طنجة، حيث قابل بطريق من الروم اسمه " جوليان " الذي: أهدى له هدية حسنة، ونزل على حكمه ولما سأله عقبة عن بحر الأندلس قال عنه: لا إنه محفوظ لا يرام، ثم سأله عن البربر والروم بقوله: دلني على رجال البربر والروم فقال: قد تركت الروم خلفك وليس أمامك إلا البربر وفرسانهم في عدد لا يعلمهم إلا الله تعالى وهم أنجاد البربر وفرسانهم، فقال عقبة: فأين

موضعهم؟ قال: في السوس الأدنى، وهم قوم ليس لهم دين[1].. استفاد عقبة من هذه المعلومات واتجه إلى الجنوب الغربي، قاصداً بلاد السوس الأدنى حيث التقى بجموع بربر أطلس الوسطى، فهزمهم وطاردهم نحو صحراء وادي درعا، حيث بنى مسجداً في مدينة درعا ثم غادر صحاري مراكش باتجاه الشمال الغربي إلى منطقة " تافللت " من أجل أن يدور حول جبال أطلس العليا كي يدخل بلاد صنهاجة الذين أطاعوه دون قتال، وكذلك فعلت قبائل هكسورة في مدينة " اغمات "، بعدها اتجه عقبة نحو الغرب إلى مدينة تفيس، حيث حاصر بها جموعاً من البيزنطيين والبربر، فلم ينفعهم تحصنهم، فدخل المدينة منتصراً وبذلك أتم تحرير بلاد السوس الأقصى ودخل عاصمتها " ايجلي " التي بنى فيها مسجداً، ثم دعا القبائل فيها هناك إلى الإسلام فأجابته قبائل جزولة، وبعد ذلك سار إلى مدينة " ماسة " ومنها إلى رأس " ايفران " على البحر المحيط[2]، وبوصول عقبة بن نافع إلى ساحل المحيط الأطلسي يكون قد أنجز تحرير معظم بلاد المغرب.

وتشير مصادرنا التاريخية أن عقبة لما وصل إلى المحيط الأطلسي قال: يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك. ثم قال: اللهم أشهد أني قد بلغت الجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بالله حتى لا يعبد أحد من دونك ثم وقف ساعة ثم قال لأصحابه: ارفعوا أيديكم، ففعلوا، فقال: اللهم لم أخرج بطراً ولا أشراً وإنك لتعلم أنما نطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين وهو

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (٥٩٠/٢)، السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٣٨، الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٧٦).
(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (٥٩٠/٢)، السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٨، الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٧٧).

أن تُعبد ولا يُشرك بك شيء، اللهم إنا معاندون لدين الكفر، ومدافعون عن دين الإسلام، فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والإكرام، ثم انصرف راجعاً(١).

وندرك من قوله المذكور مدى حبه للجهاد وشعوره بالمسئولية الكبرى التي حملها على عاتقه نحو تبليغ الإسلام وتقوية دولته والقضاء على دول الكفر التي حجبت نور الإسلام عن شعوبها، فهو يقف على البحر المحيط ويعلم آنذاك أنه نهاية المعمور من الأرض من ناحية المغرب، ثم نجده يُشهد الله تعالى على أنه قد بلغ المجهود الذي تحت مقدرته، وهذه الشهادة تشعرنا بمدى ارتباط عقبة بالله تعالى، وأنه لم يكن يسير خطوة إلا وهو يستلهم التوفيق منه جل وعلا ويطلب رضوانه، وهذا الكلام يدل على وضوح الهدف من الجهاد عند عقبة حيث بيّن أن الحد الذي يقف عنده الجهاد أن يزول الشرك من الأرض، وأن لا يعبد إلا الله وحده، ومادام الشرك قائماً فإن الجهاد لا بد أن يكون موجوداً، فالجهاد أذن هو جهاد الدعوة إلى الله تعالى، وذلك بإزالة الطغيان البشري وإخضاع دول العالم لحكم الإسلام لكي يكون فهم الإسلام واعتناقه متيسراً لكل الناس(٢).

ولم يقف عمل عقبة على الجهاد بل رافق ذلك بناء المساجد مثل مسجد درعة ومسجد ماسة بالسوس الأقصى، كما كان يترك نفراً من أصحابه يعلمون الناس القرآن وشرائع الإسلام، ومن هؤلاء شاكر الذي بنى رباطاً ما بين بلدتي مراكش وموجادور ولا زال موقعه باقياً

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (٢/٥٩٠)،ابن عذاري، البيان المغرب (١/٢٣-٢٧). السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٣٨، الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٧٧).
(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٨، الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٧٧).

إلى اليوم وهو المعروف عند العامة بالمغرب الأقصى بسيدي شاكر، ويظهر أن أغلبية بربر المغرب الأقصى أسلموا على يده طوعاً مثل صنهاجة وهسكورة وجزولة، كما أخضع المصامدة، وحملهم على طاعة الإسلام، وكي يأمن القبائل الكثيرة من الانتقاض عليه، كان عقبة يأخذ منها رهائن ويولي عليها رجلاً منها مثلما فعل مع مصمودة فقد ترك عليها أبا مدرك زرعة بن أبي مدرك، أحد رؤسائها، الذي شارك في فتح الأندلس فيما بعد، ويلاحظ أن الوثنية كانت غالبة على بربر المغرب الأقصى مما يفسر كثرة السبايا والغنائم، وأصاب " عقبة " نساء لم يرى الناس مثلهن فقيل أن الجارية كانت تساوي بالمشرق ألف مثقال وأكثر، وكان السبي أحد عوامل انتشار الإسلام بين البربر بحكم اختلاطهم بالبيئة العربية الإسلامية ثم إن الاحتكاك والاختلاط المستمرين بين المقاتلة العرب، والبربر أوجد صلات وروابط تجلت في الحلف والولاء في هذا الوقت المبكر. يذكر السلاوي أن عقبة حين وصل إلى جبل درن: نهضت زناته وكانت خالصة للمسلمين منذ إسلام مغراوة وهذا يشعر بأن بعض زناته ومغراوة كانتا قد أسلمتا منذ زمن وكانتا حليفتان للمسلمين فنهضتا للدفاع عن المسلمين[١].

ويبدو أن أخبارا مقلقة من إفريقية بلغت عقبة فعجل بالعودة إلي القيروان مارا بايغران يطوف، وتارنا، ومنها إلي رباط شاكر، ودخل إقليم دكالة، حتى دخل طنجة، ومنها اتجه إلي المغرب الأوسط، ولما بلغ مدينة طبنة، أرسل أكثر فرق جيشه من طريق آخر، ولم يستبق معه سوى خمسة آلاف، وسار هو إلي مدينة تهودة ليستولي عليها،

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٨، الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٧٨).

ويجعل منها قاعدة حربية لقواته في منطكقة أوراس، ولكنه ما كاد يقترب منها حتى اعترضه كسيلة بن لمزم بجموع هائلة من بربر البرانس، يتجاوز عددهم خمسين ألفا، وقطع بهم على عقبة خط الرجعة، وأحس عقبة أمام هذه الحشود المتجمعة من البربر بنهاية أجله، فأراد أن يبعث أبا المهاجر مع من اتبعه من المسلمين إلى القيروان، ويبقي هو لقتال البربر، فأبي أبو المهاجر إلا أن يغتنم الشهادة معه، فنزل المسلمون عن دوابهم، وكسروا أغماد سيوفهم، ودارت المعركة عند تهودة سنة ٦٣ هـ، فاستشهد عقبة وأبو المهاجر وسيفاهما في أيديهما، واستشهد معه عدد كبير من المسلمين، وأسر الباقون، ففداهم صاحب قفصة، وبعث بهم إلي زهير بن قيس البلوي (١)

وعلى ما يبدو أن عقبة كان يحس إحساس المؤمن الصادق، أنه سيلقى ربه شهيداً في هذه الجولة، فعندما عزم على المسير من القيروان في بداية الغزو دعا أولاده وقال لهم: إني قد بعت نفسي من الله عز وجل... إلى أن قال: ولست أدري أترونني بعد يومي هذا أم لا، لأن أملي الموت في سبيل الله، وأوصاهم بما أحب، ثم قال: عليكم سلام الله.. اللهم تقبل نفسي في رضاك(٢). نعى عقبة نفسه إلى أولاده، فتقبل الله منه وحقق له أمله في الشهادة، فقد أعد له الروم والبربر كميناً عند تهوذة(٣)، وأوقعوا به وقضوا عليه هو ومن معه من جنوده، وترجع المصادر أمر الكارثة التي تعرض لها عقبة عند تهوذة إلى سبب رئيسي وهو سياسته نحو البربر بصفة عامة، وزعيمهم كسيلة بصفة

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٩.
(٢) البيان المغرب، ٢٣/١ - ٢٤، الدولة الأموية،٢ / ٧٩.
(٣) تهوذة: اسم لقبيلة بربرية بناحية إفريقية لهم أرض تعرف بهم. الدولة الأموية، ٢ / ٧٩.

خاصة ذلك الزعيم صاحب النفوذ والمكانة في قومه، والذي كان أبو المهاجر قد تألفه وأحسن إليه، فأسلم وتبعه كثير من قومه، لكن عقبة أساء إلى هذا الرجل إساءة بالغة، فأدرك أبو المهاجر عاقبة الخطأ الذي وقع فيه عقبة ولم يكتم نصيحته عنه - رغم أنه كان في حكم المعتقل - ولكن عقبة لم يسمع منه، وكان أبو المهاجر من معاشرته للبربر وزعيمهم، قد عرف مدى اعتزازهم بكرامتهم وأدرك أنهم لن يقبلوا هذه الإهانة، وهذا الإذلال الذي لحق بزعيمهم من عقبة فخاف غدرهم، فأشار على عقبة بالتخلص من كسيلة وقال له: عاجله قبل أن يستفحل أمره، ولكن عقبة لم يصغ إلى هذه النصيحة أيضاً وليته احتاط للأمر، بل أقدم على عمل آخر في غاية الخطورة، حيث جعل معظم جيشه يسير أمامه بعد أن رجع من رحلته الطويلة من المغرب الأقصى قاصداً القيروان، ولما صار قريباً من القيروان أرسل غالب جيشه على أفواج إلى القيروان وبقي هو على رأس الفوج الأخير، ومعه ما يقرب من ثلاثمائة من الفرسان من الصحابة والتابعين، وكان من عادة عقبة أنه يكون في مقدمة الجيش عند الغزو ويكون في الساقة عند قفول الجيش، فهو بذلك يعرض نفسه لخطر مواجهة العدو دائماً وإن هذه التضحية الكبيرة جعلته محبوباً لدى أفراد جيشه بحيث لا يعصون له أمراً ويتسابقون على التضحية اقتداء به، وهذه الصفة تعتبر من أهم عوامل نجاح القائد في أي عمل يتوجه إليه ولما علم الروم بانفراد عقبة بهذا العدد القليل من جيشه انتهزوا هذه الفرصة لمحاولة القضاء عليه، وهم يدركون أن وجوده القوي يعتبر أهم العوامل في تماسك المسلمين وبقاء قوتهم، فتآمروا عليه مع كسيلة البربري، فجمعوا لعقبة وأصحابه جمعاً لا قِبَلَ لهم به وإذا بكسيلة

يحيط بجيش عقبة في جمع عدته خمسون ألفاً[١]. وكان أبو المهاجر موثقاً في الحديد مع عقبة، فلمّا رأى الجموع تمثل بقول أبي محجن الثقفي:

كفى حزناً أن تمرغ الخيل بالقنا ::: وأُترك مشدوداً عليّ وثاقيا
إذ قمتُ عنّاني الحديد وأُغلت ::: مصارع من دوني تصمّ المناديا

فلما سمع عقبة ذلك أطلقه، فقال له: الحق بالمسلمين وقم بأمرهم وأنا أغتنم الشهادة، فلم يفعل وقال: وأنا أيضاً أريد الشهادة[٢]، وهكذا كان أبو المهاجر نموذجاً من تلك النماذج الفريدة من الرجال، الذين هانت عليهم الحياة الدنيا واستولى على قلوبهم حب الآخرة وكسب رضوان الله تعالى، ومن هذا المنطلق أقدم عقبة ومعه عدد قليل على معركة غير متكافئة، وكان بإمكان بعضهم الفرار ولكنهم ثبتوا ثبات الأبطال حتى استشهدوا جميعاً في بلاد " تهوذة " من أرض الزاب ويَذكر المؤرخون أن قبور هؤلاء الشهداء معروفة في ذلك المكان وأن المسلمين يزورونها[٣]. وهكذا تحقق أمل عقبة في أبي المهاجر ونالا الشهادة في سبيل الله بعد ما قاموا بالواجب الذي عليهم، واستقبلوا الشهادة في سبيل الله بنفس راضية مطمئنة إلى حسن ثواب ربها، وقد استطاع عقبة أن يشق بجهاده للإسلام طريقه في هذا الجزء من العالم الذي سار فيه خلفاؤه من بعده، زهير بن قيس البلوي، وحسان بن النعمان الغساني، وموسى بن نصير، فقد حقق أهدافه من التمهيد لنشر الإسلام والجهاد في سبيل الله، ولقد كان استشهاد عقبة بن نافع ومن معه في عام ثلاثة وستين للهجرة وعمره آنذاك في حدود أربع وستين

(١) البيان المغرب (٢٥/١)، الدولة الأموية - ٢ / ٨٠.
(٢) الكامل في التاريخ،٥٩١/٢، الدولة الأموية، ٢ / ٨١.
(٣) البيان المغرب ٢٨/١، الدولة الأموية، ٢ / ٨١.

سنة، وبهذا ندرك مبلغ القوة التي كان يتمتع بها أسلافنا حيث قام بتلك الرحلة الشاقة وخاض المعارك الهائلة وقد جاوز الستين من عمره وهكذا استشهد هذا القائد العظيم بعد جهاد دام أكثر من أربعين عاماً قضاها في فتوح شمال أفريقيا، ابتداء بمصر وإنتهاء بالمغرب الأقصى[١].

* * *

(١) الدولة الأموية، ٢ / ٨١.

القائد موسي بن نصير والقائد طارق بن زياد

موسي بن نصير
وطارق بن زياد

أعـــلام القـــادة

القائد موسي بـن نصير والقائد طارق بـن زياد

ولد (موسى بن نصير) سنة ١٩هـ/٦٤٠م في قرية من قرى الخليل في شمال فلسطين تسمي (كفر مترى) فتعلم الكتابة، وحفظ القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، ونظم الشعر، ولما كان والده (نصير) قائدًا لحرس معاوية بن أبي سفيان ومن كبار معاونيه؛ تهيأت الفرصة لـ(موسى) لأن يكون قريبًا من كبار قادة الفتح، وأصحاب الرأي والسياسة، ويرى عن قرب ما يحدث في دار الخلافة.

وشب موسى وهو يشاهد جيوش المسلمين تجاهد في سبيل الله، لنشر الدين الإسلامي في ربوع الأرض، ورأى والده وهو يستعد لإحدى الحروب، وقد لبس خوذته، وتقلد سيفه، فنظر إليه وأطال النظر، وتمنى أن يكون مثل أبيه يجاهد في سبيل الله ويرفع راية الإسلام، وجاءت اللحظة الموعودة لينال موسى قيادة بعض الحملات البحرية التي وجهها معاوية لإعادة غزو (قبرص) التي سبق أن فتحها معاوية في سنة ٢٧هـ؛ فنجح في غزوها، وبنى هناك حصونًا، ثم تولى إمارتها، وفي سنة ٥٣هـ (٦٧٣م)، كان موسى أحد القادة الذين خرجوا لغزو جزيرة (رودس) التي انتصر المسلمون فيها.

وتمر الأيام والسنون ويتولى مروان بن الحكم الخلافة، ويتحين موسى بن نصير الفرصة ليحقق أحلامه وطموحاته، ففي سنة ٦٥هـ/ ٦٨٤م أمر مروان بتجهيز الجيش للسير به نحو مصر، وزحف الجند مسرعين بقيادة ابنه (عبد العزيز) وصديقه (موسى بن نصير) ووصل الجيش إلى مصر، واستطاع مروان أن يضمها تحت لواء المروانيين الأمويين، ثم غادرها إلى دمشق بعد أن عين ابنه (عبد العزيز) واليًا، وجعل موسى بن نصير وزيرًا له.

وعاش موسى مع عبد العزيز بن مروان في مصر، فكان موضع سره، ووزيره الأول، يساعده في حكم مصر، حتى ازدادت خبرة موسى في شئون السياسة والحكم، ومات مروان، وتولى الخلافة بدلاً منه ابنه (عبد الملك) وكان عبد العزيز بن مروان يشيد بشجاعة موسى وإخلاصه أمام الخليفة مما جعله يخص موسى بالحفاوة والتكريم.

وفي يوم من الأيام حمل البريد رسالة من الخليفة إلى أخيه عبد العزيز والي مصر يخبره فيها بأنه قد عين أخاه بشر بن مروان واليًا على البصرة، وجعل موسى بن نصير وزيرًا يساعده على إدارة الولاية ورئيسًا لديوان العراق، ومكن الله لموسى، وثبت أركان وزارته، فلم يمض وقت طويل، حتى عين الخليفة أخاه بشرًا على الكوفة، وبذلك ترك لموسى بن نصير ولاية البصرة ليدير شئونها وحده بوعي وبصيرة، ثم عَيَّنَه صديقه عبد العزيز بن مروان واليًا على شمال إفريقية بدلاً من حسان بن النعمان الذي غضب عليه عبد العزيز.

لما عزل حسان بن النعمان، تولى موسي بن نصير علي إفريقية بامر عبد العزيز بن مروان، وكان موسي هذا من أقدر رجال الدولة الأموية وأكثرهم كفاءة وإخلاصا لها، وكان موسي بن نصير قائما في حرس معاوية بن أبي سفيان، وقيل إنه كان وصيفا لعبد الملك بن مروان فأعتقه، وأصبح موسي مولي عبد العزيز بن مروان، وعينه الخليفة عبد الملك بن مروان عاملا علي العراق مع بشر بن مروان ولكن الخليفة أخذ عليه بعض المآخذ، وأراد قتله فافتداه منه عبد العزيز بن مروان عامل مصر بمال، وأجاره ثم ولاه إفريقية (١)،...

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٤٥.

لا يتفق المؤرخون على تاريخ محدد لتولية موسى بن نصير على المغرب وعزل حسان بن النعمان عنه، ولكن الأقرب إلى تسلسل الأحداث أن يكون عزل حسان وتوليه موسى بن نصير في سنة ٨٥هـ، قبيل وفاة عبد العزيز ابن مروان والذي ينسب إليه المؤرخون عزل حسان وتولية موسى، وبعد أن عزل عبد العزيز بن مروان والي مصر حسان بن النعمان والي إفريقية ولـيَّ مكانه موسى بن نصير، وكان في أواخر سنة خمس وثمانين الهجرية أو في أوائل سنة ست وثمانين الهجرية وعندما توافدت الجيوش، قام موسى بن نصير خطيباً، فكان مما قاله: وإنما أنا رجل كأحدكم، فمن رأى مني حسنة، فليحمد الله، وليحض على مثلها، ومن رأى مني سيئة، فلينكرها، فإني أخطئ كما تخطئون،،أصيب كما تصيبون، وقد أمر الأمير أكرمه الله لكم بعطاياكم وتضعيفها ثلاثاً، فخذوها هنيئاً مريئاً، من كانت له حاجة فليرفعها إلينا، وله عندنا قضاؤها على ماعز وهان مع المواساة إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهكذا أنجز موسى قبل أن يدخل إفريقية حشد جيشه وأكمل استحضاراته الإدارية وساوى نفسه برجاله، وسار موسى متوجهاً إلى الغرب وكان الأمن غير مستتب، فلما وصل إفريقية برز موسى بن نصير قائداً منتصراً في فتح المغرب، ويرجع ذلك إلى السياسة التي اتبعها مع الأهالي وهي سياسة التعاون والاندماج الكلي مع البربر، فحين كان يقدم على موسى وفود القبائل ليعلنوا ولاءهم كان يولي عليهم رجلاً منهم ويأخذ رهائن من خيارهم لضمان هذا الولاء، كما فعل مع وفد كتامة ومع وفد مصمودة وغيرهم، ولكن ما أن يعتنق البربر الإسلام، كان موسى يقر زعمائهم في الرئاسة مقابل مساهمة كل قبيلة بعدد كان من المقاتلين للانضمام للمقاتلة العرب.

وأعطت سياسة التفاهم هذه ثمارها، فقد استطاع موسى أن يجند أعداداً كبيرة من قبائل البربر مثل كتامة وهوارة وزناتة ومصمودة، وألحق موسى بن نصير هؤلاء المقاتلة من البربر مع جراوة الذين كانوا قد جندوا في عهد حسان، ووضعهم جميعاً في حامية طنجة تحت قيادة طارق بن زياد الذي وليها سنة ٩٠ هـ من قبل موسى بن نصير، ومن الوسائل التي استخدمها موسى في تأليف القلوب وضبط الأمور، وتقوية الدولة الإسلامية:

١- عتق بعض السبايا:كان موسى بن نصير يعتق بعض سباياهم ويتولاهم في نطاق خطته لتشجيع البربر على الدخول في الإسلام، فكان يشتري من السبايا من كان في ظنه أن يقبل الإسلام.

٢- تطبيق مبدأ المساواة:في النفل بين البربر المسلمين والعرب الذين أبلوا بلاء حسناً وذلك تشجيعاً وتقديراً لبلائهم وبهذا التصرف تمكن موسى من جلب أعداد كبيرة إلى الإسلام وإشراكهم في الجيش الإسلامي.

٣- التنظيم الإداري: ويبدو أن موسى بن نصير حين دخل إفريقية وجدها في حاجة ماسة إلى إدارة مستقرة، فقد انفردت كل قبيلة بربرية بناحيتها واستبدت بها دون أن تخضع لولاة أو عمال، فأخذ موسى يعمل على إخضاع كل المغرب إلى الحكم الإسلامي فبدأ ينقل البيزنطيين من المدن الساحلية والنواحي الداخلية وأسكنهم قرب مراكز الحكم الإسلامي مما يتيح للمسلمين مراقبتهم ودعوتهم وتعليمهم.

٤- تكوين القوة البحرية: أنشأ حسان بن النعمان دار صناعة السفن بتونس ثم استكملها بعده موسى بن نصير وعبيد الله بن الحباب، ويذكر أنه صنع بها مراكب مما مكنه من غزو صقلية.

٥- سك النقود: ويبدو أنه بادر بسك النقود بإفريقية، إذ يرى حسن حسني عبد الوهاب أن أول أمير سك النقود بإفريقية، هو موسى ابن نصير سنة ٩٥هـ.

... وتتلخص أعمال موسى بن نصير في حرصه على نشر الإسلام بين البربر ولهذا كان يختار عمالاً يحسنون السيرة في أهالي المناطق المفتوحة[١]، واختار فئة من أصحابه لتعليم البربر حديثي الإسلام، القرآن ومبادئ الإسلام. فقد أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين، وذكر ابن عذارى أن موسى ترك سبعين رجلاً من العرب في طنجة يعلمون البربر القرآن وشرائع الإسلام. وهذه السياسة هي استمرار لسياسة عقبة بن نافع وحسان بن النعمان. وهذا أدى إلى انتشار الإسلام في المغرب الأقصى. واستطاع موسى بن نصير بعد حملات جهادية منظمة السيطرة على جميع شمال إفريقية من برقة إلى المحيط الأطلسي وأصبح سيد إفريقية بدون منازع، وكان أولاده من ضمن قادته في فتوحاته الكبرى.

وكانت له حملات بحرية على جزر البحر الأبيض المتوسط ومن أشهر تلك الحملات ما سمي بحملة الأشراف بسبب اشتراك أشراف الناس فيها وكانت وجهتها جزيرة صقلية حيث بلغ عدد مقاتليها بين التسعمائة والألف وكانت بقيادة ابنه عبد الله الذي حقق نصراً حاسماً حتى غنم المسلمون غنائم كثيرة بلغ فيها سهم المقاتل مائة دينار ذهب.

هذا ولم تقتصر حملات موسى بن نصير البحرية على مقاتلة إفريقية بل شملت دعم الحملات البحرية في ولاية مصر، هذا وقد توجت هذه

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٤٦، الصلابي، الدولة الأموية، (٣ / ١٣٩).

الانتصارات البحرية الرائعة التي حققها الأسطول الإسلامي بفتح بلاد الأندلس الذي خطط له موسى بن نصير ونفذه طارق بن زياد وتم بشكل نهائي بتوفيق الله ثم جهود هذين القائدين العظيمين[١].

وكتب موسى بن نصير إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يستأذنه في فتح تلك البلاد، ويشرح له اضطراب أحوالها وأنّ الفرصة غدت مواتية بعد مؤامرة يوليان ضدّ لوذريق، غير أن الخليفة أمر موسى بأن يختبر الأندلس ويدرس أحوالها بنفسه بإرسال حملات استطلاعية إليها، وعهد موسى بن نصير إلى يوليان نفسه القيام بإغارة على جنوب أسبانيا ليتحقق بذلك من أمرين: أولهما أن يوليان جادّ في دعواه ضدّ لوذريق، وكراهيته له ولحكومته في أسبانيا، وثانيهما: أن يعرف مِن المقاومة التي يتعرض لها يوليان مدى قوّة القوط وما لديهم من استعداد حربي، وقام يوليان فعلا بإغارة سريعة على جنوب أسبانيا، ورجع منها محمّلا بالكثير من الغنائم والسبي.

وأراد موسى بن نصير أن يقف بعد ذلك بنفسه على أحوال أسبانيا؛ فأعدّ حملة من المسلمين جعل على رأسها أحد قادته المشهورين بالمغامرة والشجاعة، وهو أبو زرعة طريف ابن مالك؛ فبعث هذا القائد إلى الأندلس في أربعمائة من خيرة الفدائيين، وذلك على سفن قدّمها لهم يوليان، ونزل المسلمون في جزيرة صغيرة اسمها بالوماس، وهي التي صارت تحمل بعد ذلك اسم القائد المسلم وعرفت بجزيرة طريف، وبادرت قوّة مكونة من أبناء غيطشة التي اشتركت في الحملة إلى مساعدة المسلمين وحراسة المضيق، وذلك في شهر رمضان عام ٩٢هـ يوليو ٧١١م، وشنّ طريف من مركزه

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٤٦ ـ ٤٧، الصلابي، الدولة الأموية، (٣ / ١٣٩).

بتلك الجزيرة عدّة حملات استطلاعية على سواحل أسبانيا الجنوبية، حيث درس تحصيناتها وعرف الكثير من أحوال أهلها ومدى علاقتهم بحكامها من القوط، وأخيرا عاد طريف إلى بلاد المغرب [١]

فقدّم تقريرا مفصّلا عن إغاراته إلى موسى بن نصير، وشرح له في إسهاب أحوال أسبانيا، وقد أكّدت غارة طريف لموسى بن نصير صدق الأقوال التي نقلها إليه يوليان عن انهيار الأحوال في أسبانيا وافتقارها إلى أسباب الدفاع؛ بسبب انشغال القواد بملاذهم وانصرافهم إلى أعمال الطغيان وسلب ثروات البلاد لأنفسهم؛ فلم يلق طريف نوعا من أنواع المقاومة، كما لم يقابل قوّة من قوات القوط أثناء استطلاعه لأحوال جنوب أسبانيا، هذا إلى أن مبادرة أفراد بيت غيطشة إلى مساعدته وحراستهم لخطوط مواصلات المسلمين جاء دليلا واضحا على الانقسام الذي ساد الطبقة الحاكمة من القوط، وأن لوذريق لا يحكم إلا بالعنف والقسوة، وهو أمر لن يكفل له مقاومة المسلمين طويلا عندما يبدأ الفتح الإسلامي للبلاد

هذا إلى أن يوليان برهن مرة أخرى بما قدّمه من مساعدات لحملة طريف على أنه كاره فعلا للوذريق، وأن المؤامرة التي دبّرها مع أبناء غيطشة ضدّ هذا الحاكم المستبدّ مؤامرة لها خطرها، وأن خيوطها صحيحة وسليمة.

وبعودة حملة طريف انتهى موسى بن نصير من دور الحملات الاستطلاعية، وبدأ الإعداد الفعلي للفتح المنظّم لأسبانيا، وأثبت موسى بن نصير مقدرة حربية فائقة في هذا السبيل؛ إذ دارت الاستعدادات الحربية التي قام بها دون أن يتسرّب أمرها إلى القوط، ودون أن يتنبّه يوليان نفسه إلى حقيقة أهدافها وجوهر مراميها؛ فقد

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ٢١٦.

استطاع موسى بن نصير أن يوهم يوليان بأن استعداداته الواسعة النطاق التي أعقبت حملة طريف ما هي إلا حملة قوية لمساعدة أبناء غيطشة ضدّ لوذريق، وأخفى عنه تماما أنها ستكون الحلقة الأولى في سلسلة الفتح المنظّم لأسبانيا، وأعدّ موسى بن نصير حملة مكوّنة من خمسة آلاف جندي حتى لا يثير كثرة عددها ريبة يوليان أو مخاوفه، وفي الوقت نفسه سار موسى بن نصير في ذلك الإعداد على النهج الذي سارت عليه الفتوح الإسلامية الكبرى في شتىّ الجهات، وهو القيام أوّلا بإرسال حملة صغيرة العدد يتبعها إمدادات لا تنتهي - سواء من حيث الكثرة أو حسن الاستعداد - حتى يتم تحقيق الأهداف الحربية، وانتدب موسى لقيادة هذه الحملة الأولى على الأندلس أحسن قادة المسلمين إذ ذاك وأشدّهم ثقة به وهو: طارق بن زياد.

جاء اختيار موسى بن نصير لطارق بن زياد لقيادة هذه الحملة خطوة موفّقة، وأكّد بُعد نظر موسى وسعة خبرته الحربية؛ فطارق من البربر الذين عرفوا أرض الأندلس معرفة وثيقة؛ لأنهم يرونها امتدادا لبلادهم لا فارق بين بيئتها وبيئتهم، يضاف إلى ذلك أن طارقا هو الذي تولّى بنفسه جمع المعلومات عن بلاد الأندلس، وتولّى مفاوضات يوليان، وصار خبيرا بالميدان الجديد في سائر نواحيه الحربية والسياسية، وعمل موسى بن نصير على أن يشدّ أزر طارق الذي عهد إليه بالقيادة العليا للحملة؛ إذ ضم إليه هيئة من كبار رجال الحرب من العرب والبربر ليكونوا بمثابة مجلسه الاستشاري ومساعديه في إدارة المعارك، ومن أولئك القادة العرب: عبد الملك بن أبي عامر المغافري، وعلقمة اللخمي، وأحد موالي الخليفة الوليد بن عبد الملك واسمه مغيث الرومي، وكان القائد الأخير يعتبر

مندوب الخلافة الحربي في تلك الحملة التي أعدّها موسى بن نصير، وحلقة الاتصال بين السلطات المركزية في دمشق ومقرّ القيادة الإسلامية في القيروان، وكلّف موسى ابن نصير بعد ذلك يوليان بأن يقدّم للقوات الإسلامية السفن اللازمة لنقلها إلى أسبانيا، كما يتولى حراستها ويقوم بمهمة الدليل لها، وكان السبب في إصرار موسى بن نصير على الاعتماد في نقل الجند بسفن يوليان هو حرصه الشديد على إخفاء تحركات هذه الحملة عن العيون والجواسيس؛ فالأسطول الإسلامي كان قد تمّ إعداده على عهد موسى ابن نصير وصارت له قاعدة هامة في تونس، كما ظهر نشاطه في السيطرة على الجزر الهامة في غرب البحر المتوسط، ولذا كانت تحركات هذا الأسطول محطّ أنظار الجميع ولا يمكن إخفاء أمرها، ولما كان موسى بن نصير يستهدف مفاجأة القوط بالأندلس لم يكن أمامه سوى الاعتماد على سفن يوليان التي لا تثير الريبة في نفوس من يشاهدها وهي تعبر بحر الزقاق (مضيق جبل طارق)، وكان لدى يوليان أربع سفن لا تتّسع لنقل أفراد الحملة مرّة واحدة، ولذا تمت عملية عبور بحر الزقاق على دفعات، وأخذت كل جماعة يتمّ نقلها تختفي في جهات خصّصت لها على الشاطئ الأسباني، حتى انتهى الجميع من العبور وذلك عام ٩٢هـ (٧١١م) (١).

وبادر طارق بن زياد بتحصين القاعدة الأولى التي استولى عليها في جنوب أسبانيا قبل التوغّل في داخل البلاد، ثم استولى على بلدة الجزيرة الخضراء قبالة جبل طارق، وصار بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) في قبضة المسلمين وعلى اتصال وثيق بسبتة قاعدة

(١) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، ص ٨٨ - ٩٠، المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٣٧ - ٢٣٨.

الاتصال الأولى ببلاد المغرب.

وتمت المرحلة الأولى بذلك من نزول الحملة الإسلامية في أسبانيا دون مقاومة تذكر، وكان السبب في ذلك هو أن موسى بن نصير اختار وقت قيام حملة طارق وفق أدقّ المعلومات التي وصلته، وكانت المخابرات الإسلامية تتبع حركات لوذريق وتتحيّن الوقت المناسب لبدء الحملة، وسرعان ما سنحت الفرصة حين ذهب لوذريق إلى أقصى شمال أسبانيا ليخمد ثورة قام بها سكان جبال البرانس المعروفة باسم القبائل البسقاوية، وكانت تلك الجموع القبلية مشهورة بالمراس وقوة الشكيمة، مما جعل لوذريق يأخذ معظم جيشه معه، وأصبح جنوب أسبانيا خاليا تماما من أسباب الدفاع عنها، ولذلك لم تشعر سلطات القوط بنزول المسلمين في جنوب البلاد إلا بعد أن استقرّت دعائمهم ومكّنوا لأنفسهم على بحر الزقاق، فعبأت قوات سريعة وأرسلتها على عجل للهجوم على المسلمين تحت قيادة (بنج) المعروف باسم (بنشو) في المراجع الأسبانية، ولكن القوط لقوا هزيمة فادحة لم ينج منهم إلا واحد استطاع الهرب والذهاب إلى معسكر لوذريق في أقصى الشمال، ونقل إليه أنباء تلك الكارثة وهجوم المسلمين على البلاد، وكان لوذريق يقيم في مدينة بنبلونة بأقصى الشمال حيث يدير الحرب ضد القبائل البسقاوية، ولذا صمّم العودة سريعا إلى الجنوب والهجوم على المسلمين قبل أن يتوغّلوا في داخل البلاد، وكان لوذريق من أشهر رجال القوط في ميدان الحروب؛ إذ قدّر تماما الخطر الذي أحاط بدولته بسبب نجاح المسلمين في اتخاذ قاعدة لهم عند جبل طارق، وأدرك أنهم جاؤوا للفتح وليس للإغارة من أجل السلب والنهب والحصول على المغانم كما راجت الإشاعات بذلك، ومن ثم عمد إلى جمع صفوف القوط

لمواجهة المسلمين؛ فاتصل بأبناء غيطشة وصالحهم ليكونوا جميعا يدا واحدة، ولكن أعمال لوذريق في تلك السبيل جاءت متأخرة؛ لأن بيت غيطشة ظلّ على ولائه سرّا للخطة التي وضعها يوليان، ولم ينس ما حلّ به من أذى واضطهاد وتشريد على يد لوذريق، وفي الوقت نفسه ظلّ أبناء هذا البيت في اعتقادهم أن المسلمين لم يأتوا للفتح ولكن للحصول على المغانم مقابل مساعدتهم في القضاء على لوذريق، وزحف لوذريق بجيشه سريعا واحتلّ قرطبة؛ ليحول بين المسلمين وبين الاستيلاء عليها؛ لأنها المفتاح الذي يسيطر على سهول الأندلس الجنوبية الشرقية، ويمكن لصاحبها من الاستقرار في البلاد (١).

وكان طارق بن زياد يريد فعلا الاستيلاء على قرطبة؛ فقد زحف على هذه المدينة بعد انتصاره في جنوب أسبانيا، وسلك الطريق المارّ بجزيرة طريف (الجزيرة الخضراء) ثم زحف شمالا بعد ذلك حتى اقترب من بحيرة الخندق التي يخترقها نهر صغير يسمى البرباط، وفي ذلك المكان مدينة صغيرة سمّاها المسلمون (بكة) ونسبوا إليها النهر الذي صار يعرف باسم وادي بكة، وحرف بعض المسلمين هذه التسمية إلى وادي لكة، وعند وادي بكة عرف طارق بن زياد عن طريق عيونه أن لوذريق علم بنبأ الحملة الإسلامية وأنه وصل إلى قرطبة واستولى عليها، كما أنه تابع زحفه جنوبا واتخذ معسكره عند بلدة شذونة في سهل البرباط، وأنه صار بذلك على أهبة القتال، وذكرت بعض المراجع أن جيش القوط بقيادة لوذريق بلغ عدده مائة ألف مقاتل وضمّ عددا عظيما من الفرسان، ويرجح أن هذا العدد مبالغ فيه، وأدرك طارق بن زياد أن العدد الذي معه من

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٨، المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٣٩.

جند المسلمين لا يكفي لقتال قوات لوذريق الهائلة؛ ولذا أرسل إلى موسى بن نصير يشرح له الموقف ويطلب إليه إرسال الإمدادات بسرعة، فأمدّه موسى بن نصير بحملة عددها خمسة آلاف مقاتل بقيادة طريف بن مالك الذي قاد أول حركة استطلاعيةفي أرض أسبانيا، ونقل هؤلاء الجنود مرّة واحدة على سفن الأسطول العربي إلى أسبانيا، ووصلت الإمدادات الإسلامية إلى طارق في اللحظة الحاسمة التي كان القوط على وشك شنّ الهجوم على المسلمين، وأعدّ طارق بن زياد قواته للمعركة، ثم وقف بين جنده خطيبا يحثّهم على الاستبسال في القتال، شأنه في ذلك شأن قادة الفتوح العربية الذين دأبوا على رفع روح جندهم المعنوية بإلقاء خطاب حماسي بينهم قبل نشوب المعركة، وتعتبر خطبة طارق من روائع الأدب العربي، ومما جاء في هذه الخطبة: " أيها الناس! أين المفرّ؟ البحر من ورائكم والعدوّ أمامكم، وليس لكم والله إلا الصبر والصدق، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوّكم، وإن امتدّت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهبت ريحكم وتعوّضت القلوب عن رعبها فيكم الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية؛ فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإني لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة أرخص متاعا فيها للنفوس أبدأ بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشقّ قليلا استمتعتم بالأرفة الألذّ طويلا، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي؛ فما حظكم فيه بأوفى من حظّي، وقد بلغكم ما أنشأت هذه

الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدرّ والمرجان والحلل المنسوجة بالعقبان، المصورات في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا؛ ثقة منه بارتياحكم للطعان واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان؛ ليكون حظّه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مغنمها لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى ولي أنجادكم على ما يكون لكم ذكرا في الدارين.

أيها الناس: ما فعلت من شيء فافعلوا مثله؛ إن حملت فاحملوا، وإن وقفت فقفوا، ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال، وإني عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أنهيه حتى أخالطه وأمثل دونه؛ فإن قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وتولوا الدبر لعدوكم فتبدوا بين قتيل وأسير، وإياكم إياكم أن ترضوا بالدنية، ولا تعطوا بأيديكم وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة الراحة من المهانة والزلة، وما قد أجل لكم من ثواب الشهادة فإنكم إن تفعلوا - والله معكم ومفيدكم - تبوءوا بالخسران المبين وسوء الحديث غدا بين من عرفكم من المسلمين، وهأنذا حامل حتى أغشاه؛ فاحملوا بحملتي " [(١)].

وفي الوقت الذي أثرت فيه خطبة طارق تأثيرا كبيرا في نفوس جنوده ورفعت من روحهم المعنوية كانت العناصر الحانقة على لوذريق تحدث أعمالها وتدفع بكثير من أولئك الغاضبين إلى الانضمام إلى جيش طارق، ووقف الفريقان على ضفتي النهر أخيرا استعدادا للقتال، وكان المسلمون ببساطتهم ويقظتهم موضع الهيبة في النفوس، على حين كان منظر القوط يدعو إلى السخرية والازدراء؛

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٢٥.

إذ جلس لوذريق في عربة مطهمة يجرها جوادان وعليه أثواب الحرير البراقة، وهو يحاول عبثا بثّ روح الحماسة في جنده، وكان في جيشه اثنان من إخوة غيطشة، وهما: أبه وششبرت اللذان صالحهما بغية توحيد صفوف القوط، وجعل أحدهما على الخيالة التي كانت عماد جيش القوط، وفي يوم الأحد ٢٨ من رمضان عام ٩٢هـ (١٩ يوليو ٧١١م) بدأت المناوشات بين الجانبين على وادي البرباط بالقرب من بلدة شذونة، واستمرت المناوشات ثلاثة أيام أظهر فيها كل من الجانبين الكثير من ضروب الشجاعة والبسالة دون أن يحصل أحدهما على نصر يذكر، غير أن أتباع يوليان نشطوا في أثناء القتال وبثوا رجالاتهم وسط جند لوذريق ليصرفوهم عنه ويؤكدوا لهم أن المسلمين لم يأتوا إلى الأندلس للفتح والاستقرار ولكن للقضاء على هذا الطاغية، وأنه إذا تمّ القضاء على حكم لوذريق عادت البلاد ملكا لهم ينعمون بخيراتها، ونجحت دعايات يوليان بين فرسان القوط، خاصة تلك التي كان يتولى قيادتها أحد إخوة غيطشة ملك القوط السابق الذي قضى عليه لوذريق.

وفي اليوم الرابع من المعركة ظهرت نتائج دعايات يوليان بين صفوف جيش لوذريق؛ فقد تخلى عنه جماعات الخيالة التي كانت العامود الفقري للعمليات الحربية، وأدى ذلك إلى وقوع الاضطراب بين سائر جند القوط وهرب الكثيرون منهم طلبا للنجاة، هذا إلى أن غالبية الجيش اشتملت على أعداد كبيرة من العبيد الساخطين على حكم القوط المتمنين زواله، ووجدوا في تلك المعركة فرصتهم للخلاص مما حلّ بهم من ظلم واضطهاد، ولما أخذت مظاهر الفوضى تسود الجيش بسبب انسحاب الخيالة تراخى العبيد عن القتال وانتهت المعركة بانتصار المسلمين.

وفرّ لوذريق تاركا عددا كبيرا من القتلى على أرض الميدان، وحسب البعض أن لوذريق غرق في النهر الذي دارت المعركة بقربه؛ لأن الجند وجدوا على الشاطئ بعد انتهاء القتال خفّه دون أن يعثروا له على أثر، غير أن لوذريق أبى الاستسلام بعد الهزيمة الساحقة التي نزلت به، وفرّ إلى داخل البلاد دون أن يكشف أحد أمره، مستهدفا جمع فلول القوط مرة أخرى والانتقام ممن انضمّ من رجاله إلى المسلمين، وبعث طارق بأنباء انتصاراته إلى موسى بن نصير الذي أبلغها بدوره إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك، وبدأت راية الإسلام تعلو خفاقة فوق غرب أوربا للمرة الأولى في التاريخ (١).

وأحدث انتصار طارق بن زياد في وادي لكة دويا هائلا في المشرق والمغرب، وازدادت قوات طارق بن زياد بعد معركة وادي بكة؛ لأن الإمدادات انهالت عليه من المغرب،وكان لابد لطارق أن يجني ثمار جهاده وانتصاره في وادي لكة، قبل أن تجتمع فلول القوط مرة أخري، فرأى طارق أن يتابع زحفه دون إبطاء ليستولي على قرطبة ويقضي على ما بها من بقايا جيش القوط، غير أنه لقي في الطريق إلى هذه المدينة مقاومة عنيفة جعلته يعدل عن خطته ويبادر بالاستيلاء على طليطلة عاصمة دولة القوط ويتوج بذلك انتصاراته في أسبانيا، وكان السبب في هذا التطوّر الجديد هو ما بلغ طارقا من أن أنصار لوذريق حين ترامت إليهم الشائعات بأن ملكهم لم يقتل بدءوا يجمعون صفوفهم مرّة أخرى في طليطلة لمقاومة المسلمين.

ومن ناحية أخرى أخذ أنصار الملك السابق غيطشة يجتمعون في طليطلة ويتشاورون فيما بينهم لإعلان أحدهم ملكا مكان لوذريق المهزوم، ولذا عجل طارق بإرسال جزء من جيشه للاستيلاء على

(١) ابن عبد الحكم، فتوح المغرب والأندلس، ص ٩٦، ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ١٠.

قرطبة ليحمي ممتلكاته بجنوب أسبانيا، على حين انطلق بنفسه سريعا إلى طليطلة قبل أن يتمكّن أتباع لوذريق من تحصينها، وقبل أن يصل أبناء غيطشة أيضا إلى قرار يصعب على المسلمين مواجهته، ذلك أن بيت غيطشة ظلّ واهما حتى تلك الأحداث بأن المسلمين ما جاءوا إلا للمغانم مقابل مساعدة أبناء غيطشة للوصول إلى العرش، واستولى طارق بن زياد على مدينة طليطلة في سهولة ويسر؛ لأن القوط آثروا تجنّب لقاء المسلمين انتظارا لما تسفر عنه استعداداتهم، وحاول طارق أن يتتبع فلول القوط الهاربة من طليطلة حتى بلغ مدينة أطلق عليها (المائدة) على مقربة من هنارس، وهناك عثر المسلمون على كنز ثمين، عبارة عن مذبح كنيسة طليطلة المحلى بأغلى ما كان لدى القوط من الذهب والجواهر، غير أن طارقا اضطرّ إلى العودة إلى طليطلة لأن الصيف كان قد انقضى؛ فآثر البقاء في العاصمة دون أن يعرض جنده لبرد الشتاء القارس، وفي طليطلة بلغه أن جيشه الذي بعث به إلى قرطبة قد استولى عليها (١).

وقد شعر موسى بن نصير أن زحف طارق وراء فلول القوط يوشك أن يعرض الفتوح الإسلامية في البلاد الأسبانية المترامية الأطراف لخطر محقق، ذلك أن خطوط مواصلات المسلمين فيما بين طليطلة والجزيرة الخضراء وبلاد المغرب صارت غير آمنة؛ لأن المعاقل الكبرى المبعثرة على امتداد تلك الخطوط لم تخضع للمسلمين، ولم يسيطر طارق إلا على قرطبة فقط من بين تلك المعاقل المتعددة، هذا إلى أن قرطبة لم يكن بها سوى حامية صغيرة لا تستطيع أن تؤدي

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٤٤ - ٢٤٨، ٢٧٠، ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ١٧، ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، ص ٩٤،،حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٧٨.

رسالتها كما ينبغي إذا انبعثت أية حركة مقاومة بين صفوف القوط، وأول من شعر بالخطر الذي بات يهدّد المسلمين في أسبانيا هو القائد يوليان الذي قام إذ ذاك في الجزيرة الخضراء ليؤمن خطوط مواصلات المسلمين بين أسبانيا والمغرب، وذلك في الوقت الذي اندفع فيه طارق بن زياد إلى طليطلة عاصمة القوط، فقد بعث يوليان مجموعة من رجاله مع المسلمين عند توغّلهم في البلاد،

واستطاعت بفضل خبرتها وأهلها أن تدرك ما يدور في نفوس القوط من غدر، وأنهم يتجمّعون وفق خطة مرسومة لإنزال الهزيمة بالمسلمين، أفضى يوليان إلى طارق بما جاءه من أخبار وطلب منه القيام بعمل حاسم لتأمين ظهر جيوشه، غير أن طارقا آثر البقاء في طليطلة دون القيام بأية أعمال توسيعية، ثم كلّف يوليان بأن يتصل بموسى بن نصير في القيروان ويطلب إليه سرعة المجيء إلى أسبانيا لإنقاذ الموقف.

ولما جاءت استغاثة طارق إلى موسى بن نصير أدرك أن مخاوفه من انطلاق طارق في فتوحه بعد معركة وادي بكة لها ما يسوغها، وأسرع موسى بإعداد جيش مكوّن من ثمانية عشر ألفا من خيرة جنده، وكان معظمهم من العرب والبربر الذين عرفوا بقوّة الشكيمة وشدّة المراس، وممن اشتهروا ببلائهم في ميدان الحروب ببلاد المغرب، وغادر موسى بلاد المغرب على عجل، وقسّم موسى بن نصير جيشه بحسب القبائل ليسهل عبورها إلى الأندلس دون أن تقع فوضى في صفوف الجند، وفي رمضان عام ٩٣هـ (يونيه ٧١٢م) كان موسى ابن نصير قد غادر المغرب ووصل إلى الجزيرة الخضراء في الأندلس، وشيّد بها مسجدا وانتظر هناك حتى تمّ عبور سائر الجند

واطمأنّ على سلامتهم وحسن ترتيبهم[١].

وفي تلك الأثناء أسرع يوليان إلى لقاء موسى بن نصير وعقد معه مجلسا حربيا للتشاور في هذا الموقف الخطير، وقرر هذا المجلس الحربي أن الضرورة تقضي بالسيطرة أوّلا على المعاقل التي تركها طارق والتي باتت خطرا يتهدد المسلمين، وبعث موسى بن نصير عقب هذا المجلس الحربي الهام رسالة إلى طارق بن زياد يأمره فيها بالانتظار في طليطلة، وألا يقوم بعمل حربي إلا بإشعار آخر. وردّدت بعض المراجع أن موسى لم يقدم على هذا العمل والعبور إلى الأندلس إلا منافسةً لطارق ورغبة استبدت به لينال بدوره نصيبا كبيرا من الغنائم، وأن الحسد كان يأكل قلبه، وأنه صمّم على محاسبة طارق على أعماله، وأنه رأى أن يتولى بنفسه فتوحا أخرى أعظم مما قام به هذا القائد.

وقد وقعت تلك المراجع في هذا الخطأ الفاحش لأنها صوّرت موسى وطارقا تصوير القائدين المختلفين، وأنّ كلا منهما كان يعمل دون علم الآخر، والمعروف أن طارقا لم يقم بما قام به من أعمال حربية إلا باسم موسى بن نصير الذي تولى القيادة العليا ورسم الخطط، وأمدّ طارقا بكل المساعدات الحربية ولا سيما في ساعة الخطر بعد معركة وادي بكة، هذا إلى أن طارق بن زياد كان يرسل إلى موسى بن نصير عن طريق يوليان أنباء تقدّم المسلمين خطوة خطوة، مما جعل القيادة العليا في القيروان تتابع الأحداث عن كثب، ومن ثمّ لم يكن هناك سبب يدعو موسى لأن يحقد أو يحسد طارقا على ما تم على يديه من فتح؛ لأنه شارك في هذا الفتح وأعدّ خططه، هذا إلى أن موسى لم يكن يتطلع بعبوره إلى الأندلس إلى الحصول على

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ١٩، ابن قتيبة الإمامة والسياسة، ص ١٢٤.

مغـانم؛ لأن توزيـع الغنـائم وغيرهـا مـن ممتلكـات القـوط كـان هـو المرجع الأخير فيه.

والحقيقة أن موسى بن نصير باعتباره القائد الأعلى قد أفزعه زحف طارق السريع بعد معركة وادي بكة، وتعريضه خطوط مواصلات المسلمين لخطر محقق؛ بسبب تركه الكثير من المعاقل والمدن الهامة جريا وراء مطاردة القوط، ولذلك بادر موسى برسم خطة للسيطرة أوّلا على المراكز الحربية وغيرها في المدن التي كانت تهدّد خطوط مواصلات المسلمين، وليدعم فتوح المسلمين قبل الذهاب إلى طارق في طليطلة.

وتنهض هذه الخطة التي وضعها موسى دليلا على أنه لم يكن يهدف إلى القيام بفتوح جديدة تغطي أخبارها وعظمتها ما قام به طارق، وأن مجيئه إلى الأندلس كان ضرورة حربية ملحّة وإصلاح خطأ وقع فيه قائده طارقولو كان موسي بن نصير يقص من وراء جوازه إلي الأندلس تأديب طارق لكان قد جاز إليه في رفقة عدد قليل من المسلمين، ولأسرع للقائه، ولكن موسي جاز الزقاق في جيش أضخم بكثير من جيش طارق، ومضي يفتتح مدن الغرب، ويقضي على مراكز المقاومة طوال هذا العام، قبل أن يلتقي بطارق بن زياد، كل ذلك إن دل علي شيء فعلي أن موسي كان ينوي إتمام فتح الأندلس وفقا لخطة رسمها هو وطارق ويوليان، ولوكان موسى يضمر في نفسه شرا لطارق، مدفوعا في ذلك بعوامل الغيرة والحسد، لما عبر الزقاق بعد عام كامل من زول طارق إلي الأندلس، ولما سلك طريقا غير الطريق الذي سلكه من قبل، ولكان أسرع إلي لقائه كف يده، بدلا من إضاعة وقته في إفتتاح مدن الغرب القوية، مثل إشبيلية

ومـاردة، ولبلة، وباجة [١].

والحقيقة أنه إن كان حدث شيء فلا يعدو أن يكون مناقشة القضـايا أو استفهامه من طـارق خطتـه وإبداء الملاحظـات عنهـا، تخوفاً من الأذى، وعندما استفسر موسى من طارق عن سبب الايغال والتقحم فـي بـلاد العدو، اعتذر إليه طـارق بخطتـه العسكرية أمـام الظـروف المحيطـة والضـرورة الداعيـة لأسلوبه، وقبـل موسـى عذره. وسـارا بعده - سوية إخوة مجاهدين، ينشرون دين الله ويُعلون كلمته ويبلغون للنـاس شـريعته، كمـا لا ننسـى أن طـارق جنـدي مـن جنـود موسـى والانتصارات التي حققها طـارق إنجـازات تكتب فـي صفحة موسـى القيادية.

واستطاعت الإدارة الإسـلامية التـي شيّدها موسـى بـن نصـير أن تضـع الحجر الأساسي لبناء الحضارة الإسلامية في أسبانيا، وجعلت من تلك البلاد أعظم مركز للإشعاع الحضاري في أوربا في العصور الوسطي، ومـن ثـم أخـذت أسبانيا تخطـو سـريعا فـي مضـمار الازدهـار العلمـي وتـدخل سـجل التـاريخ باعتبارهـا الشـريان الـذي نقـل إلـى أوربـا ثمـار الحضـارة الإسـلامية ومعـارفهم، وهيّـأ لسـكان غـرب أوربـا السـبيل للخـروج مـن جهالـة العصـور الوسـطي إلـى نـور الإسـلام وضـوء الحضارة الإسلامية الساطع.

وقد استغرق الفتح الإسلامي لأسبانيا ثلاث سنوات وبضعة شهور؛ إذ بدأ الفتح الإسلامي لأسبانيا في رجب عـام ٩٢هـ وتـم فـي ذي القعدة عام ٩٥هـ.

ويلاحـظ أن العـرب أطلقـوا اسـم الأنـدلس علـى المنـاطق التـي كـانوا

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٩٢.

يسيطرون عليها من شبه جزيرة أيبريا، ولا زال اسم الأندلس يطلق على الجزء الجنوبي منها.

وبعد أن تمكن موسي بن نصير وطارق بن زياد من توطيد أركان الدولة الإسلامية في الأندلس جاءه مندوب الخلافة وهو مغيث الرومي، ومعه أمر من الخليفة الوليد بن عبد الملك لكل من موسى بن نصير وطارق بن زياد بالمجيء إلى البلاط ومقابلته شخصيا في دمشق فاختار موسي بن نصير مدينة أشبيلية حاضرة للبلاد وعيّن ولده عبد العزيز واليا على الأندلس، واستخلف على المغرب الأقصى ابنه عبد الملك، كما استخلف على إفريقية ابنه عبد الله، ثم غادر موسى بن نصير الأندلس وبصحبته طارق بن زياد وكبار الجند في ذي القعدة عام ٩٥هـ (٧١٤م)، ويقال إن يوليان كان معهم.

وكان موكب موسى بن نصير إلى دمشق من الموضوعات التي أفاض في وصفها الرواة والإخباريون العرب، ونقلها المؤرخون مثل ابن عبد الحكم وابن قتيبة وابن القوطية والمراكشي وابن عذارى وابن خلكان والمقري وابن الأثير، ويقال إن موكب موسى ابن نصير اشتمل فيما عدا حاشيته الخاصة على أربعمائة من أفراد الأسرة القوطية المالكة وأسر النبلاء؛ تزين رؤوسهم التيجان وتطوق أوساطهم الأحزمة الذهبية، ومعهم جموع من العبيد والأسرى يحملون نفائس الغنائم[1].

وعندما اقترب موسى من دمشق وصلته رسالتان كان لهما أكبر الأثر في اختتام حياته فيما بعد، أما الرسالة الأولى فكانت من ولي العهد سليمان بن عبد الملك يطلب فيها من موسى بن نصير أن يبطئ في الحضور إلى دمشق لأن الخليفة الوليد بن عبد الملك مريض مرض

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٣٠، المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٦٢.

الموت وفي أيامه الأخيرة، وبذلك يحظى سليمان عندما يعتلي العرش باستقبال أعظم موكب للنصر عرفه الإسلام، ولكن موسى بن نصير رفض الاستجابة لهذا الطلب وتابع سيره إلى دمشق، وبعد ذلك بقليل تسلم الرسالة الثانية وكانت من عند الخليفة الوليد نفسه يأمره فيها بالإسراع بالحضور إلى دمشق حتى لا تحرمه المنية من شرف مشاهدة موكب النصر القادم على عاصمة الخلافة، وليتوج أيامه الأخيرة بهذا النصر المظفر(١).

ودخل موسى بن نصير مدينة دمشق في السادس والعشرين من يناير عام ٧١٥م جمادى الأولى عام ٩٦هـ، أي قبل وفاة الخليفة الوليد بأربعين يوما، وحرص موسى على أن يشرف بنفسه على طريقة سير الموكب وارتداء المشتركين فيه بثيابهم وبطريقة عرض الكنوز والغنائم، وأمر موسى بالأموال والجواهر واللؤلؤ والياقوت والزبرجد والجزع والوطاء والكساء المنسوج بالذهب والفضة المحرشة باللؤلؤ والياقوت والزبرجد وضمّها إلى موكب النصر مع رجاله بأرديتهم الجميلة الزاهية، ثم أقبل موسى بالذين ألبسهم التيجان حتى دخل مسجد دمشق والوليد على المنبر يحمد الله، وكان الخليفة يعاني في تلك الأيام من وطأة المرض ومع ذلك أبى إلا أن يخرج إلى المسجد متحملا لأجل قدوم موسى بن نصير، ولما رأى الخليفة هذا الموكب استولت عليه الدهشة والعجب الشديد وصاح الحاضرون من الناس: موسى موسى!، وأقبل هذا القائد المظفر حتى سلّم على الخليفة ووقف ثلاثون رجلا من أصحاب التيجان في موكب النصر عن يمين المنبر وشماله، على حين وقف أمام الخليفة سائر أفراد الموكب ومراكب الغنائم المقامة على عجل، وهزّ هذا المنظر الباهر

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٦٢.

قلوب الحاضرين ومشاعرهم كما أثار ذكرياتهم عن فتوح المسلمين الكبرى، وقالوا: إن الدولة الإسلامية لم تشهد منذ فتح فارس مثل هذا الموكب الرائع، ومثل تلك الغنائم الوافرة، وأخذ الخليفة يلقي خطبته في هذا المشهد الحافل وأكثر فيه الحمد لله والثناء عليه والشكر لما أيده الله ونصره، وأذهل موسى الناس بما أتى به من الخيرات والغنائم والأسرى، وكان موكب النصر هذا موكبا مشهودا؛ إذ لم ير الناس من قبل مثل هذا العدد من أمراء الغرب والأسرى الأوربيين، وقد جاءوا يقدمون الولاء والطاعة لأمير المؤمنين.

وكان من أبرز ما قدّمه موسى بن نصير إلى الخليفة الوليد من الغنائم التذكارية النفيسة مائدة تفوق قيمتها كل تقدير، كان طارق بن زياد قد غنمها من كاتدرائية طليطلة، وكان القوط قد تفننوا في صنعها فنسبها العرب إلى سليمان بن داود، وإنما أطلق عليها هذا الاسم كناية عن قدمها وعظم شأنها.

وكان مما قدّم للخليفة الدر والياقوت أكيالا والسيوف المحلاة بالجواهر والتيجان الذهبية المرصّعة بالحجارة الثمينة وآنية الذهب والفضة، وغير ذلك مما لا يحيط به وصف.

وقد أغدق الخليفة الخلع على موسى ثلاث مرات تشريفا له، كما أغدق المنح لآل بيته، ولما انتهى الخليفة من منح موسى براءات الشرف والتكريم استأذن منه هذا القائد العظيم في تقديم المشتركين معه في موكب النصر فأدخل عليه موسى ملوك البربر وملوك الروم وملوك الأسبان وملوك الفرنجة، ثم أدخل عليه رؤوس البلاد ممن كان معه من قريش والعرب؛ فأحسن الخليفة لهم العطايا والمنح (١).

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٦٢.

ومن الأسباب التي ذكرت في سبب استدعاء موسى إلى دمشق تخوف الوليد على المسلمين أن يكونوا في أرض منقطعة، ومحاطة بمناطق غير إسلامية وعلى اتصال بها، هي أقرب إليها من العالم الإسلامي أو مراكز ارتباطه واستمداده وهو الذي رأيناه عارض فتح الأندلس خوفاً على المسلمين أن يخوضوا المخاطر ويركبوا المهالك حتى بين له موسى ألا داعي للخوف.

ويرى الكثير من المؤرخين أن موسى بن نصير لم يكن يعتزم التوقف في فتوحاته عند هذا الحد وإنما كان يخطط لعبور جبال البرانس واجتياح أوربا كلها والوصول إلى القسطنطينية وفتحها من جهة الغرب لولا أن استدعاه الخليفة الوليد إلى دمشق وأمره بالتوقف بالفتح عند هذا الحد، ويؤكد المؤرخون أنه لو قد قدر لموسى بن نصير أن يمضي قدماً في مشروعه هذا لتغير شكل النظام الدولي تماماً ولقضى على القوى غير الإسلامية، ذلك أنهم باستقرائهم النظام الدولي وقتئذ فإنهم يؤكدون أن احتمالات نجاح مشروعه هذا كانت عالية جداً، إذا لم تكن الظروف مواتية لنجاحه مثلما كانت مواتية وقتها، فمملكة الفرنجة كانت مشغولة وقتها بصراعاتها مع الممالك الأخرى ولم يكن هناك كيان سياسي واحد في أوربا كلها يعادل قوة الدولة الإسلامية أو حتى بدايتها.

ويشير هؤلاء المؤرخون إلى أنه لما قدر للمسلمين في هذه المنطقة قائد كفء بعد عشرين عاماً من ضياع هذه الفرصة كانت الظروف الدولية قد تغيرت لغير صالح المسلمين، فلما حاول هذا القائد إحياء مشروع موسى بن نصير هزم هزيمة ضخمة تدخل في تاريخ العلاقات الدولية بوصفها نقطة تحول وهي معركة بلاط الشهداء، وقد تكرست الآثار السلبية لعدم استكمال موسى بن نصير لمشروعه

بفشل حصار المسلمين للقسطنطينية بعد ذلك بسنوات قليلة وهو ما أغلق أوربا أمام المسلمين من الشرق بعد أن كانت قد أُغلقت أمامهم من الغرب(١).

ولقد فشل المحللون في تفسير سبب استدعاء الخليفة الوليد لموسى ابن نصير، فبعضهم يقول: إنه أشفق على المسلمين من مخاطر هذا المشروع البحري، وبعضهم الآخر يؤكد أن الخليفة إنما خاف على سلطانه من تصاعد نفوذ وقوة موسى بن نصير وسواء صحت هذه التفسيرات أو أخطأت، فإن ما حدث بالفعل بعد استدعاء موسى بن نصير إلى دمشق، هو تقويض هدف مصيري للأمة أضاعت فيه فرصة ثمينة في فتح أوربا وجعلها تحت نفوذ الدولة الإسلامية (٢)

- خاتمة موسى بن نصير وطارق بن زياد رحمهما الله تعالى:

... تخبطت الروايات في الحديث عن نهاية موسى وما لقيه من الخليفة سليمان من الأذى والغمط والنكران وفي هذه الروايات غموض وتشويش وتناقض ومبالغات كبيرة، والصحيح أن سليمان كان عاتباً على موسى، لأمر لا نستطيع تحديده على وجه الدقة ثم رضي عنه سليمان وقرّبه منه وأصبح من خاصته ولا يمكننا أن نصدق أن يعاقب سليمان تابعيا جليلا كموسي بن نصير، أسس ملكا من عدم، وقضي سني حياته مجاهدا في سبيل الله، لمجرد قالة ظالمة أو وشاية في حقه، ولوكان سليمان فعل ذلك لكان أولي به أن يعاقبه بعزل أبنائه الثلاثة عن المغرب والأندلس، ولكن شيئا من هذا لم يحدث، بل إن سليمان ابن عبد الملك كان يصطحب موسي بن نصير

(١) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس (٥٤/١) الصلابي، عمر بن عبد العزيز - (٣ / ١٥٩).
(٢) الصلابي، عمر بن عبد العزيز، (٣ / ١٦١).

معه في نزهاته [١]، وكانت بينه وبين سليمان محاورات وتساؤلات فقد قال له سليمان يوماً: ما كنت تفزع إليه عند الحرب؟ قال الدعاء والصَّبْر، قال: فأي الخيل رأيت أصبر؟ قال:الشُقْر، قال: فأي الأمم أشدُّ قتالاً؟ قال: هم أكثر من أن أصف؟ قال: قال: فأخبرني عن الرُّوم، قال: أُسْدٌ في حصونهم عِقبان على خيولهم، نساء في مَراكبهم، إن رأوا فرصة انتهزوها، وإن رأوْا غلبة، فأوعال تذهب في الجبال، لا يرون الهزيمة عاراً. قال: فالبربر؟ قال: هم أشبه العجم بالعرب لقاء ونجدة وصبراً وفروسية، غير أنهم أغدر الناس قال: فأهل الأندلس؟ قال: ملوك مترفون وفرسان لا يجبنون، قال: فالفرنج؟ قال: هناك العدد والجلد والشدة والبأس، قال: فكيف كانت الحرب بينكم وبينهم؟ قال: أمَّا وهذا فوالله ما هُزمت لي راية قط ولا بُدِّد لي جمع، ولا نُكب المسلمون معي منذ اقتحمت الأربعين إلى أن بلغت الثمانين، ولقد بعثت إلى الوليد بتور[٢] زبرجد كان يجعل فيه اللبن حتى ترى فيه الشعرة البيضاء ثم أخذ يُعدِّد ما أصاب من الجوهر والزبرجد حتى تحير سليمان، وقد وصف الذهبي موسى بن نصر بقوله: الأمير الكبير، أبو عبد الرحمن اللخمي، متولي إقليم المغرب، وفاتح الأندلس، قيل: كان مولى امرأة من لخم، وقيل: ولاؤه لبني أمية. وكان أعرج مهيباً ذا رأي وحزم، وكان من اصحاب الهمم الكبيرة فقد قال مرّة: والله لو انقاد الناس لي، لقدتهم حتى أُوقعهم على رُومية ثم ليفتحنها الله على يدي، وكان موسى بن نصير بوسعه أن يستقل على الخلافة ويقيم ملكاً له ولأولاده في المغرب والأندلس، ولكن إيمانه العميق بتعاليم الإسلام وتمسكه والتزامه بها

---

(١) ابن قتيبة الدينوري، المعارف، ص ١٧٨، السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ١٠٧.
(٢) التور: الإناء.

جعله لا يفكر بذلك حتى إن يزيد بن المهلب ابن أبي صفرة سأله عن ذلك فقال موسى: والله لو أردت ذلك ما نالوا من أطرافي طرفاً، ولكني آثرت الله ورسوله، ولم نر الخروج عن الطاعة والجماعة(١).

وقد توفي موسى بن نصير رحمه الله تعالى وهو متجه للحج برفقة الخليفة سليمان بن عبد الملك في المدينة المنورة - على سكانها أفضل الصلاة والسلام - أو في وادي القرى " العُلا، حاليا " أواخر سنة ٩٧هـ وعمره ثمان وسبعون سنة أو يزيد (في سنة ٩٧هـ)، وقال صاحب معالم الإيمان: توفي بالمدينة متوجهاً إلى الحج وكان قد سأل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة أو يموت بالمدينة فأجاب الله دعاءه، وصلى عليه مسلمة بن عبد الملك(٢).

لقد كانت الدنيا وما فيها صغيرة ولا قيمة لها عند موسى بن نصير ويرجع الفضل في ذلك إلى الله ثم نصيحة العالم الجليل أبو عبد الله علي ابن رباح اللخمي لموسى بن نصير، فقد أورد صاحب كتاب رياض النفوس أن موسى بن نصير لما وصل من الأندلس إلى القيروان قعد يوماً في مجلسه، فجاءه العرب يسلمون عليه، فلما احتفل المجلس قال: إنه قد صحبتني ثلاث نعم: أما واحدة فإن أمير المؤمنين كتب إلى يهنئني في كتابه وأمر بقراءة الكتاب، فهنيء بذلك وأما الثانية فإن كتاب ابني قدم علي بأنه فتح له بالأندلس فتح عظيم، وأمر بالكتاب فقريء فهنيء بذلك، وكان علي بن رباح ساكت فقال له موسى: مالك يا علي لا تتكلم؟ فقال: أصلح الله الأمير، قد قال القوم فقال: وقل أنت أيضاً. فقال: أنا أقول - وأنا أنصح القائلين لك - إنه ما من دار امتلأت حبرة إلا امتلأت عبرة، وما انتهى شيء إلا

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، (٤٩٩/٤).
(٢) المقري، نفح الطيب، (١١/٤)، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص ١٨٤.

رجع، فارجع قبل أن يرجع بك، فانكسر موسى بن نصير وخشع وفرق جواري عدة.. وقال صاحب الرياض: ونفعه الله عز وجل بموعظة أبي عبد الله بن رباح، فصغرت عنده الدنيا وما فيها ونبذها وانخلع مما كان فيه من الإمارة، فرضي الله عن التابعي الجليل، والإداري الحازم، والبطل المغوار، والقوي الأمين، القائد الفاتح، موسى بن نصير اللخمي الذي فتح المغرب الأقصى، واستعاد فتح المغرب الأوسط، وأنه دعم الفتح الإسلامي في الشمال الإفريقي وأنه فتح الأندلس وقسماً من جنوب فرنسا وأنه كان من أعظم قادة الفتح الإسلامي، لقد مات موسى بن نصير بعد أن ملأ جهاده - بقيادة المد الإسلامي المبارك - وديان المغرب الإسلامي " الشمال الإفريقي والأندلسي " وجباله وسهوله وهضابه ووجه دعاة الحق لإسماع ساكنيه دعوة الإسلام الخالدة، فكانت سبباً في إخراجهم من الكفر إلى الإيمان، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور، أما ترى معي موسى وهو يجوب الصحاري والوديان والسهول والجبال وقد سلخ من سني عمره خمساً وسبعين سنة ممتطياً جواده يتحرك في أعماقه إيمان بالله العلي القدير قد دفعه للجهاد والدعوة والعلم والتربية وأحكام أمور الدولة رغم ما علا رأسه من الشيب الوقور، منقاد لإصرار العقيدة السمحة، وهمة الإيمان الفتي، التي كانت سبباً في كل خير أصاب المسلمين (١).

... أما عن البطل الكبير طارق بن زياد: فلا نكاد نعرف عما حدث له بعد وصوله دمشق غير أن رواية تذكر رغبة سليمان في تولية طارق الأندلس، وبعد ذلك قضى آخر أيامه مغموراً، فهل عاد إلى المغرب والأندلس؟ أم بقي في دمشق ولا يستبعد أن يكون عاد إلى الأندلس أو

(١) الصلابي، عمر بن عبد العزيز، (٣ / ١٦٤).

المغرب[1]، كان طارق من البربر وعامّة جنوده كذلك، فيهم شجاعة وإقدام، فقد تربوا في أحضان الإسلام وعلى تعاليم القرآن الكريم وأصبحوا أصحاب رسالة خالدة صنعت منهم الأبطال، وقدموا في سبيل دينهم وعقيدتهم الغالي والنفيس، بل نجزم بأن الجيوش الإسلامية الضاربة التي اصطدمت بالأسبان اعتمدت بعد الله على إخواننا من البربر الذين اندفعوا خلف طارق في سبيل هذا الدين ونشره، إن العقيدة الإسلامية صهرت المنتسبين إليها عرباً وعجماً في رحاب الإسلام العظيم.

ولكن إهمال المؤرخين لطارق بن زياد لم يحرمه نصيبه من الخلود، فقد شاءت المقادير أن تحمل اسمه أول بقعة في الأندلس وطئتها قدماه وهي جبل طارق، كما سمي بحر الزقاق باسم مضيق جبل طارق، وانتقلت هذه التسمية إلى اللغات الأوربية جميعها بصيغها محرفة تحريفا بسيطا.

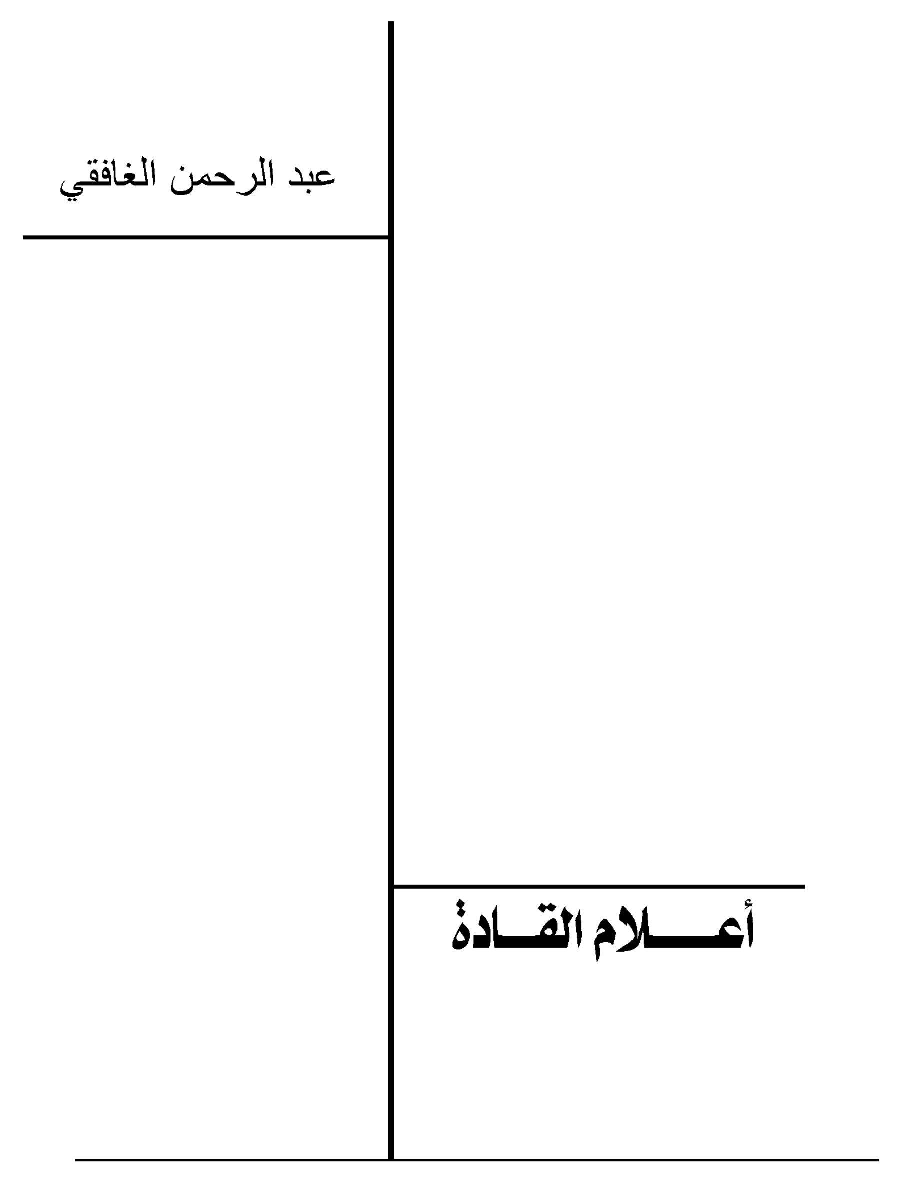
ولم تشر الروايات العربية إلى مصير يوليان الذي مهّد لفتح الأندلس، وتذكر بعض الروايات أنه عاد إلى سبتة وأقطع ما حولها من الأرض، وظل أ ميرا على سبتة نظير خدماته، ولكنه بقي نصرانيا هو وبنوه الأقربون، أما ذريته فيقال إنها دخلت الإسلام بعد ذلك، أما أبناء غيطشة فقد أقطعوا ما كان لأبيهم، وعامل العرب ابني غيطشة (إيفا وسيزبوت) معاملة حسنة فعينوا أوباس ابنه مطرانا علي طليطلة والأندلس،وتوفي إيفا عن ابنة تدعي سارة وطفلين صغيرين فاغتصب عمهما سيزبوت ميراثهم، فرحلت سارة إلي دمشق مع أخويها، وشكت أمرها إلي الخليفة هشام بن عبد الملك، فأنصفهما وأمر والي الأندلس أبا الخطار برد ميراثهما إليهما، وفي دمشق تزوجت من عيسي بن مزاحم،

(١) المقري، نفح الطيب، ١٣/٣ - ١٤، فاتح الأندلس طارق بن زياد صـ٤٥، ٤٦. الصلابي، عمر بن عبد العزيز، ٣ / ١٦٥.

وعادت إلي الأندلس مع زوجها، ورزقت بولدين إبراهيم وإسحاق اللذين أحرزا مكانة عالية. وإلي سارة ينسب مؤرخ الأندلس الشهير ابن القوطية [١].

* * *

(١) ابن الأثير، الكامل، ٤ / ٢١٣، المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٤٥.


عبد الرحمن الغافقي
أعـــلام القـادة

القائد عبد الرحمن الغافقي

عبد الرحمن بن عبد الله بن بشر بن الصارم الغافقي، أبو سعيد: أمير الاندلس، من كبار القادة الغزاة الشجعان. أصله من غافق (من قبيلة عك، في اليمن) رحل إلى إفريقية. ثم وفد على سليمان بن عبد الملك الأموي، في دمشق. وعاد إلى المغرب، فاتصل بموسى بن نصير وولده عبد العزيز، أيام إقامتهما في الاندلس. وولي قيادة الشاطئ الشرقي من الاندلس. وكثرت جموعه بعد مقتل السمح بن مالك (سنة ١٠٢ هـ فانتقل إلى أربونة، فانتخبه المسلمون فيها أميرا، وأقره والي إفريقية، ولكن لم تدم ولاية عبد الرحمن الغافقي طويلا، حيث بقي أقل من شهرين، ولم يستطع خلال هذه الفترة القصيرة أن يقوم بأي يعمل يذكر، حيث أقام يزيد بن أبي مسلم والي إفريقية عنبسة بن سحيم الكلبي (١).

يعتبر عبد الرحمن الغافقي من أعظم قواد المسلمين في الأندلس، وعرف بحسن القيادة والشجاعة وقوة الشكيمة، وكان قد أبلى بلاءً حسنا في معارك المسلمين منذ فتح الأندلس لا سيما معركة طولوشة التي قتل فيها السمح، فتركت هزيمة المسلمين أثرا عميقا في نفسه، ولذلك كان تواقا لمواجهة الفرنجة، راغبا في الجهاد والانتقام منهم، وجاء تقليده ولاية الأندلس في وقت انبعثت فيه الفتنة بين العرب في هذه البلاد بسبب العصبية القبلية، وكان عبد الرحمن إلي جانب صفاته السابقة معروفا بنزاهته وحياده لا يتحيز لفريق على آخر، ولا يتعصب لعنصر على آخر، ولذلك قوبلت ولايته بفرحة عمت قلوب أهل الأندلس، واستبشر الناس لولايته، وشرع عهده برفع المظالم

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٢٦، خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس (الفتح وعصر الإمارة)، ص ٢١٤ - ٢١٥.

عن الناس، وكان يطوف المدن يتحقق من شكايات الرعية، لا يميز بين مسلم ومسيحي، وعزل كثيرا من القواد والولاة الذين ثبتت مظالمهم للرعية [١].

عين عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي واليا على الأندلس مرتين، الأولى في عام ١٠٢ هـ - ٧٢١ م، لمدة عام، والثانية من قبل والي أفريقيا مؤيدا من الخليفة هشام بن عبد الملك في صفر عام ١١٢ هـ وفي أوائل عام ١١٤ هـ - ٧٣٢ هـ.

ولما تولى عبد الرحمن الأندلس الولاية الثانية رأى ضبط البلاد أولا ثم السير بعد ذلك للغزو، وقضى عبد الرحمن الغافقي ما يقرب من عام نظم خلالها شؤون البلاد، ثم أعلن الجهاد ضد الفرنجة، فتجمعت حوله جموع المتطوعين الذين كانوا يتوقون للقتال تحت قيادته، وتكون من هذه الحشود جيش هائل يتراوح عدده ما بين سبعين ألفا ومائة ألف، جلهم من البربر، إذ أن العرب في ذلك الوقت كانوا مشغولين بمنازعاتهم القبلية [٢].

ولعل أهم المعارك التي خاضها عبد الرحمن الغافقي في تاريخه الجهادي هي معركة بلاط الشهداء [٣] - التي استمرت حوالي عشرة أيام - في رمضان سنة ١١٤هـ / نوفمبر ٧٣٢م واستشهد الغافقي نفسه في موضع يقع بين مدينتي تور[٤] وبواتييه[١] حوالي ٣٢٣ كم

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ١٤٠ - ١٤١.
(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ١٤١.
(٣) بلاط الشهداء.
هو السهل الواقع بين مدينتي (تور) و (بواتية) في الشمال الغربي من فرانسا قرب نهر (اللوار) وفيه وقعت المعركة الشهيرة بين المسلمين بقيادة عبدالرحمن الغافقي وبين الفرنجة بقيادة (شارل مارتل) سنة ١١٤هـ (٧٣٢م) والبلاط لغة هو الطريق المبلط وبلاط الشهداء نسبة إلى طريق روماني قديم دارت عنده المعركة.
(٤) تور tours :

جنوبي باريس، وانتهت المعركة بانكسار الجيش الإسلامي وانسحابه من ميدانها.

فبعد أن أتم عبد الرحمن الغافقي استعداداته عام ١١٤هـ / ٧٣٢م أمر بالمسير نحو بلاد الفرنجة، مخترقا ممر رونسفال ومتجها إلي مدينة بوردو[٢]، وفي أثناء ذلك حاول دوق أكيتانيا أودو اعتراض زحفهم والتصدي لهم، فالتقي الجمعان علي نهر الدردون غير بعيد من التقاء هذا النهر بنهر الجارمون، وهزم الدوق ومن معه شر هزيمة وقتل من جيشه أعداد كبيرة وطارد الجيش الإسلامي جيش أودو حتى عاصمته بوردو واستولوا عليها بعد حصار قصير، وفر الدوق مع عدد من أصحابه نحو الشمال وسقطت مقاطعة أكيتانيا كلها بيد الجيوش الإسلامية. ثم تابعت هذه الجيوش زحفها نحو الشمال مجتاحة كل ما قابلها، حتى امتلأت أيدي المسلمين بالثروات والغنائم من كل الحصون والأماكن التي إفتتحوها، واستمروا في زحفهم حتى وصلوا مدينة بواتييه ففتحوها، واتجهوا إلي مدينة أخري قريبة منها هي مدينة تور، التي كانت تعتبر من أهم مدن بلاد الفرنجة، وتتمتع بمكانة دينية خاصة، لكونها كانت تضم رفات القديس مارتين. أما

مدينة تقع جنوبي غربي باريس على نهر اللوار غزاها المسلمون في القرن الثامن الميلادي.

(١) بواتيه poitiers :
مدينة تقع جنوبي غربي باريس وقعت فيها الوقعة المشهورة، وفيها أوقف شارل مارتل الزحف العربي سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م.

(٢) بوردو Bordeaux :
مدينة فرنسية يطلق عليها في المصادر العربية (برديل) أو (بردال) هي قاعدة إقليم (جيروند) في فرانسا تقع عند مصب نهر (الجارون (lajaranne الذي يصب في المحيط الأطلسي. احتلها العرب في الحملة التي قادها عبدالرحمن الغافقي غازيا فرانسا سنة ١١٤ هـ (٧٣٢م) والتي انتهت بمصرعه في (بلاط الشهداء) وإنسحاب الجيش العربي إلى إسبانيا.

الدوق أودو الذي فر بعد هزيمته فقد إستنجد بعد ذلك بخصمه شارل مارتل محافظ القصر في بلاط الأسرة الميروفنجية الحاكمة في بلاد الفرنجة، موضحا له مدي الخطر الذي تتعرض له البلاد بأسرها إذا هو لم يقبل أن يهب لنجدته، وإلي إيقاف الجيوش الإسلامية عند حدها (١).

أخذ شارل مارتل يحشد كل ما استطاع من الإمكانات البشرية والمادية لمقابلة الجيوش الإسلامية، ولم يكتف بحشد كل المقاتلة الذين يستطيع حشدهم من قبائل الفرنجة، بل لجأ أيضا إلي حشد القبائل الجرمانية النصف متوحشة، التي كانت تسكن فيما وراء الراين، وكل جموع المرتزقة الذين استطاع أن يأتي بها لمساعدته في المعركة، ثم انحدر بعد ذلك من الشمال نحو مدينة تور وقد اصطدمت القوات المسيحية بالجيوش الإسلامية في أول لقاء علي ضفاف نهر اللوار، ولكن هذا الاصطدام لم يسفر عن أي نتيجة تذكر، إذ إن عبد الرحمن الغافقي فضل على إثر ذلك أن يتقهقر نحو الجنوب إلي السهل الممتد بين تور وبواتييه لينظم صفوفه ويعد عدته للقاء العدو (٢).

وفي ذلك الوقت كان الجيش الإسلامي قد إستولي عليه التعب من جراء المسافة الطويلة التي قطعها منذ الخروج من قرطبة، ونقص عدده بسبب ترك بعض الحاميات في المدن المفتوحة، وقد امتلأت أيدي الجند بالغنائم والثروات التي

(١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمون في الأندلس، ص ١٤٢، خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، ص ٢٣٢ - ٢٣٣، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ٧٢.
(٢) المصدر السابق.

غنموها وحملوها معهم، والتي لا يقبلون التخلي عنها مطلقا. وكان هذا العامل الأخير له الأثر السيئ علي الجيش الإسلامي، وكان أحد أسباب الهزيمة في هذه المعركة.

بدأت المعركة في سهل تور أو بواتييه في رمضان سنة ١١٤هـ / نوفمبر ٧٣٢ م، بمناوشات إستمرت ثمانية أيام رجحت فيها كفة المسلمين، وفي اليوم التاسع خاض الجمعان معركة عنيفة إستمرت إلي أن أرخي الليل سدوله، واستراح الجمعان، ثم أستؤنف القتال في اليوم العاشر بشراسة وقسوة وشدد المسلمون حملتهم علي جيش الفرنجة حتى كادوا يقطفوا ثمار النصر، غير أن أودو عرف نقطة الضعف في جيش المسلمين لعلاقته السابقة بهم، فقد كان يعرف أن من عادة المسلمين أن يتركوا غنائمهم في مؤخرة الجيش، فالتف مع فرقة من جيشه خلف جيش المسلمين وهاجم مؤخرته، وبلغ هذا الهجوم أفراد الجيش الإسلامي فتراجع الكثير منهم إلي المعسكر لاستخلاص الغنائم من يدي الفرنجة، فأخذ هذا التراجع بنظام الجيش، وحاول عبد الرحمن الغافقي عبثا أن يعيد إلي الجيش تنظيمه، غير أن سهما أصابه من الأعداء فسقط شهيدا في أرض المعركة، ولما رأى المسلمون قائدهم صريعا اضطربت نفوسهم، وارتبكت صفوفهم، وأحاط بهم الفرنجة من كل مكان، وراحوا يعملون فيهم السيف، وقد صمد المسلمون علي مدافعة الفرنجة حتى أقبل الليل وأرخي سدوله، فحال بين الجيشين وعاد كل جيش إلي موقعه، واجتمع كبار رجال الجيش وتشاوروا فيما بينهم ماذا يفعلون، ثم أجمعوا علي الرجوع إلي ديار الإسلام متجهين إلي سبتمانيا، أربونة، في ظل الليل مخلفين خيامهم وغنائمهم، وقد بات الفرنجة ليلتهم وهم ينوون القضاء علي المسلمين في صباح اليوم التالي، فلما

أدركهم الصباح نظروا إلي معسكر المسلمين فوجدوه خاليا من أصحابه، ولم يحاول الفرنجة تتبع فلول المسلمين لأنهم خافوا أن يكون من وراء تراجعهم كمينا نصبوه لجيشهم، أو لأنهم لقوا صعوبة في قتال المسلمين، فآثر قائدهم شارل مارتل العودة بجيشه نحو الشمال معتزا بما أحرزه من انتصار على المسلمين، وقد سمي المسلمون هذه الموقعة بلاط الشهداء لكثرة من استشهد فيها من عظماء الرجال مع عبد الرحمن الغافقي (١).

في الحقيقة أنه علي الرغم من ضخامة حملة عبد الرحمن الغافقي تلك إلا إنه كانت هناك مشكلة كبيرة تكاد تفتك بها، وهي أن هذه الحملة كانت قد فتحت مدنا كثيرة حتى وصلت إلى بواتيه، ومن ثم فقد جمعت من الغنائم الكثير الذي زاد وثقل في أيدي المجاهدين، وهنا بدأ المجاهدون ينظرون إلى هذه الغنائم ويفتنون بهذه الأموال الضخمة التي حصّلوها.

ونتيجة هذا فقد اشتهر بين الناس فكرة العودة إلى بلاد الأندلس لحفظ هذه الغنائم هناك حتى لا يحصل عليها الفرنسيون، لكن عبد الرحمن الغافقي رحمه الله جمع الناس وقال مخاطبا إياهم: ما جئنا من أجل هذه الغنائم، وما جئنا إلا لتعليم هؤلاء الناس هذا الدين، ولتعبيد العباد لرب العباد سبحانه وتعالى، وأخذ يحفزهم على الجهاد والموت في سبيل الله، ثم انطلق بالجيش إلى بواتيه رغما عن أنف الجنود.

عندما وصل عبد الرحمن الغافقي بالجيش إلى بواتيه ظهرت ثمة

(١) حسن مؤنس، فجر الأندلس، ص ٢٧٥، السيد عبد العزيز سالم،تاريخ المسلمين في الأندلس، ص ١٤٣ - ١٤٤، خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، ص ٢٣٥ - ٢٣٦، محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص ٢١٠، علي حسين الشطشاط، تاريخ الأسلام في الأندلس، ص ٧٣ - ٧٤.

أمور أخرى جديدة؛ فقد تجددت العصبيات التي كانت قد اندحرت في بلاد الأندلس بين العرب والبربر من جديد؛ وذلك بسبب كثرة الغنائم، فقد اختلفوا في توزيعها رغم أنه معروف ومتفق عليه، أخذ كلّ ينظر إلى ما بيد الآخر، وكلّ يريد الأكثر، يقول العرب أنهم أحق لأفضليتهم، ويقول البربر نحن الذين فتحنا البلاد، ونسي الجميع أن الفاتحين الأوائل ما فرقوا أبدًا بين عرب وبربر، بل وبينهم وبين من دخل الإسلام من الأندلسيين بعد ذلك،وإضافة إلى العصبية وحب الغنائم والحرص عليها فقد اجتمع إلى جوارهما الزهو والاغترار بالكثرة والعدد الضخم، فخمسون ألفا من المجاهدين عدد لم يسبق في تاريخ الأندلس، فأخذتهم العزة، وظنوا أنهم لن يغلبوا بسبب كثرتهم هذه، ومن بعيد تلوح في الأفق حُنينًا جديدة{وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ} [التوبة: ٢٥]، فالمسلمون لم ينتصروا أبدًا بعدتهم ولا عتادهم، وإنما كانوا ينتصرون بطاعتهم لله ومعصية عدوهم له سبحانه وتعالى، وللأسف الشديد فرغم وجود هذا القائد الرباني التقي الورع إلا أن عوامل الهزيمة داخل الجيش الإسلامي كانت كثيرة وأقوى منه.

ولم تذكر الروايات الإسلامية حصرا دقيقا لشهداء المسلمين في بلاط الشهداء، إلا أن بعض الروايات الأوروبية بالغت كثيرًا في أعداد قتلى المسلمين فيها، فتذكر بعضها أن قتلى المسلمين في بلاط الشهداء بلغ خمسة وسبعين وثلاثمائة ألف مسلم، وهو بلا شك رقم مبالغ فيه جدًا؛ لأن جيش المسلمين في الأساس لم يتعد حاجز الخمسين ألفا.

وفي رواياتهم يقول الأوروبيون متخوفين أنه لو كان انتصر

المسلمون في بلاط الشهداء على الفرنسيين لفتحت أوروبا جميعا، ولـدُرِّس القرآن في جامعات أوكسفورد وغيرها من الجامعات الأوروبية، ووالله إنها لتعاسة لهم وخسران أن لم ينتصر المسلمون، فلو انتصروا لكان قد انتشر الخير في هذه البلاد، لكنهم ظلوا في ضلالتهم وظلوا في غيهم يعمهون ويعبدون غير الله سبحانه وتعالى ويشركون به.

بعد هذه المعركة انسحب المسلمون إلى الداخل، ومع أنهم هُزموا وانسحبوا إلا أنها لم تكن هزيمة ساحقة كما صورها الأوربيون، بدليل أن جيش النصارى لم يتبع جيش المسلمين حيث انسحبوا، وكان من عادة الجيوش أنها تتتبع الجيش الفار، بل اكتفى النصارى بما أخذوه من غنائم وما قتلوه من قتلى من المسلمين.

وقفة مع بلاط الشهداء:

يقول الله تعالى في كتابه الكريم:{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٥} [فاطر: ٥]. فالملاحظ أن المسلمين قد اغتروا بهذه الدنيا التي فتحت عليهم فتنافسوها، وقد جاء عن رسول الله في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن عمرو بن عوف الأنصاري أن رسول الله قال:﴿فَوَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخَشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ﴾ (١).

فسنة لله تعالى في خلقه أنه إن فتحت الدنيا على المسلمين وتنافسوها كما تنافسها من كان قبلهم من الأمم السابقة، فإنها ستهلكهم أيضا كما أهلكت هذه الأمم السابقة{فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا}

(١) قال الشيخ الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: ١٠٣٦ في صحيح الجامع.

[فاطر: ٤٣].

أمر آخر كان في جيش المسلمين وكان من عوامل الهزيمة وهو العنصرية والعصبيّة القبليّة التي كانت بين العرب والبربر في هذه الموقعة، ولقد شاهد الفرنسيون أثر هذا الذي نشأ بين العرب وبين البربر، ووعت الكتب الفرنسية هذا الأمر جيدا، وظل في ذاكرتها على مدار التاريخ حتى مرت الأيام ومرت السنوات ودخلت فرنسا بلاد الجزائر واحتلتها من سنة ألف وثمانمائة وثلاثين، وحتى سنة ألف وتسعمائة وستين ميلادية، فحين قامت الحركات الاستقلاليّة منذ سنة ألف وتسعمائة وعشرين وما بعدها، وحين فكرت فرنسا في القضاء على هذه الحركات الاستقلالية الناشئة لم تجد أمامها إلا إشاعة الفتنة بين العرب والبربر وضربهم ببعضهم البعض، فكانت تشيع داخل البربر أنهم قريبون من العنصر الآري (وهو العنصر الأوروبي)، وبعيدون عن العنصر السامي (وهم العرب)، أي أنتم منا ونحن منكم والعرب بيننا غرباء؛ وذلك للتشابه الكبير بين البربر والأوروبيين في الشكل الخارجي الأمر الذي لا يعترف به الإسلام ولا يقره على الإطلاق فالمعيار الوحيد في التفاضل في الإسلام هو التقوى.

ولم تكتف فرنسا بذلك، بل قامت بتكثيف تعليم اللغة الفرنسية في مناطق البربر، ومنعت تعليم اللغة العربية في هذه المناطق أصلا؛ وذلك حتى يتم فصل البربر عن العرب تماما في منطقة الجزائر، وهي وإن كانت قد نجحت في أمر اللغة بعض الشيء إلا إنها لم تفلح على الإطلاق في تحويل ديانة البربر الإسلامية إلى النصرانية، فظل البربر على إسلامهم وإن كانت لغتهم قد تغيّرت، في بادئ الأمر كان البربر الذين يعيشون في منطقة الجزائر تسمى قبائل الأمازيغ،

وكانوا يمثلون خمسة عشر بالمائة من شعب الجزائر، ورغم أن لهم لغة خاصة بهم وهي الأمازيغية إلا أنهم كانوا يتمسكون بالعربية، لكن حين قامت فرنسا بهذا الأمر بدأت تُذْكي الروح البربريّة في اللغة المنفردة لهذه القبائل؛ فبدأت تعلم اللغة الأمازيغية، حتى إنها أنشأت في فرنسا عام سبعة وستين وتسعمائة وألف أكاديمية خاصة لتعليم اللغة الأمازيغية، وبدأت تكتب اللغة الأمازيغية بحروف لاتينية رغم أنها كانت لغة منطوقة وليست مكتوبة، قامت فرنسا كذلك بحذف الكلمات العربية التي كانت قد دخلت هذه اللغة وأبدلتها بأخرى أصيلة في اللغة البربرية، وبدأت بالفعل في اجتذاب الشباب من البربر لتعليمهم اللغة الأمازيغية في فرنسا، حتى إنه في عام ثمانية وتسعين وتسعمائة وألف أنشأت ما يسمى بالأكاديمية العالمية للبربر، فبدأت تجمع البربر من مناطق المغرب العربي وغرب إفريقيا وتعلمهم اللغة الخاصة بهم، وكل ذلك لفصل العرب عن البربر، تلك الجموع التي ما هي إلا جموع إسلامية ارتبطت برباط العقيدة والدين، لكنها رأت آثار ذلك في وادي برباط وما تلاها فلم تتوان، وفي ذات الوقت الذي تعمل فيه فرنسا جاهدة على إقامة لغة غير العربية في بلد عربي، كانت هي فرنسا التي رفضت المشروع الذي تقدم به جوسبان رئيس وزرائها إلى شيراك سنة تسع وتسعين وتسعمائة وألف بإقرار بعض اللغات المحلية داخل فرنسا، والذي رد عليه شيراك بقوله: إنك بهذا تريد بلقنة فرنسا، أي تجعلها كدول البلقان، بلاد متفرقة بحسب العرق وبحسب العنصر، حلال على الجزائر حرام على فرنسا.

* * *

المهلب بن أبي صفرة

أعـــلام القــادة

القائد المهلب بـن أبـي صفرة

المهلب بن أبى صفرة ظالم بن سراق الازدي العتكى، أبو سعيد: أمير، بطاش، جواد، قال فيه عبد الله بن الزبير: هذا سيد أهل العراق. ولد في دبا، ونشأ بالبصرة، وقدم المدينة مع أبيه في أيام عمر. وولي إمارة البصرة لمصعب بن الزبير. وفقئت عينه بسمرقند. وانتدب لقتال الازارقة، وكانوا قد غلبوا على البلاد، وشرط له أن كل بلد يجليهم عنه يكون له التصرف في خراجه تلك السنة، فأقام يحاربهم تسعة عشر عاما لقي فيها منهم الاهوال. وأخيرا تم له الظفر بهم فقتل كثيرين وشرد بقيتهم في البلاد. ثم ولاه عبد الملك بن مروان ولاية خراسان، فقدمها سنة ٧٩ هـ ومات فيها. كان شعاره في الحرب: (حم لا ينصرون) وهو أول من اتخذ الركب من الحديد - وكانت قبل ذلك تعمل من الخشب - وأخباره كثيرة [(١)].

وكان المهلب من التابعين، فقد ولد عام الفتح الذي كان سنة ثمان الهجرية ومات سنة ٨٢ هـ في ولاية خراسان وكان يقال: ساد الأحنف بحلمه ومالك بن مسمع بمحبته للعشيرة، وقتيبة بدهائه وساد المهلب بهذه الخلال جميعاً.

حدث المهلب عن: عبد الله بن عمرو بن العاص، وسمرة بن جندب، وابن عمر، والبراء بن عازب.

روى عنه: سماك بن حرب، وأبو إسحاق، وعمر بن سيف.

وقال غير واحد: إن الحجاج بالغ في احترام المهلب لما دوخ الأزارقة، ولقد قتل منهم في ملحمة أربعة آلاف وثمان مائة.

وقد أثني عليه الكثير من العلماء والفقهاء فقد روى: الحسن بن عمارة، عن أبي إسحاق، قال:

ما رأيت أميرا قط أفضل ولا أسخى ولا أشجع من المهلب، ولا أبعد مما

(١) خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي، الأعلام، ٣١٥/٧.

يكره، ولا أقرب مما يحب.

قال محمد بن سلام الجمحي: كان بالبصرة أربعة ليس مثلهم:

الأحنف: في حلمه، وعفافه، ومنزلته من علي، والحسن: في زهده، وفصاحته، وسخائه، ومحله من القلوب، والمهلب بن أبي صفرة:... فذكر أمره، وسوار القاضي: في عفافه، وتحريه للحق.

وكان سيداً جليلاً نبيلاً خطيباً شجاعاً فقيها وكان على جانب عظيم من السخاء والكرم ومما يدل على كرمه أنه أقبل يوماً في بعض غزواته فتلقته امرأة فقالت له: أيها الأمير إني نذرت إن أقبلت سالماً أن أصوم شهراً وتهب لي جارية وألف درهم، فضحك المهّلب وقال: قد وفينا نذرك فلا تعودي لمثله، فليس كل أحد يفي لك به.

ووقف رجل فقال: أريد منك حُويجة. فقال المهلب: اطلب لها رُجيْلا يعني أن مثلي لا يسأل إلا عن حاجة عظيمة، وكان حليماً من أخبار حلمه، أنه مرّ يوماً بالبصرة، فسمع رجلاً يقول: هذا أعور قد ساد الناس، ولو خرج إلى السوق لا يساوي أكثر من مائة درهم فبعث إليه المهلب بمائة درهم وقال: لوزدتنا في الثمن زدناك في العطية، وكان قد فقئت عينه بسمرقند، وكان بليغاً في كلامه حكيماً في آرائه، له كلمات لطيفة وإشارات مليحة تدل على مكارمه ورغبته في حسن السمعة والثناء الجميل ومن ذلك قوله:

الحياة خير من الموت، والثناء خير من الحياة، ولو أعطيت ما لم يعطه أحد لأ حببت أن تكون لي أذن أسمع بها ما يقال فيَّ غداً إذا مت.

وقيل يوماً للمهلب: ما خير المجالس؟ فقال: ما بعد فيه مدى الطرف وكثر فيه فائدة الجليس.

وقال يوماً: أدنى أخلاق الشريف كتمان السر وأعلى أخلاقه نسيان ما أسرّ

إليه[(١)].

وصف المهلب بأنه كان نزر الكلام وجيزه، يفضل فعله على لسانه، متلطفاً في إجاباته، كاتماً للسر، حليماً في موضع الحلم، شديداً في موضع الشدة، وإن كان الحلم أغلب عليه، فيروى أن رجلاً شتمه فلم يرد عليه: فقيل له: لم حلمت عنه؟ قال: لم أعرف مساويه وكرهت أن أبهته بما ليس فيه، واتصف المهلب بصبره وأناته في أعماله وحروبه وكان يقول: إناة في عواقبها فوت خير من عجلة في عواقبها درك، وعندما كان الحجّاج يستعجله بمناجزة الأزارقة الخوارج، أجابه بقوله: إن البلاء كل البلاء أن يكون الرأي لمن يملكه دون من يبصره، ومما اشتهر به المهلب في حروبه هو إعداده للبيات وأحكامه الأمور، أي أنه كان يباغت أعداءه بشن الهجوم عليهم ليلاً فيحرز انتصارات مؤزرة، واشتهر المهلب بكرمه وسخائه، ومن أقواله لأبنائه في هذا الباب: ما رأيت أحداً بين يدي قط إلا أحببت أن أرى ثيابي عليه، واعلموا يا بني أن ثيابكم على غيركم أحسن منها عليكم، وكان يحرص على شراء ود الناس وله قول مأثور في ذلك: عجبت لمن يشتري المماليك بماله ولا يشتري الأحرار بمعروفه، وقيل له بما ظفرت؟ قال: بطاعة الحزم، ومعصية الهوى[(٢)].

كانت سياسة المهلب تقوم على النفس الطويل في محاربة الخوارج وكان ينتظر تفجيرهم من الداخل، حتى يهون عليه أمرهم ويسهل القضاء عليهم، فقد كتب إلى الحجّاج: إني انتظر منهم ثلاث خصال: موت صاحبهم قطري

(١) طبقات ابن سعد ٧ / ١٢٩، طبقات خليفة ت ١٦٢٠، تاريخ البخاري ٨ / ٢٥، المعارف ٣٩٩، تاريخ الطبري ٦ / ٣٥٤،، الجرح والتعديل القسم الأول من المجلد الرابع ٣٦٩، تاريخ ابن عساكر ١٧ / ٢٢١، تهذيب الأسماء واللغات القسم الأول من الجزء الثاني ١١٧، وفيات الأعيان ٥ / ٣٥٠، تهذيب الكمال ص ١٣٨٣، تاريخ الإسلام ٣٠٧، العبر ١ / ٩٥، تذهيب التهذيب ٤ / ٧٥ آ، سرح العيون ١٩٤، الإصابة ت ٨٦٣٣، تهذيب التهذيب، ١٠ / ٣٢٩، النجوم الزاهرة ١ / ٢٠٦، خلاصة تذهيب التهذيب ٣٨٩، شذرات الذهب ١ / ٩٠، الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار، ٣ /١٦٧.

(٢) الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار، ٢ /٤٨٢.

بن الفجاءة أو فرقة وتشتيتاً أو جوعاً قاتلاً، ولم تخطيء تقديرات المهلب للخوارج إذ سرعان ما دبّ الشقاق في صفوف الأزارقة، فما كان من المهلب إلا أن انتهز الفرصة فصعّد الخلاف في صفوفهم، فعمد إلى حيلة ناجحة، فقد عرف بين الخوارج رجلاً يصنع السهام المسمومة، فأرسل المهلب أحد أصحابه، بكتاب أمره أن يلقيه بين عساكر قطري سراً كتب فيه: أما بعد، فإن نصالك وصلت وقد أنفذت إليك ألف درهم. فلما استوضح عن الصانع أنكر فقام قطري بن الفجاءة بقتله، فخالفه بذلك عبد ربه الكبير ووقع خلاف جديد. وتعميقاً للخلاف في صفوف الخوارج جنّد المهلب رجلاً نصرانياً وأمره أن يسجد لقطري بن الفجاءة فلما شاهده الخوارج أنكروا ذلك عليه وقتلوا النصراني واتهموا زعيمهم بتأليه نفسه.

وأخذ الخوارج يقتتلون فيما بينهم، بينما المهلب ينتظر النتائج النهائية، التي تسفر عنها هذه التصفيات ليتفرغ لها مما جعله لا يمتثل لأمر الحجّاج عندما طالبه بمقاتلتهم، بل كتب له: إني لست أرى أن أقاتلهم ما دام يقتل بعضهم بعضاً، فإن تمّوا على ذلك، فهو الذي تريد وفيه هلاكهم، وإن اجتمعوا لم يجتمعوا إلا وقد رمق بعضهم بعضاً، فأناهضهم حينئذ، وهو أهون ما كانوا وأضعفهم شوكة إن شاء الله تعالى، فكف عنه الحجّاج، وتركهم المهلب يقتتلون شهراً لا يحركهم، ثم سار إليهم المهلب وتهيأت له الخوارج بقيادة عبد ربه الكبير ثم تلا ذلك قتل شديد تمكن المهلب في نهايته من طردهم من جيرفت، ثم لاحقهم حتى هزمهم هزيمة منكرة، وقتل زعيمهم عبد ربه ولم ينج منهم إلا عدد قليل، ولعل نجاح المهلب يعود إلى أسلوبه الحربي، الذي يعتمد على المطاولة ويتجنب العجلة، بجانب قيادته الحكيمة وشجاعته وخبرته العسكرية ومكره في الحروب. قال الشاعر:

، يدرك المرء بالتدبير ما عجزت ::: ه الكمأة ولم يحمل على بطل

ونتيجة انتصاراته ضد الخوارج فقد رأى فيه الخليفة عبد الملك بأنه قادر على

إيجاد التوازن بين الأطراف القبلية المتنازعة فولاه على خراسان فنزل العاصمة مرو، ثم أخذ يعيد الهدوء والأمن والنظام إلى البلاد، ولأول مرة بعد أربع عشرة سنة، تمّ إرسال جحافل المسلمين من جديد نحو الشرق إلى بلاد التركمان ٨٠ هـ، فعبر المهلب بنفسه نهر بلخ "سيحون " ونزل كش، ثم جعل يغزو البلاد غزواً متواصلاً لا يفتر عن الجهاد، فخيل له بسمرقند، وأخرى ببخاري وثالثة بطخارستان ورابعة ببست، وكان كلما فتح فتحاً أخرج الخمس لبيت المال وأرسله إلى الحجّاج ويقسم الباقي بين أصحابه.

ولما حضرته الوفاة دعا ابنه حبيباً ومن حضره من ولده، ودعا بسهام فحزمت ثم قال: أفترونكم كاسريها مجتمعة؟ قالوا: لا. فقال: أفترونكم كاسريها متفرقة؟ قالوا: نعم. قال: فهكذا الجماعة، فأوصيكم بتقوى الله، وصلة الرحم، فإن صلة الرحم تنسئ في الأجل وتثري المال وتكثر العدد، وأنهاكم عن القطيعة فإن القطيعة تعقب النار وتورث الذلة والقلة، فتحابوا وتواصلوا وأجمعوا أمركم لا تختلفوا، وتبارّوا تجتمع أموركم. إن بني الأم يختلفون فكيف ببني العَلات؟ وعليكم بالطاعة والجماعة وليكن فعالكم أفضل من قولكم، فإني أحبّ للرجل أن يكون لعمله فضل على لسانه، واتقوا الجواب وزلة اللّسان فإن الرجل تزلّ قدمه فينتعش من زلّته ويزلّ لسانه فيهلك. اعرفوا لمن يغشاكم حقّه، فكفى بغدو الرجل ورواحه إليكم تذكرة له، وآثروا الجود على البخل، وأحبوا العرب واصطنعوا العرف، فإن الرجل من العرب تَعده العِدة فيموت دونك، فكيف الصنيعة عنده؟ عليكم في الحرب بالإناة والمكيدة فإنها أنفع في الحرب من الشجاعة وإذا كان اللقاء نزل القضاء، فإن أخذ الرجل بالحزم فظهر على عدوه قيل: أتى الأمر من وجهه ثم ظفر فحُمد وإن لم يظفر بعد الأناة قيل: ما فرّط ولا ضيّع، ولكن القضاء غالب، وعليكم بقراءة القرآن وتعلم السنن وأدب الصالحين وإياكم والخفة وكثرة الكلام في

مجالسكم[١].

مواقف من حياته

أما تعرفني؟

عن مطرف بن عبد الله بن الشخير نظر إلى المهلب بن أبي صفرة وعليه حلة يسحبها ويمشي الخيلاء فقال: يا أبا عبد الله، ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله؟ فقال المهلب: أما تعرفني؟ فقال: بل أعرفك، أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة [٢].

الكلام المطبوع، لا الكلام المصنوع:

لما هزم المهلب بن أبي صفرة قطري بن الفجاءة صاحب الأزارقة، بعث إلى مالك بن بشير، فقال له: إني موفدك إلى الحجاج فسر، فإنما هو رجل مثل؛ وبعث إليه بجائزة، فردها وقال: إنما الجائزة بعد الاستحقاق، وتوجه. فلما دخل إلى الحجاج؛ قال له، ما اسمك؟ قال: مالك بن بشير؛ قال: ملك وبشارة؛ كيف تركت المهلب؟ قال: أدرك ما أمل وأمن من خاف؛ قال: كيف هو بجنده؟ قال: والد رءوف؛ قال: فكيف جنده له؟ قال أولاد بررة؛ قال: كيف رضاهم عنه؟ قال: وسعهم بالفضل وأقنعهم بالعدل؛ قال: فكيف تصنعون إذا لقيتم عدوكم؟ قال: نلقاهم بحدنا فنطمع فيهم، ويلقوننا بحدهم فيطمعون فينا؛ قال: كذلك الحد إذا لقي الحد؛ قال: فما حال قطري؟ قال: كادنا ببعض ما كدناه؛ قال: فما منعكم من إتباعه؟ قال: رأينا المقام من ورائه خيراً من إتباعه؛ قال: فأخبرني عن ولد المهلب؛ قال: أعباء القتال بالليل، حماة السرح بالنهار؛ قال: أيهما أفضل؟ قال: ذلك إلى أبيهم؛ قال: لتقولن؛ قال: هم كحلقة مضروبة لا يعرف طرفاها؛ قال: أقسمت عليك، هل روأت في هذا الكلام؟ قال: ما أطلع الله على غيبة أحداً؛ فقال الحجاج

(١) الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار، ٣ /١٦٨.
(٢) أدب الدنيا والدين،٢٩١/١.

لجلسائه: هذا والله الكلام المطبوع، لا الكلام المصنوع[(١)].

لم حَلُمت عنه؟

وقال المدائني: شتم رجل المهلّب بن أبي صفرة فلم يردد عليه، فقيل له: لم حلُمت عنه؟ قال: لم أعرف مساويه، وكرهت أن أبْهَتَه بما ليس فيه. وشُتم رجل فقال الرجل لشاتمه: يا هذا، ما ستر الله عليك من عورتي أكثر، وأنشد:

ـــدرك المجـــدَ أقـــوامٌ وإن كَرُمـــوا :: ـــتى يُــــذَلّوا وإن عـــزوا لأقـــوام
يُشْتَموا فتـــرى الألـــوانَ مشـــرقةً ::: صفحَ ذلّ ولكن صـــفحَ أحـــلام[(٢)]

لم أذمم يومك:

وقدم السعدي أبو وجزة على المهلب بن أبي صفرة، فقال: أصلح الله الأمير. إني قد قطعت إليك الدهناء، وضربت إليك آباط الإبل من يثرب. قال فهل أتيتنا بوسيلة أو عشرة أو قرابة؟، قال: لا ولكني رأيتك لحاجتي أهلاً، فإن قمت بها، فأهل ذلك، وإن يحل دونها حائل، لم أذمم يومك، ولم أيأس من غدك. فقال المهلب: يعطي ما في بيت المال. فوجد مائة ألف درهم، فدفعت إليه، فأخذها وقال:

يا من على الجود صاغ الله راحته.. فليس غير البذل والجود عمت عطاياك من بالشرق قاطبةً.. فأنت والجود منحوتان من عود [(٣)].

كيف ترى سيفي هذا؟

وروي أنَّ فتى من الأزد دفع إلى المهلّب بن أبي صفرة سيفاً له وقال: يا عمّ! كيف ترى سيفي هذا؟ فقال له المهلّب: سيفك جيد إلاّ أنّه قصير، فقال له الفتَى: أُطوِّله يا عمّ بخَطوي، فقال له: والله يا بن أخي إنّ المشي إلى الصين

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد،١١٨/١.
(٢) المبرد، الفاضل،٢٧.
(٣) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ،ص٩٢.

أو إلى أقصى أذربيجان على أنياب الأفاعي أسهل من تلك الخطوة[١].

من دهاء المهلب :

لما طالت الحرب بين الخوارج وبين المهلب بن أبي صفرة، ورأى ثباتهم وأنهم كلما تفرقوا بالحرب عادوا وتجمعوا باتفاق أهوائهم، علم أنه لا يظفر بهم تاماً ويستأصلهم إلا باختلاف يقع بينهم. وكان في الخوارج حداد يعمل نصالاً مسمومة فيرمي بها أصحاب المهلب، فوجه المهلب رجلاً من أصحابه بكتاب وألف درهم إلى عسكر قطري والخوارج، فقال: ألق هذا الكتاب في العسكر واحذر على نفسك. وكان الحداد يقال له: أبزى. فمضى الرجل، وكان في الكتاب: أما بعد، فإن نصالك قد وصلت إلي، وقد وجهت إليك بألف درهم فاقبضها، وزدنا من هذه النصال. فوقع الكتاب إلى قطري فدعا بأبزى، فقال له: ما هذا الكتاب؟ قال: لا أدري، قال: فهذه الدراهم؟ قال: لا أعلم علمها، فأمر به فقتل. فجاء عبد ربه الصغير مولى بني قيس بن ثعلبة فقال له: أقتلت رجلاً على غير ثقة ولا تبين؟ قال: فما حال هذه الدراهم؟ قال: يجوز أن يكون أمرها كذباً ويجوز أن يكون حقاً. فقال له قطري: فقتل رجل في صلاح الناس غير منكر، وللإمام أن يحكم بما رآه صلاحاً، وليس للرعية أن تعترض عليه. فتنكر عبد ربه في جماعة معه ولم يفارقوه. فبلغ ذلك المهلب فدس إليه رجلاً نصرانياً، فقال له: إذا رأيت قطرياً فاسجد له، فإذا نهاك فقل: إنما سجدت لك، ففعل النصراني فقال له قطري: إنما السجود لله، فقال: ما سجدت إلا لك. فقال له رجل من الخوارج: قد عبدك من دون الله، وتلا:{إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ} [الأنبياء: ٩٨]. فقال له قطري: إن هؤلاء النصارى قد عبدوا المسيح بن مريم فما ضر المسيح ذلك شيئاً. فقام رجل من الخوارج إلى النصراني فقتله، فأنكر ذلك عليه وقال: أقتلت ذمياً! فاختلفت الكلمة، فبلغ ذلك المهلب فوجه إليهم رجلاً يسألهم عن

(١) الخالديان، الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين، ١/١٠.

شيء تقدم به إليه. فقال: أرأيتم رجلين خرجا مهاجرين إليكما، فمات أحدهما في الطريق، وبلغكم الآخر فامتحنتموه فلم يجز المحنة، ما تقولون فيهما؟ فقال بعضهم: أما الميت فمؤمن من أهل الجنة، وأما الذي لم يجز فكافر حتى يجيزها. فقال له قوم آخرون: بل هما كافران حتى يجيز المحنة. فكثر الاختلاف بينهم، وكان سبب تفرقهم وتمكن المسلمين منهم وانقطاع دابرهم(١).

ما أخطأت العرب:

قدم زياد الأعجم على المهلب بن أبي صفرة بخراسان ونزل على ابنه حبيب فجلسا ذات عشية على شراب وفي الدار شجرة علها حمامة فجعلت تغرد وزياد الأعجم يقول:

تغني أنت في ذممي وعهدي ::: وذمة والدي أن لا تضاري
وبيتك أصلحيه ولا تخافي ::: على صفر مزغبة صغار
فإنك كلما غنيت صوتاً ::: ذكرت أحبتي وذكرت داري
فإن هم يفتلوك طلبت ثأري ::: بقتلهم لأنك في جواري

فأخذ حبيب سهماً فرماها فأثبتها فماتت، فقال له زياد: قتلت جاري، بيني وبينك الأمير المهلب ثم أتى المهلب فأخبره فقال: يا حبيب ادفع إلى أبي أمامة ألف دينار قال حبيب: أعز الله الأمير كنت ألعب. فقال: أمع هذا لعب؟ جار أبي أمامة جاري، فدفع إليه حبيب ألف دينار فقال زياد الأعجم:

فلله عيناً من رأى كقضية ::: قضاها فأمضاها الأمير المهلب
قضى ألف دينار بجار أجرته ::: من الطير حضان على البيض ينعب
رماه حبيب بن المهلب رمية ::: فأنفذه بالسهم والشمس تغرب
فألزمه عقل القتيل بزجرة ::: وقال حبيب إنما كنت ألعب
فقال زياد لا يروع جاره ::: وجارة جاري مثل جاري وأقرب

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ٨/٣.

فلما سمعه المهلب أجازه بجائزة حسنة وصرفه مكرماً وبلغ هذا العشر الحجاج، فقال: ما أخطأت العرب إذ جعلت المهلب شيخها[١].

من كلامه:

- خير مناقب الملوك العفو[٢].

- وقال المهلب بن أبي صفرة لما ذهبت عينه بسمرقند:

ذهبت عيني لقد بقيت نفسي : ا بحمد الله عن ذاك ما ينسي
جاء أمر الله أعيي خيولنا :: د أن تعي العيون لدى الرمس [٣]

- عجبت لمن يشتري العبيد بما له ولا يشتري الأحرار بفعاله.

- وقال لبنيه: أحسن ثيابكم ما كان على غيركم. وخير دوابكم ما كان تحت سواكم.

- الإقدام على الهلكة تغرير. والإحجام عن الفرصة جبن شديد[٤].

- وقال المهلب بن أبي صفرة لبنيه: يا بني! إذا أتيتم قوماً فأتوهم وعقولكم معكم! قالوا: فكيف ذلك؟ قال: أصيبوا من الطعام شيئاً فإن البطل منكم إذا لم يفعل ذلك ثم أتى أخاه فرآه يسأل غلامه ظن أنه من أجل الطعام فيظل متعلق القلب حتى يطعم[٥].

- وقال المهلب بن أبي صفرة لبنيه: يا بني، إذ غدا عليكم الرجل وراح

---

(١) القاضي التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد،٥٨/١.
(٢) يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري أبو يوسف، أدب المجالسة وحمد اللسان وفضل البيان وذم العي وتعليم الإعراب، دار الصحابة للتراث - طنطا،١١٧/١.
(٣) أبو الصفا صلاح الدين خليل بن عز الدين أيبك بن عبد الله الألبكي الصفدي، الشعور بالعور، تحقيق: الدكتور عبد الرزاق حسين، دار عمار - عمان - الأردن - ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨هـ، ٥٠/١.
(٤) أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، الإعجاز والإيجاز، دار الغصون - بيروت / لبنان - ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م،٧٠/١.
(٥) ابن الحداد، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس،٢٦/١.

مسلماً، فكفى بذلك تقاضيا[١].

- العيْش كلّه في الجَليس المُمْتع[٢].

- لأن أرى لعقل الرجل فضلاً على لسانه أحبُّ إليَّ من أن أرى للسانه فضلا على عقله[٣].

- وقال المهلب بن أبي صفرة لبنيه: إذا وليتم فلينوا للمحسن، واشتدوا على المريب، فإن الناس للسلطان أهيب منهم للقرآن[٤].

- أدنى أخلاق الشريف كتمانُ السرِّ وأعلى الأخلاق ما أسر إليه[٥].

- الحسد شهابٌ لا يبالي من أصاب، وعلى من وقع[٦].

- من ضاق قلبه اتسع لسانه[٧].

- ومن شعره:

– إنما المجد ما بنى والـد الصـد ::: ق وأحيـا فعالـه المولـود[٨]

- ما ضاقت صدور الرجال عن شيء كما ضاقت عن السر[٩].

- وكتب المهلب بن أبي صفرة إلى عبد الملك بن مروان لما هزم الشراة: أما بعد فإنا لقينا المارقة ببلاد الأهواز وكانت للناس جولة ثم ثاب أهل الدين والمروءة ونصرنا الله جل وعز عليهم ونزل القضاء بأمر جاوزت النعمة فيه الأمل فصاروا ردية رماحنا وضرائب سيوفنا وقتل رئيسهم في جماعة

---

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد،٧٠/١.
(٢) المصدر السابق،٢٣٢/١.
(٣) المصدر السابق،٢٤٧/١.
(٤) المبرد، الكامل في اللغة والأدب،٢١٤/١.
(٥) المبرد، الكامل في اللغة والأدب،٢٣٢/٢.
(٦) الجاحظ، الرسائل، ٧٥/١.
(٧) الوشاء، الموشى، ١٥/١.
(٨) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري، المحاسن والأضداد،ص٩.
(٩) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ،ص١٩٢.

من حماتهم وذوي النيات منهم وجلا الباقون عن عسكرهم، وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة كأولها تماماً وكمالاً، والسلام[١].

- ما السيف الصارم في يد الشجاع بأعزله من الصدق[٢].

- وصية المهلب بن أبي صفرة لأبنائه عند موته :

روى الطبري قال: لما كان المهلب بن أبي صفرة بزاغول من مرو الروذ من خراسان أصابه المرض فدعا حبيبا ابنه ومن حضره من ولده ودعا بسهام فحزمت، وقال: أترونكم كاسريها مجتمعة قالوا: لا. قال: أفترونكم كاسريها متفرقة؟ قالوا: نعم. قال: فهكذا الجماعة فأوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم، فإن صلة الرحم تنسئ في الأجل، وتثري المال وتكثر العدد، وأنهاكم عن القطيعة، فإن القطيعة تعقب النار، وتورث الذلة والقلة تباذلوا وتواصلوا تحابوا، وأجمعوا أمركم، ولا تختلفوا، وتباروا تجتمع أموركم إن بني الأم يختلفون، فكيف ببني العلات وعليكم بالطاعة والجماعة ولتكن فعالكم أفضل من قولكم، فإني أحب للرجل أن يكون لعمله فضل على لسانه، واتقوا الجواب وزلة اللسان، فإن الرجل تزل قدمه فينتعش من زلته، ويزل لسانه فيهلك اعرفوا لمن يغشاكم حقه فكفي بغدو الرجل ورواحه إليكم تذكرة له، وآثروا الجود على البخل وأحبوا العرب واصطنعوا العرب، فإن الرجل من العرب تعده العدة فيموت دونك، فكيف الصنيعة عنده وعليكم في الحرب بالأناة والمكيدة، فإنها أنفع في الحرب من الشجاعة، وإذا كان اللقاء نزل القضاء، فإن أخذ رجل بالحزم فظهر على عدوه، قيل: أتى الأمر من وجهه ثم ظفر فحمد وإن لم يظفر بعد الأناة قيل ما فرط ولا ضيع، ولكن القضاء غالب وعليكم بقراءة القرآن، وتعليم السنن وأدب الصالحين، وإياكم والخفة وكثرة الكلام في مجالسكم، وقد

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص١٩٣.
(٢) الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف،١٥/٢.

استخلفت عليكم يزيد وجعلت حبيبا على الجند حتى يقدم بهم على يزيد، فلا تخالفوا يزيد: فقال له المفضل: لو لم تقدمه لقدمناه.

- وعهد إلى ولده يزيد، فكان من جملة ما قال له: يا بني استعقل الحاجب واستظرف الكاتب، فإن حاجب الرجل وجهه وكاتبه لسانه وكان يقول لبنيه: يا بني أحسن ثيابكم ما كان على غيركم.

ومن كلماته المأثورة قوله: الحياة خير من الموت، والثناء الحسن خير من الحياة، ولو أعطيت ما لم يعطه لأحد لأحببت أن تكون لي أذن أسمع بها ما يقال في غدا إذا مت.

وقوله: عجبت لمن يشتري العبيد بماله ولا يشتري الأحرار بإفضاله[1].

خطب المهلب بن أبي صفرة :

- خطبته في حث جنده على قتال الأزارقة:

وكان المهلب بن أبي صفرة، وهو على قتال الأزارقة يأمر أصحابه بالتحرز، ويخوفهم البيات وإن بعد منهم العدو ويقول: احذروا أن تكادوا كما تكيدون، ولا تقولوا هزمنا وغلبنا، فإن القوم خائفون وجلون والضرورة تفتح باب الحيلة، ثم قام فيهم خطيبا فقال: يأيها الناس، إنكم قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج، وأنهم إن قدروا عليكم فتنوكم في دينكم، وسفكوا دماءكم، فقاتلوهم على ما قاتل عليه أولهم علي بن أبي طالب صلوات الله عليه، فقد لقيهم قبلكم الصابر المحتسب مسلم بن عبيس، والعجل المفرط عثمان بن عبيد الله، والمعصى المخالف حارثة بن بدر فقتلوا جميعا وقتلوا فألفوهم بجد وحد فإنما هم مهنتكم وعبيدكم وعار عليكم ونقص في أحسابكم وأديانكم أن يغلبكم هؤلاء على فيئكم ويطئوا حريمكم.

(١) جمهرة خطب العرب، ٢ /٢٨٦.

خطبة أخرى له في جنده:

وخطب أصحابه وقد مال الخوارج بأجمعهم على العسكر وانهزم الناس بسولاف فقال: والله ما بكم من قلة، وما ذهب عنكم إلا أهل الجبن والضعف والطمع والطبع، فإن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله، فسيروا إلى عدوكم على بركة الله.

نص آخر :

وروي الطبري خطبة المهلب في أصحابه يوم هزموا، فقال: ثم إن الخوارج شدت على الناس بأجمعها شدة منكرة، فأجفل الناس، وانصابوا منهزمين لا تلوي أم على ولد حتى بلغ البصرة هزيمة الناس وخافوا السباء، وأسرع المهلب حتى سبقهم إلى مكان يافع في جانب عن سنن المنهزمين، ثم إنه نادى الناس إلي إلي عباد الله فثاب إليه جماعة من قومه فاجتمع إليه منهم نحو من ثلاثة آلاف، فلما نظر إلى من قد اجتمع رضي جماعتهم، فحمد الله وأثني عليه ثم قال: أما بعد، فإن الله ربما يكل الجمع الكثير إلى أنفسهم، فيهزمون وينزل النصر على الجمع اليسير فيظهرون ولعمري ما بكم الآن من قلة إني لجماعتكم لراض وإنكم لأنتم أهل الصبر وفرسان أهل المصر، وما أحب أن أحدا ممن انهزم معكم فإنهم لو كانوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا عزمت على كل امرئ منكم لما أخذ عشرة أحجار ثم امشوا بنا نحو عسكرهم فإنهم الآن آمنون وقد خرجت خيلهم في طلب إخوانكم فوالله إني لأرجو ألا ترجع إليهم خيلهم حتى تستبيحوا عسكرهم وتقتلوا أميرهم(١).

- وقال المهلَّب بن أبي صفرة رحمه الله لولده: إذا سمع أحدكم العوراء فليتطأطأ لها تخطَّه (٢).

(١) جمهرة خطب العرب،٢ /٤٤٩.
(٢) أسامة بن منقذ، لباب الآداب،ص٦.

- لما حضرت المهلب بن أبي صفرة رحمه الله الوفاة، قال لولده وأهله: أوصيكم بتقوى الله، وصلة الرحم: فإن تقوى الله تعقب الجنة؛ وإن صلة الرحم تنسئ الأجل، وتثري المال، وتجمع الشمل، وتكثر العدد وتعمر الديار، وتعز الجانب.

وأنهاكم عن معصية الله تعالى، فإن معصية الله تعقب النار؛ وإن قطيعة الرحم تورث الذلة والقلة، وتقل العدد، وتفرق الجمع، وتذر الديار بلا قِع، وتذهب المال، وتطمع العدو، وتبدي العورة.

يا بني، قومكم قومكم: إنه ليس لكم فضل عليهم، بل هم أفضل منكم، إذ فضلوكم وسودوكم، أوطؤا أعقابكم، وبلغوا حاجتكم فيما أردتم وأعانوكم؛ فإن طلبوا فأطلبوهم، وإن سألوا فأعطوهم، وإن لم يسألوا فابتدؤوهم، وإن شتموا فاحتملوهم، وإن غشوا أبوابكم فلتفتح لهم ولا تغلق دونهم.

يا بني، إني أحب للرجل منكم أن يكون لفعله الفضل على لسانه، وأكره للرجل منكم أن يكون للسانه الفضل على فعله.

يا بني، اتقوا الجواب، وزلة اللسان: فإني وجدت الرجل تعثر قدمه فيقوم من زلته وينتعش منها سوياً، ويزل لسانه فيوبقه ويكون فيه هلكته.

يا بني، إذا غدا عليكم رجل وراح فكفى بذلك مسألة وتذكرة بنفسه.

يا بني، ثيابكم على غيركم أجمل منها عليكم، ودوابكم تحت غيركم أجمل منها تحتكم.

يا بني، أحبوا المعروف، وأنكروا المنكر واجتنبوه، وآثروا الجود على البخل، واصطنعوا العرب وأكرموهم، فإن العربي تعده العدة فيموت دونك، ويشكر لك، فكيف بالصنيعة إذا وصلت إليه في احتماله لها وشكره، والوفاء منه لصاحبها؟ يا بني، سودوا أكابركم، واعرفوا فضل

ذوي أسنانكم؛ وارحموا صغيركم وقربوه وألطفوه، وأجبروا يتيمكم وعودوا عليه بما قدرتم؛ ثم خذوا على أيدي سفهائكم، وتعاهدوا فقراءكم وجيرانكم بما قدرتم عليه؛ واصبروا للحقوق ونوائب الدهور؛ واحذروا عار غدٍ؛ وعليكم في الحرب بالأناة والتؤدة في اللقاء، وعليكم بالتماس الخديعة في الحرب لعدوكم؛ وإياكم والنزق والعجلة، فإن المكيدة والأناة والخديعة أنفع من الشجاعة والشدة.

واعلموا أن القتال والمكيدة مع الصبر، فإذا كان اللقاء، نزل القضاء المبرم. فإن ظفر المرء وقد أخذ بالحزم قال القائل: قد أتى الأمر من وجهه؛ وإن لم يظفر قال: ما ضيَّع ولا فرَّط، ولكن القضاء غالب.

يا بني، الزموا الحزم على أي الحالين وقع الأمر؛ والزموا الطاعة والجماعة؛ وتواصلوا وتوازروا وتعاطفوا، فإن ذلك يثبت المودة، وتحابوا؛ وخذوا بما أوصيكم به بالجد والقوة، والقيام به والتعهد له، وترك الغفلة عنه، تظفروا بدنياكم ما كنتم فيها، وآخرتكم إذا صرتم إليها، ولا قوة إلا بالله.

يا بني، وليكن أول ما تبدؤون به أنفسكم إذا أصبحتم تعلم القرآن والسنن، وأداء الفرائض؛ وتأدبوا بأدب الصالحين من قبلكم من سلفكم؛ ولا تقاعدوا أهل الدعارة والريبة، ولا تخالطوهم، ولا يطمعن في ذلك منكم. وإياكم والخفة في مجالسكم وكثرة الكلام، فإنه لا يسلم منه صاحبه. وأدوا حق الله تعالى عليكم؛ فإني قد أبلغت إليكم في وصيتي، واتخذت الله حجة عليكم [(١)].

---

(١) أسامة بن منقذ، لباب الآداب، ص١٠.

- قال المهلب بن أبي صُفْرة لابنه عبد الملك: يا بني إنما كانت وصية رسول اللّه عامَّتُهَا عِدَاتٌ أنفَذَهَا أبو بكر الصديق فلا تبدأ بنعم فإن مَوْرِدها سَهْل ومَصْدَرها وَعْر، واعلم أن وإن قبُحت فربما رَوّحت وما قدرت فلا توجب الطمع وقال سَمُرة بن جُنْدب: لأن أقولَ للشيء أفعله ثم يبدو لي فأفعله أحبُّ إلي من أن أقول أفعله ثم أفعله قال المثقِّبُ:

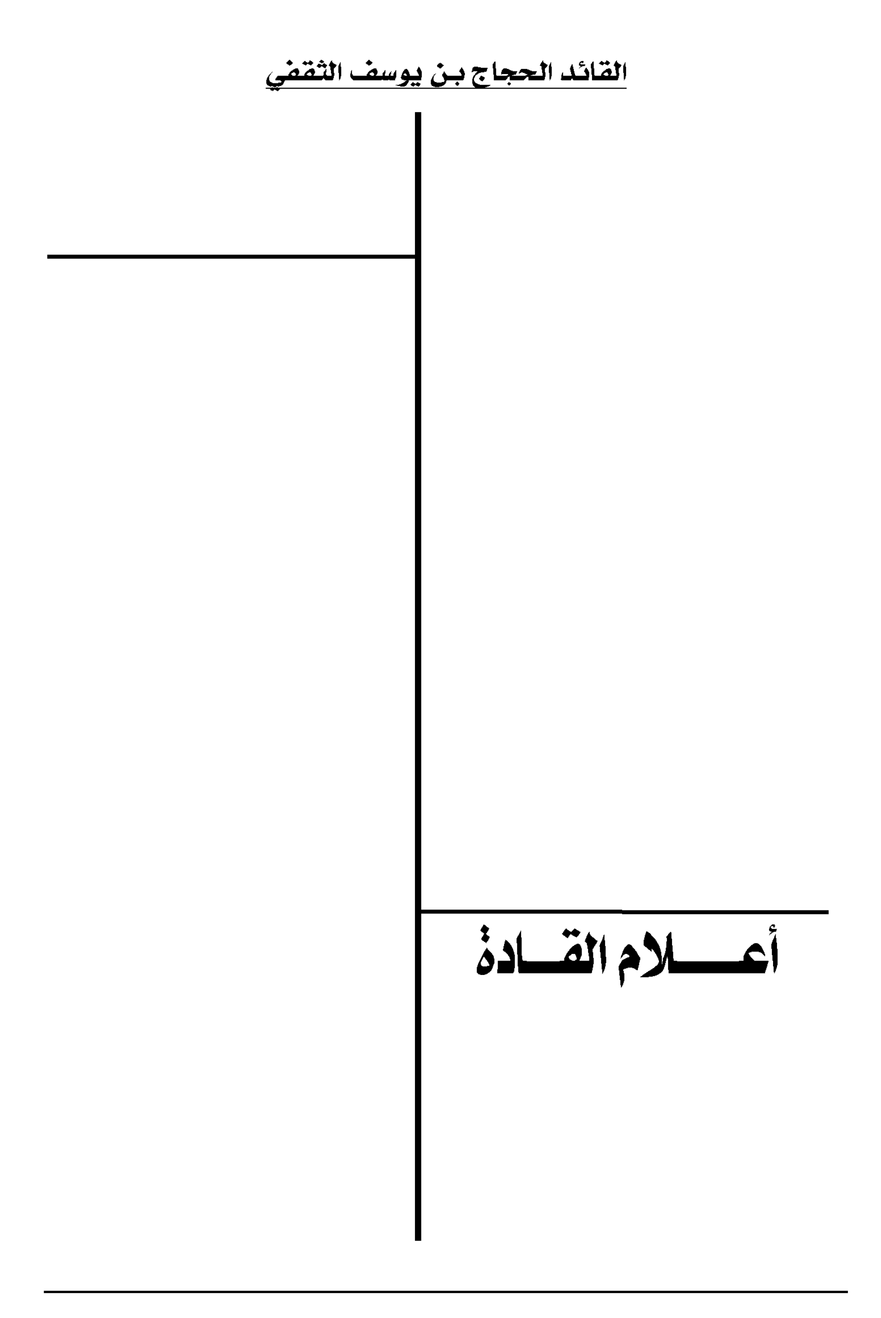
حَسَنٌ قولَ نَعَمْ من بعد لاَ ::: وقَبيحٌ قولَ لا بعد نَعَمْ
إنَّ لا بعد نَعَمْ فاحشَةٌ ::: فَبلا فابدأ إذا خِفْتَ النَّدَمْ
وإذا قلت نَعَمْ فاصْبِرْ لها ::: بنَجَاح الوَعْدِ إن الْخُلْفَ ذَمّْ(١)

- لو لم يكن بالاستبداد في الرأي إلا صون السر وتوفير العقل لوجب التمسك به (٢).

* * *

(١) أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، مجمع الأمثال، محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة - بيروت، ص٩٨.
(٢) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٦/٧٤.

القائد الحجاج بن يوسف الثقفي



القائد الحجاج بن يوسف الثقفي

هو الحجّاج بن يوسف بن الحكم الثقفي، أبو محمد سمع ابن عباس وروى عن أنس وسمُرة بن جندب، وعبد الملك بن مروان، وأبي بردة ابن أبي موسى وروى عنه أنس بن مالك وثابت البناني، وحميد الطويل، ومالك بن دينار، وقتيبة بن مسلم.

كان الحجّاج وأبوه يعلمان الغلمان بالطائف ثم قدم دمشق، فكان عند روح بن زنباع وزير عبد الملك فشكا عبد الملك إلى روح أنَّ الجيش لا ينزلون لنزله، ولا يرحلون لرحيله، فقال روح: عندي رجلٌ تولِّيه ذلك فولى عبد الملك الحجّاج أمر الجيش، فكان لا يتأخر أحد في النزول والرحيل، حتى اجتاز إلى فسطاط روح بن زنباع وهم يأكلون، فضربهم وطوّف بهم، وأحرق الفسطاط، فشكا روح ذلك إلى عبد الملك فقال للحجّاج: لم صنعت هذا فقال: لم أفعله إنما فعلته أنت، فإنَّ يدي يدُك وسوطي سوطك، وما ضرّك إذا أعطيت روحاً فسطاطين بدل فسطاطه وبدل الغلام غلامين، ولا تكسُرني في الذي وليّتني؟ ففعل ذلك وتقدم الحجّاج عنده.

قال الذهبي عنه: كان ظلوماً، جباراً خبيثاً سفاكاً للدماء، وكان ذا شجاعة وإقدام ومكر ودهاء، وفصاحة وبلاغة، وتعظيم للقرآن إلى أن قال: فنسبه ولا نحبه، بل نبغضه في الله، فإن ذلك من أوثق عري الإيمان وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه، وأمره إلى الله وله توحيد في الجُملة، ونظراء من ظلمة الجبابرة والأمراء[١].

- قال عنه ابن كثير: وكانت فيه شهامة عظيمة وفي سيفه رهق، وكان يغضب غضب الملوك، وكان - فيما يزعم - يتشبه بزياد بن

---

(١) سير أعلام النبلاء، ٣٤٣/٤.

أبيه، وكان زياد يتشبّه بعمر بن الخطاب فيما يزعم أيضاً ولا سواء ولا قريب، وقال: وبالجملة فقد كان الحجّاج نقمة على أهل العراق بما سلف من الذنوب والخروج على الأئمة وخذلانهم لهم وعصيانهم ومخالفتهم، والافتيات عليهم، وقال:.. وكان جباراً عنيداً مقداماً على سفك الدماء بأدنى شبهة. وقد رُوِي عنه ألفاظ بشعة شنيعة ظاهرها الكفر، فإن كان قد تاب منها وأقلع عنها، وإلا فهو باقٍ في عهدتها، ولكن يخشى أنَّها رويت عنه بنوع من زيادة عليه، فإن الشيعة كان يبغضونه جداً لوجوه وربَّما حرّفوا عليه بعض الكلم، وزادوا فيما يحكونه عنه بشاعات وشناعات وقد روينا عنه أنه كان يتدين بترك المسكر، وكان يكثر تلاوة القرآن ويتجنب المحارم، ولم يُشتهر عنه شيء من التلطخ بالفروج، وإن كان متسرعاً في سفك الدماء فالله تعالى أعلم بالصواب وحقائق الأمور وسرائرها وخفيَّات الصدور وضمائرها[(١)].

فلا نكفر الحجّاج، ولا نمدحه، ولا نسبه ونبغضه في الله بسبب تعديه على بعض حدود الله وأحكامه وأمره إلى الله[(٢)].

قال الشافعي: لمّا تزوج الحجّاج بنت عبد الله بن جعفر قال خالد بن يزيد بن معاوية لعبد الملك بن مروان: أتُمكنه من ذلك؟ فقال: وما بأس بذلك؟ قال: أشدُّ البأس والله. قال: وكيف؟ قال: والله يا أمير المؤمنين لقد ذهب ما في صدري على آل الزبير منذ تزوجت رملة بنت الزبير. قال فكأنه كان نائماً فأيقظه، فكتب إلى الحجّاج يعزم عليه في طلاقها فطلقَّها، وجاء في رواية: يا أمير المؤمنين إنما خفت أن يميل الحجّاج إليهم فيسعى لمحل سلطانه فإنه لم يكن بين أهل

(١) البداية والنهاية، ١٢/٥١٠.
(٢) الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار، ٣ /٥٩.

بيتين من شحناء ما كان بيننا وبين آل الزبير، فلما تزوجت برملة بنت الزبير انقلب ذلك البغض محبة حتى إني ما أحب أكثر منهم، حتى قلت:

تجول خلاخيل النساء ولا أرى ::: خلخالاً يجول ولا قُلْبا
فلا تكثروا فيها الملام فإنني ::: تخيرتها منهم زبيرية قلبا
أحب بني العوام من أجل حُبِّها ::: ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا[١]

وكان الحجّاج يحترم أهل البيت ويكرمهم وما زواجه ببنت عبد الله بن جعفر إلا مظهر من ذلك ليتقرب منهم ويصلهم وعلى الرغم من أنه طلقها فما زال واصلاً لعبد الله حتى مات، فكان يرسل له في كل شهر عيراً تحمل كسوة وتحفاً وميرة وكل ما يحتاج إليه، وقد تجلى ذلك في أنه قال مرة: ليقم كل رجل منك يذكر بلاءه لنعطيه فقام رجل فقال: أنا قاتل الحسين. فقال: كيف قتلته؟؟ قال: دسرته بالرمح دسراً، وهبرته بالسيف هبراً. فقال: أما والله لا يجتمع الحسين وقاتله في الجنة، وحرمه من العطاء، وما يذكر في كتب التاريخ من كون الحجّاج نصب العداء لأهل البيت غير صحيح، وخصوصاً إذا عرفنا معاملة عبد الملك لأهل البيت وحرصه على عدم مساسهم من قريب أو بعيد ما لم يتقربوا من كرسي الخلافة ويعملوا على الوصول إليه[٢].

ولعل أبرز جرائم الحجاج هو قتل سعيد بن جبير المقرئَ المفسَّر المحدث الفقيه، أحد الأعلام وله نحو من خمسين سنة أكثر روايته عن ابن عبّاس، وحدّث في حياته بإذنه، وكان لا يكتب الفتاوى مع ابن عبَّاس، فلمّا عَمِيَ ابن عباس كتب وروي أنه قرأ القرآن في

(١) وفيات الأعيان،٢/٢٢٤، ٢٢٥.
(٢) الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار، ٣ /٦٣.

ركعة في البيت الحرام، وكان يؤمّ الناس في شهر رمضان، فيقرأ ليلة بقراءة ابن مسعود، وليلة بقراءة زيد بن ثابت، وأخرى بقراءة غيرهما وهكذا أبداً، وقيل كان أعلم التابعين بالطّلاق سعيد بن جبير، وبالحج عطاء، وبالحلال والحرام طاووس وبالتفسير مجاهد وأجمعهم لذلك سعيد بن جبير وقتله الحجّاج وما على وجه الأرض أحد إلاّ وهو مفتقر إلى علمه، وقال الحسن يوم قتله: اللهمّ أعِنْ على فاسق ثقيف، والله لو أنّ أهل الأرض اشتركوا في قتله لأكبهم الله في النار، وعندما أمر الحجّاج بقتل سعيد قال سعيد: اللهم لا تحل له دمي ولا تُمهله من بعدي، وأصيب الحجاج بفزع عظيم وجعل يقول: مالي ولك يا سعيد بن جبير، وكان في جملة مرضه كلما نام رآه آخذاً بمجامع ثوبه يقول: يا عدو الله فيم قتلتني، فيستيقظ مذعوراً ويقول: مالي ولابن جبير.

لما مرض الحجّاج أرجف الناس بموته فقال في خطبته: إنَّ طائفة من أهل الشقاق والنفاق نزغ الشيطان بينهم، فقالوا: مات الحجّاج، ومات الحجّاج، فمه، وهل يرجو الحجّاج الخير إلا بعد الموت؟ والله ما يُسرُّني أن لا أموت، وأنَّ لي الدنيا وما فيها وما رأيت الله رضي التخليد إلا لأهون خلقه عليه إبليس، قال الله له:{فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ } [الحجر: ٣٧]. فأنظره إلى يوم الدين، ولقد دعا الله العبد الصالح فقال:{وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ} [ص: ٣٥]. فأعطاه الله ذلك إلا البقاء، فما عسى أن يكون أيُّها الرجل، وكلُّكم ذلك الرجل كأنِّي والله بكل حيٍّ منكم ميتاً، وبكل رطبٍ يابساً، ثم نُقِلَ في ثياب أكفانه إلى ثلاثة أذرع طولاً في ذراع عرضاً، فأكلت الأرض لحمه، ومصَّت صديده، وانصرف الحبيب من ولده يُقسِمُ الحبيب من ماله إن الذين

يعقلون. يعقلون ما أقول[١].

وكان موت الحجّاج بالأكلة[٢]، في بطنه، سوَّغه الطبيب لحماً في خيط فخرج مملوءاً دوداً وسُلط عليه أيضاً، البرد فكان يوقد النَّار تحته وتأجّجُ حتى تحرق ثيابه وهو لا يُحِسَّ بها، فشكا ما يجده إلى الحسن البصري - كما جاء في بعض الروايات - فقال له ألم أكن نهيتُك أن تتعرّض للصالحين، فلججت، فقال له: يا حسن، لا أسألك أن تسأل الله أن يفرج عني ولكني أسألك أن تسأله أن يعجل قبض روحي ولا يطيل عذابي، فبكى الحسن بكاءً شديداً، وأقام الحجّاج على هذه العلة خمسة عشر يوماً فلما أُخبر الحَسَنُ بموته سجد شكراً، وقال: اللهمَّ كما أمته أمت سنته[٣].

وعن الأصمعي، قال: لما حضرت الحجّاج الوفاة أنشأ يقول:

يا ربِّ قد حلف الأعداء واجتهدوا ::: بأنني رجل من ساكني النار
أيحلفون على عمياء ويحهم ::: ما علمهم بعظيم العفو غفار

وقال عند موته: اللهم اغفر لي، فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل، وعن عمر بن عبد العزيز أنَّه قال: ما حسِدتُ الحجّاج عدو الله على شيء حسدي إياه على حبِّه للقرآن وإعطائه أهله، وقوله له حين حضرته الوفاة: اللهم اغفر لي فإنَّ الناس يزعمون أنك لا تفعل، ولما قيل للحسن البصري: إن الحجّاج قال عند الموت كذا وكذا. قال: أقالها؟ قالوا: نعم. قال: عسى[٤]، وقد فرح أهل العراق بموت الحجّاج، وسمي يوم موته عرس العراق[٥].

(١) البداية والنهاية، ٥٩٤/١٢.
(٢) الأكلة: داء يقع في العضو فيأتكل منه.
(٣) شذرات الذهب، ٣٨١/١،الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار، ٣ /٦٦.
(٤) البداية والنهاية،١٢/ ٥٥٠.
(٥) المنتظم، ٤/٧.

قال العماد في سنة ٩٥هـ: فيها أراح الله العباد والبلاد بموت الحجاج بن يوسف الثقفي في ليلة مباركة على الأمة، ليلة سبع وعشرين رمضان، وله ثلاث وقيل أربع أو خمس وخمسون سنة أو دونها، وزعموا أنَّ الحجّاج مات ولم يترك إلا ثلاثمائة درهم ومصحفاً وسيفاً وسرْجاً ورحلاً ومائة درع موقوفة[1].

ولما مات الحجّاج تفجع عليه الوليد بن عبد الملك وجلس للعزاء فيه محزوناً عليه ومازال مهموماً حتى دخل عليه الفرزدق - الشاعر - فرثى الحجّاج رثاءً أرضى الوليد واقر عينه فقد قال:

لبيك على الإسلام من كان باكيا ::: على الدين من مستوحش الليل خائف
وأرملة لما أتاها نعيه ::: فجادت له بالواكفات الزوارف

إلى أن قال:

فما ذرفت عيناي بعد محمد ::: على مثله إلا نفوس الخلايف[2]

وتتابع الناس في دخولهم على الوليد يعزونه في الحجّاج ويثنون عليه خيراً وقد وجد الوليد على عمر بن عبد العزيز لأنه لم يقل في الحجّاج شيئاً وألجأه إلى الكلام فقال: وهل كان الحجّاج إلا رجلاً من أهل البيت فنحن نُعزى فيه ولا نُعَزِّي، وقال الوليد: لأشفعن في الحجّاج عند الله، ووفاء لذكرى الحجّاج أقرّ الوليد العمال الذين استخلفهم.

قال العلماء في موت الحجّاج:

عن معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه أنه أخبر بموت الحجّاج مراراً، فلما تحقَّق وفاته قال:{فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾} [الأنعام: ٤٥].

---

(١) شذرات الذهب، ٣٧٧/١،، البداية والنهاية، ٥٥٢/١٢.
(٢) العقد الفريد،١٩/٣، ديوان الفرزدق، صـ٢١٢.

ولما أخبر إبراهيم النخعي بموت الحجّاج بكى من الفرح، ولما بشر الحسن بموت الحجّاج سجد شكراً لله وقال اللهم أمَتَّه، فأذهب عنا سنته، وخرّ عمر بن عبد العزيز ساجداً حينما بلغه النبأ (١).

الحجاج بن يوسف الثقفي في ميزان أهل السنة والجماعة:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فلهذا كان أهل العلم يختارون فيمن عرف بالظلم ونحوه مع أنه مسلمٌ له أعمالٌ صالحةٌ في الظاهر - كالحجاج بن يوسف وأمثاله - أنهم لا يلعنون أحدًا منهم بعينه؛ بل يقولون كما قال الله تعالى:{أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ } [هود: ١٨]، فيلعنون من لعنه الله ورسوله عاما. كقوله : **﴿لعن الله الخمر وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومشتريها وساقيها وشاربها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها﴾** ولا يلعنون المعين.

كما ثبت في صحيح البخاري وغيره: "﴿ أن رجلاً كان يدعى حمارًا وكان يشرب الخمر. وكان النبي يجلده. فأتي به مرةً. فلعنه رجلٌ. فقال النبي : **لا تلعنه. فإنه يحب الله ورسوله﴾**.

وذلك لأن اللعنة من باب الوعيد والوعيد العام لا يقطع به للشخص المعين لأحد الأسباب المذكورة: من توبةٍ أو حسناتٍ ماحيةٍ أو مصائب مكفرةٍ أو شفاعةٍ مقبولةٍ وغير ذلك.ا.هـ.

وممن امتنع عن لعنه الإمام أحمد رحمه الله.

---

(١) تاريخ البخاري ٢ / ٣٧٣، المعارف ٣٩٥ و٥٤٨، مروج الذهب ٣ / ٣٦٥، البدء والتاريخ ٦ / ٢٧، تاريخ ابن عساكر ٤ / ١٠٥ تاريخ ابن الأثير ٤ / ٥٨٣، تاريخ الإسلام ٣ / ٣٤٩، العبر ١ / ١١٢، سرح العيون ١٧٠، البداية والنهاية ٩ / ١١٧، تهذيب التهذيب ٢ / ٢١٠، لسان الميزان ٢ / ١٨٠، تعجيل المنفعة ٨٧، النجوم الزاهرة ١ / ٢٣٠ خلاصة تذهيب التهذيب ٧٣، شذرات الذهب ١ / ١٠٦، تهذيب ابن عساكر ٤ / ٥١، الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار، ٣ /٦٨.

- روى الخلال في " السنة " [1] بإسناده فقال: وأخبرني محمد بن علي قال: ثنا صالح أنه قال لأبيه: الرجل يذكر عنده الحجاج أو غيره فيلعنه؟ قال: لا يعجبني لو عبر فقال: ألا لعنة الله على الظالمين، وروى عن ابن سيرين أنه قال: المسكين أبو محمد.

قال المحقق لـ " السنة ": إسناده صحيحٌ. وقال عن المقصود بأبي محمد: لعله يقصد الحجاج فكنيته أبو محمد.

والواجب على المسلم أن يجتنب اللعن، وألاَّ يعود لسانه عليه.

ولاشك أن في الأمة من أمثال الحجاج كثر، بل أشد منه..

وقد أدرك بعض الصحابة زمن إمارة الحجاج ومنهم ابن عمر، وأنس بن مالك، وعبد الله بن الزبير وكانوا يعرفون ما عند الرجل من ظلمٍ وجورٍ وسفكٍ للدماء ومع هذا لم يقولوا بكفر الحجاج.

عن سعيد بن جبيرٍ قال: كنت مع ابن عمر حين أصابه سنان الرمح في أخمص قدمه؛ فلزقت قدمه بالركاب؛ فنزلت فنزعتها وذلك بمنًى، فبلغ الحجاج، فجعل يعوده فقال الحجاج: لو نعلم من أصابك؟ فقال ابن عمر: أنت أصبتني، قال: وكيف؟ قال: حملت السلاح في يومٍ لم يكن يحمل فيه، وأدخلت السلاح الحرم ولم يكن السلاح يدخل الحرم [2].

يتبين من هذين الحديث أن ما فعله الحجاج مع ابن عمر كان في الحج في منى، وسبب هذا الفعل من الحجاج ما جاء في الحديث الآخر.

وعن سالمٍ قال: كتب عبد الملك إلى الحجاج أن لا يخالف ابن عمر

(١) (٨٥١).
(٢) رواه البخاري (٩٦٦).

في الحج فجاء ابن عمر وأنا معه يوم عرفة حين زالت الشمس فصاح عند سرادق الحجاج، فخرج وعليه ملحفةٌ معصفرةٌ فقال: ما لك يا أبا عبد الرحمن؟ فقال: الرواح إن كنت تريد السنة، قال: هذه الساعة؟ قال: نعم؛ قال: فأنظرني حتى أفيض على رأسي ثم أخرج، فنزل حتى خرج الحجاج فسار بيني وبين أبي فقلت: إن كنت تريد السنة فاقصر الخطبة، وعجل الوقوف؛ فجعل ينظر إلى عبد الله، فلما رأى ذلك عبد الله قال: صدق (١).

وفي فعل ابن عمر مع الحجاج فيما سبق أيضاً من الفوائد صلاة ابن عمر خلف الحجاج، وقد جاء مصرحاً به.

عن عمير بن هانىء قال: " شهدت ابن عمر والحجاج محاصرٌ ابن الزبير، فكان منزل ابن عمر بينهما فكان ربما حضر الصلاة مع هؤلاء، وربما حضر الصلاة مع هؤلاء (٢).

وعن الزبير بن عدي قال: أتينا أنس بن مالكٍ فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج فقال: اصبروا؛ فإنه لا يأتي عليكم زمانٌ إلا الذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم سمعته من نبيكم (٣).

وبعد ذكر هذه النصوص عن الصحابة، وما وجدوه من الحجاج، فلم نجد من أحدهم أنه كفره، أو ألمح حتى إلى تكفيره، فلو ظهر لهم أدنى أمرٍ مكفرٍ من الحجاج لما ترددوا في تكفيره، لأن الصحابة لا يعهد عنهم كتمان الحق وبيانه.

وهذا سفيان الثوري حينما سئل عن الحجاج ماذا قال؟

قال رجلٌ لسفيان: أتشهد على الحجاج وأبي مسلم أنهما في النار؟ قال

(١) رواه البخاري.
(٢) قال العلامة الألباني في " الإرواء " (٣٠٣/٢): وهذا سند صحيح على شرط الستة.
(٣) رواه البخاري (٧٠٦٨).

" لا؛ إذا أقرا بالتوحيد " (١).

والحقيقة التي لا يجب إغفالها لأن هناك كتاب ومؤرخين بالغوا في ذكر انتهاكات الحجاج لحرمات الدين، وأكثرها لا يصح، هذا إلى جانب دخول الدس من أعداء الحجاج وبني أمية في صياغة كثير من هذه المبالغات، وخاصة كتب الأدب كـ " العقد الفريد " لا بن عبد ربه وكتاب " الأغاني " للأصفهاني والذي تتسم رواياته بسمةٍ شيعيةٍ واضحةٍ.

وهذا لا يعفي الحجاج من إقتراف الكثير من الجرائم والتجاوزات وفي مقدمة تجاوزات الحجاج الشرعية إسرافه في القتل، وهو المبيرٌ الذي أخبر عنه النبي ، ورؤيته في وجوب الطاعة العمياء من الرعية له، وأن مخالفة أمره في أي شأنٍ كبر أو صغر تبرر له القتل.

عن عاصمٍ قال سمعت الحجاج، وهو على المنبر، يقول: اتقوا الله ما استطعتم ليس فيها مثنويةٌ، واسمعوا وأطيعوا ليس فيها مثنويةٌ لأمير المؤمنين عبد الملك، والله لو أمرت الناس أن يخرجوا من بابٍ من أبواب المسجد فخرجوا من بابٍ آخر لحلت لي دماؤهم وأموالهم، والله لو أخذت ربيعة بمضر لكان ذلك لي من الله حلالاً، ويا عذيري من عبد هذيلٍ يزعم أن قراءته من عند الله، والله ما هي إلا رجزٌ من رجز الأعراب ما أنزلها الله على نبيه عليه السلام، وعذيري من هذه الحمراء يزعم أحدهم أنه يرمي بالحجر فيقول: إلى أن يقع الحجر قد حدث أمرٌ فوالله لأدعنهم كالأمس الدابر قال: فذكرته للأعمش فقال: أنا والله سمعته منه (٢).

(١) رواه اللالكائي في " شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة "، ١١٥٠/٦.
(٢) رواه أبو داود (٤٦٤٣)، وصححه العلامة الألباني في " صحيح سنن أبي داود " (٣٨٧٩)، ووردت آثارٌ بنفس المعنى في سنن أبي داود (٤٦٤٤، ٤٦٤٥)، وصححها

قال ابنُ كثيرٍ في " البداية والنهاية " [١]عن استهانةِ الحجاج بالقتل: فإن الحجاجَ كان عثمانياً أموياً، يميلُ إليهم ميلاً عظيماً، ويرى أن خلافَهم كفرٌ، يستحلُ بذلك الدماءَ، ولا تأخذه في ذلك لومةُ لائمٍ.ا.هـ.

كما اتسم الحجاجُ بالجرأةُ والتطاول على الصحابةِ، وسوءُ نظرتهِ للعلماءِ، وتعاملهِ معهم، وقد رويت كلماتٌ شديدةٌ قالها الحجاجُ في حقِ الصحابي الجليلِ عبدِ اللهِ بن مسعودٍ أوردها الإمامُ ابنُ كثيرٍ في " البداية والنهاية " [٢] فمن ذلك:

عن عاصم بن أبي النجود والأعمش، أنهما سمعا الحجاج - قبحه الله - يقول ذلك، وفيه: والله لو أمرتكم أن تخرجوا من هذا الباب فخرجتم من هذا الباب لحلت لي دماؤكم، ولا أجد أحداً يقرأ على قراءة ابن أم عبد إلا ضربت عنقه، ولأحكنها من المصحف ولو بضلع خنزير[٣].

٢ - عن الأعمش يقول: والله لقد سمعت الحجاج بن يوسف يقول: يا عجبا من عبد هذيل، يزعم أنه يقرأ قرآنا من عند الله، واللهِ ما هو إلا رجز من رجز الأعراب، والله لو أدركت عبد هذيل لضربت عنقه[٤].

هذا على فرض ثبوت ما نقل عنه، وبعد التحقق من أسانيدها لا يثبت

العلامة الألباني أيضاً (٣٨٨٠، ٣٨٨١).

(١) (١٣١/٩).

(٢) (١٣٥/٩).

(٣) وفي سندِ هذه الروايةِ أبو هشام الرفاعي محمدُ بنُ يزيد. قال البخاري: رأيتهم مجمعين على ضعفه. وقال النسائي: ضعيف. وقال الترمذي: رأيتُ محمداً أبا هشام الرفاعي. وقال ابنُ حجر: ليس بالقوي.

(٤) رواه الحاكمُ في " المستدرك " (٥٥٦/٣)، وأورده ابنُ كثيرٍ في " البداية والنهاية " (١٣٥/٩)، ولم يعزه ابنُ كثيرٍ إلى الحاكمِ وإنما قال: " وفي بعض الروايات: والله لو أدركت عبد هذيل لأضربن عنقه.ا.هـ. وفي سندها أحمد بن عبد الجبار العُطاردي. قال أبو حاتم: ليس بالقوي. وقال مُطّين: كان يكذب. وقال ابنُ عدي: رأيتُ أهلَ العراق مُجمعين على ضعفه. وقال الذهبي: ضعفه غيرُ واحدٍ.

منها شيء خلا كلامهِ على قراءةِ ابنِ مسعود .

وبعد هذه النقولِ وبيان الأقوالِ يظهرُ أن الحجاجَ لم يكفرهُ أحدٌ من أهل العلم، وإنما هي أقوالٌ وردت عن بعضِ السلف لا يفهمُ منها التكفيرُ، ومن جاء عنه التكفير فقد تراجع عنه، وتاب من ذلك.

مواقف من حياته:

ورجائي لك الغداة عظيم :

ومن أخبار الحجاج بن يوسف أنه لما حضرته الوفاة وأيقن بالموت قال: أسندوني، وأذن للناس فدخلوا عليه فذكرت الموت وكربه واللحد ووحشته والدنيا وزوالها والآخرة وأهوالها وكثرة ذنوبه وأنشأ يقول:

إن ذنبي وزن السماوات والأرض ::: وظني بخالقي أن يحابي
فلئن من بالرضا فهو ظني ::: ولئن مر بالكتاب عذابي
لم يكن ذاك منه ظلما وهل ::: يظلم رب يرجى لحسن المآب

ثم بكى وبكى جلساؤه ثم أمر الكاتب أن يكتب إلى الوليد بن عبد الملك بن مروان أما بعد: فقد كنت أرعى غنمك أحوطها حياطة الناصح الشفيق برعية مولاه فجاء الأسد فبطش بالراعي ومزق المرعي كل ممزق وقد نزل بمولاك ما نزل بأيوب الصابر، وأرجو أن يكون الجبار أراد بعبده غفرانا لخطاياه وتكفيرا لما حمل من ذنوبه ثم كتب في آخر الكتاب:

إذا ما لقيت الله عني راضيا ::: فإن شفاء النفس فيما هنالك
فحسبي بقاء الله من كل ميت ::: وحسبي حياة الله من كل هالك
لقد ذاق هذا الموت من كان قبلنا ::: ونحن نذوق الموت من بعد ذلك
فإن مت فاذكرني بذكر محبب ::: فقد كان جما في رضاك مسالكي
وإلا ففي دبر الصلاة بدعوة ::: يلقى بها المسجون في نار مالك
عليك سلام الله حيا وميتا ::: ومن بعد ما تحيا عتيقا لمالك

ثم دخل عليه أبو المنذر يعلى بن مخلد المجاشعي وقال: كيف ترى ما بك يا حجاج من غمرات الموت وسكراته؟ فقال:يا يعلى غما شديدا وجهدا جهيدا وألما مضيضا ونزعا جريضا وسفرا طويلا وزادا قليلا فويلي ويلي إن لم يرحمني الجبار! فقال له: يا حجاج إنما يرحم الله من عباده الرحماء الكرماء أولى الرحمة والرأفة والتحنن والتعطف على عباده وخلقه أشهد أنك قرين فرعون وهامان لسوء سيرتك وترك ملتك وتنكبك عن قصد الحق وسنن المحجة وآثار الصالحين قتلت صالحي الناس فأفنيتهم وأبرت عترة التابعين فتبرتهم، وأطعت المخلوق في معصية الخالق، وهرقت الدماء وضربت الأبشار وهتكت الأستار وسست سياسة متكبر جبار لا الدين أبقيت ولا الدنيا أدركت أعززت بني مروان، وأذللت نفسك وعمرت دورهم وأخربت دارك، فاليوم لا ينجونك ولا يغيثونك إذ لم يكن لك في هذا اليوم ولا لما بعده نظر لقد كنت لهذه الأمة اهتماما واغتماما وعناء وبلاء، فالحمد لله الذي أراحها بموتك وأعطاها مناها بخزيك، قال: فكأنما قطع لسانه عنه فلم يحر جوابا وتنفس الصعداء وخنقته العبرة ثم رفع رأسه فنظر إليه وأنشأ يقول:

رب إن العباد قد أيأسوني ورجائي لك الغداة عظيم [1]

عزل الحجاج بن يوسف عن الحرمين:

قال عمران بن عد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف الزهري: لما ولي الحجاج بن يوسف الحرمين، بعد قتل عبد الله بن الزبير استحضر إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله وقربه في المنزلة فلم يزل على حاله عنده، حتى خرج إلى عبد الملك زائراً له فخرج معه فعادله لا يترك في بره وإجلاله وتعظيمه شيئاً، فلما حضر باب عبد

(١) أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي، الأمالي في لغة العرب، ١٧٤/٣ - ١٧٥.

الملك حضر به معه، فدخل على عبد الملك فلم يبدأ بشيء بعد السلام إلا أن قال: قدمت عليك يا أمير المؤمنين برجل الحجاز، لم أدع له والله فيها نظيراً في كمال المروءة والأدب والديانة، ومن الستر وحسن المذهب والطاعة والنصيحة، مع القرابة ووجوب الحق: إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله وقد أحضرته بابك لتسهل عليه إذنك وتلقاه ببشرك وتفعل ما تفعل بمثله ممن كانت مذاهبه مثل مذاهبه، فقال عبد الملك: ذكرتنا حقاً واجباً ورحماً قريباً، يا غلام ائذن لإبراهيم بن طلحة، فلما دخل عليه قربه حتى أجلسه على فرشه، ثم قال له: يا ابن طلحة! إن أبا محمد أذكرنا ما لم نزل نعرفك به من الفضل والأدب وحسن المذهب، مع قرابة الرحم ووجوب الحق، فلا تدعن حاجة في خاص أمرك ولا عامته إلا ذكرتها، قال: يا أمير المؤمنين! إن أولى الأمور أن تفتتح بها حوائج وترجى بها الزلف ما كان لله عز وجل رضا، ولحق نبيه أداء، ولك فيه ولجماعة المسلمين نصيحة، وإن عندي نصيحة لا أجد بداً من ذكرها ولا يكون البوح بها إلا وأنا خال، فأخلني ترد عليك نصيحتي، قال: دون أبي محمد؟ قال: نعم، قال: قم يا حجاج، فلما جاوز الستر قال: قل يا بن طلحة نصيحتك، قال: الله أمير المؤمنين أمير المؤمنين، قال: الله، قال: إنك عمدت إلى الحجاج مع تغطرسه وتعترسه، وتعجرفه وبعده عن الحق وركونه إلى الباطل، فوليته الحرمين، وفيهما من فيهما، وبهما من بهما من المهاجرين والأنصار، والموالي المنتسبة الأخيار، أصحاب رسول الله وأبناء الصحابة، يسومهم الخسف، ويقودهم بالعسف، ويحكم فيهم بغير السنة، ويطؤهم بطغام أهل الشام، ورعاع لا روية لهم في إقامة حق، ولا إزاحة باطل، ثم ظننت أن ذلك فيما بينك وبين الله ينجيك، وفيما بينك وبين رسول الله يخلصك إذا جاثاك

للخصومة في أمته، أما والله لا تنجو إلا بحجة تقيمن لك النجاة، فابق على نفسك أو دع، فقد قال رسول الله : " كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته " فاستوى عبد الملك جالساً وكان متكئاً، فقال: كذبت - لعمرو الله - ومنت ولؤمت فيما جئت به، قد ظن بك الحجاج ما لم يجد فيك، وربما ظن الخير بغير أهله، قم فأنت الكاذب المائن الحاسد، قال: فقمت والله ما أبصر طريقاً، فلما خلفت الستر لحقني لاحق من قبله، فقال للحاجب: احبس هذا، أدخل أبا محمد للحجاج، فلبثت ملياً لا أشك أنهما في أمري، ثم خرج الآذن فقال: قم يا بن طلحة فادخل، فلما كشف لي الستر لقيني الحجاج وأنا داخل وهو خارج فاعتنقني وقبل ما بين عيني، ثم قال: إذا جزى الله المتحابين بفضل تواصلهم فجازاك الله أفضل ما جزى به أخاً، فوالله لئن سلمت لك لأرفعن ناظرك، ولأعلين كعبك، ولأتبعن الرجال غبار قدمك، قال: فقلت: يهزأ بي، فلما وصلت إلى عبد الملك أدناني حتى أجلسني مجلسي الأول، ثم قال: يا بن طلحة لعل أحد من الناس شاركك في نصيحتك؛ قال: قلت: لا والله، ولا أعلم أحداً كان أظهر عندي معروفاً ولا أوضح يداً من الحجاج،ولو كنت محابياً أحداً بديني لكان هو، ولكن آثرت الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه والمسلمين، فقال: قد علمت أنك آثرت الله عز وجل، ولو أردت الدنيا لكان لك بالحجاج أمل، وقد أزلت الحجاج عن الحرمين لما كرهت من ولايته عليهما، وأعلمته أنك استنزلتني له عنهما استصغاراً لهما، ووليته العراقين لما هنا من الأمور التي لا يرحضها إلا مثله، وأعلمته أنك استدعيتني إلى التولية له عليهما استزادة له ليلزمه من ذمامك ما يؤدي به عني إليك أجر نصيحتك، فاخرج معه فإنك غير ذام صحبته مع تقريظه

إياك ويدك عنده، قال: فخرجت على هذه الجملة[١].

أخارجي أنت؟ :

عن عبيد الله بن محمد التيمي، قال: أتي الحجاج برجل متهم برأي الخوارج، فقال له الحجاج: أخارجي أنت؟ قال: لا والذي أنت بين يديه غدا أذل مني بين يديك اليوم ما أنا بخارجي، فقال الحجاج: إني يومئذ لذليل. وأطلقه.

مال من يأخذ؟

ولى الحجاج رجلاً من الأعراب بعض المياه، فكسر عليه بعض خراجه فأحضره ثم قال له: يا عدو الله! أخذت مال الله، قال: فمال من آخذ؟ أنا والله مع الشيطان منذ أربعين سنة أن يعطيني حبة ما أعطاني.

جزاء الإحسان:

عن عوانة، قال: أتى الحجاج بأسارى من أصحاب قطري من الخوارج فقتلهم إلا واحداً، كانت له عنده يد وكان قريباً لقطري، فأحسن إليه وخلى سبيله، فصار إلى قطري فقال له قطري: عاود قتال عدو الله الحجاج، فقال هيهات، غل يداً مطلقها واسترق رقبة معتقها، ثم قال:

أأقاتل الحجاج عن سلطانه ::: بيد تقر بأنها مولاته
إني إذاً لأخو الدناءة والذي ::: طمت على إحسانه جهلاته
ماذا أقول إذا وقفت إزاءه ::: في الصف واحتجت له فعلاته
أأقول جار علي لا، إني إذاً ::: لأحق من جارت عليه ولاته
وتحدث الأقوام أن صنائعاً ::: غرست لديّ فحنظلت نخلاته

(١) الجليس الصالح والأنيس الناصح،ص ١٤.

هــذا ومــا ظــني بحــينٍ أنــني ::: فكيم لمطرقُ مشــهدٍ وعلاتــه[١]

ليلى الأخيلية ووفودها على الحجاج:

عن أبي الحسن المدائني، عمن حدثه، عن مولى لعنبسة ابن سعيد ابن العاص، قال: كنت أدخل مع عنبسة إذا دخل على الحجاج، فدخل يوماً ودخلت إليهما وليس عند الحجاج أحد غير عنبسة، فقعدت فجيء الحجاج بطبق فيه رطب، فأخذ الخادم منه شيئاً فجاءني، ثم جاء بطبق آخر فأتاني الخادم منه بشيء، ثم جيء بطبق آخر حتى كثرت الأطباق، وجعل لا يؤتون بشيء إلا جاءني منه بشيء حتى ظننت أن ما بين يدي أكثر مما عندهم، ثم جاء الحاجب فقال: امرأة بالباب، فقال الحجاج: أدخلها. فدخلت، فلما رآها الحجاج طأطأ رأسه حتى ظننت أن ذقنه قد أصاب الأرض، فجاءت حتى قعدت بين يديه فنظرت إليها فإذا امرأة قد أسنت، حسنة الخلق، ومعها جاريتان لها، وإذا هي ليلى الأخيلية، فسألها الحجاج عن نسبها فانتسبت له، فقال لها: يا ليلى! ما أتاني بك؟ قالت: إخلاف النجوم وقلة الغيوم وكلب البرد وشدة الجهد، وكنت لنا بعد الله الرفد، فقال لها: صفي لنا الفجاج، فقالت: مغبرة والأرض مقشعرة، والمبرك معتل، وذو العيال مختل، والمال القُلّ، والناس مُسنتون، رحمة الله يرجون، وأصابتنا سنون مجحفة مبلطة، لم تدع لنا هبعاً ولا ربعاً، ولا عافطة ولا نافطة، أذهبت الأموال ومزقت الرجال وأهلكت العيال، ثم قالت: قد قلت في الأمير قولاً، قال: هاتي، فأنشأت تقول:

أحجاج لا يفلل سلاحك إنما ال ::: منايا بكــف الله حيــث يراهــا
أحجاج لا تعطي العــداة منــاهم ::: ولا الله يعطــي للعــداة مناهــا
ذا هبط الحجاج أرضــاً مريضــة ::: تتبــع أقصــى دائهــا فشــفاها

(١) الجليس الصالح والأنيس الناصح،ص ٢٢.

شفاها من الداء العضال الذي بها ::: غلام إذا هز القناة سقاها
سقاها فرواها بشرب سجاله ::: دماء رجال حيث قال حشاها
إذا سمع الحجاج رز كتيبة ::: أعد لها قبل النزول قراها
أعد لها مسمومة فارسية ::: بأيدي رجال يحلبون صراها
فما ولد الأبكار والعون مثله ::: ببحر ولا أرض يجف ثراها

قال: فلما قالت هذا البيت، قال الحجاج: قاتلها الله! ما أصاب صفتي شاعر منذ دخلت العراق غيرها، ثم التفت إلى عنبسة بن سعيد، فقال: والله إني لأعد للأمر عسى ألا يكون أبداً، ثم التفت إليها، فقال: حسبك، فقالت: قد قلت أكثر من هذا، قال: حسبك ويحك حسبك، ثم قال: يا غلام! اذهب بها إلى فلان فقل له: اقطع لسانها، فقال له: يقول لك الأمير: اقطع لسانها، قال: فأمر بإحضار الحجام، والتفتت إليه وقالت: ثكلتك أمك، أما سمعت ما قال، إنما أمرك أن تقطع لساني بالبر والصلة فبعث إليه يستثبته، فاستشاط الحجاج غضباً وهم بقطع لسانه، وقال: ارددها، فلما دخلت عليه، قالت: كاد - وأمانة الله - أيها الأمير يقطع مقولي، ثم أنشأت تقول:

حجاج أنت الذي ما فوقه أحد ::: إلا الخليفة والمستغفر الصمدُ
حجاج أنت شهاب الحرب إن لقحت ::: وأنت للناس نور في الدجى يقدُ

ثم أقبل الحجاج على جلسائه، فقال: أتدرون من هذه؟ قالوا: لا والله أيها الأمير، إلا أننا لم نر امرأة قط أفصح لساناً ولا أحسن محاضرة، ولا أصبح وجهاً ولا أرصن شعراً منها، فقال: هذه ليلى الأخيلية التي مات توبة الخفاجي من حبها، ثم التفت إليها، فقال: أنشدينا يا ليلى بعض ما قال فيك توبة، فقالت: نعم أيها الأمير، هو الذي يقول:

وهل تبكين ليلى إذا مت قبلها ::: وقامت على قبري النساء النوائحُ
كما لو أصاب الموت ليلى بكيتها ::: وجاد لها دمع من العين سافحُ

وأغبط من ليلى، بمالاً أنالهُ ::: بلى كل ما قرت به العين صالح
ولو أن ليلى الأخيلية سلمت ::: علي وفوقي تربة وصفائحُ
لسلمت تسليم البشاشة أوزقا ::: إليها صدىً من جانب القبر صائحُ

فقال لها: زيدينا يا ليلى من شعره، فقال: نعم، هو الذي يقول:

حمامة بطن الواديين ترنمي ::: سقاك من الغر الغوادي مطيرُها
أبيني لنا لا زال ريشك ناعماً ::: ولا زلت في خضراء دان نضيرها
وأشرف بالقوز اليفاع لعلني ::: أرى نار ليلى أو يراني بصيرها
وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت ::: فقد رابني منها الغداة سفورها
يقول رجال لا يضيرك نأيها ::: بلى كل ما شف النفوس يضيرها
بلى قد يضير العين أن تكثر البك ::: ى يمنع منها نومها وسرورها
وقد زعمت ليلى بأني فاجرٌ ::: لنفسي تقاها أو عليها فجورها

فقال الحجاج: يا ليلى! ما الذي رابه من سفورك؟ قالت: أيها الأمير! كان يلم بي كثيراً فأرسل إلي يوماً: أني آتيك، ففطن الحي فأرصدوا له، فلما أتاني سفرت فعلم أن ذلك لشر، فلم يزد على التسليم والرجوع، فقال: لله درك! فهل رأيت منه شيئاً تكرهينه؟ قال: لا، والله الذي أسأله أن يصلحك، غير أنه قال لي مرة قولاً ظننت أنه قد خضع لبعض الأمر فأنشأت أقول:

وذي حاجة قلنا لا تبح بها ::: فليس إليها ما حييت سبيلُ
لنا صاحب لا نبتغي أن نخونه ::: وأنتَ لأخرى صاحب وخليلُ

فلا والله الذي أسأله أن يصلحك ما رأيت منه شيئاً قد فرق الموت بيني وبينه، قال: ثم مه، قالت: ثم إنه لم يلبث أن خرج في غزاةٍ له فأوصى ابن عمه: إذا أتيت الحاضر من بني عبادة فناد بأعلى صوتك:

عفا الله عنها هل أبيتن ليلةً ::: من الدهر لا يسري إلي خيالها

فخرج وأنا أقول:

وعنه عفـا ربي وأحسـن حالـهُ ::: فعـز علينـا حاجـةً لا ينالُها

قال: ثم مه، قالت: ثم لم يلبث أن مات فأتى نعيه، قال: فأنشدينا بعض مراثيك فيه، فأنشدته:

كأن فتى الفتيـان توبـة لم ينـخ ::: قلائص يفحصن الحصى بالكراكر

ليبك العذارى من خفاجة نسـوة ::: بمـاء شـئون العـبرة المتحـادر

فلما فرغت من القصيدة، قال محصن الفقعسي، وكان من جلساء الحجاج: من الذي يقول هذه هذا فيه، فوالله إني لأظنها كاذبة، فنظرت إليه ثم قالت: والله أيها الأمير إن هذا القائل لي لو رأى توبة لسَرَّه ألا يكون في داره عذراء وهي حامل منه، فقال له الحجاج: هذا وأبيك الجواب، وقد كنت عنه غنياً، ثم قال لها: سلي يا ليلى تعطي، قالت: أعط فمثلك أعطى فأحسن، قال: لك عشرون قالت زد فمثلك زاده فأجمل، قال: لك أربعون، قالت: زد فمثلك زاد فأفضل، قال: لك ستون قالت: زد فمثلك زاد فأكمل، قال: لك ثمانون، قالت: زد فمثلك زاد فتمم، قال: لك مائة، واعلمي يا ليلى أنها غنم، قالت: معاذ الله أيها الأمير، أنت أجود جوداً وأمجد مجداً وأورى زنداً من أن تجعلها غنماً، قال: فما هي ويحك يا ليلى؟ قالت: مائة ناقة برعاتها، فأمر لها بها، ثم قال: لك حاجة بعدها، قالت: تدفع إلي النابغة الجعدي في قيد، قال: قد فعلت، وقد كانت تهجوه ويهجوها، فبلغ النابغة ذلك فخرج هارباً عائذاً بعبد الملك بن مروان فاتبعته فهرب إلى قتيبة بن مسلم بخراسان فاتبعته على البريد بكتاب الحجاج إلى قتيبة، فماتت بقومس ويقال بحلوان[(١)].

---

(١) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ٤٧ - ٤٩.

الحجاج وفراشة التي كانت تجهز الخوارج:

عن العتبي، قال: كانت امرأة من الخوارج من الأزد يقال لها فراشة، وكانت ذات نبهٍ في رأي الخوارج تجهز أصحاب البصائر منهم، وكان الحجاج يطلبها طلباً شديداً، فأعوزته فلم يظفر بها، وكان يدعو الله أن يمكنه من فراشة أو من بعض من جهزته، فمكث ما شاء الله ثم جيء برجل فقال: هذا ممن جهزته فراشة، فخر ساجداً ثم رفع رأسه، فقال له: يا عدو الله، قال: أنت أولى بها يا حجاج، قال: أين فراشة؟ قال: مرت تطير منذ ثلاث. قال: أين تطير؟ قال: تطير ما بين السماء والأرض، قال: أعن تلك سألتك عليك لعنة الله؟ قال: عن تلك أخبرتك عليك غضب الله، قال: سألتك عن المرأة التي جهزتك وأصحابك، قال: وما تصنع بها؟ قال: دلنا عليها، قال: تصنع بها ماذا؟ قال: أضرب عنقها. قال: ويلك يا حجاج، ما أجهلك! تريد أن أدلك وأنت عدو الله على من هو ولي الله؟ قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين. قال: فما رأيك في أمير المؤمنين عبد الملك؟ قال: على ذاك الفاسق لعنة الله ولعنة اللاعنين، قال: ولم لا أم لك؟ قال: إنه أخطأ خطيئة طبقت بين السماء والأرض، قال: وما هي؟ قال: استعماله إياك على رقاب المسلمين، فقال الحجاج لجلسائه: ما رأيكم فيه؟ قالوا: نرى أن تقتله قتلة لم يقتل مثلها أحد، قال: ويلك يا حجاج، جلساء أخيك كانوا أحسن مجالسة من جلسائك، قال: وأي أخوي تريد؟ قال: فرعون حين شاور موسى فقالوا: أرجه وأخاه، وأشار عليك هؤلاء بقتلي، قال: وهل حفظت القرآن؟ قال: وهل خشيت فراره فأحفظه؟ قال: هل جمعت القرآن؟ قال: ما كان متفرقاً فأجمعه، قال: أقرأته ظاهراً؟ قال: معاذ الله بل قرأته وأنا أنظر إليه، فقال: فكيف تراك تلقى الله إن قتلتك؟ قال: ألقاه بعملي وتلقاه بدمي، قال: إذاً

أعجلك إلى النار، قال: لو علمت أن ذلك إليك أحسنت عبادتك واتقيت عذابك ولم أبغ خلافك ومناقضتك، قال: إني قاتلك، قال: إذاً أخاصمك لأن الحكم يومئذ إلى غيرك، قال: نقمعك عن الكلام السيئ، يا حِرسي! اضرب عنقه، وأومى إلى السياف إلا يقتله، فجعل يأتيه من بين يديه ومن خلفه ويروعه بالسيف، فلما طال ذلك عليه رشح جبينه، قال: جزعت من الموت يا عدو الله؟ قال: لا يا فاسق، ولكن أبطأت علي بما لي فيه راحة، قال: يا حرسي أعظم جرحه، فلما أحس بالسيف قال: لا إله إلا الله، ووالله ما أتمها ورأسه في الأرض(١).

خبر الغضبان بن القبعثري مع الحجاج:

قال أحمد بن عبيد بن ناصح: حدثت أن الحجاج بن يوسف بعث الغضبان بن القبعثري ليأتيه بخبر عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وهو بكرمان، وبعث عليه عيناً وكان كذلك يفعل، فلما انتهى الغضبان إلى عبد الرحمن قال له: ما وراءك؟ قال: شر، تغد بالحجاج قبل أن يتعشى بك، وانصرف الغضبان فنزل رملة كرمان وهي أرض شديدة الرمضاء، فبينا هو كذلك إذ ورد عليه أعرابي من بني بكر بن وائل على فرس له يقود ناقة، فقال: السلام عليك، قال الغضبان: السلام كثير وهي كلمة مقولة، قال الأعرابي: ما اسمك؟ قال: آخذ. قال: أفتعطي؟ قال: لا أحب أن يكون لي اسمان، قال: من أين أقبلت؟ قال: من الذلول، قال: وأين تريد؟ قال: المشي في مناكبها، قال: من عرض اليوم؟ قال: عرض المتقون. قال: فمن سبق؟ قال الفائزون، قال: فمن غلب؟ قال: حزب الله، قال: فمن حزب الله؟ قال: هم الغالبون، قال: فعجب الأعرابي من منطقه، قال:

(١) الجليس الصالح والأنيس الناصح،ص ٧٦ - ٧٧.

أما تقرض؟ قال: إنما تقرض الفأرة، قال: أتسمع؟ قال: إنما تسمع القينة، قال: أفتنشد؟ قال: إنما تنشد الضالة، قال: أفتقول؟ قال: إنما يقول الأمير، قال: أفتتكلم؟ قال: كل متكلم، قال: أفتنطق؟ قال: إنما ينطق كتاب الله، قال: أتسمع؟ قال: حدثني أسمع، قال: أفتسجع؟ قال: قال إنما تسجع الحمامة، قال الأعرابي: تالله ما رأيت كاليوم قط، قال: بلى ولكنك نسيت، قال الأعرابي: فكيف أقول؟ قال: لا أدري والله، قال الأعرابي: كيف ترى فرسي هذه؟ قال الغضبان: هو خير من آخر شر منه وآخر خير منه أفره منه، قال الأعرابي: إني قد علمت ذلك، قال: لو علمت لم تسألني، قال، قال الأعرابي: إنك لمنكر، قال الغضبان: إنك لمعروف. قال: ليس ذاك أريد، قال: فما تريد؟ قال: أردت إنك لعاقل قال: أفتعقل بعيرك هذا؟ قال الأعرابي: أفتأذن لي فأدخل عليك؟ قال الغضبان: وراؤك أوسع لك، قال الأعرابي: قد أحرقتني الشمس، قال: الساعة يفيء عليك الفيء، قال الأعرابي: إن الرمضاء قد آذتني، قال: بل على قدميك، قال قد أوجعني الحر، قال الغضبان: ما لي عليه سلطان، قال الأعرابي: إني لا أريد طعامك ولا شرابك، قال: لا تعرض بهما فوالله لا تذوقهما، قال الأعرابي: سبحان الله، قال: من قبل أن تطلع رأسك، قال الأعرابي: أما عندك إلا ما أرى؟ قال: بلى، هراوتان أضرب بهما رأسك، فقال الأعرابي: الله، قال: ظلمك أحد؟ فلما رأى الأعرابي ذلك قال: إني لأظنك مجنوناً، قال الغضبان: اللهم اجعلني ممن يرغب إليك، قال: إني لأظنك حرورياً، قال: اللهم اجعلني ممن يتخير الخير، ثم قال: له الغضبان: أهذا بعيرك يا أعرابي؟ قال: نعم: فما شأنه؟ أرى فيه داء فله أنت بائعه ومشتر ما هو شر منه، فولى الأعرابي وهو يقول: والله إنك لمرح أحمق. فلما قدم الغضبان على الحجاج

قال: كيف تركت أرض كرمان؟ قال: أصلح الله الأمير، أرض ماؤها وشل، وثمرها دقل ولصها بطل، فالجيش فيها ضعاف، إن كثروا فيها جاعوا، وإن قلوا بها ضاعوا، فقال الحجاج له: أما إنك صاحب الكلمة التي بلغتني عنك حين قلت تغد بالحجاج قبل أن يتعشى بك؟ قال الغضبان: أما إنها - جعلني الله فداءك - لم تنفع من قيلت له، ولا تضر من قيلت فيه، فأمر الحجاج به إلى السجن، فلما ذهب مكث فيه حتى إذا بنى الحجاج خضراء واسط أعجبته كما لم يعجبه بناء قط فقال لمن حوله: كيف ترون قبتي هذه؟ قالوا: أصلح الله الأمير، ما بنى ملك قط مثلها، وما نعلم للعرب مأثرة أفضل منها، قال الحجاج: أما إن لها عيباً، سأبعث إلى من يخبرني به فبعث إلى الغضبان فأقبل يرسف في قيده، فلما دخل عليه سلم، فقال الحجاج: كيف ترى قبتي هذه؟ قال: أصلح الله الأمير هذه قبة بنيت في غير بلدك لغير ولدك، لا يسكنها وارثك ولا يدوم لك بقاؤها كما لم يئيم هالك ولم يبق فان، وأما هي فكأن لم تكن، قال: صدقت، ردوه إلى السجن فإنه صاحب الكلمة التي بلغتني عنه، قال: أصلح الله الأمير، ما ضرت من قيلت فيه ولا نفعت من قيلت له، قال: أتراك تنجو مني لأقطعن يديك ورجليك ولأكوين عينيك، قال: ما يخاف وعيدك البريء ولا ينقطع منك رجاء المسيء، قال: لأقتلنك إن شاء الله، قال: بغير نفس، والعفو أقرب للتقوى، قال له الحجاج: إنك لسمين، قال: لمكان القيد والرتعة ومن يكن جار الأمير يسمن. قال الحجاج ردوه إلى السجن، قال: أصلح الله الأمير قد أثقلني الحديد فما أطيق المشي، قال: احملوه لعنه الله، فلما حملته الرجال على عواتقها قال: " سبحان الذي يخر لنا هذا وما كنا له مقرنين "، قال: أنزلوه أخزاه الله، قال:{أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾} [المؤمنون: ٢٩]، قال: جروه أخزاه الله،

قال:{بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [هود: ٤١]، قال: ويحكم، اتركوه فقد غلبني بخبثه. أثقلني الحديد فما أطيق المشي، قال: احملوه لعنه الله، فلما حملته الرجال على عواتقها قال:؟؟؟ سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين "، قال: أنزلوه أخزاه الله، قال:{رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ} [المؤمنون: ٢٩]، قال: جروه أخزاه الله، قال:{بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [هود: ٤١]، قال: ويحكم، اتركوه فقد غلبني بخبثه(١).

عبد الملك ورد الحجاج عليه:

قال أبو عبية: لما قتل الحجاج ابن الأشعث وصفت له العراق قدم قيساً واتسع له في إنفاق الأموال، فكتب إليه عبد الملك: أما بعد، فقد بلغ أمير المؤمنين أنك تنفق في اليوم ما لا ينفق أمير المؤمنين في الأسبوع، وتنفق في الأسبوع ما لا ينفقه أمير المؤمنين في الشهر، عليك بتقوى الله في الأمر كله وكن لوعيده تخشى وتضرع، ووفر خراج المسلمين وفيأهم، وكن لهم حصناً يجير ويمنع، فكتب إليه الحجاج:

لعمري لقد جاء الرسول بكتبكم ::: قراطيس تملي ثم تطوى فتطبع
كتاب أتاني فيه لين وغلظة ::: وذكرت والذكرى لذي اللب تنفع
وكانت أمور تعتريني كثيرة ::: فأرضخ أو أعتل حيناً فأمنع
إذا كنت سوطاً من عذاب عليهم ::: ولم يك عندي في المنافع مطمع
أيرضى بذاك الناس أم يسخطونه ::: أم أحمد فيهم أم ألام فأقدع
وكانت بلاداً جئتها حيث جئتها ::: بها كل نيران العداوة تلمع
فقاسيت فيها ما علمت ولم أزل ::: أصارع حتى كدت بالموت أصرع
فكم أرجفوا من رجفة قد سمعتها ::: ولو كان غيري طار مما يروع

(١) الجليس الصالح والأنيس الناصح،ص ٨٢.

وكنت إذا هموا بإحدى هناتهم ::: حسرت لهم رأسي ولا أتقنع
فلو لم يذد عني صناديد منهم ::: تقسم أعضائي ذئاب وأضبع

فكتب إليه عبد الملك: اعمل برأيك(١).

الحجاج يؤمن الناس إلا أربعة:

عن عبيد الله بن عبد الله بن فضالة الزهراني، قال: نادى منادي الحجاج بن يوسف يوم رستقا باذ: آمن الناس كلهم إلا أربعة: عبد الله ابن الجارود وعبد الله بن فضالة وعكرمة بن ربعي وعبد الله بن زياد بن ظبيان، قال: فأتى برأس عبد الله بن الجارود فلم يصدق فرحاً به، وقال: عمموه لي أعرفه فإني لم أره قط إلا معمماً فعمم له فعرفه، فأمر المنادي فنادى: أمن الناس إلا ثلاثة: عبد الله بن فضالة وعبيد الله بن زياد بن ظبيان وعكرمة بن ربعي، فأما عبيد الله بن زياد فإنه انطلق إلى عمان فأصابه الفالج بها فمات، وأما عكرمة بن ربعي فإنه لحقته خيل الحجاج في بعض سكك المربد فعطف عليهم فقتل منهم نيفاً وعشرين رجلاً ثم قتلوه، وأما عبد الله بن فضالة فإنه أتى خراسان فلم يزل بها حتى ولي المهلب خراسان فأمر بأخذه حيث أصابه، وقيل له: أكن ذلك ولا تبده فيحذر ويحرز فاحرص على أسره دون قتله، قال: فبعث المهلب ابنه حبيباً أمامه فساق من سوق الأهواز إلى مرو على بغلة شهباء في سبع عشرة ليلة فأخذه غارا بمرور وهو لا يشعر، ثم كتب إلى الحجاج يعلمه ذلك، فجاء المغيرة بن المهلب إلى منزل حبة ابنة الفضل، امرأة عبد الله بن فضالة وهي ابنة عم عبد الله، فأرسل إليها أن حبيباً قد أخذ عبد الله، وقد كتب إلى الحجاج يعلمه بذلك، فإن كان عندك خير فشأنك وعولي على من المال ما بدا لك، فأرسلت إليه: لا ولا كرامة، تقتلونه وآخذ منكم

(١) الجليس الصالح والأنيس الناصح،ص ٨٢.

المال، هذا ما لا يكون، فتحولت إلى منزل أخيها لأمها خولى بن مالك الراسبي وأرسلت إلى بني سعد فاشترى لها باب عظيم وألقته على الخندق ليلاً ثم جازت عليه فغشي عليها، فلما أفاقت قالت: إني لم أكن أتعب، فمتى أصابني هذا فشدوني وثاقاً ثم سيروا بي، فخرجت مع خادمها وغلامها ودليلها، لا يعلم بها أحد، فسارت حتى دخلت دمشق على عبد الملك بن مروان، فأتت أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان، وكانت أمها بنت ذؤيب بن حلحلة الخزاعي، قالت: يا أم أيوب قصدتك لمر بهظني وغم كظمني وأعلمتها الخبر وقصت عليها القصة، فقالت أم أيوب: قد:كنت أسمع أمير المؤمنين يكثر ذكر صاحبك ويظهر التلظي عليه، قالت: وأين رحلتي إليك؟ قالت: سأدخلك مدخلاً وأجلسك مجلساً إن شفعت ففيه، وإن رددت فلا تنصبي، فلا شفاعة لك بعده فأجلستها في مجلسها الذي كانت تجلس فيه لدخول عبد الملك ليلاً، وجلست أم أيوب قريباً منها فقالت لها: إذا دخل فشأنك، فدخل عبد الملك ليلاً مغتراً، فلما دنا أخذت بجانب ثوبه ثم قالت: هذا مكان العائذ بك يا أمير المؤمنين، ففزع عبد الملك وأنكر الكلام، فقالت أم أيوب: ما يفزعك يا أمير المؤمنين من كرامة ساقها الله عز وجل إليك! فقال:عذت معاذاً، فمن أنت؟ قالت: تؤمن يا أمير المؤمنين من جئتك فيه من كان من خلق الله تعالى ممن تعرف أو لا تعرف، ممن عظم ذنبه لديك أو صغر شامياً أو عراقياً أو غير ذلك من الآفاق؟ قال: نعم، هو آمن، قالت:بأمان الله عز وجل ثم أمانك يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، فمن هو أيتها المرأة؟ قالت: عبد الله بن فضالة، قال: أرسلي ثوبي أنبئك عنه، قالت: أغدراً يا بني مروان؟ قال: لا، أرسلي ثوبي أحدثك ببلائك عنده، وهو أمن لك ولمعاذك قالت: فحدثني يا أمير المؤمنين ببلائك عنده، قال: ألم تعلمي

أني وليته السوس وجندي سابور وأقطعته كذا وكذا وفرضت له كذا ونوهت بذكره ورفعت من قدره؟ قالت: بلى والله يا أمير المؤمنين، أفلا أحدثك ببلائه عندك؟ قال: بلى، قالت: أتعلم يا أمير المؤمنين أن داره هدمت ثلاث مرات بسببك لا يستتر من السماء بشيء، قال: نعم، قالت: أفتعلم يا أمير المؤمنين أنك كتبت إلى وجوه أهل البصرة وأشرافها وكتبت إليه فلم يكن منهم أحد أجابك ولا أطاعك غيره، قال: نعم قالت: أفتعلم أنه كان قبل زلته سيفاً لك على أعدائك وسلماً وبساطاً لأوليائك قال: نعم، حسبك قد أجبت وأبلغت، قالت: أفيذهب يوم من إساءته بصالح أيامه وطاعته وحسن بلائه، قال: لا، هو آمن، قالت: يا أمير المؤمنين إنه الدما وإنه الحجاج وإنه إن رآه قتله، قال: كلا، قالت: فالكتاب مع البريد يا أمير المؤمنين، قال: فكتب لها كتاباً مؤكداً: إياك وإياه أحسن جائزته ورفده وخل سبيله، ثم وجه به مع البريد، ثم أقبل عليها فقال:ما أنت منه؟ قالت: امرأته وابنة عمه، قال: فضحك وقال: أين نشأت، قالت: في حجر أبيه، قال: فوالله لأنت أعرب منه وأفصح لساناً، فهل معه غيرك؟ قالت:نعم، ابنة عبيد بن كلاب، قال: النميري قالت: نعم، وكذا وكذا جارية، قال: فأنا أوليك طلاقها وعتق جواريه، قالت: بل تهنيه نساءه كما هنأته دمه، فأقبل على أم أيوب فقال لها: يا أم أيوب لا نساء إلا بنات العم. ثم قال: أقيمي عند أم أيوب حتى يأتيك الكتاب بمحبتك إن شاء الله، وقدم الكتاب وقد قدم به على الحجاج من خراسان، فأقامه للناس في سراويل وقد كان نزع ثيابه قبل ذلك وعرضه على الناس في الحديد ليعرفوه، فلما أمسى دعا به الحجاج فقال له عبد الله: أتأذن لي في الكلام؟ قال: لا كلام سائر اليوم، قال: فكساه وحمله وأجازه وخلى سبيله، وانصرف إلى أهله فسألهم عن حبة، فأخبر بأمرها وقيل له:

ما ندري أين توجهت، ثم بلغه ما صنعت، فكتب إليها: إنك قد صنعت ما لم تصنع أنثى فأعلميني بمقدمك أتلقاك ويتلقاك الناس معي، فلم تعلمه حتى قدمت ليلاً وهو عند ابنة عبيد بن كلاب، فقالت: لا والله لا يؤذن بي الليلة، فلما أصبح، أخبر بمكانها فأتاها[١].

الوليد يوافق الحجاج على عسفه بآل المهلب:

قال الأصمعي: كتب الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك يذكر عسفه آل المهلب ومطالبته إياهم بما اختانوا من الأموال، فوقع في كتابه بخطه: ليس للخائن حرمة تبعث الأحرار عن ترفيههم، فإياك وتضييع حق قد وجب، وأمانة مال خطير يزين الدولة ويحصن الخلافة، ويؤخذ من خائن لم يشكر عليه، ويدفع إلى ناصح يحتاج إليه، فلما قرأ الحجاج كتابه أنشأ يقول متمثلاً بشعر من بني كلاب:

وإني لصوان لنفسي وإنني ::: على الهول أحياناً بها لرحوم
وإني لأزري في خلال كثيرة ::: على المرء أن يختال وهو لئيم[٢]

نتيجة الرفق ونتيجة التعذيب:

عن أبي المضرحي، قال: أمر الحجاج محمد بن المنتشر بن أخي مسروق بن الأجدع أن يعذب أزداد مرذ بن الهربز، فقال أزداد مرذ: يا محمد! إن لك شرفاً قديماً، وإن مثلي لا يعطى على الذل شيئاً، فاستأد وارفق بي، فاستأدى في جمعة ثلاثمائة ألف، فغضب الحجاج وأمر معبداً صاحب العذاب أن يعذبه فدق يديه ورجليه فلم يعطهم شيئاً، قال: فإني لأسير بعد ثلاثة أيام إذ أنا بأزداد مرذ معترضاً على بغل قد دقت يداه ورجلاه، فقال: يا محمد! فكرهت أن آتيه فيبلغ الحجاج، وتذممت من تركه إذ دعاني، فدنوت منه فقتل: حاجتك؟

(١) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ٨٧ - ٨٨.
(٢) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ١١١.

فقال: إنك قد وليت مني مثل هذا فأحسنت إلي، ولي عند فلانة مائة ألف درهم، فانطلق فخذها، فقلت: لا والله لا آخذ درهماً وأنت على هذه الحال، قال: فإني أحدثك حديثاً سمعته من أهل دينك، يقولون: إذا أراد الله بالعباد خيراً أمطرهم في أوانه، واستعمل عليهم خيارهم، وجعل المال عند سمحائهم، وإذا أراد بهم شراً أمطروا في غير أوانه، واستعمل عليهم شرارهم، وجعل المال في أشحائهم. ومضى وأتيت منزلي فما وضعت ثيابي حتى جاءني رسول الحجاج، فأتيته وقد اخترط سيفه فهو في حجره، فقال: ادنُ، فدنوت قليلاً، ثم قال: ادن، فقلت: ليس بي دنو، وفي حجر الأمير ما أرى، فأضحكه الله تعالى لي وأغمد السيف فقال: ما قال لك الخبيث، فقلت: والله ما غششتك منذ استنصحتني، ولا كذبتك مذ صدقتني، ولا خنتك منذ ائتمنتني، وأخبرته بما قال: فلما أردت ذكر الرجل الذي عنده المال صرف وجهه، وقال لا تسمه، ثم قال: لقد سمع عدو الله الأحاديث(١).

يصارح الحجاج برأيه في أخيه:

قال محمد بن الحسن بن دريد: بلغني أن طاوساً كان يقول: بينا أنا جالس مع الحجاج بمكة إذ مر رجل يلبي حول البيت، فرفع صوته بالتلبية، فقال الحجاج: علي بالرجل، فأتي به، قال: ممن الرجل؟ قال: من المسلمين، فقال: ليس عن هذا سألتك، قال: فعم سألت، قال: عن البلد، قال: من أهل اليمن، قال: كيف تركت محمد بن يوسف؟ قال: تركته عظيماً جسيماً، ركاباً خراجاً ولاجاً، قال: ليس عن هذا سألتك، قال: فعم سألت؟ قال: عن سيرته؟ قال: تركته ظلوماً غشوماً، مطيعاً للمخلوق، عاصياً للخالق، قال: فما الذي حملك على بهذا فيه، وأنت تعرف مكانه مني؟ قال: أتراه مكانه منك أعز بمكاني من الله عز

(١) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ١٢٣.

وجل وأنا قاضي دينه، ووافد بيته، ومصدق نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، فسكت الحجاج فما أحار جواباً، وقام الرجل فدخل الطواف.

فاتبعته فإذا هو في الملتزم، وهو يقول: اللهم إني أعوذ بك، اللهم فاجعل لي في الكهف إلى جودك، والرضا بضمانك، مندوحةً عمن سواك الباخلين، وغنىً عما في أيدي المستأثرين، اللهم فرجك القريب، ومعروفك القديم، وعادتك الحسنة، فلما كان عشية عرفة، رأيته واقفاً على الموقف فدنوت منه، فسمعته يقول: اللهم إن كنت لم تقبل حجي وتعبي ونصبي، فلا تحرمني الأجر على مصيبتي بتركك القبول مني، قال: فلما كان غداة جمع أفاض مع الناس، فسمعته يقول: يا سوءتاه منك يا رب وإن غفرت.

ثم لم أره بعد ذلك(١).

الحجاج يكثر الخير في البيوت:

عن الهيثم بن الربيع، قال: قال الحجاج: إني لا أرى الناس قد قلوا على موائدي فما بالهم؟ فقال له رجل من عرض الناس: أصلح الله الأمير، إنك أكثرت خير البيوت فقل غشيان الناس لطعامك، فقال: الحمد لله وبارك الله عليك، من أنت؟ قال: أنا الصلت بن قران العبدي، فأحسن إليه(٢).

علمته الحياة:

عن الأصمعي، قال: مثل فتى بين يدي الحجاج، فقال: أصلح الله الأمير، مات أبي وأنا حملٌ، وماتت أمي وأنا رضيع، فكفلني الغرباء حتى ترعرعت، فوثب بعض أهلي على مالي فاجتاحه، وهو هاربٌ

(١) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ١٣٦.
(٢) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ٢٠١.

مني ومن عدل الأمير. فقال الحجاج: الله! مات أبوك وأنت حمل وماتت أمك وأنت رضيع وكفلك الغرباء، فلم يمنعك ذلك من أن فصح لسانك، وأنبأت عن إرادتك! اطردوا المؤدبين عن أولادي[1].

ويحك أُخبرته؟

أتى الحجاج برجلين من الخوارج، فقال لأحدهما: ما دينك؟ قال: دين إبراهيم حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين، فقال: يا حرسي! اضرب عنقه، ثم قال للآخر: أنت ما دينك؟ قال: دين الشيخ يوسف بن الحكم - يعني أبا الحجاج - قال: ويحك أخبرته؟ لقد كان صواماً قواماً، يا حرسي! خل عنه، فقال: ويحك يا حجاج! أشقيت نفسك واثمت بربك، قتلت رجلاً على دين إبراهيم عليه السلام، قال الله تعالى:{وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ} [البقرة: ١٣٠]، فقال: أبيت، يا حرسي! اضرب عنقه، فانطلق به فأنشأ يقول:

سبحان رب قد يرى ويسمع ::: وقد مضى في علمه ما تصنع
ولو يشا في ساعةٍ بل أسرع ::: فيرسلن عليك ناراً تسطع

فيترك السرير منك بلقع

فضربت عنقه[2].

قصة جحدر اللص والحجاج والأسد:

عن أبي عبد الله محمد بن زياد الأعرابي قال: بلغني أنه كان رجل من بني حنيفة يقال له: جحدر بن مالك فتاكاً شجاعاً قد أغار على أهل حجرٍ وناحيتها، فبلغ ذلك الحجاج بن يوسف، فكتب إلى عامله باليمامة يوبخه بتلاعب جحدر به، ويأمره بالاجداد في طلبه والتجرد

(١) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ٢٠٧.
(٢) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ٢٢١.

في أمره؛ فلما وصل الكتاب إليه أرسل إلى فتيةٍ من بني يربوع من بني حنظلة، فجعل لهم جعلاً عظيماً إن هم قتلوا جحدراً أو أتوا به أسيراً، فانطلق الفتية حتى إذا كانوا قريباً منه أرسلوا إليه أنهم يريدون الانقطاع إليه والتحرز به، فاطمأن إليهم ووثق بهم، فلما أصابوا منه غرةً شدوه كتافاً وقدموا به على العامل، فوجه به معهم إلى الحجاج وكتب يثني عليهم خيراً، فلما أدخل على الحجاج قال له: من أنت؟ قال: أنا جحدر بن مالك، قال: ما حملك على ما كان منك؟ قال: جرأة الجنان، وجفاء السلطان، وكلب الزمان، فقال له الحجاج: وما الذي بلغ منك فيجترى جنانك ويجفوك سلطانك ويكلب زمانك؟ قال: لو بلاني الأمير أكرمه الله لوجدني من صالح الأعوان وبهم والفرسان، ولوجدني من أنصح رعيته، وذلك أني مالقيت فارساً قط إلا كنت عليه في نفسي مقتدرًا، قال له الحجاج: إنا قاذفون بك في حائرٍ فيه أسد عاقر ضارٍ فإن هو قتلك كفانا مؤونتك، وإن أنت قتلته خلينا سبيلك؛ قال: أصلح الله الأمير، عظمت المنة، وأعطيت المنية، وقويت المحنة، فقال الحجاج: فإنا لسنا بتاركيك لتقاتله إلا وأنت مكبل بالحديد، فأمر به الحجاج فغلت يمينه إلى عنقه وأرسل به إلى السجن. فقال جحدر لبعض من يخرج إلى اليمامة: تحمل عني شعراً، وأنشأ يقول:

ألا قد هاجني فازددت شوقاً ::: بكاء حمامتين تجاوبان
تجاوبتا بلحن أعجمي ::: على غصنين من غرب وبان
فقلت لصاحبي وكنت أحزو ::: ببعض الطير ماذا تحزوان
فقالا الدار جامعة قريب ::: فقلت بل انتما متمنيان
فكان البان أن بانت سليمى ::: وفي الغرب اغتراب غير داني
أليس الليل يجمع أم عمرو ::: وإيانا فذاك بنا تداني

بلى وترى الهــلال كمــا نــراه ::: ويعلوهــا النــهار إذا عــلاني
إذا جاوزتمــا نخــلات حجــر ::: وأوديــة اليمامــة فانعيــاني
وقــولا جحــدر أمســى رهينــاً ::: يحــاذر وقــع مصــقول يمــاني

قال: وكتب الحجاج إلى عامله بكسكر أن يوجه إليه بأسدٍ ضارٍ عاتٍ ويجر على عجل؛ فلما ورد كتابه على العامل امتثل أمره، فلما ورد الأسد على الحجاج أمر به فجعل في حائرٍ وأجيع ثلاثة أيام، وأرسل إلى جحدر فأتي به من السجن ويده اليمنى مغلولة إلى عنقة، وأعطي سيفاً والحجاج وجلساؤه في منظرةٍ لهم، فلما نظر جحدر إلى الأسد أنشأ يقول:

ليــث وليــث في محــلٍ ضــنك ::: كلاهمــا ذو أنــفٍ ومحــك
وشــدةٍ في نفســه وفتــك ::: إن يكشــف الله قنــاع الشــك
أو ظفــر بحــاجتي ودركــي ::: فهــو أحــق مــنزل بتــرك

فلما نظر إليه الأسد زأر زأرة شديدة وتمطى وأقبل نحوه، فلما صار منه على قدر رمح وثب وثبة شديدةً، فتلقاه جحدر بالسيف فضربه ضربةً حتى خالط ذباب السيف لهواته، فخر الأسد كأنه خيمة قد صرعتها الريح، وسقط جحدر على ظهره من شدة وثبة الأسد وموضع الكبول، فكبر الحجاج والناس جميعاً،وأنشأ جحدر يقول:

يا جمل إنك لــو رأيــت كــريهتي ::: في يوم هولٍ مسدف (٣) وعجــاج
وتقدمي لليث أرســف (١) موثقــاً ::: كيمــا أثــاوره علــى الإحــراج
شــن براثنــه (٢) كــأن نيوبــه ::: زرق المعاول أو شــباة(٤) زجــاج
يسمو بنــاظرتين تحســب فيهمــا ::: لمــا أحــدهما شــعاع ســراج

(١) والرسف: مشي المقيد.
(٢) والبراثن: مخالب الأسد.
(٣) مسدف: مظلم من السدفة.
(٤) والشبا والشباة: حد الأسنة.

وكأنما خيطت عليه عباءة ::: برقاء[١] أو خرق من الديباج
لعلمت أني ذو حفاظٍ ماجد ::: من نسل أقوام ذوي أبراج

ثم التفت إلى الحجاج فقال:

ولئن قصدت بي المنية عامداً ::: إني بخيرك بعد ذاك لراجي

ويروى: إني لخيرك يا ابن يوسف راج.

علم النساء بأنني لا أنثني ::: إذ لا يثقن بغيرة الأزواج
وعلمت أني إن كرهت نزاله ::: أني من الحجاج لست بناج

فقال له الحجاج: إن شئت أسنينا عطيتك، وإن شئت خلينا سبيلك، قال: لا، بل اختار مجاورة الأمير، أكرمه الله. ففرض له ولأهل بيته وأحسن جائزته[٢].

إهانة الحجاج لأنس وما نجم عنها:

عن عوانة بن الحكم الكلبي قال: دخل أنس بن مالك على الحجاج ابن يوسف، فلما وقف بين يديه سلم عليه فقال أيها يا أنيس، يوم لك مع علي، ويوم لك مع ابن الزبير، ويوم لك مع ابن الأشعث، والله لأستأصلنك كما تستأصل الشأفة، ولأقلعنك كما تقلع الصمغة، فقال أنس: إياي يعني الأمير أصلحه الله؟ فقال: إياك سك الله سمعك [٣]، قال أنس: إنا لله وإنا إليه راجعون، والله لولا الصبية الصغار ما باليت أي قتلةٍ قتلت ولا أي ميتةٍ مت. ثم خرج من عند الحجاج فكتب إلى عبد الملك بن مروان يخبره بذلك، فلما قرأ عبد الملك كتاب أنس استشاط غضباً وصفق عجباً، وتعاظمه ذلك من الحجاج. وكان كتاب أنس بن مالك إلى عبد الملك بن مروان: بسم الله الرحمن الرحيم إلى

(١) البرقاء التي فيها سواد وبياض.
(٢) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ٢٩٥، ٢٩٦.
(٣) سك الله سمعك يقال: استكت الأذنان واصطكت الركبتان.

عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من أنس بن مالك، أما بعد، فإن الحجاج قال لي هجراً، وأسمعني نكراً، ولم أكن لذلك أهلاً، فخذ لي على يديه فإني أمت بخدمتي رسول الله وصحبتي إياه، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

فبعث عبد الملك إلى إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر، وكان مصادقاً للحجاج، فقال له: دونك كتابي هذين فخذهما واركب البريد إلى العراق، فأبدأ بأنس بن مالك صاحب رسول الله فادفع كتابه إليه وأبلغه مني السلام وقل له: يا أبا حمزة قد كتبت إلى الحجاج الملعون كتاباً إذا قرأه كان أطوع لك من أمتك. وكان كتاب عبد الملك إلى أنس بن مالك: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى أنس بن مالك خادم رسول الله ، أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت من شكاتك للحجاج، وما سلطته عليك ولا أمرته بالإساءة إليك، فإن عاد لمثلها فاكتب إلي بذلك أنزل به عقوبتي، وتحسن لك معونتي، والسلام، فلما قرأ أنس بن مالك كتابه وأخبر برسالته قال: جزى الله أمير المؤمنين عني خيراً وعافاه وكافأه عني بالجنة، فهذا كان ظني به والرجاء منه. فقال إسماعيل بن عبد الله لأنس: يا أبا حمزة إن الحجاج عامل أمير المؤمنين وليس بك عنه غنى ولا بأهل بيتك، ولو جعل لك في جامعةٍ ثم دفع إليك لقدر أن يضر وينفع، فقاربه وداره، فقال أنس: أفعل إن شاء الله. ثم خرج إسماعيل من عنده فدخل على الحجاج، فلما رآه الحجاج قال: مرحباً برجلٍ أحبه وكنت أحب لقاءه، فقال له إسماعيل: وأنا والله كنت أحب لقاءك في غير ما أتيتك به، قال: وما أتيتني به؟ قال: فارقت أمير المؤمنين وهو أشد الناس عليك غضباً ومنك بعداً، قال: فاستوى الحجاج جالساً مرعوباً فرمى إليه إسماعيل بالطومار، فجعل الحجاج

ينظر فيه مرة ويعرق وينظر إلى إسماعيل أخرى، فلما نفضه قال: قم بنا إلى أبي حمزة نعتذر إليه ونترضاه، فقال له إسماعيل: لا تعجل، قال: كيف لا أعجل وقد أتيتني بآبدةٍ؟ وكان في الطومار: إلى الحجاج بن يوسف: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى الحجاج بن يوسف: أما بعد، فإنك عبد طمت بك الأمور فسموت فيها وعدوت طورك، وجاوزت قدرك، وركبت داهية إداً، وأردت أن تبورني، فإن سوغتكها مضيت قدماً، وإن لم أسوغها رجعت القهقرى، فلعنك الله عبداً أخفش العينين منقوص الجاعرتين، أنسيت كاسب آبائك بالطائف وحفرهم الآبار ونقلهم الصخور على ظهورهم في المناهل يا ابن المستفرمة بعجم الزبيب؟! (١)والله لأغمزنك غمز الليث الثعلب والصقر الأرنب، وثبت على رجل من أصحاب رسول الله بين أظهرنا فلم تقبل له أحسانه ولم تجاوز له إساءته، جرأةً منك على الرب عز وجل، واستخفافاً منك بالعهد، والله لو أن اليهود والنصارى رأت رجلاً خدم عزير بن عزرة وعيسى بن مريم لعظمته وشرفته وأكرمته، فكيف وهذا أنس بن مالك خادم رسول الله خدمه ثماني سنين يطلعه على سره ويشاوره في أمره، ثم هو مع هذا بقية من بقايا أصحابه، فإذا قرأت كتابي هذا فكن أطوع له من خفه ونعله، وإلا أتاك مني سهم

(١) يا ابن المستفرمة بعجم الزبيب: كانت المراة تستعمل عجم الزبيب لتضيق قبلها في ما ذكر بعض أهل العلم وهو حبه، والنوى كله يقال له عجم واحدته عجمة، قال الأعشى:

مقادك بالخيل أرض العدو ::: وجذعانها كلقيط العجم

قيل: صارت من صلابتها مثل النوى. وقال أبو عبيدة: عجم عجماً أي ليك لأنه نوى الفم فهو أصلب ليس بنوى خل ولا نبيذٍ فهو أصلب وأملس، وإنما أرارد صلابتها وضمرها، ولقيط أراد ملقوط مثل جريح ومجروح، ويروى كلفيظ العجم أي ملفوظ ملقى.

مثكل بحتفٍ قاضٍ و:{لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾} [الأنعام: ٦٧] (١).

وفادة جرير على الحجاج:

عن أبي الذيال السلولي قال حدثني جرير قال: وفدت على الحجاج بن يوسف في سفرةٍ تسمى سفرة الأربعين، فأعطاني أربعين راحلة ورعاءها وحشو حقائبها القطائف والأكسية، كسوةً لعيالي، وأوقرها حنطة ثم خرجت فلما شددت على راحلتي كورها وأنا أريد المضي جائني خادم فقال: أجب الأمير، فرجعت معه، فدخلت على الحجاج، فإذا هو قاعد على كرسي، وإذا جارية قائمة تعممه بعمامة فقلت: السلام عليك أيها الأمير فقال: هات قل في هذه، فقلت: بأبي وأمي تمنعني هيبة الأمير وإجلاله، وأفحمت فما أدري ما أقول، فقال: بل هات قل فيها، فقلت: بأبي وأمي فما اسمها؟ قال: أمامة، فلما أمامة فتح علي فقلت:

ودع أمامة حان منك رحيل ::: إن الوداع لمن تحب قليل
تلك القلوب صوادياً تيمتها ::: وأرى الشفاء وما إليه سبيل

فقال: بل إليه سبيل، خذ بيدها فجبذبتها (٢) فتعلقت بالعمامة وجبذتها حتى رأيت عنق الحجاج قد صغت ومالت مما جبذتها، وتعلق بالعمامة، قال: ويخطر ببالي بيت من شعر فقلت:

إن كان طبكم (٣) الدلال فإنه ::: حسن دلالك يا أميم جميل

فقال الحجاج: إنه والله ما بها دلال ولكن بها بغض وجهك وهو أهل ذلك، خذها بيدها جرها، فلما سمعت ذلك منه خلت العمامة. وخرجت بها فكنيتها أم حكيم وجعلتها تقوم على ودي لي وعمالي وتعطيهم

(١) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ٣١٧.
(٢) جبذتها وأجبذها بمعنى جذبتها وأجذبها، تقول جبذته أجبذه جبذاً، وجذبته أجذبه جذباً.
(٣) يعني الخلق والطبع.

نفقاتهم بقريةٍ يقال لها الغنية من قرى الوشم حتى نفد الودي. قال طلحة: فأخبرني الزبير قال، قال محمد بن أيوب: وسمعت حجناء ابن نوح يقول: كانت والله مباركةً[١].

سمرة الخارجي والحجاج:

قال الشرقي بن القطامي: كان سمرة بن الجعد من قعد الأزارقة، غير أنه لم يكن يعرف بذلك، وكان قد وقعت له من الحجاج منزلةٌ حتى كان يدخله في سمره، فلما سار قطريّ بن الفجاءة إلى جيرفت كتب إلى سمرة بن الجعد يعيّره مقامه عنهم وركونه إلى الدنيا، وكان في كتابه إليه:

لشتَّان ما بين ابن جعدٍ وبيننا ::: إذا نحن رحنا في الحديد المظاهر
نجالد فرسان المهلَّب كلُّنا ::: صبورٌ على وقع السيوف البواتر
وراح يجرُّ الخزَّ نحو أميره ::: أمير بتقوى ربِّه غير آمر
أبا الجعد أين الحلم والعلم والتقى ::: وميراثُ آباء كرام العناصر
ألم تر أن الموت لابدَّ نازلٌ ::: ولا بدَّ من بعثٍ الألى في المقابر
حفاةً عراةً والثواب لديهم ::: فمن بين ذي ربحٍ وآخر خاسر
فسر نحونا إنَّ الجهاد غنيمةٌ ::: تفدك ابتياعاً رابحاً غير بائر

فلما قرأ كتابه لحق بهم وكتب إلى الحجاج:

فمن مبلغ الحجاج أنّ سميرةً ::: قلى كلّ دينٍ غير دين الخوارج

قال القاضي: يجوز " كلَّ دين غير " خفضاً ونصباً، الخفض على الصفة لدينٍ والنصب على الصفة لكلّ وعلى الاستثناء.

رأى الناس إلا من رأى مثل رأيهم ::: ملاعين ترّاكين قصد المخارج
فإنّي امرؤأي يا بن يوسفٍ ::: ظفرت به لو نلت علم الولائج[٢]

(١) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ٣٤٧.
(٢) " علم الولائج " أي الدخائل من ولج أي دخل، قال الله عز وجل: ؟؟؟ولم يتخذوا من

إذاً لرأيــت الحــقَّ منــه مخالفــاً ::: لرأيك إذ كنت امرءاً غير فــالج[1]
فأقبلــت نحــو الله بــالله واثقــاً ::: وما كربتي غــير الإلــه بفــارج
إلى قطــريّ في الشــراة معارجــاً ::: ولست إلى غير الشّــراة بعــارج
إلى عصــبةٍ أمــا النــهار فــالهم ::: هم الأسد أسد البأس عند التهايج
وأما إذا ما الليــل جــنَّ فــالهم ::: قيامٌ كــأنواح النســاء النواشــج
ينــادون بــالتحكيم لله إنهــم ::: رأوا حكم عمروٍ كالرياح الهوائج
وحكم ابن قيسٍ قبل ذاك فأعصموا ::: بحبلٍ شديد الفتلً ليس بناهج[2][3]

قوة منطق الحجاج:

عن عوانة قال: خطب الحجاج الناس بالكوفة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أهل العراق، تزعمون أنّا من بقية ثمود، وتزعمون أني ساحر، وتزعمون أنَّ الله عزَّ وجل علّمني اسماً من أسمائه أقهركم به، وأنتم أولياؤه بزعمكم وأنا عدوه، فبيني وبينكم كتاب الله تعالى. قال عز وجلَّ:{ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ} [هود: ٦٦]، فنحن بقية الصالحين إن كنّا من ثمود. وقال جلّ وعز:{إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ} [طه: ٦٩]، والله أعدل في حكمه من أن يعلّم عدواً من أعدائه اسماً من أسمائه يهزم به أولياءه. ثم حمي من كثرة كلامه فتحامل على رمَّانة المنبر فحطمها، فجعل الناس يتلاحظون بينهم وهو ينظر إليهم، فقال: يا أعداء اللّه ما هذا الترامز؟

دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة " " التوبة: ١٦ " أي دخلة يستبطنونها تخالف ما يظهرونه من إيمانهم.

(١) غير فالج " : أي غير مصيب ظافر فائز قد فلجت حجّته.

(٢) " ليس بناهج " : أي ليس ببالٍ مخلق، يقال: قد أنهج البرد وغيره من الثياب إذا صار كذلك، كما قال سحيم عبد بني الحسحاس:

وما زال بــردي طيبــاً مــن ثيابهــا ::: إلى الحول حتى أنهــج الــبرد باليــا

(٣) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ٤٢٠.

أنا حديّا الظبي السانح والغراب الأبقع والكوكب ذي الذَّنب[١]، ثم أمر بذلك العود فأصلح قبل أن ينزل من المنبر[٢].

الحجاج وابن الحنفية وشكوى الثاني لعبد الملك:

قال محمد بن هشام السّعدي التميمي: خرج الحجاج بن يوسف وابن الحنفية من عند عبد الملك بن مروان، فلما صارا في الطريق قال الحجاج لمحمد بن الحنفية: لقد بلغني أن اباك كان إ ذا فرغ من القنوت يقول كلاماً حسناً أحببت أن أعرفه، فتحفظه؟ قال: لا، قال: سبحان الله، ما أوحش لقاءكم، وأفظع لفظكم، وأشدَّ خنزوانتكم، ما تعدُّون الناس إلا عبيداً، ولقد خضتم الفتنة خوضاً وقتلتم المهاجرين والنصار. فنظر إليه ابن الحنفية وأنكر لفظه وأحفظه، فوقف وسار الحجاج. ورجع ابن الحنفية إلى باب عبد الملك فقال للآذن: استأذن لي، فقال: ألم تكن عنده قبل وخرجت آنفاً، فما ردَّك وقد ارتفع أمير المؤمنين؟ قال: لست أبرح حتّى ألقاه. فكره الآذان غضب الخليفة فدخل عليه فقال: يا أمير المؤمنين، هذا محمد ابن الحنفية مستأذنٌ عليك، فقال: ألم يكن عندي قبل، لقد ردَّه أمرٌ، إيذن له. فلما دخل عليه تحلحل عن مجلسه كما كان يفعل فقال: يا أمير المؤمنين هذا الحجاج أسمعني كلاماً تكمَّشت له [٣]، وذكر أبي بكلام تقمّعت له [٤]،

(١) قول الحجاج: " أنا حديّا الظبي السانح والغراب الأبقع والكوكب ذي الذنب " فإنه أراد إنّا لثقتنا بالغلبة والاستعلاء، والإحاطة والاستيلاء، نتحدى ارتفاع الظبي سانحاً، وهو أحمد ما يكون في سرعته ومضائه، والغراب الأبقع في تحذره وذكائه، ومكره وخبثه ودهائه، وذا الذنب من الكواكب فيما ينذر به من عواقب مكروهه وبلائه، فقال الحجاج هذا مختال في غلوائه، ومرهب لمن بين ظهرانيه من أعدائه، والله ذو البأس الشّديد بالمرصاد له ولحزبه وأوليائه.

(٢) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ٤٢٣ - ٤٢٤.

(٣) تكمشت له " أي انقبضت منه، يقال لما تغضَّن وتشنّج من الفاكهة وغيرها قد تكمّش فهو متكمّش.

(٤) ذكر أبي بكلام تقمّعت له " يقال: قد تقمَّع الرجل وانقمع إذا انخزل وانكسر.

وما أحرت حرفاً، قال: فما قال لك حتّى أعمل على حبسه؟ قال: وكأنمّا تفقأ في وجهه الرمّان ونخسه شوك، فخبره عمّا سأله عنه، فقال لصاحب شرطته: عليَّ بالحجاج السّاعة. فأتاه في منزله حين خلع ثيابه فحمله حملاً عنيفاً، وانصرف ابن الحنفية. فجاء الحجاج فوقفه بالباب طويلاً ثم قال: إيذن له، فدخل فسلّم عليه، فقال له عبد الملك:

لا أنعم الله بعمرو عينا ::: تحية السُّخط إذا التقينا

يا لكع [1] وهراوة البقار[2]، ما أنت ومحمد ابن الحنفية؟! قال: يا أمير المؤمنين، ما كان إلاّ خيراً، قال: كذبت والله لهو أصدق منك وابرّ، ذكرته وذكرت أباه، فوالله ما بين لابتيها أفضل من أبيه؛ وما جرى بينك وبينه؟ قال: سألته يا أمير المؤمنين عن شيءٍ بلغني كان أبوه يقوله بعد القنوت، قال: لا أعرفه، فعلمت أن ذاك مقتٌ منه لنا ولدولتنا، فأجبته بالذي بلغك. فقال له عبد الملك: أسأت ولؤّمت، والله لولا أبوه وابن عمّه لكنّا حيارى ضلاّلاً، وما أنبت الشعر على رؤوسنا إلاّ الله عز وجل وهم، وما أعزّنا بما ترى إلا رحمهم وريحهم الطيبة، والله لا كلّمتك كلمةً أبداً، أو تجيئني بالرضا منه، وتسلَّ سخيمته. قال: فمضى الحجاج من فوره، فألفاه وهو يتغدّى مع أصحابه، قال: فاستأذن فأبى أن يأذن له، فقال له بعض أصحابه: أتى برسالة أمير المؤمنين، فأذن له، فقال: إن أمير المؤمنين أرسلني أن أسلَّ سخيمتك، وأقسم ألاّ يكلمني ابداً حتّى آتيه بالرضى منك، وأنا أحبُّ، برحمك من رسول الله ، إلاّ عفوت عمّا كان، وغفرت ذنباً إن

(١) وقول عبد الملك: " يا لكع " يريد يا عبد أو يا لئيم.
(٢) وقوله " " وهراوة البقار " يعني عصا الراعي التي يذود بها البقر، يريد أنّه لا يصلح إلا لأداني الأمور.

كان. فقال: قد فعلت على شريطة فتفعلها، قال: نعم، قال: على صرم الدهر. قال: ثم انصرف الحجاج فدخل على عبد الملك فقال: ما صنعت؟ قال: جئت برضاه وسللت سخيمته وأجاب إلى ما أحبّ وهو أهل ذلك. قال: فأيُّ شيءٍ آخر ما كان بينك وبينه؟ قال: رضي على شريطة، على صرم الدهر، فقال: شنشنةٌ أعرفها من أخزم، انصرف. فلمّا كان من الغد دخل ابن الحنفية على عبد الملك فقال له: أتاك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: فرضيت وأجبته؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: ثم مال إليه فقال: هل تحفظ ما سألك عنه؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين وما منعني أن أبثه إياه إلا مقتي له فأنّه من بقية ثمود. فضحك عبد الملك ثم قال: يا سليمان - لغليّم له - كاتباً ودواةً وقرطاساً، قال: فكتب بخطّه: بسم الله الرحمن الرحيم، كان أمير المؤمنين عليّ عليه السلام إذا فرغ من وتره رفع يده إلى السماء وقال: اللّهم حاجتي العظمى التي إن قضيتها لم يضرّني ما منعتني، وإن منعتني لم ينفعني ما أعطيتني. فكّاك الرقاب، فكّ رقبتي من النار، ربِّ ما أنا إن تقصد قصدي بغضب منك يدوم عليَّ، فوعزّتك ما يحسّن ملكك إحساني، ولا تقبّحه إساءتي، ولا ينقص من خزائنك غناي، ولا يزيد فيها فقري. يا من هو هكذا اسمع دعائي وأجب ندائي، وأقلني عثرتي، وارحم غربتي ووحشتي ووحدتي في قبري، ها أنا ذا يا ربِّ برمّتي[1]. ويأخذ بتلابيبه ثم يركع. فقال عبد الملك:

(١) وما رواه محمد بن الحنفية من قول أمير المؤمنين عليه السّلام في دعاه: " ها أنا ذا يا ربّ برمّتي " العرب تقول: أخذ فلان كذا وكذا برمّته، يريدون أخذه كلّه واستوفاه ولم يغادر شيئاً منه؛ وكذلك قولهم أخذه بأسره، والأسر القيد، وبه سمّي الأسير أسيراً وهو الآخذ بمعنى المأخوذ، وكانوا يشدّونه بالقدّ إذا أسروه. وأما الرّمة فالحبل البالي كانوا يشدُّون الأمتعة به، ومنه قول ذي الرّمة: أشعث باقي رمَّة التقليد وقيل: إنّما سمّي ذا الرمَّة لقوله هذا، وهو غيلان بن عقبة، فأمّا الرمّة بالكسر فالعظم البالي، ويقال: رمَّ العظم يرمّ وهو رميم، ومنه قول الشاعر:

حسن والله [١].

حسن السياسة وإقامة المملكة:

كتب الوليد بن عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف يأمره أن يكتب إليه بسيرته. فكتب إليه: إني أيقظت رأيي وأنمت هواي، فأدنيت السيد المطاع في قومه، ووليت الحرب الحازم في أمره، وقلدت الخراج الموفر لأمانته. وقسمت لكل خصم من نفسي قسماً، أعطيه حظاً من لطيف عنايتي ونظري. وصرفت السيف إلى النطف المسيء، والثواب إلى المحسن البريء، فخاف المريب صولة العقاب، وتمسك المحسن بحظه من الثواب[٢].

صدق الله وكذب الشاعر:

وورد على الحجاج بن يوسف سليك بن سلكة، فقال: أصلح الله الأمير، أرعني سمعك، واغضض عني بصرك، واكفف عني غربك. فإن سمعت خطأ أو زللا فدونك والعقوبة. قال: قل. فقال: عصى عاص من عرض العشيرة فحلق على اسمي، وهدم منزلي وحرمت عطائي. قال: هيهات! أو ما سمعت قول الشاعر:

جانيك من يجني عليك وقد ::: تعدي الصحاح مبارك الجرب
ولرب مأخوذ بذنب عشيرة ::: ونجا المقارف صاحب الذنب

فقال: أصلح الله الأمير، إني سمعت الله عز وجل يقول غير هذا. قال: وما ذاك؟ قال: قال الله تعالى:{يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ} [يوسف: ٧٨]. ؟؟؟قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون ". قال الحجاج:

والنيب إن تعر مني رمّةً خلقاً ::: بعد الممات فإني كنت أثّئر

(١) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ٤٧٥ - ٤٧٦.
(٢) المؤلف: ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ٥/١.

علي بيزيد بن أبي مسلم. فمثل بين يديه. فقال: افكك لهذا عن اسمه، واصكك له بعطائه، وابن له منزل، ومر مناديا ينادي: صدق الله وكذب الشاعر[(١)].

فاهدم بناءه واحلل لواءه:

وكتب الحجاج بن يوسف إلى قتيبة بن مسلم، واليه بخراسان: أما بعد، فإن وكيع بن حسان كان بالبصرة منه ما كان، ثم صار لصاً بسجستان، ثم صار إلى خراسان، فإذا أتاك كتابي هذا فاهدم بناءه واحلل لواءه. وكان على شرطة قتيبة فعزله، وولى الضبي عم مسعود بن الخطاب[(٢)].

وبلغ الحجاج أن قوماً من الأعراب يفسدون الطريق، فكتب إليهم: أما بعد، فإنكم قد استخفتكم الفتنة، فلا عن حق تقاتلون، ولا عن منكر تنهون، وإني أهم أن ترد عليكم مني خيل تنسف الطارف والتالد، وتدع النساء أيامى، والأبناء يتامى، والديار خراباً.
فلما أتاهم كتابه كفوا عن الطريق[(٣)].

وكان الحجاج بن يوسف يستثقل زياد بن عمرو العتكي، فلما أثنى الوفد على الحجاج عند عبد الملك بن مروان، قال زياد: يا أمير المؤمنين، إن الحجاج سيفك الذي لا ينبو، وسهمك الذي لا يطيش، وخادمك الذي لا تأخذه فيك لومة لائم. فلم يكن بعد ذلك أحد أخف على الحجاج ولا أحب إليه منه[(٤)].

خلفتُه ظَلُوماً غَشُوماً:

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد،٨/١.
(٢) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد،١٥/١.
(٣) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد،١٥/١.
(٤) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد،١٣٤/١.

قال زيدُ بن عُمر: سمعت طاوسًا يقول: بينما أنا بمكة إذ رُفعتُ إلى الحجّاج بن يوسف، فثنَى لي وساداً فجَلستُ، فبينا نحن نتحدّث إذ سمعتُ صوتَ أعرابيّ في الوادي رافعاً صوتَه بالتَّلبية، فقال الحجّاج: عليّ بالمُلبِّي، فأُتي به، فقال: ممن الرجل؟ قال: مِن أفناء الناس؛ قال: ليس عن هذا سألتُك، قال: فعمّ سألتَني؟ قال: من أيّ البُلدان أنت؟ قال: من أهل اليمن؛ قال له الحجّاج: فكيف خَلّفت محمدَ بن يوسف، يعني أخاه، وكان عاملَه على اليمَن. قال: خَلّفته جَسيماً خرّاجاً ولاّجا؛ قال: ليس عن هذا سألتُك. قالت: فعمّ سألتني؟ قال: كيف خلّفت سيرتَه في الناس؟ قال: خلفتُه ظلُوماً غَشُوماً عاصياً للخالق مُطيعاً للمَخْلوق. فازْوَرَّ من ذلك الحجاج وقال: لما أقدمك على هذا، وقد تعلم مكانه مني؟ فقال له الأعرابي: أفتراه بمكانه منك أعز مني بمكاني من اللّه تبارك وتعالى، وأنا وافدٌ بَيْته وقاضٍ دَيْنه ومُصدّق نبيّه قال: فوجَم لها الحجّاج! ولم يدر له جواباً حتى خَرج الرجل بلا إذن. قال: طاووس: فتبعتُه حتى أتى المُلتزَم فتعلق بأستار الكعبة، فقال: بك أعوذ، وإليك ألُوذ، فاجعل لي في اللهف إلى جوارك، الرِّضا بضمانك، مندوحةً عن مَنْع الباخلين، وغنى عما في أيدي المُستأثرين. اللهم عُد بفَرجك القريب، ومَعْروفك القديم، وعادَتك الحَسَنة. قال طاوس: ثم اختفى في الناس فألفيتُه بعَرفات قائماً على قدَميه وهو يقول: اللهم إن كنتَ لم تَقبل حَجِّي ونَصَبي وتَعبي، فلا تَحْرمني أجر المُصاب على مُصيبته، فلا أعلم مصيبةً أعْظَمَ ممّن وَرَد حَوْضك وانصرف مَحْروماً من سَعة رَحمتك(١).

ما النعمة؟

وقال الحجاج بن يوسف لخريم الناعم: ما النعمة؟ قال: الأمن، فإني

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد،٤٢٤/١.

رأيت الخائف لا ينتفع بعيش. قال له: زدني. قال: فالصحة، فإني رأيت المريض لا ينتفع بعيش. قال له: زدني. قال له: الغنى، فإني رأيت الفقير لا ينتفع بعيش. قال له: زدني. فالشباب، فإني رأيت الشيخ لا ينتفع بعيش. قال له: زدني. قال: ما أجد مزيداً[(١)].

سياسة الأبدان بما يصلحها:

قال الحجاج بن يوسف للباذون طبيبه: صف لي صفةً آخذ بها نفسي ولا أعدوها. قال له: لا تتزوج من النساء إلا شابة، ولا تأكل اللحم إلا فتياً، ولا تأكله حتى تنعم طبخه، ولا تشرب دواء إلا من علة، ولا تأكل من الفاكهة إلا نضيجها، ولا تأكل طعاماً إلا أجدت مضغه، وكل ما أحببت من الطعام، واشرب عليه، فإذا شربت فلا تأكل، ولا تحبس الغائظ ولا البول، وإذا أكلت بالنهار فنم، وإذا أكلت بالليل فامش قبل أن تنام ولو مائة خطوة[(٢)].

مصيبتي في أمير المؤمنين أعظم:

وأصيب الحجاج بن يوسف بمصيبة، وعنده رسول لعبد الملك بن مروان، فقال: ليت أني وجدت إنساناً يخفف عني مصيبتي، فقال له الرسول: أقول، قال: قل قال:

كل إنسان مفارق صاحبه بموت أو بصلب أو بنار تقع عليه من فوق البيت، أو يقع عليه البيت، أو يسقط في بئر، أو يغشى عليه أو يكون شئ لا يعرفه. فضحك الحجاج وقال: مصيبتي في أمير المؤمنين أعظم حين وجه مثلك رسولاً [(٣)].

ما تقول في التزويج؟

(١) المصدر السابق،٢/٤٧٥.
(٢) المصدر السابق،٣/٧.
(٣) المحاسن والأضداد، ص ١١٣.

قال الحجاج لابن القرية: ما تقول في التزويج؟ قال: وجدت أسعد الناس في الدنيا، وأقرهم عيناً، وأطيبهم عيشاً، وأبقاهم سروراً، وأرخاهم بالاً، وأشبهم شباباً، من رزقه الله زوجة مسلمة أمينة عفيفة حسنة لطيفة نظيفة مطيعة، إن ائتمنها زوجها وجدها أمينة، وإن قتر عليها وجدها قانعة، وإن غاب عنها كانت له حافظة، تجد زوجها أبداً ناعماً، وجارها سالماً، ومملوكها آمناً، وصبيها طاهراً، قد ستر حلمها جهلها، وزين دينها عقلها، فتلك كالريحانة والنخلة لمن يجتنبها، وكاللؤلؤة التي لم تثقب، والمسكة التي لم تفتق قوامه صوامة ضاحكة بسامة، إن أيسرت شكرت، وإن عسرت صبرت، فأفلح وأنجح من رزقه الله مثل هذه، وإنما مثل المرأة السوء كالحمل الثقيل على الشيخ الضعيف، يجره في الأرض جراً، فبعلها مشغول، وجارها مقبول، وصبيها مرذول، وقطها مهزول. قال: يا بن القرية، قم الآن فاخطب لي هنداً بنت أسماء، ولا تزد على ثلاث كلمات. فأتاهم، فقال: جئت من عند من تعلمون، والأمير يعطيكم ما تسألون، أفتنكحون أم تدعون؟ قالوا: أنكحنا وغنمنا. فرجع إلى الحجاج، فقال: أصلح الله الأمير، صلاح من رضي عمله، ومد في الخيرات أجله، وبلغ به أمله، جمع الله شملك، وأدام طولك، وأقر عينك، ووقاك حينك، وأعلى كعبك، وذلل صعبك، وحسن حالك على الرفاء والبنين والبنات، والتيسير والبركة، وأسعد السعود وأيمن الجدود، وجعلها الله ودوداً ولوداً، وجمع بينكما على الخير والبركة، فتزوجها الحجاج، ثم إنه دخل ذات يوم عليها، وهي تقول:

وما هند إلا مهرةٌ عربيةٌ ::: سليلة أفراس تجللها بغل
فإن نتجت مهراً كريماً فبالحرى ::: وإن يك أقرافٌ فما أنجب الفحل

فخرج من عندها مغضباً، ودعا ابن القرية، فدفع إليه مائة ألف درهم

وقال: أدخل إلى هند وطلقها عني، ولا تزد على كلمتين، وادفع إليها المال، فحمل ابن القرية المال، ودخل عليها فقال: إن الأمير يقول: كنت فبنت، وهذه المائة ألف صداقك. فقالت: يا بن القرية ما سررت به إذ كان، ولا جزعت عليه إذ بان، وهذا المال بشارة لك لما جئتنا به، فكان القول أشد على الحجاج من فراقها [(١)].

محاسن مكر النساء:

ذكروا أن الحجاج بن يوسف أرق، ذات ليلة، فبعث إلى ابن القرية، فقال: أرقت، فحدثني حديثاً يقصر على طول ليلي، ولكن من مكر النساء وفعالهن. فقال: أصلح الله الأمير ذكروا أن رجلاً يقال له عمرو بن عامر من أهل البصرة، كان معروفاً بالنسك والسخاء. وكانت له زوجة يقال لها جميلة، وله صديق من النساك. فاستودعه عمرو ألف دينار، وقال: إن حدثت بي حادثة، ورأيت أهلي محتاجين، فأعطهم هذا المال. فعاش ما عاش، ثم دعي فأجاب، فمكثت جميلة بعده حيناً، ثم ساءت حالها، وأمرت خادمتها يوماً ببيع خاتمها لغداء يوم أو عشاء ليلة. فبينا الخادمة تعرض الخاتم على البيع، إذ لقيها الناسك صديق عمرو، فقال: فلانة؟ قالت: نعم. قال: حاجتك؟ فأخبرته بسوء الحال، وما اضطرت إليه مولاتها من بيع خاتمها، فهملت عيناه دموعاً، ثم قال: إن لعمرو قبلي ألف دينار، فأعلمي بذلك صاحبتك. فأقبلت الجارية ضاحكة مستبشرة، وهي تقول: رزق حلال عاجل من كد مولاي الكريم الفاضل. فلما سمعت مولاتها ذلك، سألتها عن القصة، فأخبرتها، فخرت ساجدة، وحمدت ربها، وبعثت بالجارية إلى الناسك، فأقبل الناسك ومعه المال، فلما دخل الدار، كره أن يدفع المال إلى أحد سواها؛ فخرجت، فلما نظر

(١) المحاسن والأضداد، ص١٦٠ - ١٦١.

إلى جمالها وكمالها، أخذت مجامع قلبه، وفارقه النهى، وذهب عنه الحياء، وأنشأ يقول:

قد سلبت الجسم والقلب معاً ::: وبريت العظم مما تلحظين
فارددي قلب عميدٍ واقبلي ::: صلة الضعفين مما ترتجين

فأطرقت جميلة لقوله طويلاً، ثم قالت: ويحك، ألست المعروف بالنسك المنسوب إلى الورع؟ قال: بلى. ولكن نور وجهك سل جسمي، فتداركيني بكلمة تقيمين لها أودي. فهذا مقام اللائذ بك قالت: أيها المرائي المخادع اخرج عني مذموماً مدحوراً. فخرج عنها، وقد هام قلبه، وأضحت جميلة تعمل الحيلة في استخراج حقها، فأتت الملك ترفع إليه ظلامتها، فلم تصل إليه، فأتت الحاجب، فشكت إليه، فأعجب بها إعجاباً شديداً، وقالت: إن لوجهك صورة أدفعها عن هذا، ولا يجعل بمثلك الخصومة فهل لك في ضعفي مالك في ستر ورفق؟ فقالت: سوءة لامرأة حرة تميل إلى ريبة. فانصرفت إلى صاحب الشرطة، فأنهت ظلامتها إليه، فأعجب بها وقال: إن حجتك على الناسك لا تقبل إلا بشاهدين عدلين، وأنا مشترٍ خصومتك، إن أنت نزلت عند مسرتي. فانصرفت عنه إلى القاضي، فشكت إليه، فأخذت بقلبه، وكاد القاضي يجن إعجاباً بها، وقال: يا قرة العين إنه لا يزهد في أمثالك، فهل لك في مواصلتي وغناء الدهر؟ فانصرفت، وباتت تحتال في استخراج حقها، فبعثت الجارية إلى نجار، فعمل لها تابوتاً بثلاثة أبواب، كل منها مفرد؛ ثم بعثت الجارية إلى الحاجب أن يأتيها إذا أصبح، وإلى صاحب الشرطة أن يأتيها ضحوة، وإلى القاضي أن يأتيها إذا تعالى النهار، وإلى الناسك أن يأتيها إذا انتصف النهار. فأتاها الحاجب، فأقبلت عليه تحدثه، فما فرغت من حديثها حتى قالت لها الجارية: صاحب الشرطة بالباب، فقالت للحاجب: ليس في البيت

ملجأ إلا هذا التابوت، فأدخل أي بيت شئت منه. فدخل الحاجب بيتاً من التابوت فأقفلت عليه. ودخل صاحب الشرطة، فأقبلت جميلة عليه تضاحكه وتلاطفه، فما كان بأسرع من أن قالت الجارية: القاضي بالباب؛ فقال صاحب الشرطة: أين أختبئ؟ فقالت: لا ملجأ إلا هذا التابوت، وفيه بيتان، فادخل أيهما شئت، فدخل، فأقفلت عليه، فلما دخل القاضي، قالت: مرحباً وأهلاً، وأقبلت عليه بالترحيب والتلطيف. فبينا هي كذلك، إذ قالت الجارية: الناسك بالباب، فقال القاضي: ماذا ترين في رده؟ فقالت: مالي إلى رده سبيل. قال: فكيف الحيلة؟ قالت: إني مدخلتك هذا التابوت، ومخاصمته، فاشهد لي بما تسمع، واحكم بيني وبينه بالحق. قال: نعم، فدخل البيت الثالث، فأقفلت عليه. ودخل الناسك، فقالت له: مرحباً بالزائر الجاني، كيف بدا لك في زيارتنا؟ قال: شوقاً إلى رؤيتك، وحنيناً إلى قربك. قالت: فالمال، ما تقول فيه: أشهد الله على نفسك برده، اتبع رأيك... قال: اللهم إنني أشهدك الله لجميلة عندي ألف دينار وديعة زوجها. فلما سمعت ذلك هتفت بجاريتها، وخرجت مبادرة نحو باب الملك، فأنهت ظلامتها إليه، فأرسل الملك إلى الحاجب، وصاحب الشرطة، والقاضي، فلم يقدر على واحد منهم؛ فقعد لها، وسألها البينة، فقالت: يشهد تابوت عندي فضحك الملك وقال: يحتمل ذلك لجمالك. فبعث بالعجلة فوضع التابوت فيها، وحمل إلى بين يدي الملك، فقامت وضربت بيدها إلى التابوت وقالت: أعطي الله عهداً لتنطقن بالحق، وتشهدن بما سمعت، أو لأضرمنك ناراً، فإذا ثلاثة أصوات من جوف التابوت تشهد على إقرار الناسك لجميلة بألف دينار. فكبر ذلك على الملك، فقالت جميلة: لم أجد في المملكة قوماً أوفى ولا أقوم بالحق من هؤلاء الثلاثة فأشهدتهم على غريمي، ثم فتحت التابوت

وأخرجت ثلاثة النفر، وسألها الملك عن قصتها فأخبرته، وأخذت حقها من الناسك، فقال الحجاج: لله درها ما أحسن ما احتالت لاستخراج حقها. قال: وكان يعقوب بن يحيى المدائني، ويحيى الكاتب، كاتب سهل بن رستم، يتحدثان إلى مهدية، جارية سليمان بن الساحر، فقال يعقوب يوماً ليحيى: أنا أشتهي أن أرى بطن مهدية، فقال يحيى: ما تجعل لي إن أنا احتلت لك بحيلة حتى تراه؟ قال: ما شئت قال: برذونك هذا،قال: نعم. قال: فتوثق منه، وأتى مهدية فقال لها: كان لي برذون موافق فاره فنفق، وأنت لو شئت لحملتني على برذون فاره، قالت: أنا أفعل وأشتريه لك بما بلغ الثمن، قال: أنت قادرة عليه بغير الثمن، قالت: كيف ذلك؟ فأخبرها بالقصة فقالت: قد حملك الله على البرذون، أربحك النظر إلى بطن حسن، فإذا كان غداً فتعال أنت ويعقوب فاجلسا، فإن سليمان يعبث بوصيفته فلانة كثيراً، فإذا فعل ذلك وجئت أنا، فقل: أنت يا مهدية لو علمت ما صنع فلان لقتلته، قال: نعم، فلما جاءت مهدية، قال لها: إن أمر سليمان مع وصيفته أشنع مما تقدرينه، فوثبت مستشيطة غضباً وقالت: مثلك يا بن الساحر يفعل هذا مرة بعد أخرى، وشقت جيبها إلى أن جاوزت أسفل البطن وهي قائمة، فنظر إلى بطنها فتأملناها ساعة وهي تشتم ابن الساحر، فقام إليها يترضاها ويسكنها، ويعقوب يقول: وابرذوناه فأخذه منه يحيى. وعن المساور قال: كان عندنا بالأهواز رجل متأهل، وكانت له أرض بالبصرة، وكان في السنة يأتيها مرة أو مرتين، فتزوج بها امرأة ليس لها إلا عم في الدار؛ وكان يكثر الانحدار بعد ذلك إلى البصرة، فأنكرت الأهوازية حاله فدست من يعرف خبره، ثم احتالت وبعثت من أورد خطاً لعم المرأة البصرية، وسألت من كتب كتاباً من عم البصرية إلى زوجها على خطه بأن

ابنة أخيه توفيت، ويسأله القدوم لأخذ ما خلفت، ودست الكتاب مع إنسان شبيه بالملاح. فلما أتى بالكتاب خرج إليه فدفع الكتاب، ولم يشك أن امرأته البصرية ماتت، فقال لامرأته: اجعلي لي سفرة، قالت: ولم؟ قال: أريد الخروج إلى البصرة، قالت: وكم هذه البصرة؟ قد رابني أمرك، وما أشك أن هنالك لك امرأة، فأنكر ذلك، فقالت: إن كنت صادقاً فاحلف بطلاق كل امرأة لك غيري، فقال في نفسه: تلك قد ماتت، وليس علي أن أحلف بطلاقها فأرضي هذه، فحلف لها بطلاق كل امرأة له سوى الأهوازية، فقالت الأهوازية: يا جارية هات السفرة، فقد أغناه الله عن الخروج، قال: وما ذلك؟ قالت: قد طلقت الفاسقة، وقصت عليه القصة، فعرف مكرها، وأقام [١].

صدق ورب الكعبة:

وعن الوضّاحيّ عن معمر بن وهيب قال: كان عبد الملك عندما استعفى أهل العراق من الحجاج بن يوسف قال لهم: اختاروا أي هذين شئتم يعني أخاه محمد بن مروان أو ابنه عبد الله مكان الحجاج، فكتب إليه الحجاج: يا أمير المؤمنين إن أهل العراق استعفوا من سعيد بن العاص إلى عثمان بن عفان فأعفاهم منه فساروا إليه من قابل فقتلوه، فقال عبد الملك: صدق ورب الكعبة، وكتب إلى محمد وعبد الله بالسمع والطاعة له[٢].

رسولي إليهم كل يوم الشمس:

وكان الحجاج بن يوسف الثقفي من الفصحاء وكان على عتوه وإسرافه جوادا وكان إذا ضحك واستغرق في الضحك أتبع ذلك الاستغفار مرات وكان يطعم على ألف خوان وكان يطوف على الموائد ويقول: يا أهل الشام مزقوا الخبز لئلا يعود إليكم ثانيا وكان

(١) المحاسن والأضداد، ص ١٧٦ - ١٧٧.
(٢) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ٨/١.

يجلس على كل مائدة عشرة رجال وذلك في كل يوم، وكان يقول أرى الناس يتخلفون عن طعامي فقيل له: إنهم يكرهون الحضور قبل أن يدعوا، فقال: قد جعلت رسولي إليهم كل يوم الشمس إذا طلعت وعند المساء إذا غربت (١).

يا سياف اضرب عنقه:

حكي عن عبد الملك بن عمير أنه قال: لما بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان اضطراب أهل العراق جمع أهل بيته وأولي النجدة من جنده: وقال: أيها الناس، إن العراق كدر ماؤها وكثر غوغاؤها وأملولح عذبها وعظم خطبها وظهر ضرامها وعسر أخماد نيرانها فهل من ممهد لهم بسيف قاطع وذهن حامع وقلب ذكي وأنف حمي فيخمد نيرانها ويردع غيلانها وينصف مظلومها ويداوي الجرح حتى يندمل فتصفو البلاد وتأمن العباد فسكت القوم ولم يتكلم أحد، فقام الحجاج، وقال يا أمير المؤمنين، أنا للعراق قال: ومن أنت لله أبوك، قال: أنا الليث الضمضام، والهزبر الهشام، أنا الحجاج بن يوسف، قال: ومن أين؟ قال: من ثقيف كهوف الضيوف ومستعمل السيوف. قال: اجلس لا أم لك، فلست هناك ثم قال: مالي أرى الرؤوس مطرقة، والألسن معتقلة فلم يجبه أحد، فقام إليه الحجاج وقال: أنا مجندل الفساق ومطفئي نار النفاق، قال: ومن أنت؟ قال: أنا قاصم الظلمة، ومعدن الحكمة الحجاج بن يوسف معدن العفو والعقوبة آفة الكفر والريبة. قال: إليك عني وذاك فلست هناك، ثم قال: من للعراق؟ فسكت القوم، وقام الحجاج، وقال: أنا للعراق، فقال: إذن أظنك صاحبها والظافر بغنائمها وإن لكل شيء يا بن يوسف آية وعلامة، فما آيتك وما علامتك؟ قال: العقوبة والعفو، والاقتدار

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ٨/١.

والبسط والأزورار والإدناء والأبعاد والجفاء والبر والتأهب والحزم وخوض غمرات الحروب بجنان غير هيوب، فمن جادلني قطعته، ومن نازعني قصمته، ومن خالفني نزعته، ومن دنا مني أكرمته، ومن طلب الأمان أعطيته، ومن سارع إلى الطاعة بجلته، فهذه آيتي وعلامتي، وما عليك يا أمير المؤمنين أن تبلوني فإن كنت للأعناق قطاعا وللأموال جماعا وللأرواح نزاعا ولك في الأشياء نفاعا وإلا فليستبدل بي أمير المؤمنين، فإن الناس كثير ولكن من يقوم بهذا الأمر قليل، فقال عبد الملك: أنت لها فما الذي تحتاج إليه؟ قال: قليل من الجند والمال، فدعا عبد الملك صاحب جنده فقال هيئ له من الجند شهوته، وألزمهم طاعته، وحذرهم مخالفته، ثم دعا الخازن فأمره بمثل ذلك فخرج الحجاج قاصدا نحو العراق، قال عبد الملك بن عمير: فبينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة إذا أتانا آت، فقال: هذا الحجاج قدم أميرا على العراق، فتطاولت الأعناق نحوه، وأفرجوا له عن صحن المسجد فإذا نحن به يمشي وعليه عمامة حمراء متلثما بها ثم صعد المنبر، فلم يتكلم كلمة واحدة ولا نطق بحرف حتى غص المسجد بأهله وأهل الكوفة يومئذ ذوو حالة حسنة وهيئة جميلة، فكان الواحد منهم يدخل المسجد ومعه العشرون والثلاثون من أهل بيته ومواليه وأتباعه عليهم الخز والديباج قال: وكان في المسجد يومئذ عمير بن صابئ التميمي فلما رأى الحجاج على المنبر قال لصاحب له أسبه لكم قال: اكفف حتى نسمع ما يقول فأبى ابن صابئ وقال: لعن الله بني أمية حيث يولون ويستعملون مثل هذا على العراق وضيع الله العراق، حيث يكون هذا أميرها، فوالله لو دام هذا أميرا كما هو ما كان بشيء والحجاج ساكت ينظر يمينا وشمالا فلما رأى المسجد قد غص بأهله قال: هل اجتمعتم؟ فلم يرد

عليه أحد شيئا فقال: إني لا أعرف قدر اجتماعكم، فهل اجتمعتم، فقال رجل من القوم: قد اجتمعنا أصلح الله الأمير، فكشف عن لثامه ونهض قائما، فكان أول شيء نطق به أن قال: والله إني لأرى رؤسا أينعت، وقد حان قطافها وإني لصاحبها، وأني لأرى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى، والله يا أهل العراق، إن أمير المؤمنين نثر كنانة بين يديه فعجم عيدانها، فوجدني أمرها عودا وأصلبها مكسرا، فرماكم بي لأنكم طالما أثرتم الفتنة واضطجعتم في مراقد الضلال، والله لأنكلن بكم في البلاد، ولأجعلنكم مثلا في كل واد ولأضربنكم ضرب غرائب الابل وإني يا أهل العراق لا أعد إلا وفيت ولا أعزم إلا أمضيت فإياي وهذه الزرافات والجماعات وقيل وقال، وكان ويكون يا أهل العراق إنما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان، فكفرت بأنعم الله فأتاها وعيد القرى من ربها فاستوثقوا واستقيموا واعملوا ولا تميلوا وتابعوا وبايعوا واجتمعوا واستمعوا، فليس منى الإهدار والإكثار إنما هو هذا السيف ثم لا ينسلخ الشتاء من الصيف حتى يذل الله لأمير المؤمنين صعبكم ويقيم له أودكم ثم إني وجدت الصدق مع البر ووجدت البر في الجنة ووجدت الكذب مع الفجور ووجدت الفجور في النار، وقد وجهني أمير المؤمنين إليكم وأمرني أن أنفق فيكم وأوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب ابن أبي صفرة، وإني أقسم بالله لا أجد رجلا يتخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه يا غلام اقرأ كتاب أمير المؤمنين، فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك بن مروان إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم، فلم يرد أحد شيئا فقال الحجاج: اكفف يا غلام، ثم أقبل على الناس، فقال: أيسلم عليكم أمير المؤمنين، فلا تردون شيئا عليه هذا أدبكم الذي تأدبتم به، أما

والله لأودبنكم أدبا غير هذا الأدب، اقرأ يا غلام فقرأ حتى بلغ قوله سلام عليكم فلم يبق أحد إلا قال وعلى أمير المؤمنين السلام ثم نزل بعدما فرغ من خطبته، وقراءته ووضع للناس عطاياهم فجعلوا يأخذونها حتى أتاه شيخ يرعش، فقال: أيها الأمير، إني على الضعف كما ترى ولي ابن هو أقوى مني على الأسفار أفتقبله بديلا مني، فقال: نقبله أيها الشيخ فلما ولى قال له قائل: أتدري من هذا أيها الأمير؟ قال: لا. قال: هذا ابن صابئ الذي يقول:

همت ولم افعل وكـدت وليتني ::: تركت على عثمان تبكي حلائله

ولقد دخل هذا الشيخ على عثمان وهو مقتول فوطئ في بطنه فكسر ضلعين من أضلاعه فقال الحجاج: ردوه فلما ردوه قال له الحجاج: أنت الفاعل بأمير المؤمنين عثمان ما فعلت يوم قتل الدار إن في قتلك أيها الشيخ اصلاحا للمسلمين يا سياف اضرب عنقه فضرب عنقه(١).

الشاهد يرى ما لا يرى الغائب:

ومن حكايات الحجاج ما حكي أنه لما أسرف في قتل أسرى دير الجماجم وأعطى الأموال بلغ ذلك أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فشق عليه وكتب إليه أما بعد: فقد بلغني عنك أسراف في الدماء وتبذير في العطاء وقد حكمت عليك في الدماء في الخطأ بالدية وفي العمد بالقود وفي الأموال أن تردها إلى مواضعها ثم تعمل فيها برأيي فإنما هو مال الله تعالى ونحن أمناؤه فإن كنت اردت الناس لي فما أغناني عنهم وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم وسيأتيك عني أمران لين وشدة فلا يؤمننك إلا الطاعة ولا يوحشنك إلا المعصية وإذا أعطاك الله عز و جل الظفر فلا تقتلن جانحا ولا أسيرا وكتب في أسفل الكتاب:

(١) المستطرف، ١ /١١٩.

إذا أنت لم تترك أمورا كرهتها ::: وتطلب رضائي بالذي أنا طالبه
فإن ترمني غفلة قرشية ::: فيا ربما قد غص بالماء شاربه
وأن تر مني وثبة أموية ::: فهذا وهذا كل ذا أنا صاحبه
فلا تأمنى والحوادث جمة ::: فإنك تجزي بالذي أنت كاسبه
فلا تعد ما يأتيك مني وإن تعد ::: يقمن به يوما عليك نوادبه
فلا تمنعن الناس حقا علمته ::: ولا تعطين ما ليس للناس واجبه
فإنك أن تعطي الحقوق فإنما ::: النوافل شيء لا يثيبك واهبه

فلما ورد الكتاب على الحجاج كتب إلى أمير المؤمنين أما بعد: فقد ورد كتاب أمير المؤمنين بذكر إسرافي وتبذيري في الأموال ولعمري ما بلغت في عقوبة أهل المعصية ولا قضيت حقوق أهل الطاعة فإن كان قتلي العصاة إسرافا وإعطائي المطيعين تبذيرا فليمض لي أمير المؤمنين ما سلف والله ما أصبت القوم خطأ فأوديهم ولا ظلمتهم عمدا فأقاديهم ولا قتلت إلا لك ولا أعطيت إلا فيك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وكتب في أسفل الكتاب

إذا أنا لا أبغي رضاك وأتقي ::: أذاك فليلي لا توارى كواكبه
وما لامرىء بعد الخليفة جنة ::: تقيه من الأمر الذي هو راكبه
إذا قارف الحجاج فيك خطيئة ::: لقامت عليه بالصباح نوادبه
إذا أنا لم أدن الشفيق لنصحه ::: واقص الذي تسري إلي عقاربه
وأعط المواسي في البلاء عطية ::: لرد الذي ضاقت علي مذاهبه
فمن يتقي بؤسي ويرجو مودتي ::: ويخشى غدا والدهر جم نوائبه
وأمري إليك اليوم ما قلت قلته ::: وما لم تقله لم أقل ما يقاربه
ومهما أردت اليوم مني أردته ::: وما لم ترده اليوم إني مجانبه
وقف بي على حد الرضا لا أجوزه ::: مدى الدهر حتى يرجع الدرحالبه
وإلا فدعني والأمور فإنني ::: شفيق رفيق أحكمته تجاربه

فلما انتهى الكتاب إلى عبد الملك قال خاف أبو محمد صولتي ولم

يعاود لأمر كرهته إن شاء الله تعالى فمن يلومني على محبته يا غلام أكتب إليه الشاهد يرى ما لا يرى الغائب وأنت أعلى عينا بما هناك [١].

اكتمي هذا ولا تعلمي به أحدا:

كان لفتى من قريش جارية مليحة الوجه حسنة الادب وكان يحبها حبا شديدا فأصابته إضاقة وفاقه فاحتاج إلى ثمنها فحملها إلى العراق وكان ذلك في زمن الحجاج بن يوسف فابتاعها منه الحجاج فوقعت منه بمنزلة فقدم عليه فتى من ثقيف من أقاربه فأنزله قريبا منه وأحسن إليه فدخل على الحجاج والجارية تكبسه وكان الفتى جميلا فجعلت الجارية تسارقه النظر ففطن الحجاج بها فوهبها له فأخذها وانصرف فباتت معه ليلتها وهربت بغلس فأصبح لا يدري أين هي وبلغ الحجاج ذلك فأمر مناديا أن ينادي برئت الذمة ممن رأى وصيفة من صفتها كذا وكذا أولم يحضرها فلم يلبث أن اتي له بها فقال لها الحجاج يا عدوة الله كنت عندي من أحب الناس إلي فاخترت ابن عمي شابا حسن الوجه ورأيتك تسارقينه النظر فعلمت أنك شغفت به فوهبتك له فهربت من ليلتك فقالت: يا سيدي اسمع قصتي ثم اصنع بي ماشئت قال: هاتي ولا تخفى شيئا قالت: كنت للفتى القرشي فاحتاج إلي ثمني فحملني إلى الكوفة فلما قربنا منها دنا مني فوقع علي فسمع زئير الأسد فوثب واخترط سيفه وحمل عليه وضربه فقتله وأتى برأسه، ثم أقبل علي وما برد ما عنده ثم قضى حاجته وإن ابن عمك هذا الذي اخترته لي لما أظلم الليل قام إلي فلما علا بطني وقعت فأرة من السقف فضرط ثم غشي عليه فمكث زمانا طويلا وأنا أرش عليه الماء وهو لا يفيق فخفت أن يموت فتتهمني به

(١) المستطرف، ١ /١١٩ - ١٢٠.

فهربت فزعا منك فما ملك الحجاج نفسه من شدة الضحك وقال ويحك اكتمي هذا ولا تعلمي به أحدا قالت على ألاّ تردني إليه قال لك ذلك(١).

ثلاث جوار:

وذكر محمد بن واسع الهيتي أن عبد الملك بن مروان بعث كتابا إلى الحجاج بن يوسف الثقفي يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من عند عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف أما بعد: إذا ورد عليك كتابي هذا، وقرأته فسير لي ثلاث جوار مولدات أبكارا يكون إليهن المنتهي في الجمال وأكتب لي بصفة كل جارية منهن ومبلغ ثمنها من المال فلما ورد الكتاب على الحجاج دعا بالنخاسين وأمرهم بما أمره به أمير المؤمنين وأمرهم أن يسيروا إلى أقصى البلاد حتى يقعوا بالغرض وأعطاهم المال، وكتب لهم كتبا إلى كل الجهات فساروا يطلبون ما أراد أمير المؤمنين، فلم يزالوا من بلد إلى بلد ومن إقليم إلى إقليم حتى وقعوا بالغرض ورجعوا إلى الحجاج بثلاث جوار مولدات ليس لهن مثيل قال: وكان الحجاج فصيحا فجعل ينظر إلى كل واحدة منهن ومبلغ ثمنها فوجدهن لا يقام لهن بقيمة وأن ثمنهن ثمن واحدة منهن ثم كتب كتابا إلى عبد الملك بن مروان يقول فيه بعد الثناء الجميل ومبلغ ثمنها فوجدهن لا يقام لهن بقيمة، وأن ثمنهن ثمن واحدة منهن وصلني كتاب أمير المؤمنين أمتعني الله تعالى ببقائه يذكر فيه أني أشتري له ثلاث جوار مولدات أبكارا، وأن أكتب له صفة كل واحدة منهن وثمنها، فأما الجارية الأولى أطال الله تعالى بقاء أمير المؤمنين فإنها جارية عيطاء السوالف عظيمة الروادف كحلاء العينين حمراء الوجنتين قد أنهدت نهداها والتفت فخذا ها

(١) المستطرف، ٤٨٨/١.

كأنها ذهب شيب بفضة وهي كما قيل:

بيضاء فيها إذا استقبلتها دعج ::: كأنها فضة قد شابها ذهب

وثمنها يا أمير المؤمنين ثلاثون ألف درهم، وأما الثانية فإنها جارية فائقة في الجمال معتدلة القدر والكمال تشفي السقيم بكلامها الرخيم وثمنها يا أمير المؤمنين ستون ألف درهم، وأما الثالثة فإنها جارية فاترة الطرف لطيفة الكف عميمة الردف شاكرة للقليل مساعدة للخليل بديعة الجمال، كأنها خشف الغزال وثمنها يا أمير المؤمنين ثمانون ألف درهم ثم أطنب في الشكر، والثناء على أمير المؤمنين وطوى الكتاب وختمه ودعا النخاسين فقال لهم: تجهزوا للسفر بهؤلاء الجواري إلى أمير المؤمنين فقال أحد النخاسين: أيد الله الأمير، إني رجل كبير ضعيف عن السفر ولي ولد ينوب عني افتأذن لي في ذلك؟ قال نعم فتجهزوا وخرجوا ففي بعض مسيرهم نزلوا يوما ليستريحوا في بعض الأماكن فنامت الجواري فهبت الريح فانكشف بطن إحداهن وهي الكوفية فبان نور ساطع وكان اسمها مكتوم فنظر إليها ابن النخاس وكان شابا جميلا ففتن بها لساعته فأتاها على غفلة من أصحابه وجعل يقول

أمكتوم عيني لا تمل من البكا ::: وقلبي باسهام الأسى يترشق
أمكتوم كم من عاشق قتل الهوى ::: وقلبي رهين كيف لا أتعشق فأجابته تقول:
لو كان حقا ما تقول لزرتنا ::: ليلا إذا هجعت عيون الحسد

قال: فلما جن الليل انتضى الفتى ابن النخاس سيفه وأتى نحو الجارية فوجدها قائمة تنتظر قدومه فأخذها وأراد أن يهرب ففطن به أصحابه فأخذوه وكتفوه وأوثقوه بالحديد ولم يزل مأسورا معهم إلى أن قدموا على عبد الملك بن مروان، فلما مثلوا بالجواري بين يديه أخذ الكتاب ففتحه وقرأه فوجد الصفة وافقت اثنتين من الجواري، ولم توافق

الثالثة ورأى في وجهها صفرة وهي الجارية الكوفية فقال للنخاسين: ما بال هذه الجارية لم توافق حليتها التي ذكرها الحجاج في كتابه وما هذا الإصفرار الذي بها والانتحال، فقالوا: يا أمير المؤمنين نقول ولنا الأمان قال: وإن كذبتم هلكتم فخرج أحد النخاسين وأتى بالفتى وهو مصفد بالحديد فلما قدموه بين يدي أمير المؤمنين بكى بكاء شديدا وأيقن بالعذاب ثم أنشأ يقول:

أمـير المـؤمنين أتيـت رغمـا ::: وقـد شـدت إلى عنقـي يـديا
مقـرا بـالقبيح وسـوء فعلـي ::: ولست بمـا رميـت بـه بريـا
فان تقتل ففـوق القتـل ذنـبي ::: وان تعفـو فمـن جـود عليـا

فقال عبد الملك: يا فتى، ما حملك على ما صنعت استخفافٌ بنا أم هوى الجارية؟ قال: وحق رأسك يا أمير المؤمنين وعظم قدرك ما هو إلا هوى الجارية فقال: هي لك بما أعددته لها، فأخذها الغلام بكل ما أعده لها أمير المؤمنين من الحلي والحلل وسار بها فرحا مسرورا إلى نحو أهله حتى إذ كانا ببعض الطريق نزلا بمرحلة ليلا فتعانقا وناما، فلما أصبح الصباح، وأراد الناس السير نبهوهما فوجدوهما ميتين فبكوا عليهما ودفنوهما بالطريق ووصل خبرهما إلى عبد الملك فبكى عليهما وتعجب من ذلك [1].

عقيلة نساء العرب:

وخطب الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن جعفر ابنته أم كلثوم على ألفي ألف في السر وخمسمائة ألف في العلانية فأجابه إلى ذلك وحملها إلى العراق فأقامت عنده ثمانية أشهر فلما خرج عبد الله بن جعفر إلى عبد الملك بن مروان وافدا نزل بدمشق فأتاه الوليد بن عبد الملك على بغلة ومعه الناس فاستقبله ابن جعفر بالترحيب فقال له

(١) المستطرف، ٢ /٤٨٢.

الوليد: لكنك أنت لا مرحبا بك ولا أهلا قال: مهلا يا بن أخي فلست أهلا لهذه المقالة منك. قال: بلى والله وبشر منها قال: وفيم ذلك؟ قال لأنك عمدت إلى عقيلة نساء العرب وسيدة نساء بني عبد مناف فعرضتها عبد ثقيف يتفخذها بتفخذ قال وفي هذا عتبت علي يا بن أخي؟ قال: نعم. فقال عبد الله: والله ما أحق الناس ألاً يلومني في هذا إلا أنت وأبوك لأن من كان قبلكم من الولاة كانوا يصلون رحمي ويعرفون حقي وإنك وأباك منعتماني رفدكما حتى ركبني الدين أما والله لو أن عبدا حبشيا مجدعا أعطاني بها ما أعطاني عبد ثقيف لزوجتها منه إنما فديت بها رقبتي فما راجعه كلمة حتى عطف عنانه ومضى حتى دخل على عبد الملك فقال: ما لك يا أبا عباس؟ قال: إنك سلطت عبد ثقيف وملكته حتى تفخذ نساء بني عبد مناف فأدركت عبد الملك غيرة فكتب إلى الحجاج يقسم عليه أن لا يضع كتابه من يده حتى يطلقها ففعل قال: ولم يكن يقطع الحجاج عنها رزقا ولا كرامة يجريها عليها حتى خرجت من الدنيا، وما زال واصلا لعبد الله بن جعفر حتى مات وما كان يأتي عليه حول إلا وعنده عير مقبلة من عند الحجاج عليها أموال وكسوة وتحف[1].

صاحب الشرطة:

وقال الحجاج بن يوسف: دلُوني على رجل للشرطة، فقيل: أي رجل تريد؟ فقال: أُريد رجلاً دائمَ العبُوس، طويلَ الجلوس، سمينَ الأمانة، أعْجَفَ الخيانة، يهونُ عليه سِبَالُ الشريف في الشفاعة فقالوا: عليك بعبد الرحمن بن عبد الله التميمي، فأرسل إليه يستعمله، فقال: لست أعمل لك عملاً إلا أن تكفيني ولدكَ، وأهل بيتكَ، وعيالك وحاشيتك، فقال: يا

(١) المستطرف، ٢ /٣٦٠.

غلام، ناد: مَنْ طلب إليه حاجة منهم فقد برئت منه الذمّة[(١)].

ما فعل ربك بك؟

قال بعضهم: رأيت في المنام الحجاج بن يوسف، كأني قلت له: ما فعل ربك بك؟ فقال: قتلني بكل رجل قتلته قتلةً، ثم رأيته بعد ذلك بمدة في النوم، وكأني أقول له: ما فعل بك ربك؟ فقال: أليس قد قلت مرةً يا ابن الفاعله؟ [(٢)].

من يلومني على الحجاج؟ :

كتب الحجاج بن يوسف إلى عبد الملك بن مروان كتاباً يقول فيه: أما بعد فإنه ينزغ بي شيطان في المنام يقول لي: أضعت دينك ودنياك بإصلاح دنيا عبد الملك، قتلت له الرجال، وأخذت له الأموال، وفعلت وفعلت؛ وأعلمته أنه من نزغه في على باطل، وأني من ديني على يقين، وأحببت أن لا يخفى على أمير المؤمنين شيء من سري، كما لا يخفى عليه شيء من علانيتي.

فلما ورد كتابه على عبد الملك كتب جوابه بيده: أما بعد فإن الله عز وجل وله الحمد قد وكل بي ملكاً يقول لي في النوم واليقظة: أضعت دينك ودنياك بإصلاح دنيا الحجاج فسلطته بسلطان الله عز وجل لك على الأموال فأخذها من غير حلها، وعلى النفوس فقتلها بغير حقها، فإذا قرأت هذه الأحرف فصر إلي والسلام.

فلما ورد كتاب عبد الملك على الحجاج قال لمحمد بن يونس كاتبه: إن عاقبة التكلف مذمومة، أبر لي قلمين لم يكتب بأغلظ من أحدهما ولا بأدق من الآخر، ففعل محمد، فأخذ ذلك القلم الغليظ وكتب به:

---

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب، ٣٨١/٢.
(٢) الآبي، نثر الدر، ١٣١/٧.

بسم الله الرحمن الرحيم، لأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، وكتب بالدقيق: من الحجاج بن يوسف، أما بعد فإن كان قتلي الرجال طاعة لله تعالى ولك سرفاً، وأخذي الأموال طاعة لله ولك تبذيراً، فمرني بأمر آتيه إليه إن شاء الله تعالى.

فلما ورد الكتاب على عبد الملك قال: من يلومني على الحجاج؟ اكتبوا إليه وأقروه على عمله(١).

زوج أسماء بن خارجة الفزاري ابنته هند من الحجاج بن يوسف. فلما كانت ليلة أراد البناء بها قال لها أسماء: يا بنية، إن الأمهات يؤدبن البنات، وإن أمك هلكت وأنت صغيرة، فعليك بأطيب الطيب الماء، وأحسن الحسن الكحل. وإياك وكثرة المعاتبة فإنها مقطعة للود، وإياك والغيرة فإنها مفتاح الطلاق. وكوني لزوجك أمة يكن لك عبداً، واعلمي أني القائل لأمك حيث أول: الطويل

خذي العفو مني تستديمي مودتي ::: ولا تغضبي في سورتي حين أغضب
ولا تنقريني نقرك مرة ::: فإنك لا تدرين كيف المغيب
فإني وجدت الحب في الصدر والأذى ::: إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب(٢)

سيد الجن:

قال الحجاج بن يوسف ليحيى بن سعيد بن العاص: بلغني أنك تشبه إبليس في قبح وجهك؛ قال: وما ينكر الأمير أن يكون سيد الإنس يشبه سيد الجن؟ (٣).

أفسدت علي لعنك الله!

وروي أن الحجاج بن يوسف لما زوج محمد بن الحجاج قال:

(١) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر،١٩٢/١.
(٢) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ٣٨٥/١.
(٣) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ٣٩٣/٢.

لأصنعن طعاماً لم يسبقني إليه الأولون ولا يلحقني به الآخرون. فقيل له: لو وجهت إلى المدائن فسألت كيف يصنع كسرى بالطعام فعملت على نحو ذلك. فأرسل إلى بعض من يعلم ذلك، فقال: حين تزوج كسرى هنداً بنت بهرام كتب إلى عماله في الآفاق: ليقدم علي كل رجل منكم وخليفة شرطته، فوافى عنده اثنا عشر ألفاً، فأطعمهم في ثلاثة أيام، كل يوم أربعة آلاف خوان، يقعدون على بسط الديباج المنسوجة بالذهب ووسائد الديباج المنسوجة بالذهب؛ فلما أكلوا أتى كل واحد بمثقال من مسك فغسل به يده، فلما قاموا بعث بتلك الآنية والبسط فقسمت عليهم. فقال الحجاج: أفسدت علي لعنك الله! اذهبوا فاشتروا الجزر فانحروها في مربعات واسط(١).

إنه أمر لا يؤخر:

لما أكره الحجاج بن يوسف عبد الله بن جعفر على أن يزوجه ابنته استأجله في نقلها سنة. ففكر عبد الله في الانفكاك منه، فألقي في روعه خالد بن يزيد بن معاوية فكتب إليه يعلمه ذلك، وكان الحجاج تزوجها بإذن عبد الملك. فورد على خالد كتابه ليلاً فاستأذن من ساعته على عبد الملك، فقيل له: أفي هذا الوقت؟ فقال: إنه أمر لا يؤخر، فأعلم عبد الملك بذلك فأذن له. فلما دخل عليه قال له عبد الملك: فيم السرى يا أبا هاشم؟ قال: أمر جليل لم آمن أن أؤخره فتحدث علي حادثة فلا أكون قضيت حق بيعتك. قال: وما هو؟ قال: أتعلم أنه كان بين حيين من العداوة ما كان بين آل الزبير وآل أبي سفيان؟ قال: لا، قال: فإن تزوجي إلى آل الزبير حلل ما كان لهم في قلبي، فما أهل بيت أحب إلي اليوم منهم. قال: فإن ذلك ليكون. قال: فكيف أذنت للحجاج أن يتزوج من بني هاشم وأنت تعلم ما يقولون

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ٤٦٠/٢.

وما يقال فيهم، والحجاج من سلطانك بحيث علمت؟ فجزاه خيراً، وكتب إلى الحجاج بعزمه أن يطلقها، فطلقها.

فغدا الناس عليه يعزونه عنها[1].

ما هذه الصوارخ يا أمير المؤمنين؟

وقال القاسم بن الوليد: حدثني أبي، الوليد بن خلف، أن الحجاج ابن يوسف أوفد مالك بن أسماء بن خارجة إلى عبد الملك بن مروان فدخل عليه فسمع صوارخ في داره، فقال: ما هذه الصوارخ يا أمير المؤمنين؟ فقال له عبد الملك: مات أبان بن عبد الملك في هذه الليلة، فقال له مالك: آجرك الله يا أمير المؤمنين، فوالله ما على ظهر الأرض أهل بيت أعظم مرزئة واحد على الناس ولا الله أكفى لهم بالواحد الباقي من أنفسهم منكم أهل البيت. فأعجب عبد الملك كلامه، فاستعاده، وفضله على أصحابه.

هذا تأويل رؤياي:

قال أبو الحسن المدائني عن عامر بن الأسود وغيره أن الحجاج رأى في منامه كأن عينيه ذهبتا. فلما طلق هند ابنة أسماء، وهند ابنة المهلب ظن أنها تأويل رؤياه. فلما مات ابنه محمد وأتاه موت محمد أخيه قال هذا تأويل رؤياي من قبل.

أتضحك وقد هلك المحمدان:

عن أبي محمد بن عمرو الثقفي قال: لما مات محمد بن الحجاج جزع عليه فقال: إذا غسلتموه فآذنوني به. فأعلموه به فدخل البيت فنظر إليه فقال: الكامل

الآن لمّا كنت أكمل من مشى ::: وأفترّ نابك عن شباة القارح

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ٦/٣.

وتكاملت فيـك المـروءة كلّهـا ::: وأعنت ذلـك بالفعـال الصّـالح

فقيل لـه: اتـق الله واسترجع، فقـال: إنـا لله وإنـا إليـه راجعـون وقـرأ: ؟؟؟الذين إذا أصـابتهم مصيبة قـالوا إنـا لله وإنـا إليـه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون.

وأتاه موت محمّد بن يوسف وكان بينهما جمعةٌ، فقال: الطويل

حسبي حياة الله من كـلّ ميّـتٍ ::: وحسبي بقاء الله من كـلّ هالـك

إذا ما لقيـت الله ربّـي مسـلماً ::: فإنّ نجاة الـنّفس فيمـا هنالـك

وجلس الحجاج للمعزين ووضع بين يديه مرآة، وولى الناس ظهره وقعد في مجلسه، فكان ينظر إلى ما يصنعون، فدخل الفرزدق فلما نظر إلى فعل الحجاج تبسم، فلما رأى الحجاج ذلك منه قال: أتضحك وقد هلك المحمدان فأنشأ يقولك الطويل

لئن جزع الحجّاج ما من مصـيبةٍ ::: تكـون لمحـزونٍ أجـلّ وأوجعـا

من المصطفى والمصطفى من خيارهم ::: جناحيـه لّمـا فارقـاه فودّعـا

أخٌ كان أغنى أيمن الأرض كلّهـا ::: وأغنى أبنه أمـر العـراقين أجمعـا

جناحا عقـاب فارقـاه كلاهمـا ::: ولو قطّعا مـن غـيره لتضعضـعا

سميّـا نـبيّ الله سمّاهمـا بـه ::: أبٌ لم يكن عند النّوائب أخضعا[(١)]

هل أصابك مطر؟

عن عبد الملك بن عمير قال: كنت عند الحجاج بن يوسف فقال لرجل من الشام: هل أصابك مطر؟ فقال: نعم أصابنا مطر أسال الإكام، وأدحض التلاع، وخرق الرجع، فجئتك في مثل مجر الضبع؛ ثم سأل رجلاً من أهل الحجاز: هل أصابك مطر؟ قال: نعم، سقتني الأسمية فغيبت الشفار، وأطفئت النار، وتشكت النساء، وتظالمت المعزى، فاحتلبت الدرة بالجرة؛ ثم سأل رجلاً من أهل فارس فقال: نعم، ولا أحسن كما قال

(١) المبرد، التعازي والمراثي، ٥١/١.

هؤلاء! إلا أني لم أزل في ماء وطين حتى وصلت إليك [(١)].

وصية الحجاج بن يوسف :

عن سيف عن شيخ ثقيف قال في وصية الحجاج: هذا ما أوصى به الحجاج بن يوسف: " أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأنه يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، ولا نفرق بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا، غفرانك ربّنا، وإليك المصير، لا نفرِّق بين أحد من خلفاء الله، ولا نتّهم الله في قضائه فيهم، هم لي أولياء، وأنا لهم وليٌّ في الدنيا والآخرة، من اتّهم الله على قضائه فيهم أو نكث عهده أو عصاه، أو خلع عطاء الله الذي ولاهم فأنا لذلك عدوّ في الدنيا والآخرة، على هذا أحيا، وعليه أموت، وعليه أبعث، وبه أخاصم، وإن صلاة الحجاج ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت، وأنا أوّل المسلمين " [(٢)].

انطلق فلا شفاك الله ولا عافاك!

الأصمعي قال: سمعت عمي يقول: أخبرت إن الحجاج بن يوسف لما فرغ من أمر عبد الله بن الزبير قدم إلى المدينة فلقي شخصاً خارجاً من أهل المدينة، فلما رآه الحجاج قال له: يا شيخ من أهل المدينة أنت؟ قال نعم قال الحجاج من أيهم؟ قال من بني فزارة، قال كيف حال أهل المدينة؟ قال شر حال! قال ومم؟ قال لما لحقهم من البلاء بقتل ابن حواري رسول الله ، فقال الحجاج ومن قتله؟ قال قتله الفاجر اللعين حجاج بن يوسف عليه لعاين الله وصلبه من قلة المراقبة لله، فقال الحجاج، وقد استشاط غضباً: وإنك يا شيخ ممن

(١) ابن دريد، المطر والسحاب، ص٩.
(٢) السجستاني، المعمرون والوصايا، ٥٢/١.

أحزنه ذلك واسخطه؟ قال الشيخ أي والله اسخطني ذلك سخط الله على الحجاج وأخزاه! قال الحجاج: أو تعرف الحجاج إن رأيته؟ فقال أي والله إني به لعارف فلا عرفه الله خيراً ولا وقاه ضيراً، فكشف الحجاج عن لثامه وقال: لتعلم أنك أيها الشيخ يسيل دمك الساعة، فلما أيقن بالهلاك تحامق وقال هذا والله العجب أما والله يا حجاج لو كنت تعرفني ما قلت هذه المقالة، أنا العباس بن أبي ثور المصروع أصرع في كل شهر خمس مرات وهذا أول جنوني، فقال الحجاج: انطلق فلا شفاك الله ولا عافاك! (١).

ورأيت الناس يخرجون من دين الله أفواجاً:

قال صعصعة بن صوحان: خرجنا مع الحجاج حاجاً إلى بيت الله الحرام. فبينما نحن في بعض الطريق إذا نحن بصوت أعرابي يلبي بين الغيضة. فلما فرغ من التلبية قال: كلامك اللهم لك، من قال مخلوق هلك، وفي الجحيم قد سلك والجاريات في الفلك، على مجاري من سلك، قد اتبعنا رسلك، ما خاب عبد أملك، أنت له حيث علك فقال الحجاج: تلبية موحد ورب الكعبة. لا يفوتنكم الرجل. فأسرع ما كان حتى أُتي بأعرابي على ناقة برحاء بلحاء. فقال الحجاج: من أين أقبلت يا أخا العرب؟ وإلى أين تريد؟ قال جئت من الفج العميق. قال من أي الفجاج أنت؟ قال من العراق وأرضها. قال من أي العراق أنت؟ قال من مدينة الحجاج بن يوسف. قال فما سيرته فيكم؟ قال بسيرة فرعون في بني إسرائيل، يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم. قال فهل خلفته ظاعناً أو مقيماً؟ قال بل ظاعناً. قال إلى أين؟ قال: إلى الحج ولن يتقبل الله منه. قال: وهل خلف أحداً بعده؟ قال: نعم أخاه محمداً. قال فما سيرته فيكم؟ قال ظلوم غشوم،

(١) ابن حبيب، عقلاء المجانين، ١٢/١.

واسع البلعوم، عاص مشؤوم. قال له الحجاج هل عرفتني؟ قال الأعرابي اللهم لا. قال الحجاج: أنا الحجاج ابن يوسف. قال الأعرابي: أشر والله ممن أظلت الخضراء. وأقلت الغبراء. ويشرب من الماء بغيض مبغوض. لعين ملعون. في الدنيا والآخرة. فقال الحجاج: والله يا أعرابي لأقتلنك قتلة لم أقتلها أحداً قبلك. قال الأعرابي إن لي رباً يخلصني وينجيني منك. قال يا أعرابي إني سائلك؟ قال إذاً والله أُخبرك. فقال أتحسن من القرآن شيئاً؟ قال نعم. قال فأسمعنا. فاستفتح وقال: بسم الله الرحمن الرحيم إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يخرجون من دين الله أفواجاً. قال ليس هكذا يا أعرابي. قال: وكيف؟ قال: يدخلون في دين أفواجاً. فقال الأعرابي: قد كان ذلك قبل أن يتولى الحجاج. فلما ولي جاؤوا يخرجون من دين الله. فضحك الحجاج حتى استلقى على قفاه. ثم قال: ما تقول في محمد رسول الله ؟ قال: وما عسى أن أقول في محمد صاحب القضيب والناقة والحوض والشفاعة وزمزم والسقاية، ومن قرن الله اسمه باسمه. يدعى في كل يوم وليلة عشر مرات في الأذان والإقامة. قال فما تقول في أبي بكر الصديق . قال: وما عسى أن أقول في صديق في السماء وصديق في الأرض وصاحبه في الغار، وأسلم وهو يملك ثمانين ألف دينار أنفقها في سبيل الله وعلى رسول الله . ومع ذلك يا حجاج يوم قرأ النبي :{وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ} [التوبة: ٤١]. وقال عليه السلام: «**سمعتم ما قال ربكم تبارك وتعالى إلا من كان عنده شيء فليأتني بها أمكنه**» فقام أبو بكر الصديق فأتى بجيمع ما عنده. وقام عمر ، فأتى بنصف ما عنده. وقام عثمان وأتى بثلث ما عنده. فقالوا: خذ يا رسول الله. ولله عندنا المزيد. فنزل جبريل عليه السلام، وقال: يا رسول الله، إن ربك العلي

الأعلى يقرئك السلام ويقول لك: اقرأ أبا بكر مني السلام وقل له أنا راض عنه، فهل هو راض عني؟ فأخبر النبي أبا بكر . فبكى أبو بكر بكاءً شديداً، وقال يا رسول الله: أنا راض راض فوعد الله أن يرضيه وذلك قوله تعالى: {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾} [الضحى: ٥]. قال الحجاج: فما تقول في عمر بن الخطاب؟ قال وما عسى أن أقول في فاروق السماء وفاروق الأرض. فرق بين الحق والباطل على لسانه. وإذا كان يوم القيامة يأتي الحق والإسلام ويتعلقان فيه فيجزع عمر منهما فيقولان له: لا تجزع، فنحن الحق والإسلام اللذان كنت تقوم بنا في الدنيا. ومن ذلك يا حجاج إن رسول الله كان عند حفصة فدخلت عليه صفية فقال لها: لا تخبري عائشة فخرجت وأخبرت أُم سلمة. فأخبرت أُم سلمة عائشة رضي الله تعالى عنهن. فتظاهر عليه أزواجه فجاءهن عمر مغضباً فقال لهن: لم تتظاهرن على رسول الله عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً. فنزلت الآية كذلك موافقةً لقول عمر . قال الحجاج: فما تقول في عثمان بن عفان؟ فقال الأعرابي: وما عسى أن أقول في حافر بئر أرومة. ومجهز جيش الفطرة. ومن سبح في كفه الحصى. واستحيت منه ملائكة السماء. ومن ذلك يا حجاج يوم دخل على رسول الله وكان جالساً على الأيسر، وركبته مكشوفة. فدخل أبو بكر والنبي عليه الصلاة والسلام على حاله. فلما استؤذن لعثمان بادر له وغطى ركبته فدخل عثمان وجلس جلسة المريض يمزحه فنظر أبو بكر إلى عمر وعمر إلى أبي بكر. فقالا يا رسول الله تغطيت من عثمان وعثمان صهرك ونحن أصهارك. فقال النبي :﴿ألا أتغطى وأستحي ممن تستحي منه الملائكة؟﴾ فقال الحجاج: ما تقول في حق علي ابن أبي طالب؟ قال الأعرابي: وما عسى أن أقول في ابن عم رسول الله وزوج ابنته البتول. ومن قال له رسول

الله :﴿يا علي إن الله ألف بين روحي وروحك وكان عرشه على الماء وزوجك فاطمة واختارك لها من قبل أن يخلق الدنيا بألف عام﴾. فقال الحجاج: فما تقول في الحسن والحسين؟ قال الأعرابي وما عسى أن أقول فيمن ولدتهما البتول، ورباهما الرسول وراعاهما جبرائيل فهل لهما مثل وعديل؟ فقال الحجاج: فما تقول في معاوية؟ قال: وما عسى أن أقول في خال المؤمنين وكاتب وحي رسول رب العالمين ورديف رسول الله على بغلته دلدل فقال له النبي :ما يليني منك يا معاوية؟﴿ فقال: بطني يا رسول الله. فقال النبي عليه الصلاة والسلام:ملأه الله علماً وحلماً﴾. فقال الحجاج: ما تقول في يزيد بن معاوية؟ قال الأعرابي كما قال من هو خير مني لمن هو شر منك. قال الحجاج ومن هو خير منك وشر مني؟ فقال الأعرابي موسى عليه السلام خير مني، وفرعون شر منك. قال الحجاج فما قال فرعون لموسى؟ قال:؟؟؟ قال فما بال القرون الأولى؟ قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى. فقال الحجاج: فما تقول في عبد الملك بن مروان؟ فقال الأعرابي: ذلك والله أخطأ خطيئة ملأت بين السماء والأرض. فقال الحجاج وكيف ذلك؟ قال الأعرابي: ولاك على أمور المسلمين تحكم في أموالهم ودمائهم بجور وظلم. قال فعند ذلك هم الحجاج بالسيف وأشار إلى سيافه ليضرب عنق الأعرابي. قال فحرك الأعرابي شفتيه. فخر السيف ناحية، والسياف ناحية. وولى الأعرابي ذاهباً. فقال الحجاج: بحق معبودك ألا أخبرتني بأي دعاء دعوت؟ فقال الأعرابي: بدعاء إن علمتك إياه غفر الله لك ما عليك من حسابهم من شيء. وما من حسابك عليهم من شيء. ثم قال الأعرابي يا حجاج! قلت: اللهم! يا رب الأرباب. ويا معتق الرقاب. ويا هازم الأحزاب. ويا منشئ السحاب. ويا منزل الكتاب. ويا رازق

من تشاء بغير حساب. يا ملك، ويا تواب. يا راد موسى إلى أُمه. ويوسف إلى أبيه. أسألك أن ترزقني وتكفيني شره إنك على كل شيء قدير [١].

انتحل الشر بحذافيره:

وسأل عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف عن خلقه فتلكأ وأبى أن يخبره فأقسم عليه ألا بد فقال: حسود كنود لجوج حقود، فقال: عبد الملك، ما في إبليس شر من هذه الخصال، فبلغ ذلك خالد بن صفوان فقال: لقد انتحل الشر بحذافيره ومرق من جميع خلال الخير بأسره وتأنق في ذم نفسه وتجرد في الدلالة على لؤم طبعه وأفرط في إقامة الحجة على كفره وخرج من الخلال الموجبة لرضا ربه وقال أبو تمام

مساوٍ لو قسمن على الغواني ::: لما أمهرن إلا بالطلاق[٢]

لا تعرف فضيلة الشعر:

ولما قدم الحجاج بن يوسف العراق جفا الشعراء جفاء اتصل خبره بعبد الملك بن مروان فكتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عبد الملك الى الحجاج بن يوسف، أما بعد: فقد بلغني عنك أمر كذب فراستي فيك، وأخلف ظني عندك، وهو إعراضك عن الشعر والشعراء؛ فإنك لا تعرف فضيلة الشعر ولا تعلم مواضع كلام الشعراء ومواقع سهامهم، أو ما علمت يا أخا ثقيف أن بالشعر بقاء الذكر ونماء الفخر، وأن الشعراء طرز المملكة، وحلي الدولة، وعناوين النعمة، وتمائم المجد، ودلائل الكرم، وأنهم يحضون على الأفعال الجميلة، وينهون عن الخلائق الذميمة، وأنهم سنوا سبيل

(١) ابن حبيب، عقلاء المجانين، ص ٦١ - ٦٢.
(٢) الوطواط، غرر الخصائص الواضحة، ٢٦/١.

المكارم لطلابها ودلوا بغاة المحامد على أبوابها، وأن الإحسان إليهم كرم، والإعراض عنهم لؤم وندم، فاستدرك فارط تفريطك، وامح بصوابك وحي أغاليطك[١].

أجن مرتين من الشهر:

خرج الحجاج بن يوسف متصيداً، فلقي أعرابياً فقال: كيف سيرة الحجاج فيكم؟ قال: ظلوم غشوم لا حياه الله ولا بياه، قال له: فلو شكوتموه إلى أمير المؤمنين عبد الملك؟ فقال الأعرابي: هو والله أظلم منه وأغشم، فعليه لعنة الله. فأغضب ذلك الحجاج وقال له: أما تدري من أنا؟ قال: وما عسيت أن تكون؟ قال: أنا الحجاج فقال الأعرابي: وتدري من أنا؟ قال: لا، من أنت؟ قال مولى بني أبي ثور أجن مرتين من الشهر وهذه إحداهما، فضحك الحجاج وانصرف عنه[٢].

من كلامه:

- العفو عن المقر لا عن المصر.
- سلطان تخافه الرعية خير لهم من سلطان يخافهم.
- جور السلطان خير من ضعفه. لأن ذلك يختص وهذا يعم.
- رب حق أخرج من باطل.
- مثل الكوفة كامرأة حسناء فقيرة تخطب لجمالها ومثل البصرة كعجوز شوهأ غنية تخطب لمالها [٣].
- خير المعروف ما أنعشت به الكرام[٤].

(١) المظفر بن الفضل، نضرة الاغريض في نصرة القريض، ص٦٥.
(٢) القاضي التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، ص٦٩.
(٣) الثعالبي، الإعجاز والإيجاز، ص٦٩.
(٤) المؤلف: ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس،٦٤/١.

- قال الحجاج بن يوسف لابن القِرِّية: ما زالت الحكماء تَكْرَه المُزَاح، وتَنْهى عنه، فقال: المُزاح من أدْنى منزلته إلى أقصاها عشرة أبواب: المُزاح أوله فَرَح، وآخره تَرَح. المزاح نقائض السفهاء، كالشعْر نقائض الشعراء. والمزاح يُوغِر صدْرَ الصديق، وينفّر الرفيق. والمزاح يُبْدي السرائر؛ لأنه يظهر المَعَاير. والمزاح يُسْقِطُ المروءة، ويُبْدِي الخنى. لم يجُرَ المزح خيراً، وكثيراً ما جَرَ شرًا. الغالب بالمزاح وَاتِر، والمغلوب به ثائر. والمزاح يجلب الشتمَ صغيرُه والحربَ كبيرُه، وليس بعد الحرب إلاّ عفوٌ بعد قدرة.

فقال الحجاج: حسبك، الموت خيرٌ من عَفْو معه قدرة (١).

- الشيب نذير الآخرة (٢).

خطب الحجاج بن يوسف الثقفي

- خطبته بمكة بعد مقتل ابن الزبير سنة ٧٣هـ :

لما قتل الحجاج عبد الله بن الزبير ارتجت مكة بالبكاء فصعد المنبر فقال: ألا إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة ونازع فيها وخلع طاعة الله واستكن بحرم الله ولو كان شيء مانعا للعصاة لمنع آدم حرمة الجنة لأن الله تعالى خلقه بيده وأسجد له ملائكته وأباحه جنته فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته وآدم على الله أكرم من ابن الزبير والجنة أعظم حرمة من الكعبة

- خطبته بعد قتل ابن الزبير :

وصعد الحجاج بعد قتله ابن الزبير متلثما فحط اللثام عنه ثم قال

موج ليل التطم وانجلى بضوء صبحه يأهل الحجاز كيف رأيتموني

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، زهر الأداب وثمر الألباب، ٤٢٥/١.
(٢) أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، زهر الأداب وثمر الألباب، ٢٨١/٢.

ألم أكشف ظلمة الجور وطخية الباطل بنور الحق والله لقد وطئكم الحجاج وطأة مشفق وعطفة رحم ووصل قرابة فإياكم أن تزلوا عن سنن أقمناكم عليه فأقطع عنكم ما وصلته لكم بالصارم البتار وأقيم من أودكم ما يقيم المثقف من أود القناة بالنار ثم نزل وهو يقول

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها ::: وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا [1]

- خطبته حين ولي العراق سنة ٧٥هـ :

حدث عبد الملك بن عمير الليثي قال: بينا نحن في المسجد الجامع بالكوفة وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مواليه إذ أتى آت فقال: هذا الحجاج قد قدم أميرا على العراق، فإذا به قد دخل المسجد معتما بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه متقلدا سيفا متنكبا قوسا يؤم المنبر، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر، فمكث ساعة لا يتكلم، فقال الناس بعضهم لبعض: قبح الله بني أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق حتى قال عمير بن ضابئ البرجمي: ألا أحصبه لكم؟ فقالوا: أمهل حتى ننظر فلما رأى عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه ونهض فقال:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ::: متى أضع العمامة تعرفوني

ثم قال، يأهل الكوفة: أما والله إني لأحمل الشر بحمله وأحذوه بنعله وأجزيه بمثله وإني لأرى أبصارا طامحة وأعناقا متطاولة ورءوسا قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى تترقرق ثم قال:

هذا أوان الشد فاشتدي زيم ::: قد لفها الليل بسواق حطم
ليس براعي إبل ولا غنم ::: ولا بجزار على ظهر وضم

(١) جمهرة خطب العرب،٢ /٢٨٧.

ثم قال:

قـــد لفهـــا الليـــل بعصـــلبي ::: أروع خـــراج مـــن الـــدوي

مهاجـــر ليـــس بأعرابـــي

ثم قال:

قد شمرت عـــن ســـاقها فشـــدوا ::: وجدت الحـــرب بكـــم فجـــدوا

والقـــوس فيهـــا وتـــر عـــرد ::: مثـــل ذراع البكـــر أو أشـــد

لا بـــد ممـــا ليـــس منـــه بـــد

إني والله يأهل العراق ومعدن الشقاق والنفاق ومساوي الأخلاق ما يقعقع لي بالشنان ولا يغمز جانبي كتغماز التين ولقد فررت عن ذكاء وفتشت عن تجربة وجريت إلى الغاية القصوى وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدني أمرها عودا وأصلبها مكسرا فرماكم بي لأنكم طالما أوضعتم في الفتن واضطجعتم في مراقد الضلال وسننتم سنن الغي أما والله لألحونكم لحو العصا ولأقرعنكم قرع المروءة ولأعصبنكم عصب السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون وإني والله لا أعد إلا وفيت ولا أهم إلا أمضيت ولا أخلق إلا فريت فإياي وهذه الشفعاء والزرافات والجماعات وقالا وقيلا وما تقول وفيم أنتم وذاك.

أما والله لتستقيمن على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا في جسده وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة وإني أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه وأنهبت ماله

وهدمت منزله (١)

خطبته وقد سمع تكبيرا في السوق :

فلما كان اليوم الثالث خرج من القصر فسمع تكبيرا في السوق فراعه ذلك فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال: يأهل العراق يأهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق وبني اللكيعة وعبيد العصا وأولاد الإماء والفقع بالقرقر إني سمعت تكبيرا لا يراد الله به وإنما يراد به الشيطان ألا إنها عجاجة تحتها قصف وإنما مثلي ومثلكم ما قال عمرو بن براق الهمذاني

وكنت إذا قوم غزوني غزوتهم ::: فهل أنا في ذايا لهمدان ظالم
متى تجمع القلب الذكي وصارما ::: وأنفا حميا تجتنبك المظالم

أما والله لا تقرع عصا عصا إلا جعلتها كأمس الدابر (٢).

- خطبته وقد قدم البصرة :

وخطب لما قدم البصرة يتهدد أهل العراق ويتوعدهم، فقال: أيها الناس من أعياه داؤه فعندي دواؤه ومن استطال أجله فعلي أن أعجله ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله ومن استطال ماضي عمره قصرت عليه باقيه إن للشيطان طيفا وللسلطان سيفا فمن سقمت سريرته صحت عقوبته ومن وضعه ذنبه رفعه صلبه ومن لم تسعه العافية لم تضق عنه الهلكة ومن سبقته بادرة فمه سبق بدنه بسفك دمه إني أنذر ثم لا أنظر وأحذر ثم لا أعذر وأتوعد ثم لا أعفو إنما أفسدكم ترنيق ولاتكم ومن استرخى لببه ساء أدبه إن الحزم والعزم سلباني سوطي وأبدلاني به سيفي فقائمه في يدي ونجاده في عنقي وذبابه قلادة لمن عصاني والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب من

(١) جمهرة خطب العرب،٢ /٢٨٩ - ٢٩٠.
(٢) جمهرة خطب العرب،٢ /٢٨٩ - ٢٩١.

أبواب المسجد فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه [١]

- **خطبته بعد وقعة دير الجماجم :**

وخطب أهل العراق بعد وقعة دير الجماجم فقال يأهل العراق إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف ثم أفضى إلى المخاخ والأصماخ ثم ارتفع فعشش ثم باض وفرخ فحشاكم نفاقا وشقاقا وأشعركم خلافا اتخذتموه دليلا تتبعونه وقائدا تطيعونه ومؤامرا تستشيرونه فكيف تنفعكم تجربة أو تعظكم وقعة أو يحجزكم إسلام أو ينفعكم بيان ألستم أصحابي بالأهواز حيث رمتم المكر وسعيتم بالغدر واستجمعتم للكفر وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته وأنا أرميكم بطرفي وأنتم تتسللون لواذا وتنهزمون سراعا ثم يوم الزاوية وما يوم الزاوية بها كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ونكوص وليكم عنكم إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها النوازع إلى أعطانها لا يسأل المرء عن أخيه ولا يلوي الشيخ على بنيه حتى عضكم السلاح وقصمتكم الرماح ثم يوم دير الجماجم وما يوم دير الجماجم بها كانت المعارك والملاحم بضرب يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله يأهل العراق والكفرات بعد الفجرات والغدرات بعد الخترات والزوات بعد النزوات إن بعثتكم إلى ثغوركم غللتم وخنتم وإن أمنتم أرجفتم وإن خفتم نافقتم لا تذكرون حسنة ولا تشكرون نعمة هل استخفكم ناكث أو استغواكم غاوٍ أو استنصركم ظالم أو استعضدكم خالع إلا تبعتموه وآويتموه ونصرتموه وزكيتموه يأهل العراق هل شغب شاغب أو نعب ناعب أو زفر زافر إلا كنتم أتباعه وأنصاره يأهل العراق ألم تنهكم المواعظ ألم تزجركم الوقائع؟

(١) جمهرة خطب العرب،٢ /٢٩٢.

ثم التفت إلى أهل الشأم وهم حول المنبر فقال: يأهل الشام إنما أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه ينفي عنها المدر ويباعد عنها الحجر ويكنها من المطر ويحميها من الضباب ويحرسها من الذئاب يأهل الشام أنتم الجنة والرداء وأنتم العدة والحذاء [(١)].

- خطبة أخرى له في أهل الكوفة وأهل الشأم :

وخطب فقال يأهل الكوفة إن الفتنة تلقح بالنجوى وتنتج بالشكوى وتحصد بالسيف أما والله إن أبغضتموني لا تضروني وإن أحببتموني لا تنفعوني وما أنا بالمستوحش لعداوتكم ولا المستريح إلى مودتكم زعمتم أني ساحر وقد قال الله تعالى (ولا يفلح الساحر) وقد أفلحت وزعمتم أني أعلم الاسم الأكبر فلم تقاتلون من يعلم ما لا تعلمون ثم التفت إلى أهل الشأم فقال لأزواجكم أطيب من المسك ولأبناؤكم آنس بالقلب من الولد وما أنتم إلا كما قال أخو بني ذبيان إذا

حاولت في أسد فجورا ::: فإني لست منك ولست مني
هم درعي التي استلأمت فيها ::: إلى يوم النسار وهم مجني

ثم قال بل أنتم يأهل الشأم كما قال الله سبحانه:{وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾} [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، ثم نزل [(٢)] .

- خطبة له بالبصرة :

وخطب بالبصرة فقال قال الله تعالى:{فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ} [التغابن: ١٦]، فهذه لله وفيها مثوبة وقال:{وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ} [التغابن: ١٦]، وهذه لعبد الله وخليفة الله وحبيب الله عبد الملك بن مروان أما والله لو أمرت الناس أن يأخذوا في باب واحد فأخذوا في

(١) جمهرة خطب العرب، ٢ /٢٩٣.
(٢) جمهرة خطب العرب،٢ /٢٩٤.

باب غيره لكانت دماؤهم لي حلالا من الله ولو قتل ربيعة ومصر لكان لي حلالا عذيرى من أهل هذه الحميراء يرمي أحدهم بالحجر إلى السماء ويقول: يكون إلى أن يقع هذا خير والله لأجعلنهم كالرسم الدائر وكالأمس الغابر عذيرى من عبد هذيل يقرأ القرآن كأنه رجز الأعراب أما والله لو أدركته لضربت عنقه يعني عبد الله بن مسعود عذيرى من سليمان ابن داود يقول لربه:{رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ} [ص: ٣٥]، كان والله فيما علمت عبدا حسودا بخيلا (١).

- **خطبة أخرى له بالبصرة:**

حمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله كفانا مؤنة الدنيا وأمرنا بطلب الآخرة فليته كفانا مؤنة الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا مالي أرى علماءكم يذهبون وجهالكم لا يتعلمون وشراركم لا يتوبون مالي أراكم تحرصون على ما كفيتم وتضيعون ما به أمرتم إن العلم يوشك أن يرفع ورفعه ذهاب العلماء ألا وإني أعلم بشراركم من البيطار بالفرس الذين لا يقرؤون القرآن إلا هجرا ولا يأتون الصلاة إلا دبرا ألا وإن الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر ألا وإن الآخرة أجل مستأخر يحكم فيها ملك قادر ألا فاعملوا وأنتم من الله على حذر واعلموا أنكم ملاقوه ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ألا وإن الخير كله بحذافيره في الجنة ألا وإن الشر كله بحذافيره في النار ألا وإن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره وأستغفر الله لي ولكم (٢).

(١) جمهرة خطب العرب، ٢ /٢٩٥.
(٢) جمهرة خطب العرب، ٢ /٢٩٦.

- خطبته في أهل العراق يصارحهم بالكراهة :

وخطب أهل العراق، فقال: يأهل العراق، إني لم أجد دواء أدوي لدائكم من هذه المغازي والبعوث لولا طيب ليلة الإياب وفرحة القفل فإنها تعقب راحة، وإني لا أريد أن أرى الفرح عندكم ولا الراحة بكم وما أراكم إلا كارهين لمقالتي، وأنا والله لرؤيتكم أكره ولولا ما أريد من تنفيذ طاعة أمير المؤمنين فيكم ما حملت نفسي مقاساتكم والصبر على النظر إليكم والله أسأل حسن العون عليكم ثم نزل.

- خطبة أخرى :

وخطب أهل العراق، فقال: يأهل العراق، بلغني أنكم تروون عن نبيكم أنه قال:﴿**من ملك على عشر رقاب من المسلمين جيء به يوم القيامة مغلولة يداه إلي عنقه حتى يفكه العدل أو يوبقه الجور**﴾، وايم الله إني لأحب إلى أن أحشر مع أبي بكر وعمر مغلولا من أن أحشر معكم مطلقا (١).

- خطبته لما مات عبد الملك بن مروان :

ولما مات عبد الملك بن مروان قام فحمد الله، وأثني عليه ثم قال: أيها الناس، إن الله تبارك وتعالى نعي نبيكم إلى نفسه فقال:{إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠} [الزمر: ٣٠]، وقال:{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ} [آل عمران: ١٤٤]، فمات رسول الله ومات الخلفاء الراشدون المهتدون المهديون منهم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان الشهيد المظلوم ثم تبعهم معاوية ثم وليكم البازل الذكر الذي جربته الأمور وأحكمته التجارب مع الفقه وقراءة القرآن والمروءة الظاهرة واللين لأهل الحق والوطء لأهل الزيغ فكان رابعا

(١) جمهرة خطب العرب،٢ /٢٩٦ - ٢٩٧.

من الولاة المهديين الراشدين فاختار الله له ما عنده وألحقه بهم وعهد إلـى شـبهه فـي العقـل والمـروءة والحـزم والجلـد والقيـام بـأمر الله وخلافته فاسمعوا له وأطيعوه.

أيها الناس إياكم والزيغ، فإن الزيغ لا يحيق إلا بأهله ورأيتم سيرتي فيكم وعرفت خلافكم وطيبتم على معرفتـي بكم ولـو علمت أن أحدا أقوى عليكم مني أو أعرف بكم ما وليتكم فإياي وإياكم من تكلم قتلناه ومن سكت مات بدائه غما ثم نزل [1].

خطبته حين أراد الحج :

وأراد الحجاج أن يحج فاستخلف محمدا ولده علـى أهل العراق ثم خطب فقال: يأهل العراق، يأهل الشقاق والنفاق إنـي أريد الحج وقد استخلفت عليكم ابنـي محمدا هذا ومـا كنتم لـه بأهل وأوصيته فيكم بخلاف ما أوصى به رسول الله في الأنصار؛ إن رسول الله أوصـى أن يقبل مـن محسنهم وأن يتجـاوز عـن مسيئهم وإنـي أمرتـه ألا يقبل مـن محسنكم ولا يتجـاوز عـن مسيئكم ألا وإنكـم سـتقولون بعـدي مقالـة مـا يمنعكم من إظهارها إلا مخـافتي ألا وإنكم ستقولون بعدي لا أحسن الله له الصحابة ألا وإني معجل لكم الإجابـة لا أحسن الله الخلافة عليكم ثم نزل.

- خطبته لما أصيب بولده محمد وأخيه محمد في يوم واحد :

قال صاحب العقد: فلما كان غداة الجمعة مات محمد بن الحجاج فلما كان بالعشى أتاه بريد من اليمن بوفاة محمد أخيـه ففرح أهل العراق وقالوا: انقطع ظهر الحجـاج وهيض جناحـه فخـرج فصـعد المنبـر ثـم خطب النـاس فقال: أيها الناس محمدان في يوم واحد أما والله ما كنت

(١) جمهرة خطب العرب، ٢ /٢٩٨.

أحب أنهما معي في الحياة الدنيا لما أرجو من ثواب الله لهما في الآخرة وايم الله ليوشكن الباقي مني ومنكم أن يفنى والجديد أن يبلي والحي مني ومنكم أن يموت، وأن تدال الأرض منا كما أدلنا منها فتأكل من لحومنا وتشرب من دمائنا كما مشينا على ظهرها، وأكلنا من ثمارها وشربنا من مائها ثم نكون كما قال الله تعالى:{وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾} [يس: ٥١] ثم تمثل بهذين البيتين:

عزائي نبي الله من كل ميت ::: وحسبي ثواب الله من كل هالك
إذا ما لقيت الله عني راضيا ::: فإن سرور النفس فيما هنالك(١)

- خطبته وقد أرجف أهل العراق بموته :

ومرض الحجاج ففرح أهل العراق، وأرجفوا بموته فلما بلغه تحامل حتى صعد المنبر فقال: إن طائفة من أهل العراق أهل الشقاق والنفاق نزغ الشيطان بينهم فقالوا: مات الحجاج ومات الحجاج فمه وهل يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت والله ما يسرني ألا أموت وأن لي الدنيا وما فيها وما رأيت الله رضي بالتخليد إلا لأهون خلقه عليه إبليس:{ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾} [الأعراف: ١٤ - ١٥]، ولقد دعا الله العبد الصالح فقال:{رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ} [ص: ٣٥]، فأعطاه ذلك إلا البقاء فما عسى أن يكون أيها الرجل وكلكم ذلك الرجل كأني والله بكل حي منكم ميتا وبكل رطب يابسا ونقل في ثياب أكفانه إلى ثلاثة أذرع طولا في ذراع عرضا وأكلت الأرض لحمه ومصت صديده وانصرف الحبيب من ولده يقسم الخبيث من ماله إن الذين يعقلون يعلمون ما أقول ثم

(١) جمهرة خطب العرب،٢ /٢٩٩.

نزل [١].

خطبه الوعظية :

- وخطب الحجاج يوما، فقال: أيها الناس، قد أصبحتم في أجل منقوص وعمل محفوظ رب دائب مضيع وساع لغيره والموت في أعناقكم والنار بين أيديكم والجنة أمامكم خذوا من أنفسكم لأنفسكم ومن غناكم لفقركم ومما في أيديكم لما بين أيديكم، فكأن ما قد مضي من الدنيا لم يكن وكأن الأموات لم يكونوا أحياء وكل ما ترونه فإنه ذاهب هذه شمس عاد وثمود وقرون كثيرة بين ذلك هذه الشمس التي طلعت على التبابعة والأكاسرة وخزائنهم السائرة بين أيديهم وقصورهم المشيدة ثم طلعت على قبورهم، أين الملوك الأولون أين الجبابرة المتكبرون المحاسب الله والصراط منصوب وجهنم تزفر وتتوقد وأهل الجنة ينعمون في روضة يحبرون جعلنا الله وإياكم من الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا

فكان الحسن البصري - رحمه الله - يقول ألا تعجبون من هذا الفاجر يرقى عتبات المنبر، فيتكلم بكلام الأنبياء وينزل فيفتك فتك الجبارين يوافق الله في قوله ويخالفه في فعله [٢].

- وقال مالك بن دينار: غدوت إلى الجمعة فجلست قريبا من المنبر فصعد الحجاج، ثم قال: امرؤ حاسب نفسه امرؤ راقب ربه امرؤ زور عمله امرؤ فكر فيما يقرؤه غدا في صحيفته ويراه في ميزانه امرؤ كان عند همه آمرا وعند هواه زاجرا

(١) جمهرة خطب العرب،٢ /٣٠٠.
(٢) جمهرة خطب العرب،٢ /٣٠١.

امرؤ أخذ بعنان قلبه كما يأخذ الرجل بخطام جمله، فإن قاده إلى حق تبعه وإن قاده إلى معصية الله كفه إننا والله ما خلقنا للفناء وإنما خلقنا للبقاء وإنما ننتقل من دار إلى دار.

- وخطب يوما فقال: أيها الناس، اقدعوا هذه الأنفس فإنها أسأل شيء إذا أعطيت وأعصى شيء إذا سئلت فرحم الله امرأ جعل لنفسه خطاما وزماما فقادها بخطامها إلى طاعة الله وعطفها بزمامها عن مصية الله فإني رأيت الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله(١).

- وخطب، فقال: اللهم أرني الغيَّ غيًّا فأجتنبه، وأرني الهدى هدى فأتبعه، ولا تكلني إلي نفسي فأضل ضلالا بعيدا والله ما أحب أن ما مضي من الدنيا لي بعمامتي هذه ولما بقي منها أشبه بما مضى من الماء بالماء (٢).

- ومن كلامه: إن امرأ أتت عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ربه ويستغفر ربه من ذنبه ويفكر في معاده لجدير أن يطول حزنه ويتضاعف أسفه إن الله كتب على الدنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء، فلا بقاء لما كتب عليه الفناء، ولا فناء لما كتب عليه البقاء، فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة وأقهروا طول الأمل بقصر الأجل (٣).

* * *

(١) المصدر السابق،٢ /٣٠٢.
(٢) المصدر السابق،٢ /٣٠٣.
(٣) جمهرة خطب العرب،٢ /٣٠٣.

مسلم بن عقبة المري

أعـــلام القــادة

القائد مسلم بن عقبة المري

هو مسلم بن عقبة بن رباح المرى، أبو عقبة: قائد من الدهاة القساة في العصر الأموى. أدرك النبي وشهد صفين مع معاوية، وكان فيها على الرجالة. وقلعت بها عينه.

وولاه يزيد بن معاوية قيادة الجيش الذى أرسله للانتقام من أهل المدينة بعد أن أخرجوا عامله، فغزاها وآذاها وأسرف فيها قتلا ونهبا (في وقعة الحرة) فسماه أهل الحجاز (مسرفا) وأخذ ممن بقي فيها البيعة ليزيد، وتوجه بالعسكر إلى مكة ليحارب ابن الزبير، لتخلفه عن البيعة ليزيد، فمات في الطريق بمكان يسمى المشلل. ثم نبش قبره وصلب في مكان دفنه (١).

سبب معركة الحرّة:

كان الأمر قد اشتد على يزيد بن معاوية حين علم بأن بني أمية في المدينة محاصرون في دار مروان بن الحكم، فأراد أن يخلصهم من هذا الحصار قبل أن يقتلوا أو يحل بهم مكروه - وكانوا ألف رجل - فعز عليه أن يقتل هؤلاء، وفي سلطانه دون أن يقدم لهم عوناً فأمر بتجهيز جيش ليذهب إلى المدينة، فيخلص بني أمية، ويرد هؤلاء الناس إلى الطاعة وطلب عمرو بن سعيد ليقود الجيش فأبى، وأرسل إلى عبيد الله ابن زياد ليرد أهل المدينة إلى الأهل الطاعة ثم يغزو ابن الزبير، فقال: لا أجمعهما للفاسق أبداً، أقتل ابن بنت رسول الله وأغزو البيت ثم استقر الرأي على إرسال مسلم بن عقبة المرِّي.

ولما اجتمع الجيش، وهمّ مسلم بن عقبة أن ينطلق بهم إلى المدينة فقال له يزيد: ادع القوم ثلاثاً، فإن رجعوا إلى الطاعة، فاقبل وكف

(١) الزركلي، ٢٢٢/٧.

عنهم، وإلا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا ظهرت عليهم فأبح المدينة ثلاثاً، ثم أكفف عن الناس، وانظر إلى علي بن الحسين فاكفف عنه، واستوصي به خيراً، وأدن مجلسه فإنه لم يدخل في شيء مما دخلوا فيه وأمر مسلماً إذا فرغ من المدينة أن يذهب لحصار ابن الزبير، وقال له إن حدث بك أمر فعلى الناس حصين بن نمير السكوني[1].

ركب مسلم بن عقبة فرسه واستعرض جيشه الذي سيحارب به أهل المدينة، فجعل على هل دمشق عبد الله بن مسعدة الفزاري، وعلى أهل حمص حصين بن نمير السكوني، وعلى أهل الأردن حبيس بن دلجة القيني، وعلى أهل فلسطين روح بن زنباع الجذامي، وشريك الكناني، وعلى أهل قنسرين طريف بن الحسحاس الهلالي، وعليهم جميعاً مسلم بن الوليد بن عقبة المرِّيّ الغطفاني، وسار مسلم إلى المدينة فوجد بني أمية وقد أخرجوا منها، وساروا في اتجاه الشام، فاستوقفهم وسألهم عن الوضع في المدينة، فلم ينطقوا بجواب، وكان أهل المدينة، قد أطلقوا حصارهم بعد أن أخذوا عليهم العهود والمواثيق ألاَّ يدلوا على عورة ولا يعاونوا عدواً، وطلب مسلم منهم أن يدلوه على ما ورائهم فلم يستجيبوا، فغضب مسلم منهم غضباً شديداً، فلم يبرد غضبه إلا عبد الملك بن مروان الذي دلَّه على الخطة التي يجب اتباعها في حرب المدينة، فأشار إليه بأن يأتيها من جهتها الشرقية، ويلحق في الجنوب منها، يواجه أهل المدينة، في مكان يسمى الحرَّة، وتأتي الشمس أمام جيش الشام فتلمع خوذهم وسلاحهم فيرهبون عدوهم، ويكون لهم السيطرة من الوجهة الحربية.

وفي يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من شهر ذي الحجة ٦٣هـ وقعت

(١) البداية والنهاية، ٦١٧/١١، الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار، ٢/ ٣٢٣.

المعركـة المشـؤومة، فوجـه مسـلم خيلـه نحـو أهـل المدينـة والتقـى الجيشان، وحمل عبد الله بن حنظلة الغسيل على خيل الشام، فانكشفت الخيـل، وانهزمـوا حتـى انتهـوا إلـى مسـلم، فـنهض مسـلم بمـن معـه وقاتلوا قتالاً شديداً، وانكشف أهل المدينة من كل جانب وجاء الفضل بن عباس بن ربيعة إلى ابن الغسيل فقاتل معه، وطلب منـه أن يجمـع الفرسان ليقاتلوا معه وكان قد عزم على الوصول إلى مسلم بن عقبـة ليقتلـه، فـأمر بـن الغسـيل أن يجتمـع الفرسـان حـول الفضـل، وحمـل الفضـل بهـم علـى أهل الشـام فـانفرجوا وجثـث الرجـال أمامـه علـى الركب، ومضـى نحـو رايـة مسلم فقتل صـاحبها وهو يظنـه مسلماً، وكان الذي قتله الفضل غلاماً لمسلم اسمه رومـي وأخذ مسلم الرايـة ونادى في جيشه يحضهم على القتال وأمر أحد قادته أن ينضحوا ابن الغسيل بالنبل ونادى مسلم: يا أهل الشام، أهذا هو قتـال قوم يريـدون أن يدفعوا به عن دينهم، وأن يُعزّوا بـه نصـر إمـامهم، قبح الله قتـالكم منذ اليوم، ما أوجعه لقلبي، وأغيظه لنفسي، أما والله ما جزاؤكم عليه إلا أن تُحرمـوا العطـاء، وأن تجمروا فـي أقاصـي الثغور، شـدوا مـع هـذه الرايـة، ومشـى برايتـه، وشـدت الرجـال أمـام الرايـة، وصـرع الفضـل ابـن عبـاس بـن ربيعـة ومـا بينـه وبين أطنـاب مسلم إلا عشـر أذرع، وقتل معه زيد بن عبد الرحمن بن عوف وإبراهيم بن نعيم العدوي في رجـال من أهل المدينـة كثير، ثم أن خيل مسلم ورجالـه أقبلت نحو عبد الله بن حنظلة الغسيل ورجاله حتى دنوا منـه، وركـب مسلم بن عقبة فرساً له، فأخذ يسير في أهل الشام ويحرضهم ويقول: يـا أهل الشـام إنكـم لسـتم بأفضـل العـرب فـي أحسـابها وأنسـابها، ولا أكثرها عدداً، ولا أوسعها بلداً، ولم يخصكم الله بالذي خصـكم بـه من النصر عل عدوكم وحسن المنزلة عند أئمتكم إلا بطـاعتكم واستقامتكم

وإن هؤلاء القوم وأشباههم من العرب غيَّروا فغير الله بهم، فتموا على أحسن ما كنتم عليه من الطاعة يتمم الله لكم أحسن ما ينيلكم من النصر والظفر. وأمر مسلم أجدر رماته أن يصوب رميه نحو ابن الغسيل فقال ابن الغسيل: علام تستهدنون لهم؟ من أراد التعجل فليلزم هذه الراية، فقام إليه كل مستميت، فقال الغدوٌ إلى ربكم. فوالله إني لأرجو أن تكونوا عن ساعه قريري عين، فنهض القوم واقتتلوا أشد قتال رئي في ذلك الزمان، وأخذ ابن الغسيل يقدم بنيه أمامه واحد بعد واحد حتى قتلوا بين يديه وقتل هو وقتل معه أخوه.

وانتهت المعركة لصالح جيش الشام، وهزم أهل المدينة هزيمة ماحقة، قتل فيها خلق كثير من القادة ووجوه الناس ولم يخف مروان أسفه على ابن حنظلة ومحمد بن عمرو بن حزم، وإبراهيم بن نعيم بن النحام، وغيرهم، بل كان يثني عليهم ويذكرهم بأحسن صفاتهم التي اشتهروا بها، وكان القتل ذريعاً في المدنيين وقد شبهتهم الرواية بنعام الشرد، وأهل الشام يقتلونهم في كل وجه،وقد قتل في هذه المعركة، عدد من الصحابة رضوان الله عليهم ويشهد لذلك ما ذكره سعيد بن المسيب حينما قال: وقعت الفتنة الأولى يعني مقتل عثمان - فلم تبق من أصحاب بدر أحداً، ثم وقعت الفتنة الثانية - يعني الحرَّة - فلم تبق من أصحاب الحديبية أحداً، ثم وقعت الثالثة فلم ترتفع وللناس طبّاخ[(١)]، ولقد وقد أورد المؤرخون قوائم بأسماء قتلى الحرَّة ومن أصيب من قريش والأنصار ما بين ثلاثمائة رجل وستة رجال، والحرَّة سبعمائة رجل من حملة القرآن وكان معهم ثلاثة أو أربعة من أصحاب رسول الله .

لقد اشتهر أن مسلم بن عقبة المري، أمر بانتهاب المدينة، فمكثوا

(١) المراد لم تبق في الناس من الصحابة أحداً فتح الباري، ٣٧٥/٧.

ثلاثـة أيـام مـن شـهر ذي الحجـة ينتهبـون المدينـة حتـى رأوا هـلال محرم، فأمر النـاس فكفوا، وذلك لأن معركة كانت لثلاث يقين من ذي الحجـة سنة ثلاث وستين للهجرة وتعتبر روايـة نـافع مولى بن عمر هي أصح رواية نصت على حدوث الإنتهاب فقد قال:.. وظفر - مسلم بن عقبة - بأهل المدينة وقتلوا وانتهبت المدينة ثلاثا[١].

وقد أطلق العنان بعض الكتّاب لرغباتهم وأهوائهم وذكروا أنـه حدث إنتهاك لحرمات بعض نساء المدينـة، ولم يستندوا فـي ذلك إلـى إي دليل والروايات المتعلقة بالاغتصاب لا يمكن الاعتماد عليها.

إن انتهـاك أعـراض نسـاء المدينـة لا أسـاس لهـا مـن الصـحة، وأنهـا روايـات جـاءت متـأخرة، وبـدافع حزبـي بغـيض، يتخـذ مـن الكـره والتعصب ضد التـاريخ الأمـوي دافعـاً لـه وتهدف إلـى إظهـار جيش الشام، الذي يمثل الجيش الأموي جيشاً بربريـاً لا يستند لأسس دينيـة أو عقائدية أو أخلاقية، وهذا الاتهام لا يقصد به اتهام الجيش الأمـوي فقط، بل إنَّ الخطورة التي يحملها هذا الاتهام تتعدى إلى ما هو أعظم من مجرد اتهام الجيش الأموي، إلى اتهام الجيش الإسلامي الذي فتح أصقاعاً شاسعة في تلك الفترة [٢].

نفذ مسلم وصية يزيد بحذافيرها، فلم يفاجئ أهل المدينة بالقتال، ولكنه أنذرهم وحذرهم، ولما مضت الثلاث، حاول إقنـاعهم وألحّ عليهم أن يقبلـوا السـلام، وأن يكفـوا عـن القتـال، ولكـنهم سبوه وشـتموه وردوا عليـه أمانـه، ويـا ليـت مسـلماً تـروى واسـتمر فـي حصـار المدينـة المحرمة، ولكن غلبه حبه لسفك الدماء، فدخل المعركة وأنزل بأهل المدينـة روعـاً عظيمـاً، وأعمل فيهم السيوف وقتل خيـارهم، وشـتتوا

(١) الطبقات الكبرى، ٣٨/٥، بإسناد حسن.
(٢) الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار، ٢ /٣٣٢.

شملهم ولم ينج منهم إلا أسير أو هارب إلى مكة لينضم إلى ابن الزبير وقد أسرف مسلم في قتل المسلمين حتى بعد انتهاء المعركة فقتل رجالاً خرجوا من المعركة سالمين، ولم يكن له ليقتلهم وقد انتهت المعركة، واستسلمت المدينة، ولكن غلب عليه طبعه، وجرى في عروقه دم الشر الذي فطر عليه، فكان يقتل الرجل لمجرد أن يقول إنه يبايع على كتاب الله وسنة رسوله، أو يبايع على سنة أبي بكر وعمر، وبالطبع لم يكن هذا أبداً مبرراً لسفك دماء وإزهاق أرواح، ولكنه الظلم والعسف والتجبر والطغيان.

وفي أوّل المحرم من عام ٦٤هـ بعد فراغ مسلم من حرب المدينةـ سار إلى مكة قاصداً قتال ابن الزبير، ولما بلغ ثنيَّة هرْش[١]، بعث إلى رؤوس الأجناد فجمعهم فقال: إنّ أمير المؤمنين عهد إليَّ إن حدث بي حدث الموت أن أستخلف عليكم حصين بن نمير السَّكوني ووالله لو كان الأمر لي ما فعلت. ثم دعابه فقال: انظر يا بن بردعة الحمار فاحفظ ما أوصيك به. ثم أمره إذا وصل مكة أن يناجز بن الزبير قبل ثلاث، ثم قال: اللهم إني لم أعمل عملاً قط بعد شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله أحب إليّ من قتلي أهل المدينة ولا أرجى عندي في الآخرة، وإن دخلت النار بعد ذلك إني لشقيٌّ. ثم مات قبحه الله ودفن بالمُشلل[٢].

انظر إلى شدة جهله وحماقته وكيف كان يعتقد أنه يتقرب بقتل هؤلاء إلى الله، وأنه يزداد بقتلهم قربى منه - سبحانه - والناظر في دعائه يستشعر الأسباب التي جعلت مسلماً يدير المعركة بشراسة، ويسرف في دماء المسلمين من غير وازع ولا رادع فقد كان مسلم يعتقد أن

(١) هرْش: مكان مرتفع من طريق مكة: قريبة من الجحفة.
(٢) بين مكة والمدينة.

قتل أهل المدينة قربى إلى الله، فأسرف في القتلى وكان يؤمن بأن قتلهم هو السبيل إلى الجنة، فأمعن في سفك الدماء ولو أن الأحمق الجاهل الذي كان حريصاً أشد الحرص على طاعة أمير المؤمنين ولم يحرص قط على طاعة الله، وكان يكره معصية أمير المؤمنين عند الموت، بقدر ما كان يكره طاعة الله في عباده، لو أنه فقه أن زوال الدنيا عند الله أهون من سفك دم امرىء مسلم، ولو أنه علم أن ما فعله أهل المدينة لا يبيح دماءهم ولا تستباح أموالهم لو أنه علم ذلك لكان يكفيه من إدارة المعركة القدر الذي يخضع الناس ليزيد(١).

مواقف من حياته:

نصف رأسه أبيض ونصفه أسود:

قال أبو معشر: أقبلت من مكة حتى إذا كنت بقفا المشلّل عند قبر مسلم إذا رجل من أهل الشام ممّن حضر وقعة الحرّة يسايرني، فقلت له: هذا قبر مسلم بن عقبة. فقال: أحدثك بالعجب؟ كان مع مسلم رجل من أهل الشام يقال له أبو الغرّاء فإذا نصف شعره أسود ونصفه أبيض، فقلت له: ما شأنك؟ قال: لما كانت ليلة الحرّة جئت قُبَاء فدخلت بيتاً فإذا فيه امرأة جالسة معها صبي لها وليس عليها شيء إلا درع وقد ذُهب بكل شيء لها، فقلت لها: هل من مال؟ قالت: لا والله لقد بايعت رسول الله ، على أني لا أزني ولا أسرق ولا أقتل ولدي. قال: فأخذت برجل الصبي فضربت به الحائط. فنثر دماغه، فخرجت فإذا نصف رأسي أبيض ونصفه أسود كما ترى(٢).

(١) الأمويون بين الشرق والغرب نقلا عن الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار، ٢ /٣٣٥.
(٢) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص٣١.

لأقتلنك قتلة يتحدث بها العرب:

عن ابن الأعرابي قال: قال مسلم بن عقبة لرجل: والله لأقتلنك قتلة يتحدث بها العرب. فقال له: إنك والله لن تدع لؤم القدرة وسوء المثلة لأحدٍ أحق بهما منك[١].

إنه إذن لشقي:

وقال عوانة ويزيد بن عياض أن مسلم بن عقبة المري لما قتل أهل المدينة وتوجه إلى مكة فنزل به الموت بثنية هرشا أو بقفا المشلل فدعا حصين بن نمير السكوني فقال: يا برذعة الحمار، إن أمير المؤمنين عهد إلي إن نزل بي الموت أن أوليك، وأكره خلافه عند الموت، ولولا ذلك لكان الوالي حبيش بن دلجة فإنه أولى بذلك منك. احفظ عني ما أقول لك: لا تطيلن المقام بمكة، فإنها أرض جردة محتدمة الحر، ولا تصلح الدواب بها، ولا تمنع أهل الشام من الحملة، ولا تمكن قريشاً من أذنك، فإنهم قوم خدع. ليكن أمرك الوقاف ثم الثقاف ثم الانصراف. ولئن دخلت النار بعد قتلي أهل الحرة إني إذن لشقي[٢].

من كلامه:

- خطبة مسلم بن عقبة يؤنب أهل الشأم :

أقبل مسلم بجيشه إلى المدينة فحاصرها من جهة الحرة ودعا أهلها إلى الطاعة ومراجعة الحق وأجلهم ثلاثا فلم يذعنوا لقوله ونشبت الحرب بين الفريقين وحملت خيل ابن حنظلة على أهل الشأم فانكشفوا وقتل صاحب رايتهم فأخذ مسلم الراية ونادى

(١) ثعلب، مجالس ثعلب، ص٩١.
(٢) المبرد، التعازي والمراثي، ص٦٢.

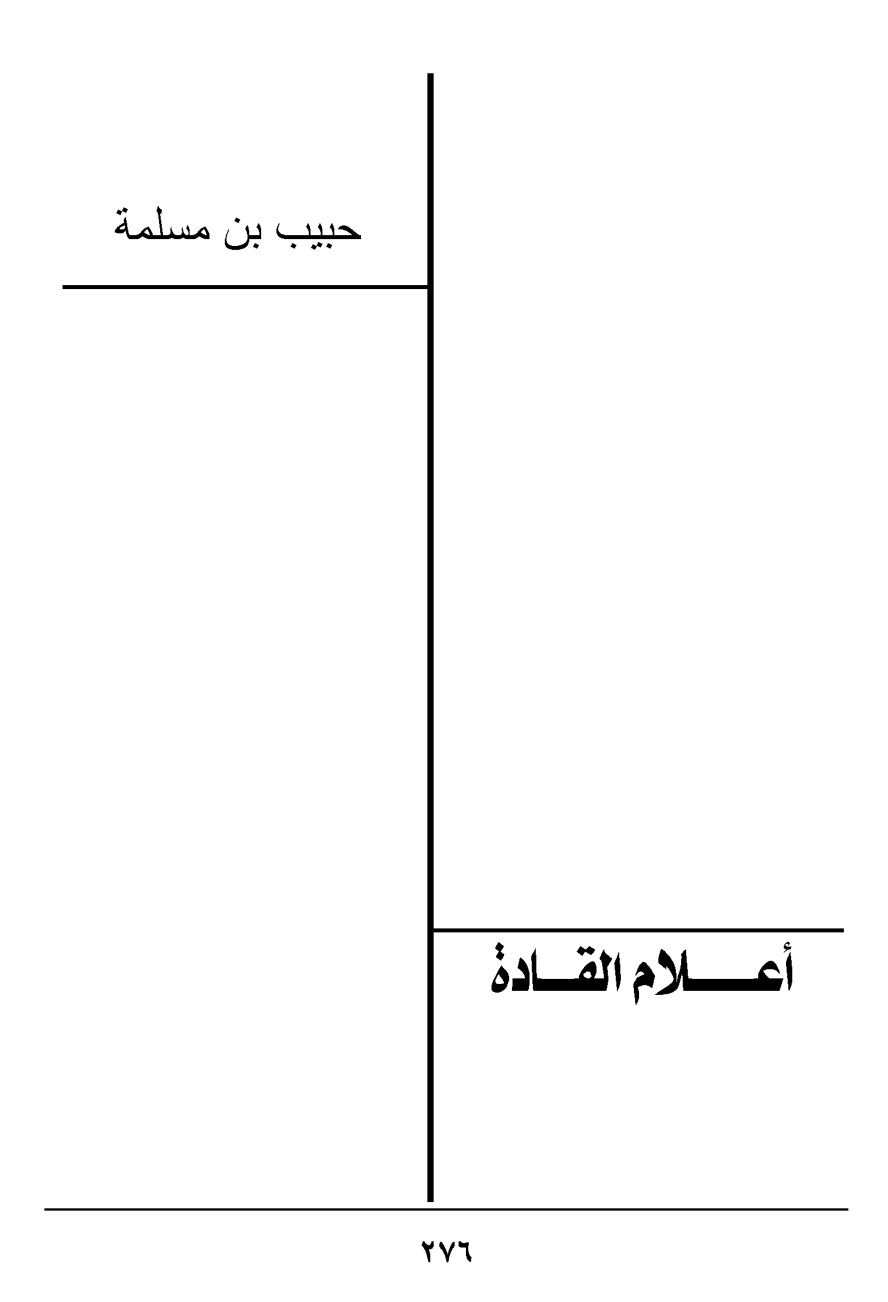
يأهل الشأم أهذا القتال قتال قوم يريدون أن يدفعوا به عن دينهم وأن يعزوا به نصر إمامهم قبح الله قتالكم منذ اليوم ما أوجعه لقلبي وأغيظه لنفسي أما والله ما جزاؤكم عليه إلا أن تحرموا العطاء وأن تجمروا في أقاصي الثغور شدوا مع هذه الراية ترح الله وجوهكم إن لم تعتبوا.

- خطبة مسلم يحرضهم :

ثم إن خيل مسلم ورجاله أقبلت نحو ابن حنظلة ورجاله حتى دنوا منه وأخذ مسلم يسير في أهل الشأم ويحرضهم ويقول يأهل الشأم إنكم لستم بأفضل العرب في أحسابها و لا أنسابها ولا أكثرها عددا ولا أوسعها بلدا ولم يخصصكم الله بالذي خصكم به من النصر على عدوكم وحسن المنزلة عند أئمتكم إلا بطاعتكم واستقامتكم وإن هؤلاء القوم وأشباههم من العرب غيروا فغير الله بهم فتموا على أحسن ما كنتم عليه من الطاعة يتمم الله لكم أحسن ما ينيلكم من النصر والفلج[1].

* * *

(١) جمهرة خطب العرب، ٢ /٣٢٧ - ٣٢٨.


حبيب بن مسلمة
أعـــلام القــادة

القائد حبيب بن مسلمة

هو حبيب بن مسلمة بن مالك الأكبر الفهري القرشي، أبو عبد الرحمن، يعتبر من أقران خالد ابن الوليد وأبي عبيدة في الشجاعة والإقدام والأثر الجميل في الفتوح الإسلامية؛ لأنه شب على الحرب، وألف منذ صغره الطعن والضرب، فقضى معظم حياته في الحروب، وكان يقال له حبيب الروم لكثرة دخوله بلاد الروم، وما ينال من الفتوح فيها، وقد روى الخطيب عن مصعب بن عبد الله أنه قال: " كان حبيب شريفا قد سمع من النبي ، وأنكر الواقدي سماعه ".

وقال مكحول: " سألت الفقهاء، هل كان لحبيب صحبة؟ فلم يعرفوا ذلك، فسألت قومه فأخبروني أنه قد كانت له صحبة "، وقال العباس الدوري: " أهل المدينة ينفون عنه الصحبة، وأهل الشام يثبتونها " (١).

كان حبيب على صغر سنه يتنقل من ساحة عمليات إلى ساحة عمليات أخرى، فاتحا مرة، ومددا مرة أخرى، وكان النصر حليفه في كل معركة خاضها، قدم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو بالمدينة غازيا، وكان يومئذ صغيرا، وشهد غزوة تبوك تحت لواء الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، وبهذه الغزوة بدأ جهاده وهو يناهز العشرين من عمره القصير، وحين رآه عمر بن الخطاب صلب العود وقوي البدن، جربه تجربة عملية ليرى أي نوع من الرجال هو، فعرض عليه خزائن المال وخزائن السلاح، فاختار السلاح وعف عن المال، وتفضيل السلاح على المال من مزايا القائد

(١) محمد شريف الزيبق، حبيب الروم، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ٢١ /١٤.

الذي يتغلغل حب الجندية في أعماق نفسه. وقد تولى قيادة كردوس في معركة (اليرموك) الحاسمة وهو ابن أربع وعشرين سنة، مما يدل على ظهور سماته القيادية مبكرا وهو في ريعان الشباب، وولاه عمر بن الخطاب (عجم (الجزيرة) إداريا وقائدا، وليس من السهل أن يولي عمر كل إنسان مثل هذا المنصب الرفيع؛ لأن عمر كان يلتزم بصفات معينة في القائد قل أن تتوافر في الرجال، أخيرا ولاه عمر بن الخطاب (أرمينية) و(أذربيجان) وهي مناطق شاسعة وقيادة مهمة للغاية، نظرا لشدة شكيمة أهلها ولبعدها عن قواعد المسلمين الرئيسية والمتقدمة.

ومارس القيادة والإدارة في عهد عثمان، ولقد كان شجاعا غاية الشجاعة، مقداما غاية الإقدام؛ لما توجه لقتال (الموريان) كان في ستة آلاف، وكان (الموريان) في سبعين ألفا، فقال حبيب لمن معه: إن يصبروا وتصبروا فأنتم أولى بالله منهم، وإن يصبروا وتجزعوا فإن الله مع الصابرين، ولقيهم ليلا، فقال: اللهم أجل لنا قمرها، واحبس عنا مطرها، واحقن دماء أصحابي، واكتبهم شهداء، ففتح الله له. فكان من أسباب انتصاره على عدوه - بالإضافة إلى عامل الإيمان - هو الهجوم الليلي الذي باغت به العدو، وجعل معنوياته تنهار ثم يولي الأدبار. وكان مثالا شخصيا حيا لرجاله من الشجاعة والإقدام، فقد كان يقود رجاله من الأمام، يقول لهم: اتبعوني، ولا يبقى في الخطوط الخليفة مؤثرا السلامة والعافية، وحين عزم أن يبيِّت (الموريان) سمعته امرأته يذكر ذلك، فقالت له: وأين الموعد؟ فقال: سرادق موريان أو الجنة. وبيَّت حبيب عدوه وقتل من صادفه في طريقه، فلما أتى السرادق وجد امرأته قد سبقته إليه. فلم يكن وحده بطلا يضرب لرجاله بأعماله البطولية أروع الأمثال، بل كانت

امرأته بطلة يقتفى الأبطال آثارها في التضحية والفداء.

وكان يستشير رجاله ويتقبل مشورتهم، وكان لا يستأثر بالرأي دونهم، بل كان يتصنت ليتلقف آراء رجاله، ويطبق ما رآه حسنا، وينفذ ما يجده صوابا، بالإضافة إلى عقد مؤتمرات الشورى قبل المعارك وفي أثنائها وبعدها؛ فقد سمع يوما أحد رجاله يقول: لو كنت ممن يسمع حبيب مشورته، لأشرت عليه بأمر يجعل الله فيه لنا نصرا وفرجا إن شاء الله، واستمع حبيب لقوله، فقال أصحابه: وما مشورتك؟ فقال: أشير عليه أن ينادي بالخيول فيقدمها، ثم يرتحل بعسكره فيتبع خيله، وتوافيه الخيل في جوف الليل، وينشب القتال، ويأتيهم حبيب بسواد عسكره مع الفجر، فيظنون أن المدد قد جاءهم فيرعبهم الله، فيهزمهم بالرعب.

ونادى حبيب بالخيول، فوجهها بليلة مقمرة مطيرة، ثم ارتحل وراء خيوله، ولكنه عاد إلى عدوه في السحر، فحمل وحمل أصحابه فانهزم العدو وأصابوا غنائم كثيرة.

كان حبيب صاحب كيد، يفكر ويقدر، ثم يستشير رجاله ويستطلع ساحة القتال، ويحصل على المعلومات المستفيضة عن العدو، ثم يبني بعد ذلك خطته العسكرية على هدى وبصيرة.

إن أعمال حبيب الجهادية خطط مدبرة ولم تكن خططا ارتجالية، لذلك رافق النصر أعلامه في أخطر ساحات القتال في الفتح، وبالإضافة إلى تلك المزايا أو قبلها كان حبيب مؤمنا حقا صادق الإيمان، وكان إذا لقى عدوا أو ناهض حصنا يحب أن يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فتوحات حبيب بن مسلمة الفهري:

كانت الروم قد أجلبت على المسلمين بالشام بجموع عظيمة أول خلافة عثمان، فكتب عثمان إلى الوليد بن عقبة بالكوفة أن يمد إخوانه بالشام، فأمدهم بثمانية آلاف عليهم سلمان ابن ربيعة الباهلي، فظفر المسلمون بعدوهم بعد أن غزوهم في أرض الروم فأسروا منهم وغنموا. وكان تحالف الروم والترك قد تجمع لملاقاة المسلمين الذين غزوا أرمينية من الشام، وكان على المسلمين حبيب بن مسلمة وكان صاحب كيد لعدوه، فأجمع أن يبيِّت قائدهم الموريان، أي يباغته ليلا، فسمعته امرأته أم عبد الله بنت يزيد الكلبية يذكر ذلك، فقالت: فأين موعدك؟ قال: سرادق الموريان أو الجنة.. ثم بيتهم فغلبهم، وأتى سرادق الموريان فوجد امرأته قد سبقته إليه. وواصل حبيب جهاده وانتصاراته المتوالية في أراضي أرمينية وأذربيجان، ففتحها إما صلحا أو عنوة.

لقد كان حبيب بن مسلمة الفهري من أبرز القادة الذين حاربوا في أرمينية البيزنطية؛ فقد أباد جيوشا بأكملها للعدو، وفتح حصونا ومدنا كثيرة. كما غزا ما يلى ثغور الجزيرة العراقية من أرض الروم فافتتح عدة حصون هناك، مثل شمشاط وملطية وغيرهما، وفي سنة ٢٥ هـ غزا معاوية الروم فبلغ عمورية فوجد الحصون التي بين أنطاكية وطرسوس خالية، فجعل عندها جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة، وواصل قائده قيس بن الحر العبسي الغزو في الصيف التالي، ولما فرغ هدم بعض الحصون القريبة من أنطاكية كي لا يفيد منها الروم[١].

(١) محمد شريف الزيبق، حبيب الروم، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ٢١ /١٧ - ١٩، الصلابي، عثمان بن عفان شخصيته وعصره، ١ /٢٤٤.

لقد كان حبيب بن مسلمة مجاب الدعوة فقد أخرج البيهقي والطبراني عن أبي هريرة أن حبيبا كان مستجاب الدعوة، وكان قد أمر على جيش، فدرب الدروب، فلما لقي العدو قال للناس: إني سمعت رسول الله يقول:﴿لا يجتمع ملأ فيدعو بعضهم ويؤمن بعضهم – أو قال: سائرهم – إلا أجابهم الله﴾، ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: اللهم احقن دماءنا، واجعل أجورنا أجور الشهداء[1].

لقد كان حبيب قائدا فذًّا، جمع مزايا القائد الفذ: الطبع الموهوب، والعلم المكتسب، والتجربة العلمية)، والثقة بالله القوي العزيز.

إن حبيب بن مسلمة أسدى للفتح الإسلامي خدمات لا تنسى، فهو بدون شك من ألمع قادة الفتوح في عهد عثمان.

وقد توفى هذا القائد الفذ سنة اثنتين وأربعين هجرية، فكان عمره يوم توفى أربعًا وخمسين سنة قمرية، وكانت حياته قليلة في تعداد السنوات، كثيرة في تعداد جلائل الأعمال، قصيرة في عمر الزمن، باقية آثارها على مر الدهور وتوالي السنين والقرون. رضي الله عن الصحابي الجليل، الإداري الحازم، السياسي المحنك، القائد الفاتح، حبيب بن مسلمة الفهري[2].

وقال أبو زرعة الدمشقي: إن لحبيب ولدا كثيرا عندنا بحوران، ومنزلة بطرف من أطراف حوران، وكان بعضهم يصهر إلي، ورثاه شريح بن الحارث بقوله:

ألا كل من يدعى حبيبا وإن بدت ::: مروءته يفدي حبيب بني فهر

---

(١) محمد شريف الزيبق، حبيب الروم، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ٢١ /١٧ - ١٩.

(٢) محمد شريف الزيبق، حبيب الروم، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ٢١ /١٧ - ١٩، الصلابي، عثمان بن عفان شخصيته وعصره، ١ /٢٤٤.

همام يقود الخيل حتى كأنما ::: يطأن برضراض الحصا جاحم الجمر
رضي الله عنه وأرضاه وعفا عنه في المجاهدين والقادة الفاتحين(١).

مواقف من حياته:

في سرادق الطاغية تقاتل الترك:

وكان حبيب بن مسلمة الفهري رجلا غزاء للترك فخرج ذات مرة الى بعض غزواته فقالت له امرأته: أين موعدك؟ قال سرادق الطاغية: أو الجنة إن شاء الله تعالى قالت: إني لأرجو أن أسبقك إلى أي الموضعين كنت به فجاء فوجدها في سرادق الطاغية تقاتل الترك (٢).

عظام أهل الكهف:

قال قتادة: وغزا ابن عباس مع حبيب بن مسلمة، فمروا بالكهف فإذا فيه عظام، فقال رجل: هذه عظام أهل الكهف. فقال ابن عباس ﵁: لقد ذهبت عظامهم منذ أكثر من ثلاثمائة سنة. وقال وهب والسدي وغيرهما: وأسماؤهم مكسلمينا وهو أكبرهم ورئيسهم، وأمليخا وهو أجملهم وأعبدهم وأنشطهم، ومرطونس، ويوناس، وساربنوس، وبطنيوس وكندسلططنوس، وكلبهم قطمير يكتب ذلك للنوم ولبكاء

(١) طبقات ابن سعد ٧ / ٤٠٩، طبقات خليفة: ت ١٦٢، ٢٨٣٠، المحبر: ٢٩٤، التاريخ الكبير ٢ / ٣١٠، التاريخ الصغير ١ / ١٢٩، الجرح والتعديل ٣ / ١٠٨، المستدرك ٣ / ٣٤٦ و٤٣٢، جمهرة أنساب العرب: ١٧٨، ١٧٩، الاستيعاب: ٣٢٠، تاريخ ابن عساكر ٤ / ٩٠ ب، أسد الغابة ١ / ٣٧٤، تهذيب الكمال: ٢٣٢، تاريخ الإسلام ٢ / ٢١٥، تذهيب التهذيب ١ / ١٢٠ آ، العقد الثمين ٤ / ٩٤، الإصابة ١ / ٣٠٩، تهذيب التهذيب ٢ / ١٩٠، خلاصة.
تذهيب الكمال: ٦١، تهذيب ابن عساكر ٤ / ٣٨، محمد شريف الزيبق، حبيب الروم، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ٢١ /١٩.
(٢) أبي عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ٢٩٧/١.

الأطفال[١].

من خطب حبيب بن مسلمة

أما بعد: فإن عثمان بن عفان كان خليفة مهديا يعمل بكتاب الله عز و جل، وينيب إلى أمر الله تعالى فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته فعدوتم عليه، فقتلتموه فادفع إلينا قتلة عثمان إن زعمت أنك لم تقتله نقتلهم به ثم اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شورى بينهم يولي الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم، فقال له علي بن أبي طالب: وما أنت لا أم لك والعزل وهذا الأمر اسكت، فإنك لست هناك ولا بأهل له فقام: وقال له والله لتريني بحيث تكره فقال علي وما أنت لو أجلبت بخيلك ورجلك لا أبقى الله عليك إن أبقيت على أحقرة وسوءا اذهب فصوب وصعد ما بدا لك، وقال شرحبيل بن السمط إني إن كلمتك فلعمري ما كلامي إلا مثل كلام صاحبي قبل فهل عندك جواب غير الذي أجبته به، فقال: علي نعم لك ولصاحبك جواب غير الذي أجبته به [٢].

* * *

(١) الدميري، حياة الحيوان الكبرى، ٢/١٥٨.
(٢) جمهرة خطب العرب، ١ /٣٣٥.

سلمان بن ربيعة
الباهلى

أعـــلام القـــادة

القائد سلمان بن ربيعة الباهلي

هو سلمان بن ربيعة بن يزيد الباهلي: صحابي، من القادة، القضاة. شهد فتوح الشام، وسكن العراق. واستقضاه عمر على الكوفة. قال ابن قتيبة: (هو أول قاض قضى لعمر بن الخطاب بالعراق) ثم ولي غزو أرمينية في زمن عثمان، واستشهد فيها.

كان هذا الصحابي أول من قضى بالكوفة، فقد بعثه عمر بن الخطاب (قاضيا بالكوفة قبل شريح، فلما ولي سعد بن أبي وقاص الولاية الثانية في أيام عثمان بن عفان استقضى سلمان أيضا، وقد شهد القادسية فقضى بها، ثم قضى بـ(المدائن)، وليس كل إنسان يصلح للقضاء، خاصة في أيام عمر بن الخطاب (، أو يصلح لأهل الكوفة التي كانت حينذاك تعج برجالات العرب وكبار الصحابة من جهة، وبأخلاط شتى من أمم وأقوام وقبائل مختلفة من جهة أخرى، وهذا دليل على غزارة علم سلمان بالدين الحنيف واستقامته وعدله وتدينه، وتمتعه بعقلية راجحة متزنة، وشخصية قوية نافذة، مما جعله موضع ثقة الناس جميعا، كما أنه تولى المقاسم في فتح (المدائن) وفي غزوة (الباب) أيضا، مما يدل على تمتعه بالنزاهة المطلقة. كان رجلا صالحا يحج كل سنة، روى عنه بعض كبار التابعين، وكان مثالا نادرا للخلق القويم، كريما مضيافا شهما غيورا وفيا صادقا محبا للخير، يحب للناس ما يحبه لنفسه، ولم يترك حين استشهاده دينارا ولا دارا، بعد أن عاش كل حياته مجاهدا وقاضيا وأميرا.

وقد كان متفوقا على زملائه في الصفات القيادية، فعندما بعث عثمان بن عفان (كتابا إلى الوليد بن عقبة - عامله على الكوفة - يأمره به أن يرسل نجدة من أهل الكوفة إلى أهل الشام بقيادة رجل ممن ترضى نجدته وبأسه وشجاعته وإسلامه، لم يتردد

الوليد لحظة في اختيار سلمان لهذا الواجب البالغ الخطورة، فاختاره من بين عدد كبير من القادة أصحاب الفتوح والأيام الذين كانوا معه أو كانوا في الكوفة؛ ذلك لأن سلمان كان حقا مثالا رائعا من أمثلة النجدة والبأس والشجاعة بالإضافة إلى ورعه وتقواه، لقد كان شجاعا مقداما سريعا إلى النجدة، خبيرا بفنون الحرب لممارسته الطويلة لها، وله تجارب طويلة في قيادة الرجال، وكان أبصر بالمضارب من الجازر بمفاصل الجزور، مما يدل على أنه كان من الرماة الماهرين، وكان ماهرا في الفروسية خبيرا بالخيل، وكان يلي الخيل لعمر بن الخطاب (، قد أعد في كل مصر من أمصار المسلمين خيلا كثيرة معدة للجهاد، وكان في الكوفة أربعة آلاف فرس، فإذا داهم العدو الثغور الإسلامية ركبها المسلمون المجاهدون وساروا مجدين لقتاله، وكان سلمان يتولى الخيل بالكوفة.

وكان شجاعا في الفروسية، قال سلمان: (قتلت بسيفي هذا مائة مستلئم كلهم يعبد غير الله، ما قتلت منهم رجلا منهم صبرا).
إنه لا يقتل حتى عدوه الكافر بالله الذي يعبد غير الله، لا يقتله في ساحة القتال صبرا بل ينذره ثم يصاوله مصاولة الأنداد، ويقتله عندما يجد فرصة لقتله، فلا يكون هذا القتل غدرا، ولا يكون صبرا.

لقد كان مثالا للمجاهد الصادق المحتسب، الذي يجاهد لتكون كلمة الله هي العليا لا يبالي على أي جنب كان في الله مصرعه، وأخيرا سقط مضرجا بدمائه ولم يسقط السيف من يده، إنه قدوة حسنة لكل جندي ولكل قائد في ماضيه المشرف المجيد، وفي أعماله الفذة الخالدة. هذا وقد استشهد سنة اثنتين

وثلاثين هجرية أو سنة ثلاث وثلاثين هجرية، ، الفقيه المحدث، القاضي العادل، الأمين النزيه، الإداري الحازم، الفارس المغوار، البطل الشهيد، القائد الفاتح سلمان بن ربيعة الباهلي[(١)].

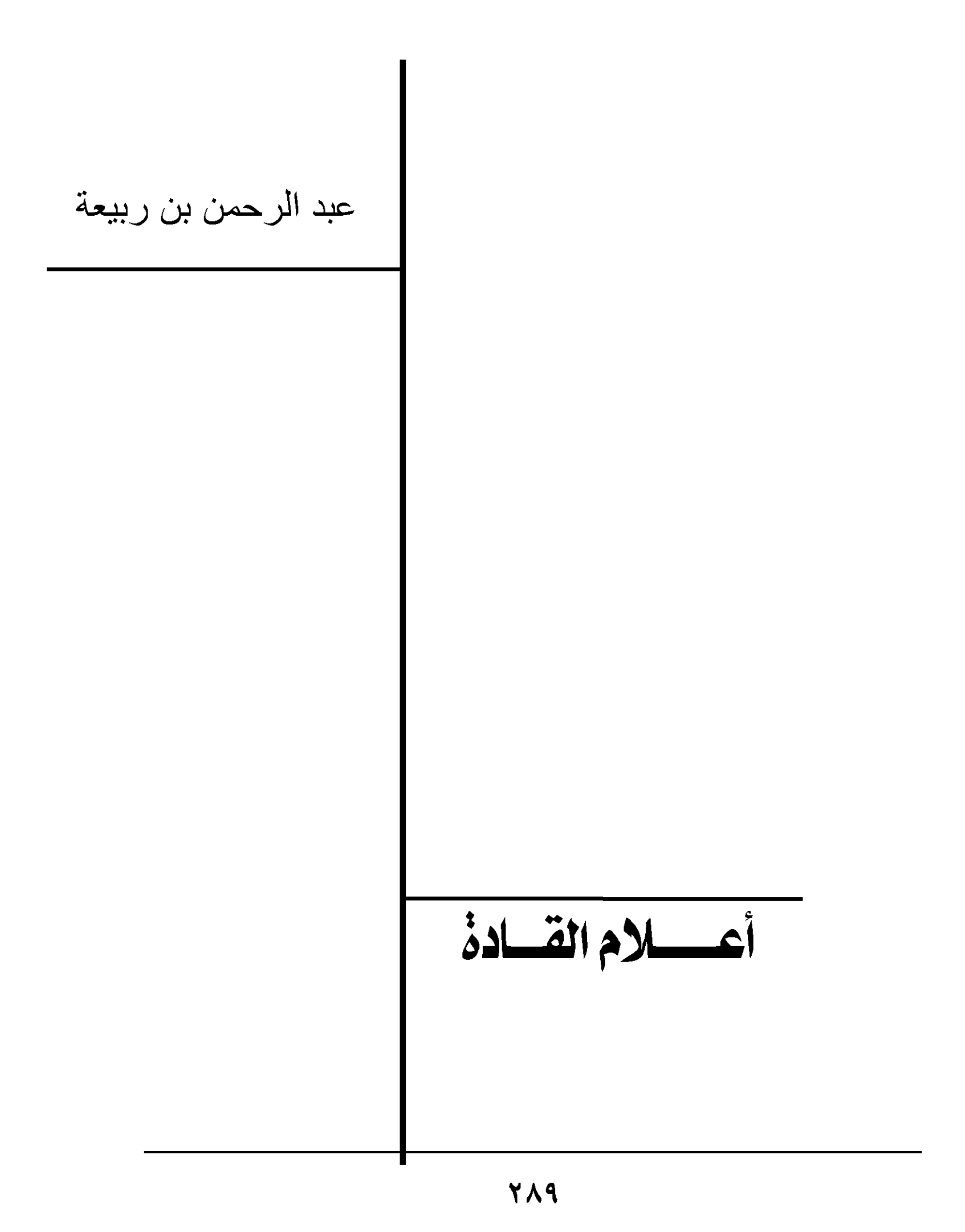
حينما بدأت الجيوش الإسلامية بالتوجه إلى أرمينية لأول مرة في عهد عثمان؛ حيث توجه أول جيش إسلامي إلى تلك المنطقة من بلاد الشام، وهي من أقرب الولايات إليها، يقوده حبيب بن مسلمة الفهري وقوامه حوالي ثمانية آلاف مقاتل، واستطاع هذا الجيش أن يفتح العديد من المواقع في أرمينية، إلا أنه أحس بالخطر نتيجة تجمع حشود من الروم لمساعدة الأرمن في حروبهم ضد المسلمين، فطلب المساعدة من الخليفة الذي أمر بتسيير جيش من الكوفة قوامه ستة آلاف رجل تقريبا ويقوده سلمان بن ربيعة الباهلي. وقد حدث نزاع بعد ذلك بين حبيب بن مسلمة وسلمان بن ربيعة، وقف الخليفة عثمان عليه، فقام بالكتابة إلى القوم وحل المشكلة التي بينهما. ويبدو أن سلمان بن ربيعة تولى قيادة الجيوش الإسلامية؛ حيث كتب إليه عثمان بإمرته على أرمينية، ثم توغل سلمان بن ربيعة في أرمينية ثم بلاد (الخزر) فاتحا ومنتصرا، حتى وقعت معركة حامية بين جيشه وقوامه عشرة آلاف رجل وجيش ملك الخزر وقوامه ثلاثمائة ألف - كما تقول الروايات - فقتل سلمان وجميع جنوده، وقد كتب عثمان (إلى حبيب بن مسلمة أن يسير مرة أخرى إلى بلاد أرمينية، فاتجه بجيشه وقام بفتح المواقع مرة بعد أخرى، وثبت أقدام المسلمين فيها،

(١) الصلابي، عثمان بن عفان شخصيته وعصره، ١ /٢٤١.

وعقد بعض المعاهدات مع أهل البلاد، ثم رأى عثمان (أن يوجهه إلى ثغور الجزيرة لخبرته بها وقدرته عليها، وعين مكانه على أرمينية حذيفة بن اليمان بالإضافة لولايته على أذربيجان؛ حيث قام بعدة غزوات نحو بلاد الخزر من أرمينية، وبعد ما يقرب من سنة عزله عثمان وولى على أرمينية المغيرة بن شعبة (حتى توفى عثمان وهو عليها وعلى أذربيجان في الوقت نفسه. وتعد هذه الولاية إضافة جديدة أضافها عثمان إلى الدولة الإسلامية ولم تكن فتحت قبله، وقد لقي المسلمون عناء شديدا في فتحها وتنظيمها وضبط أمورها[1].

* * *

(١) الصلابي، عثمان بن عفان شخصيته وعصره، ١ /٢٦٦.


عبد الرحمن بن ربيعة
أعـــلام القــادة

القائد عبد الرحمن بن ربيعة

عبد الرحمن بن ربيعة بن يزيد الباهلي: وال، من الصحابة، كان يلقب ذا النور. ولاه عمر بن الخطاب قضاء الجيش الذي وجهه إلى القادسية بقيادة سعد بن أبي وقاص، وعهد إليه بقسمة الغنائم. ثم ولاه الباب، وقتال الترك والخزر، فاستمر في ولايته هذه إلى أن استشهد في بعض وقائعه ببنجر.

كان عبد الرحمن قائدا عَقديًّا من الطراز الرفيع، وكان لتمسكه الشديد بعقيدته موضع ثقة رؤسائه ومرؤوسيه على حد سواء، بالإضافة إلى شجاعته وإقدامه وعلمه بأمور الدين، لذلك بقي قائدا لمنطقة (باب الأبواب) وواليا عليها منذ وفاة سراقة بن عمرو حتى استشهد، لم يعزل من منصبه على الرغم من تبدل الخلفاء وتغير الولاة والقادة في الكوفة مرجع عبد الرحمن المباشر، وكان عبد الرحمن يؤمن بوسائل حرب الفروسية الشريفة، فلا يخون ولا يغدر ولا يضرب من الخلف.

وكان لسيرته الحسنة في منطقة (باب الأبواب) وجنوب بحر الخزر وغربه أثر أي أثر في استقرار الأمور واستتباب الأمن والنظام في تلك الربوع، فأصبحت تلك المناطق قاعدة أمامية لنشر الإسلام والفتح شمالا، فثبت الإسلام في تلك الأصقاع النائية في وجه مختلف المحن والتيارات منذ أربعة عشر قرنا حتى اليوم.

ومن مواقفه الخالدة التي سطرها على صفحات التاريخ عندما خرج بالناس حتى قطع (الباب) فقال له الملك شهريار: ماذا تريد أن تصنع؟ قال: أريد (بَلَنْجَر) والترك، قال: إنا لنرضى منهم أن يدعونا من دون (الباب). قال عبد الرحمن: لكنا لا نرضى منهم ذلك حتى نأتيهم في ديارهم، وتالله إن معنا لأقواما لو يأذن أميرنا في الإمعان

لبلغت فيهم (الرَدْم).

قال الملك: وما هو؟ فأجابه عبد الرحمن: أقوام صحبوا رسول الله ودخلوا في هذا الأمر بنية، كانوا أصحاب حياء وتكرم في الجاهلية، فازداد حياؤهم وتكرمهم، فلا يزال هذا الأمر دائما لهم، ولا يزال النصر معهم حتى يغيرهم من يغلبهم، وحتى يلفتوا عن حالهم.

وقد غزا عبد الرحمن (بلنجر) غزاة في زمن عمر بن الخطاب، فقال الترك: ما اجترأ علينا إلا ومعه الملائكة تمنعهم من الموت، فهرب منه الترك وتحصنوا فرجع بالغنيمة والظفر بعد أن بلغه خيله (البيضاء) على رأس مائتي فرسخ من (بلنجر)، وعادوا ولم يقتل منهم أحد.

ومن الواضح أن معنويات المسلمين كانت عالية جدا لتتابع انتصاراتهم، ولتمسكهم بدينهم، كما أن معنويات الأمم التي حاربوها كانت منهارة؛ لأن المسلمين غلبوا الأمم التي قاتلوها، لذلك هرب الأتراك من المسلمين وتحصنوا، فلم يحدث قتال فعلي في هذه الغزوة، فلم يسقط من المسلمين شهيد.

لقد كان عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي على جانب عظيم من التقوى والخلق الكريم، وكان تصرفه مع المغلوبين له الأثر في استتباب الأمن واستقرار النظام وانتشار الإسلام، فقد كان وفيًّا غاية الوفاء، أمينا غاية الأمانة؛ فقد أرسل ملك الباب رسولا إلى ملك (الصين) مع هدايا - وذلك قبل أن يفتح المسلمون بلاده - فعاد رسوله من رحلته بعد فتح المسلمين لتلك البلاد، وكان مع الرسول العائد هدايا من ملك الصين بينها ياقوتة حمراء ثمينة، وكان ملك (الباب) حين عودة رسوله في مجلس عبد الرحمن، فتناول الملك من رسوله تلك الياقوتة ثم ناولها عبد الرحمن، ولكن عبد الرحمن ردها فورا إلى الملك بعد

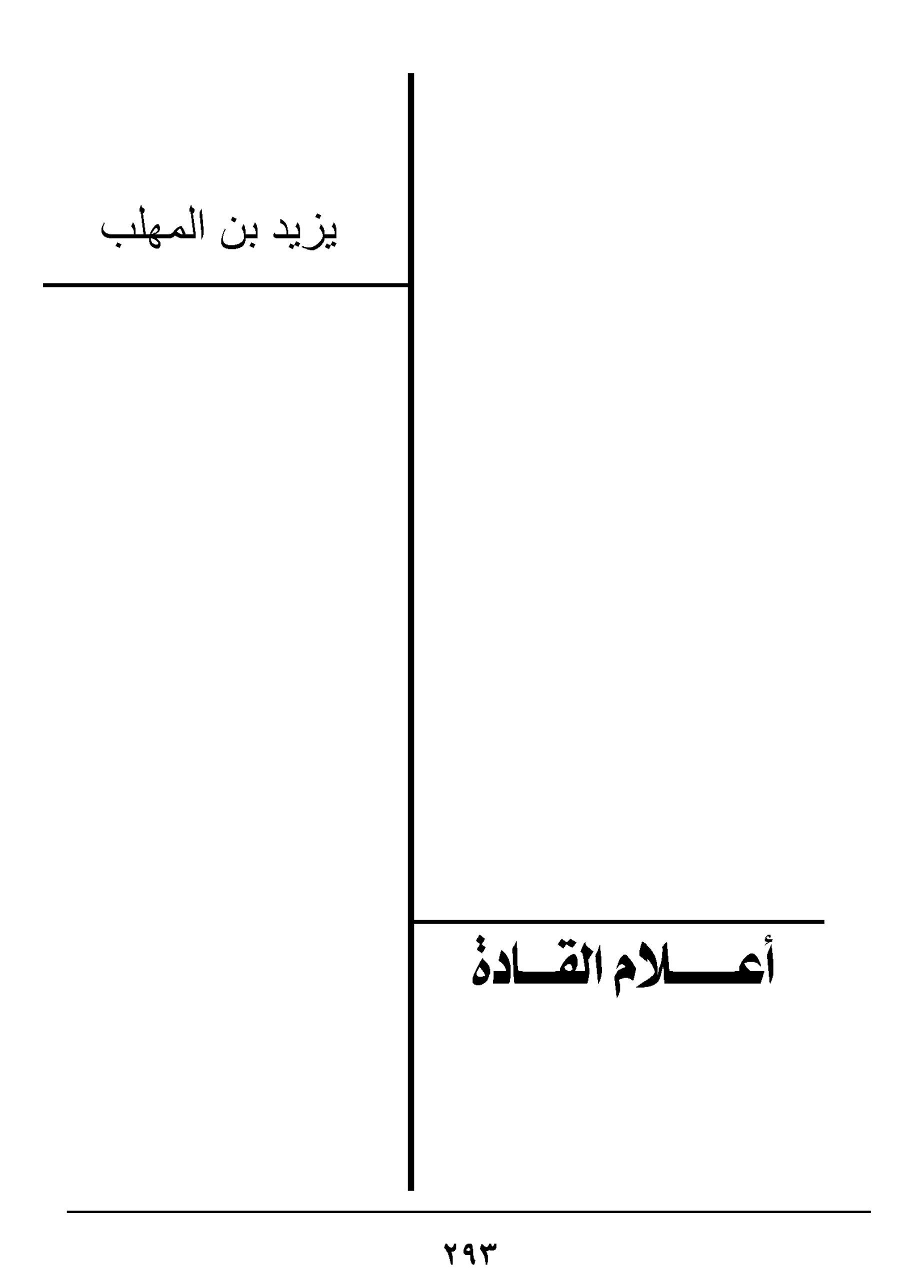
أن نظر إليها، فهتف الملك متأثرا وقال: لهذه - يعني الياقوتة - خير من هذا البلد (أي باب الأبواب)، وأيم الله لأنتم أحب إليَّ حكاما من آل كسرى، فلو كنت في سلطانهم ثم بلغهم خبرها لانتزعوها مني، وأيم الله لا يقوم لكم شيء ما وفيتم ووفى ملككم الأكبر.

كان من حق ملك المدينة (الباب) وما حولها أن يعجب أشد العجب ويدهش أشد الدهشة بأمانة القائد المسلم ووفائه، فقد عاش هذا الملك عمره كله في دوامة عنيفة من الخيانة وفي جو مشحون بالغدر، فلما رأى أمانة المسلمين المثالية ووفاءهم المطلق لم يتمالك نفسه أن نسى ملكه المضاع وملوكه الغابرين، فعبر عن شعوره بكلمات خارجة من أعماق قلبه إعجابا بما يرى ويسمع من أمانة ووفاء.

كان عبد الرحمن يعلم أن الاستيلاء على الياقوتة التي لا تقدر بثمن ليس من حقه شخصيا، ولا من حق بيت مال المسلمين، فكانت تلك الياقوتة والتراب عنده سيان، فقد كان عبد الرحمن كريما مضيافا شهما غيورا، ورعا تقيا، متفقها في الدين تقيا، لا يملك شيئا من حطام الدنيا على الرغم من أنه قضى أكثر عمره غازيا وواليا، وقد استشهد في عام اثنتين وثلاثين للهجرة في منطقة (بلنجر). ويعتبر عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي من قادة الفتح في عهد عثمان ، وقد كانت له صحبة وقد أسلم متأخرا[1].

* * *

(١) الصلابي، سيرة عثمان بن عفان رضي الله عنه، ١ /٢٧٤.


يزيد بن المهلب
أعـــلام القــادة

القائد يزيد بن المهلب

يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي، أبو خالد: أمير، من القادة الشجعان الاجواد. ولي خراسان بعد وفاة أبيه سنة ٨٣ هـ فمكث نحوا من ست سنين، وعزله عبد الملك بن مروان برأي الحجاج (أمير العراقين في ذلك العهد) وكان الحجاج يخشى بأسه، فلما تم عزله حبسه، فهرب يزيد إلى الشام. ولما أفضت الخلافة إلى سليمان بن عبد الملك، ولاه العراق ثم خراسان، فعاد إليها، وافتتح جرجان وطبرستان. ثم نقل إلى إمارة البصرة، فأقام فيها إلى أن استخلف عمر بن عبد العزيز، فعزله، وطلبه، فجيء به إلى الشام، فحبسه بحلب. ولما توفي عمر وثب غلمان يزيد، فأخرجوه من السجن. وسار إلى البصرة فدخلها وغلب عليها سنة ١٠١هـ ثم نشبت حروب بينه وبين أمير العراقين مسلمة بن عبد الملك، انتهت بمقتل يزيد، في مكان يسمى " العقر " بين واسط وبغداد.

ولما أتى يزيد بن عبد الملك برأس يزيد بن المهلب نال منه بعض جلسائه، فقال له: مه! إن يزيد بن المهلب طلب جسيماً، وركب عظيماً، ومات كريماً.

وأخباره كثيرة. وإياه عني الفرزدق بقوله:

وإذا الرجال رأوا يزيد رأيتهم ::: خضع الرقاب نواكس الابصار

قال ابن ظفر: " وكان من أمره أن برز للحروب وله ثماني عشرة سنة، واتخذ ذراعا من حديد، مجوفة، فكان يدخل فيها يده اليسرى فإذا استجرت الرماح في صدره وجللته السيوف، وضع يده اليسرى على رأسه ثم حمل. وولي خراسان وتغلب على البصرة. وكان من عاقبة أمره أن نابذ بني أمية الخلافة، فقتل بعد حروب كثيرة مشهورة

" [١].

مواقف من حياته:

بل العجب من ألاّ تفعل:

دخل الهذيل بن زفر على يزيد بن المهلب في حمالات لزِمَتهُ فقال له: إنه قد عظُم شأنك عن أن يستعان بك أو يستعان عليك ولست تصنع شيئا من المعروف إلا وأنت أكبر منه، وليس العجب من أن تفعل بل العجب من ألا تفعل فقضى حاجته[٢].

كيف وصلت إلي؟!

عن المدائني قال: كان سعيد بن عمرو مؤاخيا ليزيد بن المهلب فلما حبس عمر بن عبد العزيز يزيد بن المهلب منع الناس من الدخول عليه أتاه سعيد فقال: يا أمير المؤمنين، لي على يزيد خمسون ألف درهم وقد حلت بيني وبينه، فإن رأيت أن تأذن لي فأقتضيه فأذن له فدخل عليه فسر به يزيد قال: كيف وصلت إلي؟! فأخبره فقال: والله لا تخرج إلا وهي معك، فامتنع سعيد، فحلف يزيد ليقبضنها فوجه إلى منزله حتى حمل إلى سعيد خمسين ألف درهم[٣].

الذي يصل إلي من ذلك أكثر:

قام رجل من العباد إلى يزيد بن المهلب فقال: إنك، والله أيها الأمير ما استدمت تتابع النعم بمثل اصطناع المعروف ولا كابدت إبليس بمثل إضمار النصيحة لمن ولاك الله أمره فإذا كنت كذلك أصلح الله لك ما تخشى فساده وجمع لك ما تخشى شتاته وإني والله أيها الأمير

(١) الزركلي،الأعلام، ٨ /١٩٠، سير أعلام النبلاء، ٤ /٥٠٦.
(٢) الدينوري، المجالسة وجواهر العلم، ص٢٥٦.
(٣) المصدر السابق، ص٣٤٩.

لأحب صلاحك والذي يصل إلي من ذلك أكثر[(١)].

ومن سخاء يزيد بن المهلب:

قال المدائني: جاء رجل إلى يزيد بن المهلب فامتدحه، فأحمد عقله وفصاحته فجعله أحد ندمائه، وكان ينصرف في كل يوم من عطيته بمائة دينار، فلما أراد الرحيل والانصراف إلى أهله أمر له بثلاثة آلاف دينار، ثم قال: إن - والله - ما أستقلها تكبراً ولا أستكثرها امتناناً، ولا أستزيدك بها ثناءً ولا أقطع لك بها رجاءً[(٢)].

رأيتك في المنام:

قال عمرو الكوفي: دخل حمزة بن بيض على يزيد بن المهلب يوم جمعة وهو يتأهب للمضي إلى المسجد، وجاريةٌ تعممه فضحك، فقال: له يزيد: مم تضحك؟ فقال: لله رؤيا رأيتها إن أذن لي الأمير قصصتها، قال: قل، فأنشأ يقول:

رأيتك في المنام سننت خزاً[(٣)] ::: علي بنفسجاً وقضيت ديني
فصدق ما هديت اليوم رؤيا ::: رأتها في المنام كذاك عيني

قال: كم دينك؟ قال: ثلاثون ألفاً، قال: قد أمرت لك بها وبمثلها، ثم قال: يا غلمان! فتشوا الخزائن فجيؤوه منها بكل خز بنفسجٍ تجدونها، فجاؤوا بثلاثين جبة، فنظر إليه يلاحظ الجارية، فقال: يا جارية عاوني عمك على قبض الجباب، فإذا وصلت إلى منزله فأنت له، فأخذها والجباب والمال وانصرف[(٤)].

(١) المصدر السابق، ص٥٧٥.
(٢) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٤٧/١.
(٣) سننت خزاً أي: ألقيته وصببته علي.
(٤) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح،١٩٤/١.

فافعل به كبعض فعلاتك الأول :

قال عبد الله بن الكوفي: أغرم سليمان بن عبد الملك عمر بن هبيرة من غزاته في البحر ألف ألف درهم، فمشى إلى يزيد بن المهلب وقد ولي العراق بعثمان بن حيان المري والقعقاع ابن خالد العبسي والهذيل بن زفر بن الحارث الكلابي وغيرهم من قيس، فلما انتهوا إلى باب سرادق يزيد أذن لهم الحاجب في دخوله، وأعلمهم أنه يغسل رأسه، فلما فرغ خرج في سبنية فألقى نفسه على فرشه ثم قال: ما ألف بينكم؟ فقال عثمان: هذا ابن هبيرة شيخنا وسيدنا، كان الوليد حمل معه مالاً حيث وجهه إلى البحر، فأعطاه جنده، فخرج عليه من غرمه ألف ألف درهم، فقلنا: يزيد سيد أهل اليمن ووزير لسليمان وصاحب العراق ومن قد تحمل أمثالها عمن ليس مثلنا، ووالله لو وسعتها أموال قيس لاحتملناها. ثم تكلم القعقاع فقال: يا بن المهلب هذا خير ساقه الله إليك، وليس أحد أولى به منك، فافعل به كبعض فعلاتك الأول، فلن يصدك عن قضاء هذا الحق ضيق ولا بخل، وقد أتيناك مع ابن هبيرة فيما حمل، فهب لنا أموالنا واستر في العرب عورتنا. ثم تكلم الهذيل بن زفر فقال: يا بن المهلب، إني لو وجدت من الممشى إليك بداً لما مشيت إليك، لأن أموالك بالعراق، وإنما أتيتنا خائفاً، ثم أقمت فينا ضيفاً، ثم تخرج من عندنا محروباً. وايم الله لئن تركناك بالشام لنأتينك بالعراق، وما ها هنا أقرب في الحظوة وأوجب للذمام. ثم تكلم ابن خيثمة فقال: إني لا أقول لك يا ابن المهلب ما قال هؤلاء، أخبرني إن أنت عجزت عن احتمال ما على ابن هبيرة فعلى من المعول، لا والله ماعند قيس له فكاك، ولا في أموالهم متسع، ولا عند الخليفة له فرج. ثم تكلم ابن هبيرة فقال: أما أنا فقد قضيت حاجتي رددت أم أنجحت لأنه ليس لي أمامك متقدم

ولا خلفك متأخر، وهذه حاجة كانت في نفسي فقضيتها. فضحك يزيد بن المهلب وقال: إن التعذر أخو البخل، ولا أعتذر، فاحتكموا، فقال القعقاع: نصف المال، فقال يزيد: قد فعلت، أرنا يا غلام غداءك، قال: فجيء بالطعام فأنكرنا منه أكثر مما عرفنا، فلما فرغنا أمر بتطييبنا وحملاننا وإجادة الكسوة لنا، قال: ثم خرجنا، حتى إذا مررنا قال ابن هبيرة: أخبروني عما بقي من يحمله بعد ابن المهلب؟ لقد صغر الله أقداركم وأخطاركم، والله ما يدري يزيد ما بين النصف والتمام، وما هما عنده إلا سواء، ارجعوا إليه فكلموه في الباقي، قال: وقد كان يزيد ظن بهم أن سيرجعون إليه في التمام، فقال للحاجب: إذا عادوا فأدخلهم، فلما عادوا أدخلهم، فقال لهم يزيد: إن ندمتم أقلناكم، وإن استقللتم زدناكم، فقال له ابن هبيرة: يا بن المهلب، إن البعير إذا أوقر أثقلته أذناه وأنا بما بقي مثقل، فقال: قد حملتها عنك، ثم ركب إلى سليمان فقال: يا أمير المؤمنين إنك إنما رشحتني لتبلغ بين وإني لا أضيق عن شيءٍ اتسع له مالك، وما في أيدينا عوارٍ لك تصطنع بها الناس وتبتني بها المكارم، ولولا مكانك ظلعنا بالصغير. ثم قال: إنه أتاني ابن هبيرة في وجوه أصحابه، فقال له سليمان: أمسك أتاك في مال الله عنده، خب ضب، جموع منوع، خدوع هلوع، هيه فصنعت ماذا؟ قال: حملتها عنه، قال: احملها إذاً إلى بيت مال المسلمين، قال: والله ما حملتها خدعةً وأنا حاملها بالغداة، ثم حملها فلما أخبر سليمان بذلك دعا يزيد فلما رآه ضحك وقال: ذكت بك ناري، وووريت بك زنادي، غرمها علي وحمدها لك، قد وفت لي يميني فارجع المال إليك، ففعل(١).

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٣٧٨/١.

توسط عمر بن عبد العزيز لدى يزيد بن المهلب:

كان بشر بن مروان قد ادخر وهو على العراق عن ابنه عبد الملك وعن عيينة بن أسماء من غلات أراضيهم مالاً عظيماً، فلما ولي الحجاج أخرج تلك البقايا فوجد ما على عبد الملك وعيينة بن أسماء فقال: وما على بشرٍ أن يهب من مال الله تعالى لابنه وختنه هذا وأكثر منه، والله لآخذنهما به أخذ الضب ولده، وطالبهما فريثاه حتى هلك فلحقا بالشام فنزلا على عمر بن عبد العزيز فقالا له: إن بشراً كان أطعمنا شيئاً كثيراً من غلاتنا فبسطنا فيه أيدينا، وان الحجاج بسفهه وخرقه وظلمه أخرج علينا ثم أخذنا به، فلم نزل نخدعه عن أنفسنا حتى هلك، فكلم أمير المؤمنين في هبة ذلك لنا، فضحك عمر وقال: لست أثق لكما بكلامي، ولكن لكما عندي رأي فيه نجاح طلبتكما، قالا: فادللنا عليه، قال: نمشي إلى يزيد بن المهلب فإما أن يحملها من ماله، وإما أن يعيننا على سليمان فيهبها لكما، ولا والله ما كنت لأمشي إلى عربيٍ على الأرض غيره ليس من ولد مروان. ثم أتوا يزيد فقال له عمر: إن أتيناك زواراً وهذان من قد عرفت، فلا تنظرن إلى جرم أبو يهما عند أبيك، فضحك يزيد وقال: عفا الله عنك يا أبا حفص، أرجع في ذنبٍ قد غفره أبي قبلي؟! والله ما عجز عن مكافأتهما في حياته ولا أوصاني بالثأر من بعده، فإنهما لأخواي وصاحباي، هاتوا حاجتكم، فقال عمر: إن الحجاج أخرج عليهما مما كان بشر ترك لهما من غلاتهما ألف ألف وخمسمائة ألف فما ترى؟ قال: رأيكم فاحتكموا، قال: تحمل منها ما شئت قال: علي نصفها، والمطلب إلى أمير المؤمنين في بقيتها، فإن حمله عني وإلا حملته، فقال عبد الملك بن بشر: والله ما ظلم الناس أن زعموا أنك سيدهم. ثم خرجوا وعمر يقول: ما رأينا مثل هذا العراقي في وطأته فعل

قبلها مثلها، ثم حمل عن القيسيين وعن يزيد بن عاتكة، وهذه ألف ألف وخمسمائة ألف. ثم ركب يزيد إلى سليمان فدخل عليه وعنده جماعة من وجوه أهل اليمن فقام فقال: يا أمير المؤمنين، فقال له سليمان: أمسك، وأبيك إنك لقادر على خلواتي، اجلس، فقال يزيد: ما قمت لأجلس فأذن لي في الكلام، فقال: هات، فأخبره بمجيء عمر إليه وقال: قد حملت النصف وضمنت عليك الباقين والله يا أمير المؤمنين إن مقامي بالشام لمن تمام نعمة الله علي بأمير المؤمنين، إنه لم يعمد إلي أحد في حاجة إلا قضاها الله بك يا أمير المؤمنين على يدي، فقال سليمان: قد وهبنا ذلك كله لك، فلك حمده وعلينا غرمه[1].

والله ما يبالي يزيد أنصفاً حمل أم المال؟!

استعمل الوليد بن عبد الملك عثمان بن حيان المري على غزاة البحر وأمره بالنفقة. فلما ولي أخوه سليمان بن عبد الملك عزله وأغرمه من ذلك المال ألف ألف درهم. قال: فاجتمعت رجال من قيس لذلك الغرم؛ فقالوا: إلى أين تذهبون وبمن تستعينون؟! قال، فقال لهم قائل: هل لكم في يزيد بن المهلب؟ قال: ويزيد يومئذ على شرط سليمان بن عبد الملك وما وراء بابه. قال: فخرجوا حتى دخلوا عليه فتقدم عثمان بن حيان المري صاحب الغرم فقال: زاد الله في توفيقك وسرورك! إن الوليد استعملني على غزاة البحر وأمرني بالنفقة فأنفقت؛ وإن سليمان أمير المؤمنين - مد الله في بقائه أغرمني من ذلك المال ألف ألف درهم؛ والله ما يسعها مالي ولا يبلغها أملي، وقلت يزيد بن المهلب، سيد أهل العراق، وصاحب المشرق ووزير الخليفة، وأتيتك لتحمل عني من ذلك ما سهل عليك، وما يبقى والله

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٣٨٨/١.

علـي ثقيل! قـال: ثـم سكت. وتقدم فلان القيسـي خـال الوليد بـن عبد الملك؛ فقال: أصلحك الله! إنه ما خص هذا عمنا وقد أتينـاك فـي أمر لم نجد أحداً ينفرد به ولا يساعد من يعين عليه فإن تكف فليس بـأكثر ما فيك،وإن تدفعه فما له سواك! قال: ثم سكت. وتقدم عمر بن هبيرة الفزاري، فقال: أصلحك الله! إنا والله لو وجدنا أحداً دونـك لاخترنـاه، أو خلفك لتخطينـا إليـه! والله مـا الـدخان بـأدل علـى أنـه من النـار ولا العجاج أنه من الرياح من ظاهر أمرك على باطنه وقد أتينـاك شفعاء لابن حيان في هذا المـال؛ فـإن تستكثره فقد يظلـع مـا هو دونـه، وإن تستقله فقد ترجـى لمـا هـو أكثـر منـه! قـال، ثـم سكت، وتقدم زفـر الكلابي، فقال: أصلحك الله! إنا والله لم نزنك بأحد الملوك إلا رجحت به ولم نقسك بأحد منهم إلا ارتفعت عليه، ولا غاية يبلغها أحد إلا وقد بلغتها وأنت فيها مقدم وحقك فيها معظم، وقد لأتينـاك شفعاء لابـن حيان في هذا المال والله ما العجب من أن تفعل ولكن العجب من أن لا تفعل وأنت أنت! قال: فقال أبـو خالـد: مرحبـاً بكم وأهلاً! إن خيـر المال ما وقي به العرض، وإنما لي من مالي مـا فضـل عـن النوائـب، ولو علمت أحداً أملأ بحاجتكم مني لأرشدتكم إليـه! فـاحتكموا! قـالوا: نصف المال! فلما كـانوا علـى بـاب السرادق قـال لهم قائـل: إلـى أين تذهبون وبمن تسعينون! والله مـا يبـالي يزيـد أنصفاً حمل أم المـال؟! فارجعوا! فرجعوا فقال: مه! قالوا: أقلنا أصلحك الله! قال: قد أقلتكم! قالوا: المال كله! قال: المال كله! قال، فبعث إليه ابـن الرقـاع العـاملي بأبيات فيها:

فلم تـر عينـاي كمثـل حمالـة ::: تحملـها كـبش العـراق يزيـد

وقالوا:

أقـل يـا بـن المهلـب زلـة ::: فقـال أقلـتم إن ذا لعتيـد

تحمل عنهم بألف ألـــف برســـله ::: ولو أنهم ســـالوا المزيـــد لزيـــدوا
رأى عمر أن ليس يحمـــل ثقلـــها ::: سواه وما عن قول تلك محيـــد[١]

أصبتك رخيصاً فاشتريتك:

ودخل الفرزدق على يزيد بن المهلب في الحبس فأنشده:

صح في قيدك الســـماحة والجـــو ::: د وفـــك العنـــاة والإفضـــال

قال: أتمدحني وأنا في هذه الحال؟ قال: أصبتك رخيصاً فاشتريتك. فأمر له بعشرة آلاف[٢].

إن كانت لا تعرفني، فأنا أعرف نفسي:

مر يزيد بن المهلب بأعرابية في خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز يريد البصرة، فقرته عنزاً فقلبها، وقال لابنه معاوية: ما معك من النفقة؟ فقال: ثمان مائة دينار، قال: فادفعها إليها، قال أبنه: إنك تريد الرجال، ولا يكون الرجال إلا بالمال، وهذه يرضيها اليسير، وهي بعد لا تعرفك فقال له: إن كانت ترضى باليسير، فأنا لا أرضى إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفني، فأنا أعرف نفسي ادفعها إليها[٣].

لقد أسأنا إلي أبي ايوب:

وقيل: إن الحجاج أخذ يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وعذبه واستأصل موجوده وسجنه فتوصل يزيد بحسن تلطفه وأرغب السجان واستمالة وهرب هو والسجان وقصد الشام إلى سليمان بن عبد الملك ابن مروان، وكان الخليفة في ذلك الوقت الوليد بن عبد الملك فلما وصل يزيد بن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك أكرمه وأحسن إليه وأقامة عنده، فكتب الحجاج إلى الوليد يعلمه أن يزيد

---

(١) ابن الحداد، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، ص٣٠.
(٢) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ٨٧/١.
(٣) الكامل في اللغة و الأدب، ١ /١١٥.

هرب من السجن وأنه عند سليمان بن عبد الملك أخي أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين وأن أمير المؤمنين أعلى رأيا فكتب الوليد إلى أخيه سليمان بذلك فكتب سليمان إلى أخيه يقول: يا أمير المؤمنين أني ما أجرت يزيد بن المهلب، إلا لأنه هو وأبوه وإخوته من صنائعنا قديما وحديثا ولم أجر عدوا لأمير المؤمنين، وقد كان الحجاج قصده وعذبه وأغرمه أربعة آلاف ألف درهم ظلما ثم طالبة بعدها بثلاثة آلاف ألف درهم وقد صار إلى واستجار بي فأجرته، وأنا أغرم عنه هذه الثلاثة آلاف ألف درهم فإن رأى أمير المؤمنين ألاً يختبرني في ضيفي فليفعل فإنه أهل الفضل والكرم، فكتب اليه الوليد إنه لا بد أن ترسل إلي يزيد مغلولا مقيدا فلما ورد ذلك على سليمان أحضر ولده أيوب فقيده ودعا يزيد بن المهلب فقيده ثم شد قيد هذا إلى قيد هذا بسلسلة وغلها جميعا بغلين وأرسلهما إلى أخيه الوليد، وكتب إليه أما بعد: يا أمير المؤمنين فقد وجهت إليك يزيد وابن أخيك أيوب بن سليمان ولقد هممت أن أكون ثالثهما فإن هممت يا أمير المؤمنين بقتل يزيد فبالله عليك ابدأ بأيوب من قبله ثم اجعل يزيد ثانيا واجعلني إذا شئت ثالثا والسلام.

فلما دخل يزيد بن المهلب، وأيوب بن سليمان في سلسلة واحدة أطرق الوليد استيحاء وقال: لقد أسأنا إلي أبي أيوب إذ بلغنا به هذا المبلغ فأخذ يزيد ليتكلم ويحتج لنفسه فقال له الوليد: ما يحتاج إلى الكلام فقد قبلنا عذرك، وعلمنا ظلم الحجاج ثم أنه أحضر حدادا، وأزال عنهما الحديد، وأحسن إليهما ووصل أيوب ابن أخيه بثلاثين ألف درهم ووصل يزيد بن المهلب بعشرين ألف درهم وردهما إلى سليمان وكتب كتابا إلى الحجاج يقول له: لا سبيل لك على يزيد بن المهلب، فإياك أن تعاودني فيه بعد اليوم فسار يزيد الى سليمان بن

عبد الملك وأقام عنده في أعلى المراتب وأرفع المنازل (١).

أفاض القوم في ذكر الجوارى:

وكان يزيد بن المهلب من الأجواد الأسخياء، وله أخبار في الجود عجيبة من ذلك ما حكاه عقيل بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: لما أراد يزيد بن المهلب الخروج إلى واسط أتيته، فقلت: أيها الأمير، إن رأيت أن تأذن لي فأصحبك قال: إذا قدمت واسط فائتنا إن شاء الله تعالى فسافر وأقمت فقال لي بعض إخواني: إذهب إليه.

فقلت: كان جوابه فيه ضعيفًا قالوا: أتريد من يزيد جوابا أكثر مما قال قال فسرت حتى قدمت عليه، فلما كان في الليل دعيت إلى السمر فتحدث القوم حتى ذكروا الجوارى، فالتفت إلى يزيد، وقال: إيه يا عقيل فقلت:

أفاض القوم في ذكر الجوارى ::: فأما الأعزبون فلن يقولوا

قال: إنك لم تبق عزبا فلما رجعت إلى منزلي إذا أنا بخادم قد أتاني ومعه جارية وفرش بيت وبدرة عشرة آلاف درهم، وفي الليلة الثانية كذلك، فمكث عشر ليالي، وأنا على هذه الحالة فلما رأيت ذلك دخلت عليه في اليوم العاشر، فقلت: أيها الأمير قد والله أغنيت وأقنيت، فإن رأيت أن تأذن لي في الرجوع فأكبت عدوى، وأسر صديقي، فقال: إنما أخيرك بين خلتين: إما أن تقيم فنوليك، أو ترحل فنغنيك. فقلت: أولم أيها الأمير. قال: إنما هذا تغنني أثاث المنزل ومصلحة القدوم فنالني من فضله ما لا أقدر على وصفه (٢).

---

(١) المستطرف، ١ /٣٠٠.
(٢) المستطرف، ١ /٣٠٠.

إن حلقت رأس أحد بعدك:

وحدث أبو اليقظان عن أبيه قال: حج يزيد بن المهلب، فطلب حلاقا يحلق رأسه، فجاءه بحلاق، فحلق رأسه، فأمر له بخمسة آلاف درهم فتحير الحلاق ودهش، وقال: آخذ هذه الخمسة الآلاف وأمضي إلى أم فلان أخبرها إني قد استغنيت، فقال: أعطوه خمسة آلاف أخرى، فقال: امرأته طالق إن حلقت رأس أحد بعدك(١).

هذا الذي خفت منه:

وقيل: إن الحجاج حبسه على خراج وجب عليه مقداره مائة ألف درهم، فجمعت له وهو في السجن فجاءه الفرزدق يزوره فقال للحاجب: استأذن لي عليه، فقال: إنه في مكان لا يمكن الدخول عليه فيه. فقال الفرزدق: إنما أتيت متوجعا لما فيه، ولم آت ممتدحا فأذن له فلما أبصره قال:

أبا خالد ضاقت خراسان بعدكم ::: وقال ذوو الحاجات أين يزيد
فما قطرت بالشرق بعدك قطرة ::: ولا أخضر بالمروين بعدك عود
وما لسرور بعد عزك بهجة ::: وما لجواد بعد جودك جود

فقال يزيد للحاجب: ادفع إليه المائة ألف درهم التى جمعت لنا ودع الحجاج ولحمي يفعل فيه ما يشاء فقال الحاجب للفرزدق: هذا الذي خفت منه لما منعتك من دخولك عليه ثم دفعها إليه فأخذها وانصرف(٢).

هل لك في أمير المؤمنين بعلا؟

وخرج سليمان بن عبد الملك ومعه يزيد بن المهلب في بعض جبابين الشام، فإذا امرأة جالسة على قبر تبكي قال سليمان فرفعت البرقع

(١) المستطرف،١ /٣٥٤.
(٢) المستطرف،١ /٣٠٠.

عن وجهها فحكت شمسا عن متون غمامة فوقفنا متحيرين ننظر إليها، فقال لها يزيد بن المهلب: يا أمة الله هل لك في أمير المؤمنين بعلا؟ فنظرت إلينا ثم أنشأت تقول:

فإن تسألاني عن هواي فإنه ::: يحول بهذا القبر يا فتيان
وإني لأستحييه والترب بيننا ::: كما كنت أستحييه وهو يراني[١]

فأرشدنا إلى من نذهب:

حكى الأصمعي أنه قدم على يزيد قوم من قضاعة فقال رجل منهم:

والله ما ندري إذا ما فاتنا ::: طلبٌ إليك من الذي نتطلبُ
ولقد ضربنا في البلاد فلم نجد ::: أحدٌ سواك إلى المكارم ينسب
فاصبر لعادتك التي عودتنا ::: أو، لا فأرشدنا إلى من نذهب

فأمرنا له بألف دينار [٢].

خير من ألف جريب مزروع:

يروى أن خالد بن صفوان دخل على يزيد بن المهلب وهو يتغدى فقال: ادن، فكل. فقال: أصلح الله الأمير لقد أكلت أكلة لست ناسيها. قال: وما أكلت؟ قال: أتيت ضيعتي لإبان الأغراس، وأوان العمارة فجلت فيها جولة حتى إذا صحرت الشمس، وأزمعت بالركود، ملت إلى غرفة لي هفافة، في حديقة قد فتحت أبوابها، ونضح بالماء جوانبها وفرشت أرضها بألوان الرياحين من بين ضيمران نافخ، وسمسق فائح، وأقحوان زاهر، وورد ناضر، ثم أتيت بخبز أرز كأنه قطع العقيق، وسمك جراني بيض البطون، زرق العيون، سود

(١) المستطرف، ٤٣٩/١.
(٢) تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله التقي الحموي المعروف بابن حجة، طيب المذاق من ثمرات الأوراق، تحقيق: أبو عمار السخاوي، دار الفتح - الشارقة - ١٩٩٧م،
ص١٢٠.

المتون، عراض السرر: غلاظ القصر، ودقة وخلول، ومرى وبقول، ثم أتيت برطب أصفر صاف غير أكدر لم تبتدله الأيدي، ولم تهتشمه كيل المكاييل، فأكلت هذا ثم هذا، قال يزيد: يا بن صفوان لألف جريب من كلامك، خير من ألف جريب مزروع (١).

كيف أصبح الأمير؟

دخل أعرابي على يزيد بن المهلب، وهو في فراشه والناس سماطان فقال: كيف أصبح الأمير؟ قال يزيد: كما تحب. فقال: لو كنت كما أحب، كنت أنت مكاني، وأنا مكانك. فضحك (٢).

يسبقك إلى المنزل:

قال أبو العيناء، حدثني القحذمي قال، قال خالد بن صفوان: حبس يزيد بن المهلب ابن أخ لي، فصرت إلى بابه أنظم له كلاماً كما تنظم الفتاة عقدها لعيدها، ثم أذن لي، وبين يديه جارية كأنها مهاة وفي يدها مجمرة ذهب، فلما رأيتها سلبت الكلام الذي كنت أعددته، وحضرتني كلمتان فقلت: والله ما رأيت صدأ المغفر ولا عبق العنبر بأحد أليق به منكم، قال: حاجتك؟ قلت: ابن أخي محبوس، قال: يسبقك إلى المنزل، فجئت إلى المنزل وقد سبقني إليه(٣).

عوجل أبوك وربّ الكعبة:

قال يزيد بن المهلّب: دخلت الحمّام مع سليمان بن عبد الملك ومعنا عمر بن عبد العزيز، فقال لي عمر: إني محدّثك حديثين: أحدهما سرّ والآخر علانية؛ أما العلانية فإن هذا سيولّيك العراق، فاتق الله، وأما السرّ فإني كنت فيمن دلّى الوليد بن عبد الملك في حفرته، فلما صار

(١) الآبي، نثر الدر،٦/٢٩٨.
(٢) الآبي، نثر الدر،٦/١٩.
(٣) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ١/٣٠٥.

في أيدينا اضطرب في أكفانه فقال ابنه: عاش أبي وربّ الكعبة، فقلت: كلا، ولكن عوجل أبوك وربّ الكعبة[١].

فمن لخراسان؟

لما أتي سليمان بن عبد الملك برأس قتيبة كتب لوكيع بن أبي سود عهده على خراسان، فقال يزيد بن المهلب لإبراهيم بن الأهتم: إن رددت أمير المؤمنين عن رأيه في وكيع فلك مائة ألف، فقام ابن الأهتم فتكلم بكلام تفرق الناس عن استحسانه فقال: يا أمير المؤمنين، إن وكيعاً أدرك في الثأر، وبالغ في الطاعة، فجزاه الله خيراً، غير أني لو خفت من إحدى يدي خلافاً على أمير المؤمنين لأحببت انبتاتها من صاحبتها، وإن وكيعاً لم يملك مائتي عناق قط فحدث نفسه بالطاعة، فلا تأخذنا بحديث إن كان منه، فقال سليمان: ويلك فمن لخرسان؟ قال: العبد في الطاعة، والأخ في النصيحة، يزيد، فولاه[٢].

ومن أخبار يزيد أن الفرزدق دخل عليه وهو محبوس فلما رآه مقيداً قال له:

أصبح في قيدك السماحة وال ::: جود وحمل الديات والحسب
لا بطران ترادفت نعم ::: وصابر في البلاء محتسب

فقال له يزيد: ويحك ما أردت بمدحتي وأنا على هذه الحالة؟ فقال الفرزدق: وجدتك رخيصاً فأحببت أن أسلفك بضاعتي، فرمى إليه بخاتم كان في أصبعه قيمته ألف دينار، وقال: هو ربحك أمسكه إلى أن يأتيك رأسك المال[٣].

(١) المصدر السابق، ٤٨٣/١.
(٢) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ٣٨٤/١.
(٣) الوطواط، غرر الخصائص الواضحة،ص١٥٠.

من كلامه:

- الحياة أحب شيء إلى الإنسان، والثناء الحسن أحب إلي من الحياة، ولو أني أعطيت ما لم يعطه أحد لأحببت أن يكون لي أذن أسمع بها ما يقال غداً إذا مت كريماً[١].

- قال يزيد بن المهلب لابنه مخلد: إذا كتبت كتاباً فأطل النظر فيه فإن كتاب الرجل موضع عقله[٢].

- وقال يزيد بن المهلب لابنه مخلد بن يزيد: إيّاك وأعراض الرجال فإن الحرَّ لا يرضيه من عِرضْه شيءٌ واتق العقوبات في الأبشار فإنها عارٌ باقٍ ودين مطلوب في الدنيا والآخرة [٣].

- استكثروا من المحامد فإن المذام قل من ينجو منها.

- وكان يقول. وددت لو أن كاساً بألف دينار وأن كل منكح في جهة أسد فلا يشرب إلا جواد. ولا ينكح إلا شجاع [٤].

- كان هشام بن حسان إذ ذكر يزيد بن المهلب قال: والله إن كانت السفن لتجري في جوده.

- وقيل ليزيد بن المهلب: مالك لا تبني داراً؟ قال: منزلي دار الإمارة أو الحبس[٥].

- وقال يزيد بن المهلب: ما يسرني أني كفيت أمر الدنيا كله، قيل له: ولم أيها الأمير؟ قال: أكره عادة العجز[٦].

(١) الزمخشري، ربيع الأبرار، ٤٢٣/١.
(٢) الدينوري، المجالسة وجواهر العلم، ص٣٣٣.
(٣) الدينوري، المجالسة وجواهر العلم، ص١٩٢.
(٤) الثعالبي، الإعجاز والإيجاز، ص٧١.
(٥) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ٨٧/١.
(٦) الكامل في اللغة و الأدب، ١٩٠/١.

- ما قرأت كتاباً قط لرجل إلا عرفت مقدار عقله فيه.

وصية يزيد بن المهلب لابنه مخلد :

ولما ولي يزيد بن المهلب خراسان في عهد سليمان بن عبد الملك فتح جرجان وطبرستان سنة ٩٨ وقد أوصى ابنه مخلد حين استخلفه على جرجان فقال: يا بني، إني قد استخلفتك على هذه البلاد فانظر هذا الحي من اليمن فكن لهم كما قال الشاعر:

إذا كنت مرتاد الرجال لنفعهم ::: فرش واصطنع عند الذين بهم ترمي

وانظر هذا الحي من ربيعة فإنهم شيعتك وأنصارك فاقض حقوقهم وانظر هذا الحي من تميم فامطرهم ولا تزه لهم ولا تدنهم فيطمعوا ولا تقصهم فيقطعوا وانظر هذا الحي من قيس فإنهم أكفاء قومك في الجاهلية ومناصفوهم المنابر في الإسلام ورضاهم منك البشر.

يا بني إن لأبيك صنائع فلا تفسدها فإنه كفى بالمرء نقصا أن يهدم ما بنى أبوه وإياك والدماء فإنها لا بقية معها وإياك وشتم الأعراض فإن الحر لا يرضيه عن عرضه عوض وإياك وضرب الأبشار فإنه عار باق ووتر مطلوب واستعمل على النجدة والفضل دون الهوى ولا تعزل إلا عن عجز أو خيانة ولا يمنعك من اصطناع الرجل أن يكون غيرك قد سبقك إليه فإنك إنما تصطنع الرجال لفضلها وليكن صنيعك عند من يكافئك عنه احمل الناس على أحسن أدبك يكفوك أنفسهم وإذا كتبت كتابا فأكثر النظر فيه وليكن رسولك فيما بيني وبينك من يفقه عني وعنك فإن كتاب الرجل موضع عقله ورسوله موضع سره وأستودعك الله فلا بد للمودع أن يسكت وللمشيع أن يرجع وما عف من المنطق وقل من الخطيئة أحب إلى أبيك وكذلك

سلك هذا المسلك المحمود[١].

- **خطبة يزيد بين يدي الوليد :**

وتكلم يزيد فحمد الله، وأثنى عليه وصلى على نبيه، ثم قال يا أمير المؤمنين، إن بلاءكم عندنا أحسن البلاء فمن ينس ذلك فلسنا بناسيه، ومن يكفر فلسنا كافريه وقد كان من بلائنا أهل البيت في طاعتكم والطعن في أعين أعدائكم في المواطن العظام في المشارق والمغارب ما إن المنة علينا فيها عظيمة فأمنه الوليد وكف عنه[٢].

خطبة يزيد بن المهلب يحرض أصحابه على القتال:

وقد سير يزيد بن عبد الملك العباس بن الوليد بن عبد الملك ومسلمة بن عبد الملك لقتاله فقام في أصحابه، فحرضهم ورغبهم في القتال، فكان فيما قال: إن هؤلاء القوم لن يردهم عن غيهم إلا الطعن في عيونهم والضرب بالمشرفية على هامهم: ثم قال: إنه قد ذكر لي أن هذه الجرادة الصفراء يعني مسلمة بن عبد الملك وعاقر ناقة ثمود يعني العباس بن الوليد وكان العباس أزرق أحمر كانت أمة رومية، والله لقد كان سليمان أراد أن ينفيه حتى كلمته فيه فأقره على نسبه فبلغني أنه ليس همهما إلا التماسي في الأرض والله لو جاؤوا بأهل الأرض جميعا وليس إلا أنا ما برحت العرصة حتى تكون لي أولهم قالوا: نخاف أن تعنينا كما عنانا عبد الرحمن بن محمد قال إن عبد الرحمن فضح الذمار وفضح حسبه وهل كان يعدو أجله ثم نزل[٣]

- **خطبة أخرى له :**

عن خالد بن صفوان قال: خطبنا يزيد بن المهلب بواسط حمد الله

(١) جمهرة خطب العرب،٢ /٣١٩.
(٢) المصدر السابق،٢ /٣٥٠.
(٣) جمهرة خطب العرب،٢ /٣٥١.

وأثنى عليه وصلى على النبي، ثم قال: أيها الناس، إني أسمع قول الرعاع قد جاء العباس قد جاء مسلمة قد جاء أهل الشأم وما أهل الشأم إلا تسعة أسياف منها سبعة معي، واثنان علي، وما مسلمة إلا جرادة صفراء، وأما العباس فنسطوس بن نسطوس أتاكم في برابرة وصقالبة وجرامقة وجراجمة وأقباط وأنباط وأخلاط من الناس إنما أقبل إليكم الفلاحون والأوباش كأشلاء اللحم والله ما لقوا قط حدا كحدكم ولا حديدا كحديدكم أعيروني سواعدكم ساعة من نهار تصفقون بها خراطيمهم فإنما هي غدوة أو روحة حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين خطبة أخرى له.

وقال مقاتل: سمعت يزيد بن المهلب يخطب بواسط، فقال: يأهل العراق، يأهل السبق والسباق، ومكارم الأخلاق إن أهل الشام في أفواههم لقمة دسمة قد رتبت لها الأشداق وقدموا لها على ساق وهم غير تاركيها لكم بالمراء والجدال فالبسوا لهم جلود النمور [١].

- الكذاب يخيف نفسه وهو آمن.

معناه أنه قد عرض نفسه للمطالبة بحقيقة ما قاله، فهو خائف من الفضيحة، وملاحظ لعار التكذيب، ومستوحش لما فيه أنس الصادقين[٢].

- ما رأيت عاقلاً ينوء به أمر إلا كان معوله على لحيته[٣].

* * *

(١) جمهرة خطب العرب،٢ /٣٥٣.
(٢) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ١/ ٧.
(٣) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ٢٦٧/١.

مسلمة بن عبد الملك

أعــــلام القــادة

القائد مسلمة بن عبد الملك

إنه البطل القائد، الأمير الفاتح أبو سعيد مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم القرشي الأموي الدمشقي، وإليه تنسب جماعة بني مسلمة التي كانت بلدتهم هي الأشمونين وفيها منازلهم، وهي بلدة بالصعيد الأعلى في مصر غربي نهر النيل.

وكان مسلمة بن عبد الملك من أبطال عصره، بل من أبطال الإسلام المعدودين، حتى كانوا يقولون عنه أنه خالد بن الوليد الثاني، لأنه كان يشبه سيف الله المسلول في شجاعته وكثرة معاركه وحروبه، ويقول عنه المؤرخ يوسف بن تغري: روى صاحب كتاب النجوم الزاهرة هذه العبارة: كان شجاعا صاحب همة وعزيمة، وله غزوات كثيرة. ويقول عنه ابن كثير: وبالجملة كانت لمسلمة مواقف مشهورة، ومساع مشكورة، وغزوات متتالية منثورة، وقد افتتح حصونا وقلاعا، وأحيا بعزمه قصورا وبقاعا، وكان في زمانه في الغزوات نظير خالد بن الوليد في أيامه، وفي كثرة مغازيه، وكثرة فتوحه، وقوة عزمه، وشدة بأسه، وجودة تصرفه في نقضه وإبرامه، وهذا مع الكرم والفصاحة، ويقول عنه صاحب العقد الفريد: ولم يكن لعبد الملك ابن أسد رأيا، ولا أزكي عقلا، ولا أشجع قلبا، ولا أسمع نفسا، ولا أسخى كفا من مسلمة.

ولذلك أوصى عبد الملك بن مروان أولاده، وفيهم مسلمة، فكان مما قاله لهم عنه: يا بني، أخوكم مسلمة، نابكم الذي تفترون عنه، ومجنكم الذي تستجنون به، أصدروا عن رأيه (١).

ومع أن إخوة لمسلمة تولوا الخلافة دونه، ظل هو بينهم النجم المتألق

(١) أحمد الشرباصي، مسلمة بن عبد الملك، مجاهد على الدوام، مجلة البحوث الإسلامية، ١/ ١٣٨.

الثاقب بجهاده وكفاحه، وقال عنه مؤرخ الإسلام الذهبي: كان مسلمة أولى بالخلافة من إخوته. وليست العبرة بالمناصب والمراتب، ولكنها بالإرادة والعزيمة، والإقدام، وعمق التفكير، وحسن الخلق.

وكانوا يلقبون مسلمة بلقب الجرادة الصفراء، لأنه كان متحليا بالشجاعة والإقدام، مع الرأي والدهاء؛ ومع أنه تولى إمارة أذربيجان وأرمينية أكثر من مرة وإمارة العراقين، ظل يواصل الجهاد، ويتابع المعارك، منذ تولى والده الخلافة سنة خمس وستين وظل مسلمة على هذه الروح البطولية حتى لحق بربه سنة إحدى وعشرين ومائة (١).

إشارات سريعة إلى سلسلة المعارك التي خاضها:

في سنة ست وثمانين غزا مسلمة أرض الروم. وفي سنة سبع وثمانين غزا أرض الروم، ومعه يزيد بن جبير، فلقي الروم في عدد كثير بسوسنة من ناحية المصيصة، ولاقى فيها ميمونا الجرجماني، ومع مسلمة نحو من ألف مقاتل من أهل أنطاكية عند طوانة، فقتل منهم بشرا كثيرا، وفتح الله على يديه حصونا.

وفي سنة ثمان وثمانين فتح مسلمة حصنا من حصون الروم تسمى طوانة، في شهر جمادى الآخرة، وشتوا بها، وكان على الجيش مسلمة والعباس بن الوليد بن عبد الملك، وهزم المسلمون أعداءهم، ويروى أن العباس قال لبعض من معه: أين أهل القرآن الذين يريدون الجنة، فقال له: نادهم يأتوك. فنادى العباس: يا أهل القرآن. فأقبلوا جميعا، فهزم الله أعداءهم.

وفي سنة ثمان وثمانين أيضا غزا مسلمة الروم مرة أخرى، ففتح

(١) أحمد الشرباصي، مسلمة بن عبد الملك، مجاهد على الدوام، مجلة البحوث الإسلامية، ١/ ١٣٨.

ثلاثـة حصـون، هـي حصـن قسـطنطينية وحصـن غزالـة، وحصـن الأخرم.

وفي سنة تسع وثمانين غزا مسلمة أرض الروم مرة أخرى، حيث فتح حصن سورية، وقصد عمورية، فوافق بها للروم جمعا كثيرا، فهزمهم الله، وافتتح هرقلة وقمودية.

وفي سنة تسع وثمانين أيضا غزا مسلمة الترك، حتى بلغ الباب من ناحية أذربيجان، ففتح حصونا ومدائن هناك.

وفي سنة اثنتين وتسعين غزا مسلمة، ومع عمر بن الوليد، أرض الروم، ففتح الله على يدي مسلمة ثلاثة حصون، وجلا أهل سوسنة إلى جوف أرض الروم.

وفي سنة ثلاث وتسعين غزا مسلمة أرض الروم، فافتتح ماسة، وحصن الحديد، وغزالة، وبرجمة من ناحية ملطية.

وفي سنة ست وتسعين غزا مسلمة أرض الروم صيفا، وفتح حصنا يقال له: حصن عوف.

وفي سنة سبع وتسعين غزا مسلمة أرض الروم، وفتح الحصن الذي كان قد فتحه الوضاح صاحب الوضاحية.

وفي سنة ثمان وتسعين حاصر مسلمة القسطنطينية، وطال الحصار، واحتمل الجنود في ذلك متاعب شديدة.

وفي سنة ثمان ومائة غزا مسلمة الروم حتى بلغ قيسارية وفتحها.

وفي سنة تسع ومائة غزا الترك والسند، وولاه أخوه يزيد بن عبد الملك إمارة العراقين ثم أرمينية.

وفي سنة عشر ومائة غزا مسلمة الترك، وظل يجاهد شهرا في مطر شديد حتى نصره الله.

وفي سنة عشر ومائة أيضا قاتل مسلمة ملك الترك الأعظم خاقان، حيث زحف إلى مسلمة في جموع عظيمة فتوافقوا نحوا من شهر، ثم هزم الله خاقان زمن الشتاء، ورجع مسلمة سالما غانما، فسلك على مسلك ذي القرنين في رجوعه إلى الشام، وتسمى هذه الغزوة غزاة الطين، وذلك أنهم سلكوا على مفارق ومواضع غرق فيها دواب كثيرة، وتوحل فيها خلق كثير، فما نجوا حتى قاسوا شدائد وأهوالا صعابا وشدائد عظاما.

وفي سنة ثلاث عشرة غزا مسلمة بلاد خاقان، وبث فيها الجيوش، وفتح مدائن وحصونا، وقتل منهم وأسر ودان لمسلمة من كان وراء جبال بلنجر.

وفي سنة ثلاث عشرة أيضا توغل مسلمة في بلاد الترك، فقتل منهم خلقا كثيرا، ودانت له تلك الممالك من ناحية بلنجر وأعمالها.

وفي سنة إحدى وعشرين ومائة غزا مسلمة الروم، ففتح حصن مطامير [1].

إنها سلسلة طويلة من المعارك والغزوات والحروب، وإنها لسلسلة كثيرة الحلقات. وكأنما نذر مسلمة نفسه للجهاد والقتال، واتخذ مسكنه في ساحات الكفاح والنضال، ومع ذلك كان عالما محدثا، روى الحديث عن خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز، وروى عنه الأحاديث جماعة منهم: عبد الملك بن أبي عثمان، وعبد الله بن قرعة، وعيينة والد سفيان بن عيينة، وابن أبي عمران، ومعاوية بن خديج، ويحيي بن يحيي الغساني.

ويظهر أن اتصال مسلمة بن عبد الملك بالحاكم العادل، المخلص

(١) مسلمة بن عبد الملك، مجاهد على الدوام، مجلة البحوث الإسلامية، ١ /١٣٩ - ١٤٠.

الأمين، خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز كان من أقوى الأسباب في تكوين شخصية مسلمة، تكوينا باهرا رائعا؛ لأني أومن بأن عمر بن عبد العزيز كان رجلا تتمثل فيه نفحات إلهية من الخير والبر والتوفيق، وأن الذين اتصلوا به وأخذوا عنه واقتبسوا منه هداهم الله، ووهبهم توفيقا ورشادا. ولعل مسلمة قد عبر عن شيء من هذا القبيل حينما دخل على عمر بن عبد العزيز وهو في ساعاته الأخيرة فقال له في تأثر عميق بليغ: جزاك الله، يا أمير المؤمنين عنا خيرا، فقد ألنت لنا قلوبا كانت قاسية، وجعلت لنا في الصالحين ذكرا (١).

وهذه عبارة تدل على أن ملامح من شخصية مسلمة كان الفضل فيها لخامس الراشدين رضوان الله تبارك وتعالى عليه.

ومن المواقف الخالدة الباقية بين مسلمة وعمر ما رواه ابن عبد ربه، وهو أن مسلمة بن عبد الملك، دخل على عمر بن عبد العزيز في المرض الذي مات فيه، فقال له: يا أمير المؤمنين، إنك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال، وتركتهم عالة، ولا بد لهم من شيء يصلحهم، فلو أوصيت بهم إلي أو إلى نظرائك من أهل بيتك لكفيتك مئونتهم إن شاء الله.

فقال عمر: أجلسوني، فأجلسوه، فقال:

الحمد لله، أبالله تخوفني يا مسلمة؟. أما ما ذكرت أني فطمت أفواه ولدي عن هذا المال وتركتهم عالة، فإني لم أمنعهم حقا هو لهم. ولم أعطهم حقا هو لغيرهم، وأما ما سألت من الوصاة إليك أو إلى نظرائك من أهل بيتي، فإن وصيتي بهم إلى الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين، وإنما بنو عمر أحد رجلين: رجل اتقى الله،

(١) أحمد الشرباصي، مسلمة بن عبد الملك، مجاهد على الدوام، مجلة البحوث الإسلامية، ١/ ١٤١.

فجعل الله لـه من أمره يسرا، ورزقـه من حيث لا يحتسب، ورجل غير وفجر فلا يكون عمر أول من أعانـه على ارتكابه، ادعوا لـي بني. فدعوهم، وهم يومئذ اثنا عشر غلاما، فجعل يصعد بصره فيهم ويصوبه، حتى اغرورقت عيناه بالدمع، ثم قال:

بنفسي فتية تركتهم ولا مال لهم. يا بني، إني قد تركتكم من الله بخير، إنكم لا تمرون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله، يا بني، ميلت رأيي بين أن تفتقروا في الدنيا، وبين أن يدخل أبوكم النار، فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيرا من دخول أبيكم يوما واحدا النار. قوموا يا بني عصمكم الله ورزقكم.

فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر (١).

وكان مسلمة يظهر نعمة الله تعالى، ومن شواهد ذلك أنه دخل على عمر بن عبد العزيز وعليه ريطة من رياط مصر (أي ثوب رقيق ناعم). فقال له عمر: بكم أخذت هذا يا أبا سعيد؟

أجاب مسلمة: بكذا وكذا.

قال عمر: فلو نقصت من ثمنها ما كان ناقصا من شرفك.

فأجاب مسلمة: إن أفضل الاقتصاد ما كان بعد الجدة، وأفضل العفو ما كان بعد القدرة، وأفضل اليد ما كان بعد الولاية.

ولقد كان مسلمة رجلا معطاء، ولقد قال يوما لنصيب الشاعر: سلني. قال: لا، قال: ولم؟ قال نصيب:

لأن كفك بالجزيل أكثر من مسألتي باللسان.

وكان مسلمة مع تقواه وحرصه على الصلاة رجلا يحب العفو

(١) أحمد الشرباصي، مسلمة بن عبد الملك، مجاهد على الدوام، مجلة البحوث الإسلامية، ١/ ١٤١.

ويحبب فيه، ولقد حدث بين الخليفة هشام بن عبد الملك وبين ابن هبيرة ما دعا إلى إهدار دمه، ولكن خادما لمسلمة يحدثنا فيقول:

كان مسلمة بن عبد الملك يقوم الليل فيتوضأ ويتنفل حتى يصبح، فيدخل على أمير المؤمنين، فإني لأصب الماء على يديه من آخر الليل وهو يتوضأ، إذ صاح صائح من وراء الرواق: أنا بالله وبالأمير:

فقال مسلمة (في دهشة): صوت ابن هبيرة، اخرج إليه.

فخرجت إليه ورجعت فأخبرته، فقال: أدخله، فدخل فإذا رجل يميد نعاسا، فقال: أنا بالله وبالأمير.

قال: أنا بالله، وأنت بالله.

ثم قال: أنا بالله، وأنا بالأمير.

قال مسلمة: أنا بالله، وأنت بالله.

حتى قالها ثلاثا، ثم قال: أنا بالله. فسكت عنه، ثم قال لي: انطلق به فوضئه وليصل، ثم اعرض عليه أحب الطعام إليه فأته به، وافرش له في تلك الصفة - لصفة بين يدي بيوت النساء - ولا توقظه حتى يقوم متى قام. فانطلقت به فتوضأ وصلى، وعرضت عليه الطعام فقال: شربة سويق، فشرب، وفرشت له فنام، وجئت إلى مسلمة فأعلمته، فغدا إلى هشام فجلس عنده، حتى إذا حان قيامه قال: يا أمير المؤمنين، لي حاجة. قال هشام: قضيت، إلا أن تكون في ابن هبيرة. قال قال مسلمة: رضيت يا أمير المؤمنين.

ثم قام مسلمة منصرفا، حتى إذا كاد أن يخرج من الديوان رجع فقال: يا أمير المؤمنين، ما عودتني أن تستثني في حاجة من حوائجي، وإني أكره أن يتحدث الناس أنك أحدثت علي الاستثناء.

قال هشام: لا أستثني عليك.

قال مسلمة: فهو ابن هبيرة.

فعفا عنه هشام [(١)].

ومن أروع المشاهد المأثورة المذكورة في سيرة البطل الفاتح: مسلمة بن عبد الملك. والتي يجب أن نطيل فيها التأمل والاعتبار، إن كنا من أصحاب القلوب والأبصار، أن مسلمة كان يحاصر ذات يوم حصنا، وما أكثر الحصون التي حاصرها، وما أكثر الحصون التي اقتحمها باسم الإسلام والمسلمين... واستعصى فتح الحصن على الجنود، فوقف مسلمة يخطب بينهم ويقول لهم ما معناه: أما فيكم أحد يقدم فيحدث لنا نقبا في هذا الحصن؟.

وبعد قليل تقدم جندي ملثم، وألقى بنفسه على الحصن، واحتمل ما احتمل من أخطار وآلام، حتى أحدث في الحصن نقبا كان سببا في فتح المسلمين له، وعقب ذلك نادى مسلمة في جنوده قائلا: أين صاحب النقب؟.

فلم يجبه أحد، فقال مسلمة: عزمت على صاحب النقب أن يأتي للقائي، وقد أمرت الآذن بإدخاله علي ساعة مجيئه.

وبعد حين أقبل نحو الآذن شخص ملثم، وقال له: استأذن لي على الأمير. فقال له: أأنت صاحب النقب؟.

فأجاب: أنا أخبركم عنه، وأدلكم عليه. فأدخله الآذن على مسلمة، فقال الجندي الملثم للقائد:

إن صاحب النقب يشترط عليكم أمورا ثلاثة: ألا تبعثوا باسمه في

(١) أحمد الشرباصي، مسلمة بن عبد الملك، مجاهد على الدوام، مجلة البحوث الإسلامية، ١/ ١٤٢.

صحيفة إلى الخليفة، وألا تأمروا له بشيء جزاء ما صنع، وألا تسألوه من هو؟. فقال مسلمة: له ذلك، فأين هو؟ فأجاب الجندي في تواضع واستحياء أنا صاحب النقب أيها الأمير. ثم سارع بالخروج.

فكان مسلمة بعد ذلك لا يصلي صلاة إلا قال في دعائها: اللهم اجعلني مع صاحب النقب يوم القيامة.

وبعد ما يزيد عن نصف قرن من الزمان قضاها مسلمة بن عبد الملك في قتال ونضال، وكفاح وحمل سلاح. مضى إلى ربه سنة إحدى وعشرين ومائة، لينال ثوابه مع أهل التقوى وأهل المغفرة:{إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾} [القمر: ٥٤ - ٥٥].

توفي مسلمة يوم الأربعاء لسبع مضين من المحرم سنة إحدى وعشرين ومائة، في موضع يقال له الحانوت، وقيل سنة عشرين ومائة، وقيل سنة ثنتين وعشرين ومائة.

ولقد رثى الوليد بن يزيد بن عبد الملك عمه البطل مسلمة بن عبد الملك فقال في رثائه هذه الأبيات:

أقول – وما البعد إلا الردى ::: أمسلم، لا تبعدن، مسلمة
فقد كنت نورا لنا في البلاد ::: مضيئا، فقد أصبحت مظلمة
ونكتم موتك نخشى اليقين ::: فأبدى اليقين لنا الجمجمة

رضوان الله تبارك وتعالى عليه[1].

لقد كان - رحمه الله - ذا عقل راجح ورأي سديد يحولان بينه وبين مغامرة تشق صفوف المسلمين، وكان بحق من أكثر الناس حرصاً على رص الصفوف والوحدة، كما أنه كان يعتبر الخلافة (وسيلة) من أجل خدمة الأمة لا (غاية) من أجل أطماع شخصية، وأمجاد

(١) أحمد الشرباصي، مسلمة بن عبد الملك، مجاهد على الدوام، مجلة البحوث الإسلامية، ١/ ١٤٤.

أنانية، وهو بحق خدم الأمة أجل الخدمات، وبذلك حقق (الوسيلة) واستغنى عن (الغاية)، وكان رحمه الله جميل الصورة حسن الوجه صبيحاً، من أجمل الناس وهو معدود من الطبقة الرابعة من تابعي أهل الشام.

مواقف من حياته:

لقاء بين الجد الرومي النصراني والحفيد العربي المسلم:

عن أبي معمر، عن رجل من أهل الكوفة، قال: كنا مع مسلمة بن عبد الملك، ببلاد الروم، فسبا سبايا كثيرة، وأقام ببعض المنازل، فعرض السبي على السيف، فقتل خلقاً، حتى عرض عليه شيخ كبير ضعيف، فأمر بقتله.

فقال له: ما حاجتك إلى قتل شيخ مثلي؟ إن تركتني حياً، جئتك بأسيرين من المسلمين شابين.

قال له: ومن لي بذلك؟ قال: إني إذا وعدت وفيت.

قال: لست أثق بك.

فقال له: دعني حتى أطوف في عسكرك، لعلي أعرف من يتكفل بي إلى أن أمضي وأعود أجيء بالأسيرين.

فوكل به من يطوف به، وأمره بالاحتفاظ به، فما زال الشيخ يطوف، ويتصفح الوجوه، حتى مر بفتى من بني كلاب، قائماً يحس فرسه.

فقال له: يا فتى، اضمني للأمير، وقص عليه قصته.

فقال: أفعل، وجاء الفتى إلى مسلمة، فضمنه، فأطلقه مسلمة.

فلما مضى، قال للفتى: أتعرفه؟ قال: لا، والله.

قال: فلم ضمنته؟ قال: رأيته يتصفح الوجوه، فاختارني من بينهم، فكرهت أن أخلف ظنه فيّ.

فلما كان من الغد، عاد الشيخ، ومعه أسيران شابان من المسلمين، فسلمهما إلى مسلمة، وقال: إن رأى الأمير أن يأذن لهذا الفتى أن يصير معي إلى حصني لأكافئه على فعله.

فقال مسلمة للفتى الكلابي: إن شئت فامض معه.

فلما صار إلى حصنه، قال له: يا فتى، تعلم - والله - أنك ابني قال له: وكيف أكون ابنك، وأنا رجل من العرب مسلم، وأنت رجل من الروم نصراني.

فقال له: أخبرني عن أمك، ما هي؟ قال: رومية.

قال: فإني أصفها لك، فبالله إن صدقت، إلا صدقتني.

قال: أفعل.

فأقبل الرومي، يصف أم الفتى، ما خرم من صفتها شيئاً.

فقال له الفتى: هي كذلك، فكيف عرفت أني ابنها؟ قال: بالشبه، وتعارف الأرواح، وصدق الفراسة.

ثم أخرج إليه امرأة، فلما رآها الفتى لم يشك فيها أنها أمه، لتقارب الشبه، وخرجت معها عجوز كأنها هي، فأقبلتا تقبلان رأس الفتى، ويديه، وتترشفانه.

فقال له: هذه جدتك، وهذه خالتك.

ثم اطلع من حصنه، فدعا بشباب في الصحراء، فأقبلوا، بكلمهم بالرومية، فأقبلوا يقبلون رأس الفتى ويديه، فقال: هؤلاء أخوالك، وبنو خالاتك، وبنو عم والدتك.

ثم أخرج إليه حلياً كثيراً، وثياباً فاخرةً، وقال: هذا لوالدتك منذ سبيت، فخذه معك، وادفعه إليها، فإنها ستعرفه، ثم أعطاه لنفسه مالاً كثيراً، وثياباً، وحلياً، وحمله على عدة دواب، وألحقه بعسكر مسلمة،

وانصرف.

وأقبل الفتى قافلاً حتى دخل إلى منزله فأقبل يخرج الشيء بعد الشيء مما عرفه الشيخ أنه لأمه، وتراه أمه، فتبكي، فيقول لها: قد وهبته لك.

فلما كثر عليها، قالت له: يا بني، أسألك بالله، من أي بلد صارت إليكم هذه الثياب، وهل تصف لي أهل هذا الحصن الذي كان فيه هذا؟ فوصف لها الفتى صفة البلد والحصن، ووصف لها أمها وأختها، والرجال الذين رآهم، وهي تبكي وتقلق.

فقال لها: ما يبكيك؟ فقالت: الشيخ والله والدي، والعجوز أمي، وتلك أختي.

فقص عليها الخبر، وأخرج بقية ما كان أنفذه معه أبوها إليها، فدفعه إليها[١].

إن لم يقدر عليها ذكرها الرجال:

دخل مسلمة بن عبد الملك على أخيه هشام بن عبد الملك وعنده خادم جميل عليه عمامة سوداء وثياب وشي فقال مسلمة: يا أمير المؤمنين أي فتياننا هذا؟ قال هذا خادم لي، فقال: يا أمير المؤمنين يدخل على حرمك مثل هذا، قال: إنه مجبوب لا يقدر على النساء. قال: إنه إن لم يقدر عليها ذكرها الرجال.

فأخرجه هشام [١]

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص ٧٦.
(١) أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن الجوزي، ذم الهوى، تحقيق مصطفى عبد الواحد، ص١٥١.

السحر الحلال:

وسمع مسلمة بن عبد الملك رجلا يتكلم فيحسن ويبين معانيه التي يقصد لها تبيينا شافيا فقال مسلمة: هذا والله السحر الحلال [1].

ألا أخبرك عما دعاني إلى ترك الشعر؟

قال لي كثير عزة: ألا أخبرك عما دعاني إلى ترك الشعر؟ قلت: نعم؛ قال: شخصت أنا والأحوص ونصيب إلى عمر بن عبد العزيز ، وكل واحد منا يدل عليه بسابقة وإخاء قديم، ونحن لا نشك أنه سيشرنا في خلافته، فلما رفعت لنا أعلام خناصرة، لقينا مسلمة بن عبد الملك، وهو يومئذ فتى العرب؛ فسلمنا، فرد، ثم قال: أما بلغكم أن إمامكم لا يقبل الشعر؟ قلنا ما توضح إلينا خبر حتى انتهينا إليك، ووجمنا وجمة عرف ذلك فينا؛ فقال: إن يك ذو دين بني مروان قد ولي وخشيتم حرمانه، فإن ذا دنياها قد بقي ولكم عندي ما تحبون، وما ألبث حتى أرجع إليكم وأمنحكم ما أنتم أهله. فلما قدم كانت رحالنا عنده بأكرم منزل وأكرم منزول عليه؛ فأقمنا عنده أربعة أشهر يطلب لنا الإذن هو وغيره فلا يؤذن لنا، إلى أن قلت في جمعة من تلك الجمع: لو أني دنوت من عمر فسمعت كلامه فحفظته كان ذلك رأيا، ففعلت. فكان مما حفظت من كلامه: لكل سفر زاد لا محالة، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى، وكونوا كمن عاين ما أعد الله له من ثوابه أو عقابه، فترغبوا وترهبوا، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم؛ في كلام كثير لا أحفظه.

---

(١) أبو الربيع سليمان بن بنين بن خلف بن عوض تقي الدين المصري، إتفاق المباني وافتراق المعاني، تحقيق يحيى عبدالرؤوف جبر، دار عمار - عمان، الطبعة الأولى، ١٩٨٥،
ص١٤٣.

ثم قال: أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى عنه نفسي فتخسر صفقتي، وتظهر عيلتي، وتبدو مسكنتي، في يوم لا ينفع فيه إلا الحق والصدق. ثم بكى حتى ظننت أنه قاض نحبه، وارتج المسجد وما حوله بالبكاء فانصرفت إلى صاحبي فقلت لهما: خذا في شرج من الشعر غير ما كنا نقول لعمر وآبائه، فإن الرجل آخري وليس بدنيوي. إلى أن استأذن لنا مسلمة في يوم جمعة ما أذن للعامة، فلما دخلت سلمت ثم قلت: يا أمير المؤمنين، طال الثواء وقلت الفائدة وتحدثت بجفائك إيانا وفود العرب؛ قال؛ يا كثير " إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل " أفي واحد من هؤلاء أنت؟ قلت: بلى، ابن سبيل منقطع به، وأنا ضاحك؛ قال: ألست ضيف أبي سعيد؟ قلت: بلى؛ قال: ما أرى ضيف أبي سعيد منقطعاً به؛ قلت: يا أمير المؤمنين، أتأذن لي في الإنشاء؟ قال: نعم، ولا تقل إلا حقاً، فقلت:

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف ::: برياً ولم تقبل إشارة مجرم
وصدقت بالفعل المقال مع الذي ::: أتيت فأمسى راضياً كل مسلم
ألا إنما الفتى بعد زيغة ::: من الأود البادي ثقاف المقوم
وقد لبست لبس الهلوك ثيابها ::: تراءى لك الدنيا بكف ومعصم
وتومض أحياناً بعين مريضة ::: وتبسم عن مثل الجمان المنظم
فأعرضت عنها مشمئزاً كأنما ::: سقتك مدوفاً من سمام وعلقم
وقد كنت من أجبالها في ممنع ::: ومن بحرها في مزبد الموج مفعم
وما زلت تواقاً إلى كل غاية ::: بلغت بها أعلى البناء المقوم
فلما أتاك الملك عفواً ولم يكن ::: لطالب دنيا بعده من تكلم
تركت الذي يفنى وإن كان مونقا ::: وآثرت ما يبقى برأي مصمم
وأضررت بالفاني وشمرت للذي ::: أمامك في يوم من الهول مظلم

ومالك إذ كنت الخليفة مانع ::: سوى الله من مال رغيب ولا دم
سما لك هم في الفؤاد مؤرق ::: بلغت به أعلى المعالي بسلم
فما بين شرق الأرض والغرب كلها ::: مناد ينادي من فصيح وأعجم
يقول: أمير المؤمنين ظلمتني ::: بأخذ للدينار ولا أخذ درهم
ولا بسط كف لامرئ غير مجرم ::: ولا السفك منه ظالماً ملء محجم
ولو يستطيع المسلمون لقسموا ::: لك الشطر من أعمارهم غير ندم
فأربح بها من صفقة لمبايع ::: وأعظم بها أعظم بها ثم أعظم

قال: فأقبل علي وقال: إنك مسؤول عما قلت. ثم تقدم الأحوص فاستأذنه في الإنشاد؛ فقال: قل ولا تقل إلا حقاً؛ فقال:

وما الشعر إلا حكمة من مؤلف ::: بمنطق حق أو بمنطق باطل
فلا تقبلن إلا الذي وافق الرضا ::: ولا ترجعنا كالنساء الأرامل[1]

أنا بالله وأنت بالله:

قال عبد الله بن سوار: قال لي ربيع الحاجب: أتحب أن تسمع حديث ابن هبيرة مع مسلمة؟ قلت: نعم؛ قال: فأرسل لخصي كان لمسلمة يقوم على وضوئه، فجاءه، فقال: حدثنا حديث ابن هبيرة مع مسلمة؛ قال: كان مسلمة بن عبد الملك يقوم من الليل فيتوضأ ويتنفل حتى يصبح فيدخل على أمير المؤمنين، فإني لأصب الماء على يديه من آخر الليل وهو يتوضأ إذ صاح صائح من وراء الرواق: أنا بالله وبالأمير؛ فقال مسلمة: صوت ابن هبيرة، اخرج إليه. فخرجت إليه ورجعت فأخبرته؛ فقال: أدخله، فدخل؛ فإذا رجل يميد نعاساً، فقال: أنا بالله وبالأمير؛ قال: أنا بالله وأنت بالله؛ ثم قال: أنا بالله وبالأمير؛ قال: أنا بالله وأنت بالله، حتى قالها ثلاثاً؛ ثم قال: أنا بالله، فسكت عنه، ثم قال لي: انطلق به فوضئه، ثم اعرض عليه أحب الطعام إليه

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ /١٢٠.

فأته به وافرش له في تلك الصفة - بصفة بين يدي بيوت النساء - ولا توقظه حتى يقوم متى قام. فانطلقت به فتوضأ وصلى وعرضت عليه الطعام، فقال: شربة سويق، فشرب، وفرشت له فنام؛ وجئت إلى مسلمة فأعلمته، فغدا إلى هشام، فجلس عنده حتى إذا حان قيامه، قال: يا أمير المؤمنين، لي حاجة؛ قال: قضيت إلا أن تكون في ابن هبيرة؛ قال: رضيت يا أمير المؤمنين، ثم قام منصرفاً، حتى إذا كان أن يخرج من الإيوان رجع، فقال: يا أمير المؤمنين، عودتني أن تستثني في حاجة من حوائجي، وإني أكره أن يتحدث الناس أنك أحدثت على الاستثناء؛ قال: لا أستثني عليك؛ قال: فهو ابن هبيرة. فعفا عنه(١).

لو رآك أبوك آدم لقَرت عينُه بك؟

مَرّ مَسلمة بن عبد الملك، وكان من أجمل الناس، بمُوَسْوس على مَزْبلة، فقال له المُوسوس: لو رآك أبوك آدم لقرت عينُه بك؟ وقال له مَسْلمة: لو رآك أبوك آدم لأذهبت سَخنةٌ عينه بك قرّةَ عينه بي! وكان مَسلمة من أحضر الناس جواباً(٢).

مسلمة بن عبد الملك ونصيب:

وقال مسلمة بن عبد الملك يوماً لنصيب: أمتدحت فلاناً! لرجل من أهله، فقال: قد فعلت، قال: أو حرمك؟ قال: قد فعل، قال: فهلا هجوته؟ قال: لم أفعل، قال: ولم؟ قال: لأني كنت أحق بالهجاء منه! إذ رأيته موضعاً لمدحي! فأعجب به مسلمة، فقال: اسألني، فقال: لا افعل، قال: ولِمَ؟ فقال: لأن كفك بالعطية أجود من لساني بالمسألة،

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ /١٥٠.
(٢) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ٤٧٩/١.

فوهب له ألف دينار [١].

– أَذَلّ الْحَيَاةِ وَكُرْهُ المَمَاتِ ::: وَكُلاًّ أَرَاهُ طَعاماً وَبِيلاَ
فَإنْ لَمْ يَكُنْ غَيْرُ إحْدَاهُما ::: فَسَيْراً إلى المَوْتِ سَيْراً جَمِيلاَ [٢]

ورده إلى عمله:

وسخط مسلمة بن عبد الملك على العريان بن الهيثم، فعزله عن شرطة الكوفة، فشكا ذلك إلى عمر بن عبد العزيز، فكتب إليه: إن من حفظ أنعم الله، رعاية ذوي الإحسان؛ ومن إظهار شكر الموهوب، صفح القادر عن الذنب، ومن تمام السؤدد حفظ الودائع، واستتمام الصنائع. وقد كنت أودعت العريان نعمة من أنعمك، فسلبتها عجلة سخطك، وأنصفته عصبته، على أن وليته ثم عزلته وخليته، وأنا شفيعه؛ فأحب أن تجعل له من قلبك نصيبه، ولا تخرجه من حسن رأيك، فتضيع ما أودعته وتتوى ما أفسدته. فعفا عنه، ورده إلى عمله[٣].

صف لنا جريراً والفرزدق والأخطل:

وقال مسلمة بن عبد الملك لخالد بن صفوان: صف لنا جريراً والفرزدق والأخطل. فقال: أصلح الله الأمير! أما أعظمهم فخراً وأبعدهم ذكراً وأحسنهم غزلاً وأحلاهم معاني وعللاً، الطامي إذا زخر والحامي إذا زأر والسامي إذا نظر، الذي إن أهدر قال وإن خطر صال وإن طلب نال، الفصيح اللسان السبّاق في الرهان فالفرزدق. وأما أهتكهم ستراً وأغزرهم بحراً وأرقهم شعراً، والأغر

(١) الكامل في اللغة و الأدب، ٢ /١١٩.
(٢) أبي الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الموصلي، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية - بيروت، ١٩٩٥، ٣٦٣/٢.
(٣) الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص١١.

الأبلق الذي إن طلب لم يُسبق وإن طُلب لم يلحق، الواصف للفرسان الناعت للأظعان بحلاوة وبيان فجرير، وأما أحسنهم نعتاً وأقلهم فوتاً وأمدحهم بيتاً، الذي إن هجا وضع وإن مدح رفع وإن حاز أفظع، البعيد المتان الماضي الجنان الممداح للسلطان فالأخطل. وكلهم، أصلح الله الأمير، طويل النجاد رفيع العماد ذكيّ الفؤاد.

قال: فصف لنا الشعراء العشرة، فقال: قصتهم مفسرة، أما أحسنهم نسيباً وتشبيباً وأشدهم تأليباً فامرؤ القيس. وأما أفحلهم مقالاً وأنبلهم رجالاً وأكرمهم فعالاً فزهير. وأما أرجحهم كلاماً وأنبلهم مقاماً وأشرفهم أياماً فأوس بن حجر. وأما أفصحهم لساناً وأثبتهم بياناً وأشدهم إذعاناً فالنابغة، وأما أطردهم للصيد وأجحشهم في الكيد وأدرجهم في القيد فعديّ بن زيد.

وأما أوصفهم للسلاح وأنعتهم للقداح والحرب ذات الكفاح فابن مقبل. وأما أوصفهم للسيئين وأكسبهم للمئين وأمدحهم أجمعين فالحطيئة. وأما أهجاهم للرجال وأبدّهم في المقال وأضربهم للأمثال فطرفة. وأما أعفهم عن الكاس وأحضهم على الباس وأصدقهم عند الناس فسلامة بن جندل(١).

بضاعةٌ مجفوٌّ أهلها:

أوصى مسلمة بن عبد الملك بكثر ماله لطلاّب الأدب وقال: إنّها بضاعةٌ مجفوٌّ أهلها.

عن أحمد بن عبيد قال: قال سالمٌ مولى مسلمة بن عبد الملك: كان مسلمة إذا دخل غلّة ضياعه جعلها أثلاثاً، فثلثاً لنفقته، وثلثاً للنوائب والحقوق، وثلثاً يصرفه إلى أهل الأدب.

قال: فقلت له يوماً: يا مولاي، إذا ورد مالك صرفته في ثلاث: فأما

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ١/١٨٦.

النّفقة فلا بدّ منها، وأمّا النائب والحقوق فحزمٌ وقوّة، ولا أعرف الوجه فيما تصرفه إلى هؤلاء القوم. فقال: إنهم تركوا التعيّش والطلب فاشتغلوا عن المكاسب بطلب العلم، فواجبٌ على كلّ ذي مروءة أن يعينهم. فقلت: يا مولاي، جعلته أحبَّ الأقسام الثلاثة إليّ[1].

ما كنيتك؟

عن ابراهيم بن خالد بن مخرمة، قالَ: كنت يوما عند مسلمة بن عبد الملك، وقد زاره عبدالله بن عمر بن عبد العزيز، وكان مصافيا له، فاستؤذن لرجل من اهل الحيرة على مسلمة، فقيل: بالباب شيخ فزع اليك في مظلمة، وهو جار ضيعتك بمكان كذا وكذا، فأذن له، فدخل، فأذا رجل طويل القامة، ضخم اللحية، جهم الوجه، قد اخذ عارضاه بين منكبيه، وبلغ عثنونه سرته، وعليه ممطر محشو، فيه حشو ثلاثة مماطر في يوم صائف. فو الله ما هو الا ان طلع فمشى، وتفرج، وخطر بيديه، فرأيت مسلمة يلاحظه ويعاتب نفسه، فسلم وذكر حاجته بنهر وضجيج، ولغط وتخليط. فقال له مسلمة: اجلس، فجلس، فقال له: ما كنيتك؟قالَ ابو العجيس، قالَ: ما اسمك؟قالَ: صهاب بن حمال، وابدى يسراه فاذا فص خاتمه مثل الابهام، وعليه اسطار. فلمّا رآه مسلمة لم يصبر، فقال: ارى فصك ضخما، وارى سطورا فما فيه؟ فوالله ما حفظ اسمه حتى دفعه الي، فأذا فيه صهاب ابو العجيس، يؤمن بالواحد الاحد الصمد، وبالنبي الامي محمد، ويسأل الله حياة سعادة، وموت شهادة، على كل شئ قدير فما استتم القراءة حتى ضحك عبدالله، واضحكني ما رأيت، وتبسم مسلمة، ثم قالَ لحاجبه: اقض حاجته، واحسن ضيافته، فلمّا توارى قالَ مسلمة:

(١) أبو أحمد العسكري، المصون في الأدب، ص٣٠.

ما بعد كنيته وعظم لحيته ::: ونقش خاتمه شك لمعتبر[١]

والمغني يغني فترتاح له النساء؟

مر مسلمة بن عبد الملك يوماً بقصر أخيه سليمان فسمع صوت مغن فغدا إلى سليمان وقال: يا أمير المؤمنين مررت أمس بالقصر الذي فيه حرمك فسمعت فيه غناء، أما علمت أن الفرس يصهل فتشال الحجر، والحمار ينهق فتستودق له الأتان، والثور يخور فتستخرم له البقر، والتيس ينب فيثغو له المعز، والكلب يعوي فتصرف له الكلبة، والمغني يغني فترتاح له النساء؟ فقال سليمان: قد وعظت وأحسنت والله عليّ راع وكفيل، لا يدخل داري مغن ذكر ولا أنثى! [٢].

الطاقية:

دخل مسلمة بن عبد الملك بن مروان بلدة من بلاد الكفر فحصل له صداع، فألبسه أهل البلد طاقية فشفي في الحال، فنظر إلى الطاقية فوجد فيها ورقة فيها بسم الله الرحمن الرحيم:{ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ} [البقرة: ١٧٨]، بسم الله الرحمن الرحيم:{ ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ} [الأنفال: ٦٦]، بسم الله الرحمن الرحيم:{كٓهيعٓصٓ} [مريم: ١]، بسم الله الرحمن الرحيم:{حمٓ ١ عٓسٓقٓ} [الشورى: ١ - ٢]، بسم الله الرحمن الرحيم:{ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ} [البقرة: ١٨٦]، بسم الله الرحمن الرحيم:{ أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا} [الفرقان: ٤٥]، بسم الله الرحمن الرحيم:{وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣} [الأنعام: ١٣]، قيل: خص الساكن بالذكر لأنه أكثر من المتحرك وقيل: ما سكن أي ما خلق فهو أعم واستحسنه القرطبي فقال

(١) إبن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص٢٣.
(٢) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ٣٢٥/١.

المسلمون لأهل البلد من أين لكم هذه الآيات، وإنما نزلت على محمد ؟ فقالوا: وجدناها منقوشة على حجر كنيسة قبل أن يبعث نبيكم بسبعمائة عام[١].

شكٌ لمعتبر:

قال مسلمة بن عبد الملك لجلسائه: يعرف حمق الرجل في أربع، طول لحيته، وبشاعة كنيته، وإفراط شهوته، ونقش خاتمه، فدخل عليه رجلٌ طويل اللحية، فقال: أما هذا فقد أتاكم بواحدةٍ، فانظروا أين هو من الثلاث؟ فقيل له: ما كنيتك؟ فقال: أبو الياقوت، فقيل له: ما نقش خاتمك؟ فقال: " وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد " قيل: فأي الطعام أحب إليك؟ قال: الجلنجبين، فقال مسلمة: فيه ما بعد كنيته، مع طول لحيته، مع نقش خاتمه، شكٌ لمعتبر [٢].

والله لا يطيعه أبداً:

قال محمد بن سلامٍ: بلغني أن مسلمة بن عبد الملك قال ليزيد ابن عبد الملك: يا أمير المؤمنين ببابك وفود العرب، ويقف ببابك أشراف الناس، أفلا تقعد لهم وأنت قريب العهد بعمر بن عبد العزيز، وقد اشتغلت بهؤلاءِ الإماءِ؟ فقال: أرجو أن لا تعاتبني بعد هذا. فلما آوى إلى فراشه جاءته جاريته حبابة، فقال لها: أعزبي عني. فقالت: ما دهاك؟ فأخبرها بما قال له مسلمة فقالت له: فأمتعني منك مجلساً واحداً؟ قال ذاك لك، فأحضرت معبداً فقالت له: ما الحيلة فيه؟ قال: يقول الأحوص أبياتاً، وألحنها أنا، وتغنينا إياه. فأرسلت إلى الأحوص وعرفته الخبر فقال الأحوص:

(١) الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب النفائس، ٨٣/١.
(٢) النويري،نهاية الأرب في فنون الأدب، ٣٢٨/٣.

ألا لا تلمــــه اليـــوم أن يتبلـــدا ::: فقد غلــب المحــزون أن يتجلــدا
إذا كنت عزهات عن اللهو والصبا ::: فكن حجراً من يابس الصخر جلمداً
فما العيش إلا ما تلــذ وتشــتهي ::: وإن لام فيه ذوي الشنان وفنَّــدا

فلحَّنها معبد وقال: اجتزت بدير نصاري يقرؤون بلحنٍ شج فحاكيته في هذا الصوت، فلما غنته حبابة يزيد قال: قاتل الله مسلمة، وصدق قائل هذا الشعر، والله لا أطيعه أبداً [١].

ائذنوا لأصحاب الحوائج:

وكان مسلمة بن عبد الملك إذا كثر عليه أصحاب الحوائج وخشي الضجر أمر أن يحضر ندماؤه من أهل الأدب، فتذاكروا مكارم الأخلاق في الناس وجميل طرائقهم ومروءاتهم، فيطرب ويهيج ثم يقول: ائذنوا لأصحاب الحوائج، فلا يدخل عليه أحد إلا قضى حاجته[٢].

هل ترين أثر هذا الطعن؟

مسلمة بن عبد الملك بن مروان جلس يقضي بمصر بين الناس فكلمته امرأة فلم يقبل عليها فقالت. ما رأيت أقل حياء من هذا قط، فكشف عن ساقه فإذا فيها أثر تسع طعنات، فقال لها: هل ترين أثر هذا الطعن؟ والله لو أخرت رجلي قيد شبر ما أصابتني واحدة منهن، وما منعني من تأخيرها إلا الحياء، وأنت تنحليني قلته[١].

ألست القائل في مسلمة بن عبد الملك بالأمس:

كان أبو نخيلة منقطعاً إلى مسلمة بن عبد الملك، فلما جاءت دولة بني هشام خافهم وبعد حتى علم أن السفاح قد عفا عمن هو أعظم جرماً

(١) الزجاجي، الأمالي، ١٨/١.
(٢) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ١٩٠/١.
(١) المصدر السابق، ٢٨١/١.

منه وأكبر محلاً، فلما وقف بين يديه سلم عليه وجعا وأثنى، ثم استأذن في الإنشاد، فقال له: ومن أنت؟ قال: عبدك يا أمير المؤمنين أبو نخيلة الحماني، فقال له: لا حياك الله ولا قرب دارك يا نضو السوء، ألست القائل في مسلمة بن عبد الملك بالأمس:

أمسلم إني يا ابن كل خليفة ::: ويا جبل الدنيا ويا ملك الأرض

أما والله لولا أني قد أمنت نظراءك لما ارتد إليك طرفك حتى أخضبك بدمك. فقال: من الرجز

كنا أناساً نرهب الأملاكا ::: إذ ركبوا الأعناق والأوراكا
ثم ارتجينا زمناً أباكا ::: ثم ارتجينا بعده أخاكا
ثم ارتجيناك لها إياكا ::: وكان ما قلت لمن سواكا
زوراً فقد كفر هذا ذاكا

فتبسم أبو العباس وقال له: أنت شاعر وطالب خير، وما زال الناس يمدحون الملوك في دولتهم، والتوبة تكفر الخطيئة، والظفر يزيل الحقد، وقد عفونا عنك، واستأنفنا الصنيعة لك. وأنت الآن شاعرنا فتسم بذلك لتزول عنك سمة بني مروان فقد كفر هذا ذلك، كما قلت[(١)].

دعوه لو كان تاركاً اللحن:

كان مسلمة بن عبد الملك يعرض الجند فقال لرجل: ما اسمك؟ قال: عبد الله بالنصب قال: ابن من، قال: ابن عبد الرحمن بالجر فأمر بضربه، فقال: باسم الله بالرفع. فقال: دعوه لو كان تاركاً اللحن لتركه تحت السياط[(١)].

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ٤٦١/١.
(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ٢٢٧/٣.

من كلامه:

- العيش في ثلاث: سعة المنزل، وكثرة الخدم، وموافقة الأهل[١].

- طهر عسكرك من أهل الفساد فإن الله لا يصلح عمل المفسدين[٢].

– ما لمت نفسي على خطأ افتتحته بحزم ولا حمدتها على صواب افتتحته بعجز.

– عونك اللهم على أعباء السودد [٣].

– المرأة الصالحة خيرٌ للمرء من يديه والمرأة السوء غلٌ من حديد.

– من لم تخنه نساؤه تكلم بملىء فيه[٤].

- مروتان ظاهرتان: الرياسة والفصاحة " [٥].

- ما أخذت أمراً قط بحزم فظلمت نفسي فيه وإن كانت العاقبة علي، ولا أخذت أمراً قط وضيعت الحزم فيه إلا لمت نفسي عليه وإن كانت العاقبة لي[١].

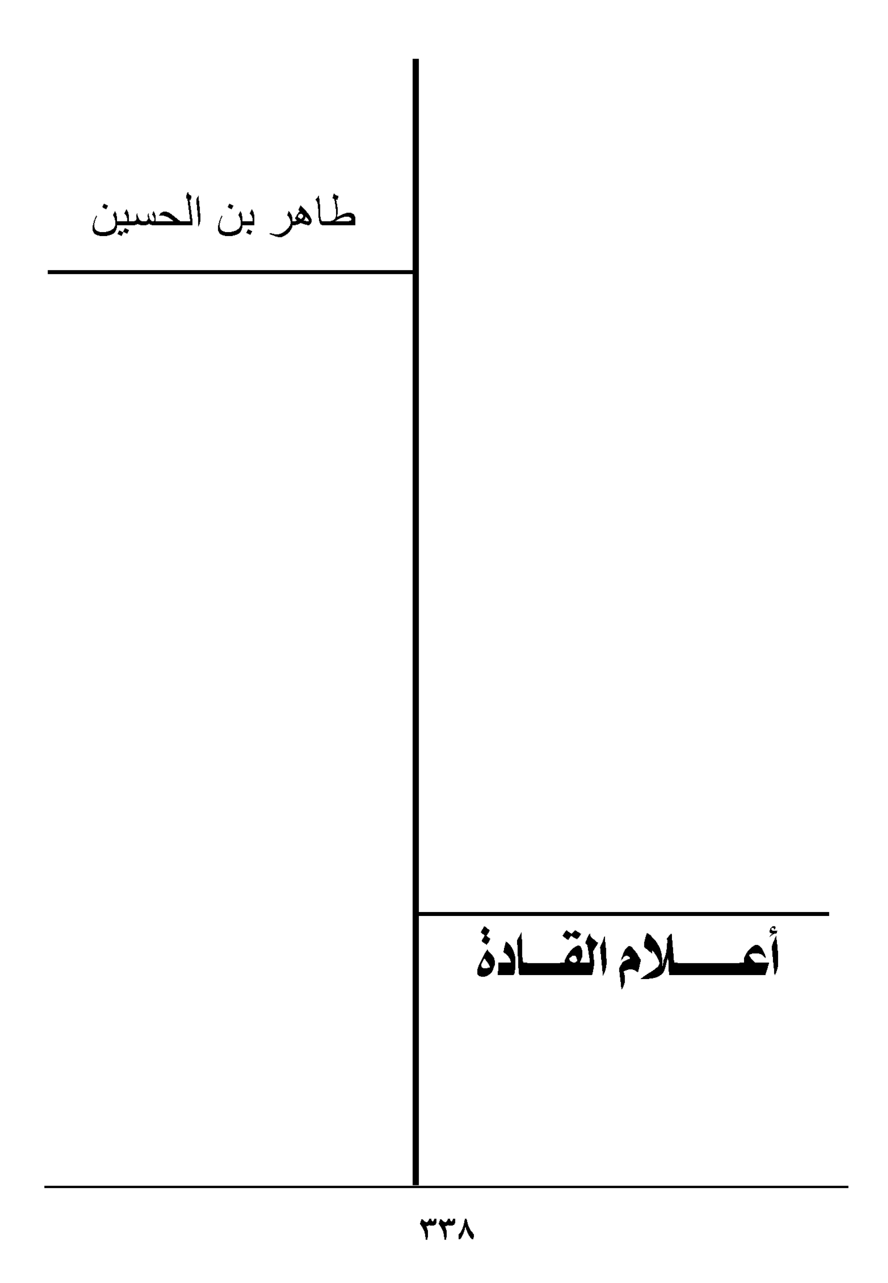
- ما قرأتُ كتاباً قطُّ لأحد إلا عرفتُ عقله منه[٢].

– ما شيء يؤتى العبد بعد الإيمان بالله تعالى، أحب إلي من جواب حاضر، فإن الجواب إذا انعقب لم يكن شيئاً[٣].

* * *

---

(١) أدب الدنيا والدين، ص١٨٩.
(٢) الثعالبي، الإعجاز والإيجاز، ص٧٣.
(٣) الثعالبي، الإعجاز والإيجاز، ص٧٣.
(٤) الثعالبي، التمثيل والمحاضرة، ص٤٩.
(٥) ابن الحداد، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، ص٧٤.
(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ٣٤/١.
(٢) المصدر السابق، ١٧٠/١.
(٣) الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص١٥.


طاهر بن الحسين
أعـــلام القــادة

القائد طاهر بن الحسين

هو طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق الأمير، مقدم الجيوش، ذو اليمينين [١]، كان جده رزيق بن ماهان مولى طلحة الطلحات الخزاعي المشهور بالكرم والجود المفرط، وكان طاهر من أكبر أعوان المأمون، وسيره من مرو كرسي خراسان لما كان المأمون بها إلى محاربة أخيه الأمين ببغداد لما خلع المأمون بيعته، والواقعة مشهورة، وسير الأمين أبا يحيى علي بن عيسى بن ماهان لدفع طاهر عنه، فتواقعا وقتل علي في المعركة. وتقدم طاهر إلى بغداد وأخذ ما في طريقه من البلاد، وحاصر بغداد والأمين بها، وقتله يوم الأحد لست أو أربع خلون من صفر سنة ثمان وتسعين ومائة، وقيل: إن طاهراً سير إلى المأمون يستأذنه في أمر الأمين إذا ظفر به، فبعث إليه بقميص غير مقور، فعلم أنه يريد قتله، فعمل على ذلك، والله أعلم؛ وحمل رأسه إلى خراسان ووضع بين يدي المأمون، وعقد للمأمون على الخلافة، فكان المأمون يرعاه لمناصحته وخدمته.

وقيل لطاهر ببغداد لما بلغ: ليهنك ما أدركته من هذه المنزلة التي لم يدركها أحد من نظرائك بخراسان، فقال: ليس يهنيني ذلك، لأني لا ارى عجائز بوشنج يتطلعن إلي من أعالي سطوحهن إذا مررت بهن، وإنما قال ذلك لأنه ولد ونشأ بها، وكان جده مصعب والياً عليها وعلى هراة.

ولما حاصر الأمين، وظفر به، وقتله صبرا، مقته الناس لتسرعه في قتله.

(١) لقب بذلك لانه ضرب شخصا في واقعة علي بن عيسى فقده نصفين، وكانت الضربة بشماله، فقال فيه بعض الشعراء: كلتا يديك يمين حين تضربه، وقيل: لقب بذلك لان المأمون كتب إليه: يمينك يمين أمير المؤمنين، وشمالك يمين.وقيل: لانه ولي العراق وخراسان.

وكان شهما مهيبا داهية جوادا ممدحا.

روى عن ابن المبارك وعمه علي بن مصعب.

روى عنه: ابنه عبد الله بن طاهر أمير خراسان، وابنه الاخر طلحة.

ومن كرمه المسرف أنه وقع يوما بصلات جزيلة بلغت ألف ألف وسبع مئة ألف درهم.

وقد مدحه مقدس بن صيفي الخلوقي الشاعر بثلاثة أبيات هي:

عجبت لحراقة ابن الحسين ::: لاغرقت كيف لا تغرق
وبحران من فوقها واحد ::: وآخر من تحتها مطبق
وأعجب من ذاك أعوادها ::: وقد مسها كيف لا تورق

فقال: أعطوه ألف دينار، وقال: زد حتى نزيدك.

فقال: حسبي.

وكان مع فرط شجاعته عالما خطيبا مفوها بليغا شاعرا، بلغ أعلى الرتب، ثم مات في الكهولة سنة سبع ومئتين[١].

مواقف من حياته:

سألتك عن مسألة فأجبت عن مسألتين:

حكي أن طاهر بن الحسين قال لأبي عبد الله المروزي: منذ كم صرت إلى العراق يا أبا عبد الله؟ قال: دخلت العراق منذ عشرين سنة وأنا منذ ثلاثين سنة صائم.

فقال: يا أبا عبد الله، سألتك عن مسألة فأجبت عن مسألتين[٢].

يحمل الدراهم في كمه:

لما خرج طاهر بن الحسين إلى محاربة علي بن عيسى بن ماهان،

(١) سير أعلام النبلاء، ١٠ /١٠٨، وفيات الأعيان،٢ /٥١٨.
(٢) أدب الدنيا والدين، ص١٢٨.

جعل ذات يوم في كمه دراهم، يفرقها في الفقراء، ثم سها عنها، فأرسلها، فتبددت، فتطير بذلك، واغتم غماً شديداً، حتى تبين في وجهه، فأنشده شاعر كان في عسكره:

هـذا تفـرّق جمعهـم لا غـيره ::: وذهابـه مـنكم ذهـاب الهـمّ
شيء يكون الهمّ بعـض حروفـه ::: لا خـير في إمسـاكه في الكـمّ

قال: فسلا طاهر، وأمر له بثلاثين ألف درهم(١).

من أشد الضيق إلى أفسح الفرج:

عن جبريل بن بختيشوع، في خبر طويل، أنه سمع المأمون يقول: كان لي بخراسان يوم عجيب، فأولى الله فيه بإحسانه جميلاً، لما توجه طاهر بن الحسين إلى علي بن عيسى بن ماهان، كما قد عرفتموه من ضعف طاهر وقوة علي، وقر في نفوس عسكري جميعاً، أن طاهراً ذاهب، ولحق أصحابي إضاقة شديدة، وظهرت فيهم خلة عظيمة، ونفد ما كان معي، فلم يبق منه لا قليل ولا كثير، وأفضيت إلى حال كان أصلح ما فيها الهرب، فلم أدر إلى أين أهرب، ولا كيف آخذ، وبقيت حائراً متفكراً.

فأنا - والله - كذلك وكنت نازلاً في دار أبوابها حديد، ولي مستشرفات أجلس فيها إذا شئت، وعدد غلماني ستة عشر غلاماً، لا أملك غيرهم، وإذا بالقواد والجيش جميعاً قد شغبوا، وطلبوا أرزاقهم، ووافوا جميعاً يشتموني، ويتكلمون بكل قبيح.

فكان الفضل بن سهل بين يدي، فأمر بإغلاق الأبواب، وقال لي: قم فاصعد إلى المجلس الذي يستشرف فيه، إشفاقاً علي من دخولهم، وسرعة أخذهم إياي، وتعليلاً لي بالصعود.

---

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص٤٦.

فقلت: القوم يدخلون الساعة، فيأخذوني، فلأن أكون بموضعي، أصلح.

فقال لي: يا سيدي اصعد، فوالله، ما تنزل إلا خليفة.

فجعلت أهزأ به، وأعجب منه، وأحسب أنه إنما قال ما قال، ليسمعني، وأركنت للهرب من بعض أبواب الدار، فلم يكن إلى ذلك سبيل، لإحاطة القوم بالدار والأبواب كلها.

فالح علي أن أصعد، فصعدت وأنا وجل، فجلست في المستشرف، وأنا أرى العسكر[(١)].

كاتب طاهر بن الحسين:

لما قتل طاهر بن الحسين علي بن عيسى بن ماهان في خروجه إليه من بغداد، دعا بكاتبه ليكتب إلى الفضل بن سهل بخبره، فلم يكن في الكاتب فضل من إفراط الجزع وشدة الزمع، مما شاهده، فكتب طاهر بيده إلى الفضل، وكان من عادته أن يخاطبه بالإمارة، فأسقط ذلك وكتب إليه: أطال الله بقاءك، وكبت أعداءك، وجعل من يشنؤك فداءك، كتبت إليك ورأس علي ابن عيسى بين يدي وخاتمه في اصبعي، وعسكره تحت يدي، والحمد لله رب العالمين.

ثم لما نظر بالأمين وأنفذ رأسه إلى المأمون، قال الفضل بن سهل: ما فعل بنا طاهر! سل علينا سيوف الناس وألسنتهم، أمرناه أن يبعث به إلينا أسيراً، فبعث به عقيراً[(٢)].

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص١٥٣.
(٢) ابن الأبار، إعتاب الكتاب، ص١٢.

سكن جارية طاهر بن الحسين:

كانت مولدة، بيضاء، حسنة الوجه والغناء، شاعرة، ربيت في دار ابن بخسنر وأخذت الغناء منه ومن أبيه محمد وبناته وجواريه، وعن إسحاق الموصلي وطبقته، وسمعها إبراهيم بن المهدي وإبراهيم الموصلي، واستحسنا طبعها.

وقال إبراهيم: ليت شعري - هذا السيف - لمن يشحذ؟! وكانت مع هذا، قوية الطبع في قول الشعر: فذكر أحمد بن أبي طاهر، عن إبراهيم الطبري، أنها كانت قد حظيت عند طاهر، حظوة شديدة، ثم غلبتها عليه جارية أخرى ملكها، فانقطع عنها لمدة، - شغلاً بتلك - ثم اجتاز بحجرتها، فوثبت، فقبلت يده، فاستحيا منها، وقال لها: الليلة أزورك! فتأهبت وتزينت وتعطرت - ونسي طاهر وعده، وتشاغل عنها ليلته، فكتبت إليه:

ألا يأيها الملك الهمام ::: لأمرك طاعة ولنا ذمام
طمعنا في الزيارة وانتظرنا ::: فلم يك غير ذلك والسلام!

فلما قرأ الرقعة، أطربته وحركته وأهاجت دواعيه، فقام فدخل إليها، فأقام عندها ثلاثاً وعاد لها إلى ما كان عليه، وهي القائلة في عدول طاهر عنها:

للأمير المبارك الميمون ::: ذي اليمنين طاهر بن الحسين
كنت لي مدة، فصار شريكى ::: فيك من لم يكن له أن يكون
فكتمناك ضعف ما قد شكونا ::: من تجافيك والحديث شجون[1]

ابن أبي عيينة يعزل والي البصرة:

كان إسماعيل بن جعفر بن سليمان والي البصرة، فأساء مجاورة

(١) أبو الفرج الأصبهاني، الإماء الشواعر، ص١٤.

محمد بن أبي عيينة فتباعد ما بينهما وقبح، وكان إسماعيل ينتقصه، فخرج محمد بن أبي عيينة إلى طاهر ابن الحسين يشكو إسماعيل بن جعفر ويطلب عزله عن البصرة، فصحب طاهر بن الحسين في بعض أسفاره فأدخل عليه ورفع حوائجه إليه وقال:

من أوحشته البلاد لم يقم ::: فيها، ومن آنسته لم يَرِمِ
ومن يبت والهموم قادحةٌ ::: في صدره بالسهاد لم ينمِ
ومن يرى النقص في مواطنه ::: يزل عن النقص موطئ القدم
والقرب ممن ينأى بحاجته ::: صدع على الشعب غير ملتئم(١)

لما انقبض طاهر بن الحسين بخراسان عن المأمون وأخذ حذره، أدب له المأمون وصيفاً بأحسن الآداب وعلمه فنون العلم، ثم أهداه إليه مع ألطاف كثيرة من طرائف العراق، وقد واطأه على أن يسمه، وأعطاه سم ساعة، ووعده على ذلك بأموال كثيرة. فلما انتهى إلى خراسان وأوصل إلى طاهر الهدية، قبل الهدية، وأمر بإنزال الوصيف في دار، وأجرى عليه ما يحتاج إليه من التوسعة في النزالة وتركه أشهراً. فلما برم الوصيف بمكانه كتب إليه: يا سيدي، إن كنت تقبلني فاقبلني وإلا فردني إلى أمير المؤمنين؛ فأرسل إليه وأوصله إلى نفسه. فلما انتهى إلى باب المجلس الذي كان فيه، أمره بالوقوف عند باب المجلس، وقد جلس على لبد أبيض وقرع رأسه، وبين يديه مصحف منشور وسيف مسلول، فقال: قد قبلنا ما بعث به أمير المؤمنين غيرك فإنا لا نقبلك، وقد صرفناك إلى أمير المؤمنين، ولي عندي جواب أكتبه، إلا ما ترى من حالي، فأبلغ أمير المؤمنين السلام، وأعلمه بالحال التي رأيتني فيها. فلما قدم الوصيف على المأمون، وكلمه بما كان من أميره، ووصف له الحال التي رآه فيها؛

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٢٧/١ ـ ٢٨.

شاور وزراءه في ذلك وسألهم عن معناه، فلم يعلمه واحد منهم؛ فقال المأمون: لكني قد فهمت معناه: أما تقريعه رأسه وجلوس على اللبد الأبيض، فهو يخبرنا أنه عبد ذليل؛ وأما المصحف المنشور؛ فإنه يذكرنا بالعهود التي له علينا؛ وأما السيف المسلول، فإنه يقول: إن نكثت تلك العهود فهذا يحكم بيني وبينك، أغلقوا عنا باب ذكره، ولا تهيجوه في شيء مما هو فيه. فلم يهجه المأمون حتى مات طاهر بن الحسين، وقام عبد الله بن طار بن الحسين مكانه، فكان أخف الناس على المأمون.

وكتب طاهر بن الحسين إلى المأمون في إطلاق بن السندي من حبسه، وكان عامله على مصر فعزله عنها وحبسه، فأطلقه له وكتب إليه:

أخي أنت ومولاي ::: فما ترضاه أرضاه
وما تهوى من الأمر ::: فإني أنا أهواه
لك الله على ذاك ::: لك الله لك الله[1]

المادح ولده مدحاً حسناً:

كتب المأمون إلى طاهر بن الحسين: صف لي ابنك فقال: ابني إن مدحته ذممته ظلمته إلا أنه نعم الخلف لسيده من عبده، إذا اخترمت عبده منيته! فكتب إليه المأمون: يا ذا اليمينين، لم ترض بمدحه حتى أوصيت به! وقال له يوماً: أخبرني عن ابنك. فقال: قدح في كف مثقف ليوم رهان أمير المؤمنين! [2]

العلويون وآل طاهر:

حدثني أبي، قال: حدثني الصولي، أن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١٥٦/١.
(٢) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ٤٦/١.

حدثه، قال: لما عاد محمد بن عبد الله، أخي من مقتل يحيى بن عمر العلوي ، بعد مديدة، دخلت إليه بعد ذلك يوماً سحراً، وهو كئيب مطأطئ الرأس، في أمر عظيم، كأنه قد عرض على السيف، وبعض جواريه قيام لا يتجاسرن على مسألته، وأخته واقفة.

فلم أقدم على خطابه، فأومأت إليها، ما له؟ قالت: رأى رؤيا هالته.

فتقدمت إليه، وقلت: أيها الأمير، روي عن النبي ، أنه قال: إذا رأى أحدكم في منامه ما يكره، فليتحول من جانبه إلى الآخر، وليقل ثلاثاً استغفر الله، ويلعن إبليس، ويستعيذ بالله، ثم ينام.

فرفع رأسه وقال: يا أخي، فكيف إذا كانت الطامة من جهة رسول الله . فقلت: أعوذ بالله.

فقال لي: ألست ذاكراً رؤيا طاهر بن الحسين؟ فقلت: بلى.

قال عبيد الله: وكان طاهر، وهو صغير الحال رأى النبي في منامه، فقال له: يا طاهر، إنك ستبلغ من الدنيا أمراً عظيماً، فاتق الله، واحفظني في ولدي، فإنك لا تزال محفوظاً ما حفظتني في ولدي.

فقال: ما تعرض طاهر لقتال علوي قط، وندب إلى ذلك غير دفعة فامتنع عنه.

ثم قال لي أخي محمد بن عبد الله: إني رأيت البارحة رسول الله في منامي، كأنه يقول لي: يا محمد، نكثتم؟ فانتبهت فزعاً، وتحولت، واستغفرت الله تعالى، وتعوذت من إبليس، ولعنته، واستغفرت الله تعالى ونمت.

فرأيته ، ثانية، وهو يقول: يا محمد، نكثتم؟ ففعلت كما فعلت في الأولة.

فرأيته وهو يقول: نكثتم وقتلتم أولادي، لا تفلحون بعدها أبداً.

فانتبهت، وأنا على هذه الحال، وهذه الصورة، منذ نصف الليل ما نمت.

قال: واندفع يبكي، وبكيت معه.

فما مضت على ذلك إلا مديدة، حتى مات محمد، ونكبنا بأسرنا أقبح نكبة، وصرفنا عن ولاياتنا، ولم يزل أمرنا يخمل، حتى لم يبق لنا اسم على منبر، ولا علم في جيش، ولا إمارة. وحصلنا إلى الآن تحت المحن(١).

وما عليه في ذلك؟

قال أبو الفرج الأصبهاني: حدثني أحمد بن أبي طاهر قال: حدثني أبو دعامة علي بن يزيد قال: حدثني التميمي أو محمد قال: دخلت على الحسن بن سهل فأنشدته مديحاً في المأمون ومديحاً فيه، وعنده طاهر بن الحسين، فقال له طاهر: هذا والله أيها الأمير الذي يقول في محمد المخلوع:

لا بد من سكرة على طرب ::: لعل روحاً يدال من كرب
خليفة الله خير منتخب ::: لخير أم من هاشم وأب
خلافة الله قد توارثها ::: آباؤه في سوالف الكتب
فهي له دنكم لمورثة ::: عن خاتم الأنبياء في الحقب
يا ابن الذي في ذوائب الش ::: رف الأقدم أنتم دعائم العرب

قال الحسن: عرض والله ابن اللخناء بأمير المؤمنين، والله لأعلمنه، وقام إلى المأمون فأخبره فقال له المأمون: وما عليه في ذلك؟ رجل أمل رجلا فمدحه، والله لقد أحسن لنا وأساء إليه، إذ لم يقترب إليه إلا بشرب الخمر، ثم دعاني فخلع علي وأمر لي بعشرة آلاف درهم (١).

(١) القاضي التنوخي، نشوار المحاضرة، ١/١١٢ - ١١٣.
(١) القاضي التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، ١/٣٠.

من كلامه:

- قال طاهر بن الحسين:

ركوبك الأمر ما لم تبد فرصته ::: جهل ورأيك في الإقحام تغرير

فاعمل صوابا وخذ بالحزم مأثرة فلن يذم لأهل الحزم تدبير[١].

- كَتَبَ طَاهِرُ بْنُ الحُسَيْن: إلى العباس بن موسى الهادي و قَدْ استبطأه في خَراج ناحيته:

وَلَيْسَ أخُو الحاجاتِ مَنْ بات نائماً ::: ولَكنْ أَخُوها مَنْ يَبيتُ على وَجَلْ[٢]

من خطب طاهر بن الحسين:

- **خطبة طاهر بن الحسين ببغداد بعد مقتل الأمين :**

ودخل طاهر بن الحسين بغداد يوم الجمعة بعد قتل الأمين فصلى بالناس وخطبهم خطبة بليغة وقد حضره من بنى هاشم والقواد وغيرهم جماعة كثيرة قال: الحمد لله مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير لا يصلح عمل المفسدين ولا يهدى كيد الخائنين إن ظهور غلبتنا لم يكن من أيدينا ولا كيدنا بل اختار الله للخلافة إذ جعلها عمادا لدينه وقواما لعباده وضبط الأطراف وسد الثغور وإعداد العدة وجمع الفيء وإنفاذ الحكم ونشر العدل وإحياء السنة بعد إذبال البطالات والتلذذ بمريق الشهوات والمخلد إلى الدنيا مستحسن لداعى غرورها محتلب درة نعمها ألف لزهرة روضتها

(١) أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك، تحقيق محي هلال السرحان وحسن الساعاتي، دار النهضة العربية - بيروت - ١٩٨١م، ص٤١.

(٢) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٢٧/١ - ٢٨.

كلف برونق بهجتها، وقد رأيتم من وفاء موعود الله عز و جل لمن بغى عليه وما أحل به من بأسه ونقمته لما نكب عن عهده وارتكب معصيته وخالف أمره وغيره ناهية وعظته مؤدبة، فتمسكوا بدقائق عصم الطاعة، واسلكوا مناحى سبيل الجماعة واحذروا مصارع أهل الخلاف والمعصية الذين قدحوا زناد الفتنة وصدعوا شعب الألفة فأعقبهم الله خسار الدنيا والآخرة(١).

- وصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله لما ولاه المأمون الرقة ومصر- وما بينهما سنة ٢٠٦هـ :

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له وخشيته ومراقبته ومزايلة سخطه وحفظ رعيتك، والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك، وما أنت صائر إليه وموقوف عليه، ومسؤول عنه والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله وينجيك يوم القيامة من عذابه وأليم عقابه، فإن الله قد أحسن إليك وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده وألزمك العدل عليهم والقيام بحقه وحدوده فيهم والذب عنهم والدفع عن حريمهم وبيضتهم، والحقن لدمائهم والأمن لسبيلهم، وإدخال الراحة عليهم في معايشهم، ومؤاخذك بما فرض عليك من ذلك وموقفك عليه ومسائلك عنه ومثيبك عليه بما قدمت وأخرت ففرغ لذلك فكرك وعقلك وبصرك ورؤيتك، ولا يذهلك عنه ذاهل، ولا يشغلك عنه شاغل، فإنه رأس أمرك وملاك شأنك، وأول مايوفقك الله به لرشدك، وليكن أول ما تلزم به نفسك وتنسب إليه فعالك المواظبة على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قبلك في مواقيتها على سننها في إسباغ الوضوء لها وافتتاح ذكر الله فيها وترتل في

(١) جمهرة خطب العرب، ٣ /١١٩.

قراءتك، تمكن في ركوعك وسجودك، وتشهدك ولتصدق فيها لربك نيتك واحضض عليها جماعة من معك وتحت يدك، وادأب عليها فإنها كما قال الله: تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر، ثم أتبع ذلك الأخذ بسنن رسول الله، والمثابرة على خلائقه، واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده، وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله وتقواه ولزوم ما أنزل الله في كتابه من أمره ونهيه وحلاله وحرامه، وائتمام ما جاءت به الآثار عن النبي، ثم قم فيه بما يحق لله عليك، ولا تمل عن العدل فيما أحببت أو كرهت لقريب من الناس أو بعيد، وآثر الفقه وأهله والدين وحملته، وكتاب الله والعاملين به، فإن أفضل ما تزين به المرء الفقه في دين الله والطلب له والحث عليه والمعرفة بما يتقرب به إلى الله، فإنه الدليل على الخير كله والقائد له والآمر به والناهى عن المعاصى والموبقات كلها، وبها مع توفيق الله تزداد العباد معرفة بالله عز و جل وإجلالا له ودركا للدرجات العلا في المعاد مع مافى ظهوره للناس من التوقير لأمرك والهيبة لسلطانك والأنسة بك والثقة بعدلك وعليك بالاقتصاد في الأمور كلها، فليس شيء أبين نفعا ولا أحضر أمنا ولا أجمع فضلا من القصد، والقصد داعية إلى الرشد والرشد دليل على التوفيق والتوفيق قائد إلى السعادة وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد فآثره في دنياك كلها ولا تقصر في طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة والسنن المعروفة ومعالم الرشد، فلا غاية للاستكثار من البر والسعى له إذا كان يطلب به وجه الله ومرضاته ومرافقة أوليائه في دار كرامته واعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العز ويحصن من الذنوب وإنك لن تحوط نفسك ومن يليك ولا تستصلح أمورك بأفضل منه فأته واهتد به تتم أمورك وتزد مقدرتك وتصلح خاصتك وعامتك

وأحسن الظن بالله عز و جل تستقم لك رعيتك والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها تستدم به النعمة عليك، ولا تتهمن أحدا من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف أمره فإن إيقاع التهم بالبرآء والظنون السيئة بهم مأثم، واجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك واطرد عنك سوء الظن بهم، وارفضه فيهم يعينك ذلك على اصطناعهم ورياضتهم ولا يجدن عدو الله الشيطان في أمرك مفخرا فإنه إنما يكتفي بالقليل من وهنك فيدخل عليك من الغم في سوء الظن ما ينغصك لذاذة عيشك.

واعلم أنك تجد بحسن الظن قوة وراحة وتكفى به ما أحببت كفايته من أمورك وتدعو به الناس إلى محبتك والاستقامة في الأمور كلها لك، ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك والرأفة برعيتك أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك والمباشرة لأمور الأولياء والحياطة للرعية والنظر فيما يقيمها ويصلحها، بل لتكن المباشرة لأمور الأولياء والحياطة للرعية والنظر في حوائجهم وحمل مثوناتهم أثر عندك مما سوى ذلك، فإنه أقوم للدين وأحيا للسنة وأخلص نيتك في جميع هذا وتفرد بتقويم نفسك تفرد من يعلم أنه مسؤول عما صنع، ومجزى بما أحسن ومأخوذ بما أساء، فإن الله جعل الدين حرزا وعزا ورفع من اتبعه وعززه فاسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقة الهدى، وأقم حدود الله في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ولا تعطل ذلك ولا تهاون به ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة، فإن في تفريطك في ذلك لما يفسد عليك حسن ظنك واعزم على أمرك في ذلك بالسنن المعروفة وجانب الشبه والبدعات يسلم لك دينك وتقم لك مروءتك وإذا عاهدت عهدا نوف به، وإذا وعدت الخير فأنجزه، وأقبل الحسنة وادفع بها وأغمض عن عيب كل ذى عيب من

رعيتك، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور، وأبغض أهله وأقص أهل النميمة فإن أول فساد أمرك في عاجل الأمور وآجلها تقريب الكذوب والجرأة على الكذب؛ لأن الكذب رأس المآثم والزور والنميمة خاتمتها لأن النميمة لا يسلم صاحبها وقائلها لا يسلم له صاحب ولا يستقيم لمطيعها أمر وأحب أهل الصدق والصلاح وأعز الأشراف بالحق وواصل الضعفاء وصل الرحم وابتغ بذلك وجه الله وعزة أمره والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة واجتنب سوء الأهواء والجور واصرف عنهما رأيك وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك وأنعم بالعدل في سياستهم وقم بالحق فيهم وبالمعرفة التي تنتهي بك إلى سبيل الهدى واملك نفسك عند الغضب وآثر الوقار والحلم وإياك والحدة والطيش والغروز فيما أنت بسبيله وإياك أن تقول إني مسلط أفعل ما أشاء فإن ذلك سريع بك إلى نقص الرأي وقلة اليقين بالله وحده لا شريك له وأخلص لله النية فيه واليقين به واعلم أن الملك لله يعطيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ولن تجد تغير النعمة وحلول النقمة إلى أحد أسرع منه إلى حملة النعمة من أصحاب السلطان والمبسوط لهم في الدولة إذا كفروا بنعم الله وإحسانه واستطالوا بما آتاهم الله من فضله ودع عنك شره نفسك ولتكن ذخائرك وكنوزك التي تدخر وتكنز البر والتقوى والمعدلة واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم والتفقد لأمورهم والحفظ لدهمائهم والإغاثة لملهوفهم واعلم أن الأموال إذا كثرت وذخرت في الخزائن لا تثمر وإذا كانت في إصلاح الرعية وإعطاء حقوقهم وكف المئونة عنهم نمت وربت وصلحت به العامة وتزينت به الولاة وطاب به الزمان واعتقد فيه العز والمنعة فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم وأوف

رعيتك من ذلك حصصهم وتعهد ما يصلح أمورهم ومعايشهم فإنك إذا فعلت ذلك قرت النعمة عليك واستوجبت المزيد من الله وكنت بذلك على جباية خراجك وجمع أموال رعيتك وعملك أقدر وكان الجمع لما شملهم من عدلك وإحسانك أساس لطاعتهم وأطيب نفسا لكل ما أردت فاجهد نفسك فيما حددت لك في هذا الباب ولتعظم حسبتك فيه فإنما يبقى من المال ما أنفق في سبيل حقه واعرف للشاكرين شكرهم وأثبهم عليه وإياك أن تنسيك الدنيا وغرورها هول الاخرة فتتهاون بما يحق عليك فإن التهاون يوجب التفريط والتفريط يورث البوار وليكن عملك لله وفيه تبارك وتعالى وارج الثواب، فإن الله قد أسبغ عليك نعمته في الدنيا وأظهر لديك فضله فاعتصم بالشكر وعليه فاعتمد يزدك الله خيرا وإحسانا، فإن الله يثيب بقدر شكر الشاكرين وسيرة المحسنين وقضى الحق فيما حمل من النعم وألبس من العافية والكرامة ولا تحقرن ذنبا ولا تمالئن حاسدا ولا ترحمن فاجرا ولا تصلن كفورا ولا تداهنن عدوا ولا تصدقن نماما، ولا تأمنن غدارا، ولا توالين فاسقا، ولاتتبعن غاويا ولا تحمدن مرائيا ولاتحقرن إنسانا ولا تردن سائلا فقيرا ولا تجيبن باطلا، ولا تلاحظن مضحكا، ولا تخلفن وعدا، ولا تزهون فخرا ولا تظهرن غضبا ولا تأتين بذخا ولا تمشين مرحا، ولا تركبن سفها ولا تفرطن في طلب الآخرة، ولا ترفع للنمام عينا، ولا تغمضن عن الظالم رهبة منه أو مخافة، ولا تطلبن ثواب الآخرة بالدنيا وأكثر مشاورة الفقهاء واستعمل نفسك بالحلم، وخذ عن أهل التجارب وذوي العقل والرأى والحكمة ولا تدخلن في مشورتك أهل الدقة والبخل ولا تسمعن لهم قولا، فإن ضررهم أكثر من منفعتهم وليس شيء أسرع فسادا لما استقبلت في أمر رعيتك من الشح واعلم أنك إذا كنت حريصا كنت

كثير الأخذ قليل العطية، وإذا كنت كذلك لم يستقم لك أمرك إلا قليلا فإن رعيتك إنما تعتقد على محبتك بالكف عن أموالهم وترك الجور عنهم ويدوم صفاء أوليائك لك بالإفضال عليهم وحسن العطية لهم، فاجتنب الشح، واعلم أنه أول ما عصى به الإنسان ربه، وأن العاصي بمنزلة خزى وهو قول الله عز و جل:{وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ } [الحشر: ٩]، فسهل طريق الجود بالحق واجعل للمسلمين كلهم من نيتك حظا ونصيبا وأيقن أن الجود من أفضل أعمال العباد فأعدده لنفسك خلقا وأرض به عملا ومذهبا وتفقد أمور الجند في دواوينهم ومكاتبهم وأدرر عليهم أرزاقهم ووسع عليهم في معايشهم ليذهب بذلك الله فاقتهم ويقوم لك أمرهم ويزيد به قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصا وانشراحا وحسب ذى سلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمة في عدله وحيطته وإنصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته فزايل مكروه أحد البابين باستشعار تكملة الباب الآخر ولزوم العمل به تلق إن شاء الله نجاحا وصلاحا وفلاحا واعلم أن القضاء من الله بالمكان الذى ليس به شيء من الأمور لأنه ميزان الله الذى يعتدل عليه الأحوال في الأرض وبإقامة العدل في القضاء والعمل تصلح الرعية وتأمن السبل وينتصف المظلوم ويأخذ الناس حقوقهم وتحسن المعيشة، ويؤدى حق الطاعة ويرزق الله العافية والسلامة ويقوم الدين وتجري السنن والشرائع وعلى مجاريها يتنجز الحق والعدل في القضاء واشتد في أمر الله وتورع عن النطف وامض لإقامة الحدود وأقلل العجلة وابعد من الضجر والقلق واقنع بالقسم ولتسكن ريحك ويقر جدك وانتفع بتجربتك وانتبه في صمتك واسدد في منطقك وأنصف الخصم وقف عند الشبهة وأبلغ في الحجة ولا يأخذك في أحد من رعيتك محاباة

ولا محاماة ولا لوم لائم وتثبت وتأن وراقب وانظر وتدبر وتفكر واعتبر وتواضع لربك وارأف بجميع الرعية وسلط الحق على نفسك ولا تسرعن إلى سفك دم فإن الدماء من الله بمكان عظيم انتهاكا له بغير حقها وانظر هذا الخراج الذى قد استقامت عليه الرعية وجعله الله للاسلام عزا ورفعة ولأهله سعة ومنعة ولعدوه وعدوهم كبتا وغيظا ولأهل الكفر من معاديهم ذلا وصغارا فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم فيه ولا ترفعن منه شيئا عن شريف لشرفه ولا عن غنى لغناه ولا عن كاتب لك ولا أحد من خاصتك ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له ولا تكلفن أمرا فيه شطط واحمل الناس كلهم على مر الحق؛ فإن ذلك أجمع لألفتهم وألزم لرضا العامة واعلم أنك جعلت بولايتك خازنا وحافظا وراعيا وإنما سمى أهل عملك رعيتك لأنك راعيهم وقيمهم تأخذ منها ما أعطوك من عفوهم ومقدرتهم وتنفقه في قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أودهم فاستعمل عليهم في كور عملك ذوي الرأي والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالسياسة والعفاف ووسع عليهم في الرزق فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأسند إليك ولا يشغلنك عنه شاغل ولا يصرفنك عنه صارف فإنك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك وحسن الأحدوثة في عملك واحترزت النصحة من رعيتك وأعنت على الصلاح فدرت الخيرات ببلدك وفشت العمارة بناحيتك وظهر الخصب في كورك فكثر خراجك وتوفرت أموالك وقويت بذلك على ارتباط جندك وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم من نفسك وكنت محمود السياسة مرضى العدل في ذلك عند عدوك وكنت في أمورك كلها ذا عدل وقوة وآلة وعدة فنافس في هذا ولا تقدم عليه شيئا تحمد مغبة أمرك إن شاء الله

واجعل في كل كورة من عملك أمينا يخبرك أخبار عمالك ويكتب إليك بسيرتهم وأعمالهم حتى كأنك مع كل عامل في عمله معاين لأمره كله وإن أردت أن تأمره بأمر فانظر في عواقب ما أردت من ذلك فإن رأيت السلامة فيه والعافية ورجوت فيه حسن الدفاع والنصح والصنع فأمضه وإلا فتوقف عنه وراجع أهل البصر والعلم ثم خذ فيه عدته فإنه ربما نظر الرجل في أمر من أمره قد واتاه على ما يهوى فقواه ذلك وأعجبه وإن لم ينظر في عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره فاستعمل الحزم في كل ما أردت وباشره بعد عون الله بالقوة وأكثر استخارة ربك في جميع أمورك وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره لغدك وأكثر مباشرته بنفسك فإن لغد أمورا وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذى أخرت واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه فإذا أخرت عمله اجتمع عليك أمر يومين فشغلك ذلك حتى تعرض عنه فإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت نفسك وبدنك وأحكمت أمور سلطانك وانظر أحرار الناس وذوي الشرف منهم ثم استيقن صفاء طويتهم وتهذيب مودتهم لك ومظاهرتهم بالنصح والمخالصة على أمرك فاستخلصهم وأحسن إليهم وتعاهد أهل البيوتات ممن دخلت عليهم الحاجة فاحتمل مئونتهم وأصلح حالهم حتى لا يجدوا لخلتهم مسا وأفرد نفسك بالنظر في أمور الفقراء والمساكين ومن لا يقدر على رفع مظلمته إليك والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه فاسأل عنه أحفى مسألة ووكل بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك ومرهم برفع حوائجهم وحالاتهم إليك لتنظر فيها بما يصلح الله به أمرهم وتعاهد ذوي البأساء ويتاماهم وأراملهم واجعل لهم أرزاقا من بيت المال اقتداء بأمير المؤمنين أعزه الله في العطف عليهم والصلة لهم ليصلح الله بذلك عيشهم ويرزقك به بركة وزيادة

وأجر للأضراء من بيت المال وقدم حملة القرآن منهم والحافظين لأكثره في الجراية على غيرهم وانصب لمرضى المسلمين دورا تؤويهم وقواما يرفقون بهم وأطباء يعالجون أسقامهم وأسعفهم بشهواتهم مالم يؤد ذلك إلى سرف في بيت المال واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم وأفضل أمانيهم لم يرضهم ذلك ولم تطب أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى ولاتهم طمعا في نيل الزيادة وفضل الرفق منهم وربما برم المتصفح لأمور الناس لكثرة ما يرد عليه ويشغل فكره وذهنه منها ما يناله به مؤنة ومشقة وليس من يرغب في العدل ويعرف محاسن أموره في العاجل وفضل ثواب الآجل كالذى يستقبل مايقربه إلى الله ويلتمس رحمته به وأكثر الإذن للناس عليك وأبرز لهم وجهك وسكن لهم أحراسك واخفض لهم جناحك وأظهر لهم بشرك ولن لهم في المسألة والمنطق واعطف عليهم بجودك وفضلك وإذا أعطيت فأعط بسماحة وطيب نفس والتمس الصنيعة والأجر غير مكدر ولا منان فإن العطية على ذلك تجارة مربحة إن شاء الله واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضى من قبلك من أهل السلطان والرياسة في القرون الخالية والأمم البائدة ثم اعتصم في أحوالك كلها بأمر الله والوقوف عند محبته والعمل بشريعته وسنته وإقامة دينه وكتابه واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا إلى سخط الله واعرف ما تجمع عمالك من الأموال وما ينفقون منها ولا تجمع حراما ولا تنفق إسرافا وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها وإيثار مكارم الأمور ومعاليها وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من إذا رأى عيبا فيك لم يمنعه هيبتك من إنهاء ذلك إليك في سر وإعلامك ما فيه من النقص فإن أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك لك وانظر عمالك الذين بحضرتك

وكتابك فوقت لكل رجل منهم في كل يوم وقتا يدخل عليك فيه بكتبه ومؤامرته وما عنده من حوائج عمالك وأمر كورك ورعيتك ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك وكرر النظر إليه والتدبير له فما كان موافقا للحزم والحق فأمضه واستخر الله فيه وما كان مخالفا لذلك فاصرفه إلى التثبيت فيه والمسألة عنه ولا تمنن على رعيتك ولا على غيرهم بمعروف تأتيه إليهم ولا تقبل من أحد منهم إلا الوفاء والاستقامة والعون في أمور أمير المؤمنين ولا تضعن المعروف إلا على ذلك وتفهم كتابي إليك وأكثر النظر فيه والعمل به واستعن بالله على جميع أمورك واستخره فإن الله مع الصلاح وأهله وليكن أعظم سيرتك وأفضل رعيتك ما كان لله رضا ولدينه نظاما ولأهله عزا وتمكينا وللذمة والملة عدلا وصلاحا وأنا أسأل الله أن يصلح عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءتك وأن ينزل عليك فضله ورحمته بتمام فضله عليك وكرامته لك حتى يجعلك أفضل أمثالك نصيبا وأوفرهم حظا وأسناهم ذكرا وأمرا وأن يهلك عدوك ومن ناوأك وبغى عليك ويرزقك من رعيتك العافية ويحجز الشيطان عنك ووساوسه حتى يستعلى أمرك بالعز والقوة والتوفيق إنه قريب مجيب وكروا أن طاهرا لما عهد إلى ابنه عبد الله هذا العهد تنازعه الناس وكتبوه وتدارسوه وشاع أمره حتى بلغ المأمون فدعا به وقرئ عليه فقال ما بقى أبو الطيب يعنى طاهرا شيئا من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسة وإصلاح الملك والرعية وحفظ البيضة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به وتقدم وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال في نواحى الأعمال [١].

- وقال طاهر بن الحسين بن مصعب: ويكفيك من قوم شواهد أمرهم

(١) جمهرة خطب العرب، ٣ /١٣٥ - ١٤٢.

فخذ صفوهم قبل امتحان الضمائر فإن امتحان القوم يوحش منهم وما لك إلا ما ترى في الظواهر وإنك إن كشفت لم تر مخلصا وأبدى لك التجريب خبث السرائر وكان يقال بعض التغافل فضيلة، وتمام الجود الإمساك عن ذكر المواهب، ومن الكرم أن تصفح عن التوبيخ، وأن تلتمس ستر هتك الكريم (١).

- وكتب طاهر بن الحسين إلى المأمون لما فتح بغداد وقتل محمداً الأمين: أما بعد، فإن المخلوع ولو كان قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة، لقد فرق الله بينهما في الولاية والحرمة، لمفارقته عصمة الدين، وخروجه عن الأمر الجامع للمسلمين. قال الله عز وجل: {يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ} [هود: ٤٦]. ولا صلة لأحدٍ في معصية الله، ولا قطيعة في ذات الله. وكتبت إلى أمير المؤمنين وقد قتل المخلوع ورداه الله رداء نكبة، وأحمد لأمير المؤمنين أمره، وأنجز له ما كان ينتظر من صادق وعده. والحمد لله المتولي لأمير المؤمنين بنعمته، والراجع إليه بمعلوم حقه، والكائد له ممن ختر عهده ونكث عقده، حتى رد له الألفة بعد تفريقها، وأحيا الأعلام بعد دروس أثرها، ومكن له في الأرض بعد شتات أهلها (٢).

---

(١) عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٩/٤٤.

(٢) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، ٥/١٤٣.

- وقال طاهر بن الحسين:

اعمل صواباً تنل بـــالحزم مـــأثرةً ::: فلن يـــذم لأهـــل الحـــزم تـــدبير
فإن هلكت برأيٍ أو ظفـــرت بـــه ::: فأنت عند ذوي الألباب معـــذور
وإن ظفرت على جهلٍ وفزت بـــه ::: قالوا: جهول أعانتـــه المقـــادير(١)

- وكتب إلى أبي الحسين بن فراسكين، وكان يؤدب ولده:

حثّ الكريم على التفضُّل بدعـــة ::: يا خير من يمشي على وجه الثـــرى
جاء الشتاء ولست أملك درهمـــاً ::: والاعتماد عليك، فانظر ما ترى(٢)

* * *

(١) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٧٣/٦.
(٢) الثعالبي، يتيمة الدهر، ١٢٩/٢.

عبد الله بن طاهر بن الحسين

أعـــلام القـادة

القائد عبد الله بن طاهر بن الحسين

هو عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق بن أسعد أبو العباس الخزاعي الأمير ولاه المأمون دمشق ومصر، وقدم دمشق مجتازاً إلى مصر، وكان جواداً عادلاً.

حدث عبد الله بن طاهر عن أبيه بسنده إلى عبد الله بن عباس عن النبي قال:﴿**إن الله عز وجل سائل كل راع استرعاه رعيه، قلت: أو كثرت، حتى يسأل الزوج عن زوجته، والوالد عن ولده، والرب عن خادمه، هل أقام فيهم أمر الله**﴾.

كان عبد الله بارع الأدب، حسن الشعر، نبيهاً في نفسه.

تنقل في الأعمال الجليلة شرقاً وغرباً، قلده المأمون مصر والمغرب، ثم نقله عنها إلى خراسان بعد وفاة أبيه.

أنشد أبو العباس أحمد بن يحيى، ثعلب - يمدح عبد الله بن طاهر -:

يقول رجال إن مرو بعيدة ::: وما بعدت مرو وفيها ابن طاهر
وأبعد من مرو رجال أراهم ::: بحضرتنا معروفهم غير حاضر

وأنشد أبو صادق محمد بن أحمد بن شاذان الصيدلاني لبعضهم:

يا من يؤمل ان تكون خصاله ::: كخصال عبد الله أنصت واسمع
فلأمحضن لك النصيحة والذي ::: حج الحجيج إليه فاقبل أو دع
أكرم وعف وكف واحلم واحتمل ::: واسمع ودار وهش واصفح واسجع(١)

و كان مولده سنة ثلاث وثمانين ومئة. وتوفي عبد الله بنيسابور في خلافة الواثق سنة ثلاثين ومئتين، وسنه سبع وأربعون سنة. وكان إليه وقت وفاته الشرطتان، بمدينة السلام وسر من رأى. والحرب بطساسيج السواد وخليفته على ذلك إسحاق بن إبراهيم المصعبي

(١) مختصر تاريخ دمشق، ٤ /٢٢٧.

وكان له الحرب والخراج بخراسان وأعمالها بجانبي النهر، وطبرستان وجرجان والري وأعمالها، ورثاه جماعة من الشعراء منهم علي بن الجهم، والحسن بن وهب الكاتب، وعمارة بن عقيل وغيرهم[(١)].

ولما توفي عبد الله بن طاهر سنة ثلاثين ومائتين، وكان قد مرض ثلاثة أيام بوجع أصابه في حلقه بنيسابور، فولى الواثق ابنه طاهر أعماله كلها، وكان قد أظهر التوبة وكسر آلات الملاهي وعمر مساجد خراسان، ووقف لها الوقوف، وأظهر الصدقات، ووجه أموالاً عظيمة إلى الحرمين وافتدى أسرى المسلمين من الترك، وبلغ ما أنفقه على الأسارى ألفي ألف درهم[(٢)].

وقال محمد بن عبد الله بن منصور لما بلغه موت عبد الله بن طاهر:

هيهات لا يأتي الزمان بمثله ::: إن الزمان بمثله لبخيل[(٣)]

وللمؤرخين إعجاب بأعماله وثناء عليه، قال ابن الأثير: كان عبد الله من أكثر الناس بذلا للمال، مع علم ومعرفة وتجربة، وللشعراء فيه مراث كثيرة. وقال ابن خلكان: كان عبد الله سيدا نبيلا عالي الهمة شهما، وكان المأمون كثير الاعتماد عليه. وقال الذهبي في دول الاسلام: كان عبد الله من كبار الملوك.

(١) مختصر تاريخ دمشق، ٤ /٢٢٦.
(٢) المصدر السابق، ٤ /٢٢٧.
(٣) المصدر السابق، ٤ /٢٢٩.

مواقف من حياته

والله لا دخلتها:

غلب عبد الله بن طاهر على الشام، ووهب له المأمون ما وصل إليه من الأموال هنالك، ففرقه على القواد، ثم وقف على باب مصر فقال: أخزى الله فرعون ما كان أخسه وأدنى همته، ملك هذه القرية فقال: أنا ربكم الأعلى. والله لا دخلتها.

لا تركب ما يحرق المحاسن بالنار:

قالت فاطمة امرأة يحيى من حديث: قام يحيى ليلة لورده. فلما فرغ منه يقرأ في المصحف، فدخل عبد الله بن طاهر عليه. فلما قرب منه وسلم قام إليه والمصحف في يده، ثم رجع إلى قراءته حتى ختم السورة التي كان افتتحها، ثم وضع المصحف، واعتذر إلى الأمير وقال: لم أشتغل عنه تهاوناً بحقه، إنما كنت افتتحت سورة فختمتها. فقعد عبد الله ساعة يحدثه ثم قال له: ارفع إلينا حوائجك، فقال: وهل يستغنى عن السلطان أيده الله؟ وقد وقعت لي حاجة في الوقت. فإن قضاها رفعتها، فقال: مقضية ما كانت، فقال أبو زكريا: قد كنت أسمع بمحاسن وجه الأمير، فلم أعاينها إلا ساعتي هذه، وحاجتي إليك أن لا تركب ما يحرق المحاسن بالنار. فأخذ الأمير عبد الله بن طاهر في البكاء حتى قام يبكي.

ألك بينة؟

ورد رجل من هراة فرفع قصته إلى عبد الله بن طاهر. فلما قدم بين يديه قال: من خصمك؟ قال: الأمير أيده الله. قال: ما الذي تدعي علي؟ قال: ضيعة لي بهراة غصبنيها والد الأمير، وهي اليوم في يده. قال: ألك بينة؟ قال: إنما تقام البينة بعد الحكومة إلى القاضي.

فإن رأى الأمير أيده الله أن يحملني وإياه على حكم الإسلام. قال: فدعا عبد الله بن طاهر بالقاضي نصر بن زياد ثم قال للرجل: ادع. قال: فادعى الرجل مرة بعد أخرى. فلم يلتفت إليه نصر بن زياد، ولم يسمع دعواه، فعلم الأمير أنه قد امتنع عن استماع الدعوى حتى يجلس الخصم مع المدعي، فقام عبد الله بن طاهر من مجلسه حتى جلس مع خصمه بين يديه، فقال نصر للمدعي: ادع فقال: أدعي أيد الله القاضي أن ضيعة لي بهراة وذكرها بحدودها وحقوقها، هي لي في يدي الأمير، فقال له الأمير عبد الله بن طاهر: أيها الرجل، قد غيرت الدعوى إنما ادعيت أولاً على أبي، فقال الرجل: لم أشته أن أفضح والد الأمير في مجلس الحكم، ادعي أن والد الأمير قد كان غصبني عليها، وإنها اليوم في يد الأمير، فسأل نصر بن زياد عبد الله بن طاهر عن دعواه فأنكره، فالتفت إلى الرجل فقال: ألك بينة؟ قال: لا، قال: فما الذي تريده؟ قال: يمين الأمير بالله الذي لا إله إلا هو قال: فقال الأمير إلى مكانه وأمر الكاتب ليكتب إلى هراة برد الضيعة عليه.

ولم ذاك؟

قال المأمون لعبد الله بن طاهر: أيما أطيب: مجلسي أو مجلسك؟ قال: ما عدلت بك يا أمير المؤمنين شيئاً. فقال: ليس إلى هذا ذهبت، إلى الموافقة في العيش واللذة قال: منزلي يا أمير المؤمنين. قال: ولم ذاك؟ قال: لأني فيه مالك، وانا ها هنا مملوك.

وهل يرتجى منك الزيادة بالكفر؟

قال أحمد بن أبي داؤد: خرج دعبل بن علي إلى خراسان فنادم عبد الله بن طاهر، فأعجب به فكان في كل يوم ينادمه فيه يأمر له بعشرة آلاف درهم، وكان ينادمه في الشهر خمسة عشر يوماً، وكان ابن

طاهر يصله في كل شهر بمئة وخمسين ألف درهم. فلما كثرت صلاته له توارى عنه دعبل يوم منادمته في بعض الخانات. فطلبه، فلم يقدر عليه فشق عليه. فلما كان من الغد كتب:

هجرتك، لم أهجرك من كفر نعمة ::: وهل يرتجى منك الزيادة بـالكفر؟
ولكـنني لما أتيتـك زائـراً ::: فأفرطت في بري عجزت عن الشكر
فـم الآن لا آتيـك إلا معـذراً ::: أزورك في الشهرين يوماً وفي الشهر
فإن زدت في بري تزيدت جفـوة ::: ولم نلتق حتى القيامـة والحشـر

وقد حدثني أمير المؤمنين المأمون عن أمير المؤمنين الرشيد عن المهدي عن المنصور عن أبيه عن جده عن ابن عباس قال: ﴿قال رسول الله :من لا يشكر الناس لا يشكر الله عز وجل، ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير﴾. فوصله بثلاثمائة ألف درهم. وانصرف[1].

بلا سبب:

لما قدم عبد الله بن طاهر من خراسان اعترضه دعبل الشاعر، فأنشأ يقول:

جئتـك مستشـفعاً بـلا سـبب ::: إليـك إلا بحرمـة الأدب
فـاقض دمـامي فـإنني رجـل ::: غـير ملـح عليـك في الطلـب

قال: يا غلام، أعطه عشرة آلاف درهم. قال: فأعطاه وكتب إليه:

أعجلتنـا فأتاك عاجـل برنـا ::: ولـو انتظـرت كـثيره لم يقلـل
فخذ القليل وكن كمن لم يسـأل ::: ونكون نحـن كأننـا لم نفعـل[2]

يا أبا السمراء:

حدث محمد بن الفضل بن محمد بن منصور قال: لما افتتح عبد الله ابن طاهر مصر ونحن معه سوغه المأمون خراجها سنة، فصعد

(١) مختصر تاريخ دمشق، ٤ /٢٢٦.
(٢) المصدر السابق، ٤ /٢٢٦.

المنبر فلم ينزل حتى أجاز بها كلها ثلاثة آلاف ألف دينار أو نحوها، فقبل أن ينزل أتاه معلى الطائي، وقد أعلموه ما يصنع عبد الله بن طاهر بالناسفي الجوائز، وكان عليه واجداً، فوقف بين يديه تحت المنبر فقال: أصلح الله الأمير، أنا معلى الطائي ما كان مني من جفاء وغلظ، فلا تعجله علي قلبك ولا يستخفنك ما قد بلغك، انا الذي أقول:

يا أعظم الناس عفواً عند مقدرة ::: وأظلم الناس عند الجود للمال
لو يصبح النيل يجري ماؤه ذهباً ::: لما أشرت إلى خزن بمثقال
تعنى بما فيه رق الحمد تملكه ::: وليس شيء أعاض الحمد بالغالي
تفك باليسر كف العسر في زمن ::: إذا استطال على قوم بإقلال
لم تخل كفك من جود لمختبط ::: أو مرهف قاتل في رأس قتال
وما بثثت رعيل الخيل في بلد ::: إلا عصفن بأرزاق وآجال
هل من سبيل إلى إذن فقد ظمئت ::: نفسي إليك فما تروى على حال
إن كنت منك على بال مننت به ::: فكان شكرك من حمدي على بال
مازلت مقتضياً لولا مجاهرة ::: من ألسن خضن في ضري بأقوال

قال: فضحك عبد الله وسر بما كان منه، وقال: يا أبا السمراء، بالله أقرضني عشرة آلاف دينار، فما أمسيت أملكها، فأقرضه، فدفعها إليه.

فني شعري ولم يضق صدرك :

دخل عوف بن ملحم الحراني على عبد الله بن طاهر، فسلم عليه عبد الله فلم يسمع فأعلم بذلك، فزعموا أنه ارتجل هذه القصيدة:

يا بن الذي دان له المشرقان ::: طراً وقد دام له المغربان
إن الثمانين وبلغتها ::: قد أحوجت سمعي إلى ترجمان
وبدلتني بالشطاط الحني ::: وكنت كالصعدة تحت السنان
وبدلتني من زمتع الفتى ::: وهمتي هم الجبان الهدان

وقاربــت مـــني خطـــاً لم تكـــن ::: مقاربـــات وثنـــت مـــن عنـــان
وأســبلت بـــيني وبـــين الـــورى ::: عنانه مـــن غـــير نســـج العنـــان
ولم تـــــــــدع في لمســـــــــتمتع ::: إلا لســـــاني وبحســـــبي لســـــان
أدعـــــو بــــه الله وإنـــــني بــــه ::: على الأمـــير المصـــعبي الهجـــان
فقربــــــــاني بـــــــأبي أنتمـــــــا ::: في وطني قبـــل اصـــفرار البنـــان
وقبـــــل منعـــــــاتي إلى نســـــوة ::: أوطانهـــــا حـــــران والرقتـــــان

جاء أعرابي إلى ابن طاهر وهو راكب فأنشده: الوافر:

سألت عن المكارم أيـــن صـــارت ::: فكـــل النـــاس أرشـــدني إليكـــا
فجد لي يا بـــن طـــاهر إن فعلـــي ::: ســـيثني بالـــذي تـــولي عليكـــا

فقال له: كم ثمن هذين البيتين؟ قال: ألفا درهم. قال: لقد أرخصت. يا غلام، أعطه أربعة آلاف درهم فقال:

صدقت ظني وظن النـــاس كلـــهم ::: فأنت أكرمنهم نفســـاً وأجـــداداً
لا زلت في روضة خضراء واســـعة ::: وأنت أخضرها روضـــاً وأعـــود

فقال: يا غلام، أعطه أربعة آلاف أخرى فقال:

لو كان قولي بهذا الشعر مســـتمعاً ::: لكنت أحوي خراج الشرق والغرب
أنت الكريم الذي يعطي بلا نكـــد ::: وأنت تحيي الذي قد مات من جدب

فقال: يا غلام: أعطه أربعة آلاف أخرى، فلما قبضها قال: أيها الأمير فني شعري ولم يضق صدرك[1].

قمرية تغرد:

حدث عوف بن ملحم الشيباني قال: عادلت عبد الله بن طاهر إلى خراسان، فدخلنا الري في وقت السحر، فإذا قمرية تغرد على فنن شجرة فقال عبد الله بن طاهر: أحسن والله أبو كبير الهذلي حيث يقول: الطويل:

(١) مختصر تاريخ دمشق، ٤ /٢٢٧.

ألا يا حمام الأيك إلفــك حاضــر ::: وغصنك ميــاد ففــيم تنــوح؟!

ثم قال يا عوف: أجز، فقلت: أعز الله الأمير شيخ ثلب [١]حملته على البديهة، ولا سيما في معارضة أبي كبير، ثم انفتح لي شيء فقلت:

أفي كــل يــوم غربــة ونــزوح ::: أما للنوى مــن ونيــة فنــريح؟
لقد طلح البين المشــت ركــائبي ::: فهل أرين الــبين وهــو طلــيح؟
وأرقــني بــالري نــوح حمامــة ::: فنحت وذو الشجو الحزين ينــوح
على أنها ناحت ولم تــذر دمعــة ::: ونحت وأسراب [٢]الدموع سفوح
وناحت وفرخاها بحيــث تراهمــا ::: ومن دون أفراخي مهامــة فــيح
عسى جود عبد الله أن يعكس النوى ::: فنلقي عصا التطواف وهي طــريح
فإن الغنى يدني الفتى من صــديقه ::: وبعد الغــنى بــالمقترين طــروح

قال: فأذن لي من ساعتي، ووصلني بمئة ألف درهم، وردني إلى منزلي.

ودخل كلثوم العتابي على عبد الله بن طاهر مع أصحاب القصص. فلما نظر إليه قال: حاجتك يا شيخ؟ فأنشأ يقول:

حسن ظني وحســن مــا عــود ::: الله سواي بــك الغــداة أتــى بي
أي شيء يكون أحسن من حســن ::: يقــين ثــنى إليــك ركــابي؟

قال كلثوم: قال: ألا أتيتنا أول الدهر، وتمر له بألفي دينار.

وقيل: إن العتابي دخل عليه فأنشده البيتين حسن ظني فأمر له بجائزة، ثم دخل عليه مرة أخرى فأنشده:

جــودك يكفيــك في حــاجتي ::: ورؤيتي تكفيــك مــني الســؤال
فكيف أخشى الفقر ما عشــت لي ::: وإنمــا كفــاك لي بيــت مــال

(١) الثلب: الهرم.
(٢) والأسراب: ظهور الماء وما يسرب، فهو مثل هذا.

فأجازه أيضاً. ثم دخل عليه اليوم الثالث فأنشده:

أكسني ما يبيد أصلحك الله ::: فإني أكسوك ما لا يبيد

فأجازه وكساه وحمله.

السرف من الشرف:

- قال أحمد بن يزيد بن أسيد السلمي: كنت مع طاهر بن الحسين بالرقة، وأنا أحد قواده، وكانت لي به خاصة أجلس عن يمينه. فخرج علينا يوماً راكباً ومشينا بين يديه وهو يتمثل:

عليكم بداري فاهدموها فإنها ::: تراث كريم لا يخاف العواقبا

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ::: وأعرض عن ذكر العواقب جانبا

سأرحض عني العار بالسيف جالباً ::: علي قضاء الله ما كان جالبا

فدار حول الرافقة ثم رجع فجلس مجلسه، فنظر في قصص ورقاع فوضع فيها صلات أحصيت ألف ألف وسبع مئة ألف. فلما فرغ نظر إلي مستطعماً الكلام فقلت: أصلح الله الأمير، ما رأيت أنبل من هذا المجلس، ولا أحسن ودعوت له، ثم قلت: لكنه سرف، فقال: السرف من الشرف، فأردت الآية التي فيها:{وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴿٦٧﴾} [الفرقان: ٦٧]، فجئت بالأخرى إليها " إن الله لا يحب المسرفين " فقال: صدق الله، وما قلنا كما قلنا. ثم ضرب الدهر حتى اجتمعنا مع ابنه عبد الله بن طاهر في ذلك القصر بعينه، فخرج علينا راكباً وهو يتمثل:

يا أيها المتمني أن يكون فتى ::: مثل ابن ليلى لقد خلى لك السبلا

انظر ثلاث خلال قد جمعن له ::: هل سب من أحد أو سب أو بخلا

ثم دار حول الرافقة ثم انصرف وجلس مجلسه، وحضرنا، وحضرت رقاع وقصص فجعل يوقع فيها، وأنا أحصي، فبلغت صلاته ألفي ألف وسبع مئة ألف، زيادة ألف ألف على ما وصل أبوه ثم التفت إلي

مستطعماً الكلام فدعوت له وحسنت فعاله، ثم أتبعت ذلك بأن قلت له: لكنه سرف، فقال: السرف من الشرف، فقلت: نعم أعز الله الأمير، السرف من الشرف، السرف من الشرف، كررتها. قال: لم كررتها؟ فقالت:حدث الحسين بن منصور عن جماعة من طلبة الحديث قالوا: كنا بالشام أيام عبد الله بن طاهر قال: فأملقنا حتى صرنا في غير نفقة، وكانت العلماء لا تحدث يوم الجمعة، فقلنا لأصحابنا يوم الجمعة: مروا بنا إلى الفرات نغسل هذا الشعث عنا والدنس، فذهبنا إلى الفرات فغسلنا رؤوسنا وثيابنا، فأقبل شاب بين غلالتين يتلوه خادم حتى وقف علينا فقال: من أنتم؟ قلنا: شتوت من الناس ونوازع بلدان فقال: من طلبة الحديث؟ قلنا: نعم. فقال: ممن يقول: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص؟ قلنا: نعم. قال: فما حالكم في نفقاتكم؟ قلنا: أسوأ حال. فالتفت إلى الخادم فقال: يعطون ألفاً ألفاً. قال: فمر بنا، فألقيت في أكمامنا، ألفاً ألفاً، فقلنا للخادم: من هذا؟ قال: عبد الله بن طاهر[١].

ما هذا الدخان؟

قال سهيل بن ميسرة: لما رجع أبو العباس عبد الله بن طاهر من الشام ارتفع فوق سطح قصره، فنظر إلى دخان يرتفع في جواره فقال لعمرويه: ما هذا الدخان؟ قال: أظن القوم يخبزون قال: ويحتاج جيراننا أن يتكلفوا ذلك؟ ثم دعا حاجبه فقال له: امض ومعك كاتب، فأحص جيراننا ممن لا يقطعهم عنا شارع، فمضى فأحصاهم فبلغ عدد صغيرهم وكبيرهم أربعة آلاف نفس، فأمر لكل واحد منهم في كل يوم بمقدارين خبزاً ومقدارا لحم، ومن التوابل في كل شهر عشرة دراهم، والكسوة في الشتاء مئة وخمسون درهماً وفي الصيف

(١) مختصر تاريخ دمشق، ٤ /٢٢٨.

مئة درهم، وكان ذلك دأبه مقامه ببغداد. فلما خرج انقطعت الوظائف إلا الكسوة ما عاش أبو العباس[١].

إلى كم يكون العتب في كل ساعة:

قال علي بن إسحاق: اشترى عبد الله بن طاهر جارية بخمسة وعشرين ألفاً على ابنة عمه فوجدت عليه وقعدت في بعض المقاصير، فمكثت شهرين لا تكلمه فعمل هذين البيتين:

إلى كم يكون العتب في كل ساعة ::: وكم لا تملين القطيعة والهجرا
رويدك إن الدهر فيه كفاية ::: لتفريق ذات البين فانتظري الدهرا

وقال للجارية: اجلسي على باب المقصورة فغني به. فلما غنت بالبيت الأول لم تر شيئاً، فلما غنت البيت الثاني فإذا قد خرجت مشقوقة الثوب حتى أكبت رجليه فقبلتهما[٢].

فما ثوابه على الإصابة؟

قال عبد الله بن طاهر ذات يوم لرجل أمره بعمل: احذر أن تخطئ، فأعاقبك بكذا وكذا، لأمر عظيم، فقال: أيها الأمير، من كانت هذه عقوبته على الخطأ فما ثوابه على الإصابة؟ [٣].

فما فضل الجواد على البخيل؟

كتب رجل إلى أبي عبد الله بن طاهر: إذا كان الجواد له حجاب فما فضل الجواد على البخيل؟ فأجابه عبد الله بن طاهر: إذا كان الجواد قليل مال ولم يعلل تعذر بالحجاب [١].

أعاتب من يحلو بقلبي عتابه ::: وأترك من لا أشتهي أن أعاتبه

(١) المصدر السابق، ٤ /٢٢٧.
(٢) مختصر تاريخ دمشق، ٤ /٢٢٧.
(٣) المصدر السابق، ٤ /٢٢٧.
(١) الآداب الشرعية، ٤٨٨.

وليس عتاب المرء للمــرء نافعــا ::: إذا لم يكن للمرء لــب يعاتبــه[١]

لا تسمني أميرا وسمني أسيرا:

وعن محمد بن منصور البغدادي قال: دخلت على عبد الله بن طاهر وهو في سكرات الموت فقلت: السلام عليك أيها الأمير. فقال: لا تسمني أميرا وسمني أسيرا، ولكن اكتب عني بيتين ما أراهما إلا آخر بيتين أقولهما ثم أنشأ يقول:

بــادر فقــد أسمعــك الصــوت :: إن لم تبــادر فهــو الفــوت
مــن لم تــزل نعمتــه قبلــه ::: زال عــن النعمــة بــالموت[٢]

يستسلف الغم والخوف:

شكا عبد الله بن طاهر، إلى سليمان بن يحيى بن معاذ كاتبه، بلاء خافه وتوقعه.

فقال له: أيها الأمير، لا يغلبن على قلبك، إذا اغتممت، ما تكره دون ما تحب، فلعل العاقبة تكون بما تحب، وتوفي ما تكره، فتكون كمن يستسلف الغم والخوف.

قال: أما أنك قد فرجت عني ما أنا فيه[٣].

يعفو عن الحصني ويحسن إليه:

قال عيسى بن فرخان شاه: لما وليت ديار مصر، لم يزل وجوهها يصفون لي محمد بن يزيد الأموي الحصني بالفضل، وينشدوني

(١) المصدر السابق، ٣٧٧/١.
(٢) عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الإشبيلي أبو محمد، العاقبة في ذكر الموت، تحقيق خضر محمد خضر، مكتبة دار الأقصى - الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ - ١٩٨٦،
١٢٨/١.
(٣) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص١٩.

قصيدته التي أجاب بها عبد الله بن طاهر، لما فخر بأبيه، ويذكرون قصته معه لما دخل عبد الله الشام، وأشرف الحصني على الهلاك خوفاً منه، وكيف كفي أمره بلا سبب، وكيف أحسن إليه، وأقره في حصنه، فكنت أتفقد أمره في ضيعته، وأحسن إليه في معاملته، وكانت كتبه ترد علي بالشكر بأحسن عبارة.

فلما خرجت لتصفح كور عملي، وأحوال الرعية والعمال بالنواحي، وردت الكورة التي فيها حصن محمد بن يزيد في ناحية منها، فخرج مستقبلاً لي، وراغباً إلي في النزول عليه.

فلما التقينا، قال لي: لم أشك - مع فضلك - أنك لا تتجاوزني، ولم آمن أن يعارضك ظن، يصور لك أن عدولك عني، إبقاء علي، وإشفاق من نسبة السلطان إياك إلى إيثار لذتك في لقائي، فتطويني، فحملت نفسي على خلاف ما كنت أحب أن يشيع لك، من ابتدائي بالقصد قبل رغبتي إليك فيه، فالحمد لله الذي جعل لك السبق إلى المكرمة.

وسرنا إلى حصنه، وأوقفني على المواضع المذكورة في الخبر والشعر إلى أن دخلنا حصنه، فلم أجد فيه أهبة للنزول به، ورأيت أدباً ومروءة، وسبق بما حضر من القرى، ولم ينقبض من إحضار ما أعددته في سفرتنا، ووجدت خدمته كلها تدور على جارية سوداء اللون، خفيفة الحركة، يدل نشاطها على اعتيادها الطراق، إلى أن رفع الطعام، وحضر الشراب، فحضرت السوداء في غير الزي الأول وجلست تغني، فأنكرتها، حتى استثبته فيها، فوصف لي قديم حرمتها، وقال: هي كانت طليعتي يوم قصدني عبد الله بن طاهر.

فاستفتحني لمسألته عن الخبر، فسألته.

فقال: لما بلغني إجماع عبد الله بن طاهر على الخروج لطلب نصر بن شبث - الخارجي كان في ذلك الوقت - بنفسه، أيقنت بالهلاك،

وخفت أن يقرب مني، فتنالني منه بادرة مكروه، ولم أشك في ذهاب النعمة، وإن سلمت النفس لما بلغه من إجابتي إياه، عن قصيدته التي فخر بها، وأنشدنيها:

مـــدمن الإغضـــاء موصـــول ::: ومـــديم العتـــب مملـــول
ومـــدين البـــيض في تعـــب ::: وغـــريم البـــيض ممطـــول
وأخــو الــوجهين حيــث رمــىً ::: بهـــواه فهـــو مـــدخول
وقليــــل مــــن يــــبرّزه ::: في يـــد التهـــذيب تحصـــيل
فاتّئـــد تلـــق النجـــاح بـــه ::: واعتســـاف الأمـــر تضـــليل
واغض عن عيـب أخيـك يـدم ::: لـك حبـل منـه موصـول
من يرد حـوض الـردى صـرداً ::: لا يســـعه الـــريّ تعليـــل
مـــن بنـــات الـــرّوم لي ســـكن ::: وجههـــا للشـــمس إكليـــل
عتبـــت والعتـــب مـــن ســـكنٍ ::: فيـــه تكـــثير وتقليـــل
أقصـــري عمّـــا لهجـــت بـــهً ::: ففـــراغ عنـــك مشـــغول
ســـائلي عمّـــا تســـائلني ::: قـــد يـــردّ الخـــبر مســـؤول
أنـــا مـــن تعـــرفن نســـبته ::: ســـلفي الغـــرّ البـــهاليل
مصـعب جـدّي نقيـب بـني ::: هاشـــم والأمـــر مجهـــول
وحســـين رأس دعـــوتهم ::: ودعـــاء الحـــقّ مقبـــول
ســـل بهـــم تنبيـــك نجـــدتهم ::: مشـــرفّيات مصـــاقيل
كـــلّ عضـــب مشـــرب علـــلاً ::: وجـــراز الحـــدّ مفلـــول
وأبي مـــن لاً كفـــاء لـــه ::: مـــن يســـامي مجـــده؟ قولـــوا!
صاحب الرأي الّـذي حصـلت ::: رأيـــه القـــوم المحاصـــيل
حـــلّ منـــهم بالـــذرى شـــرفاً ::: دونـــه عـــزّ وتبجيـــل
تفصـــح الأنبـــاء عنـــه إذا ::: أســـكت الأنبـــاء مجهـــول
ســـل بـــه، والخيـــل ســـاهمة ::: حولـــه جـــرد أبابيـــل
إذ علـــت مـــن فوقـــه يـــده ::: نوطهـــا أبـــيض مصـــقول

وبربّـــات الخـــدور وقـــد ::: جعلـــت تبـــدو الخلاخيـــل
مـــن ثـــنى عنـــه الخيـــول بـــأك ::: نافهـــا الخطّيّـــة الشـــول
أبطـــن المخلـــوع كلكلـــه ::: وحواليـــــه المغاويـــــل
فثـــوى والتـــرب مضـــجعه ::: غـــال عنـــه ملكـــه غـــول
قـــاد جيشـــاً نحـــو قاتلـــه ::: ضـــاق عنـــه العـــرض والطـــول
مـــن خراســـان مصـــمّمهم ::: كليـــوث ضـــمّها غيـــل
وهبـــوا للّـــه أنفســـهم ::: لا معازيـــل ولا ميـــل
ملـــكٌ تجتـــاح ســـطوته ::: ونـــداه الـــدّهر مبـــذول
قطعـــت عنـــه تمائمـــه ::: وهـــو مرهـــوب ومـــأمول
وتـــره يســـعى إليـــه بـــه ::: ودمٌ يجنيـــه مطلـــول

قال: وكنت لما بلغتني القصيدة، امتعضت للعربية، وأنفت أن يفخر عليها رجل من العجم، لأنه قتل ملكاً من ملوكها بسيف أخيه، لا بسيفه، فيفخر عليها هذا الفخر، ويضع منها هذا الوضع، فرددت على قصيدته، ولم أعلم أن الأيام تجمعنا، ولا أن الزمان يضطرني إلى الخوف منه، فقلت:

لا يرعـــك القـــال والقيـــل ::: كلّمـــا بلّغـــت تهويـــل
مـــا هـــوى لي حيـــث أعرفـــه ::: بهـــوى غـــيرك موصـــول
أيـــن لي عـــدل إلى بـــدل ::: أبـــديل منـــك مقبـــول
إذ عـــدمت العـــدل منـــك وإذاً ::: أنـــا فيـــك الـــدّهر معـــدول
حمّلـــيني كـــلّ لائمـــة ::: كـــلّ مـــا حمّلـــت مقبـــول
واحكمي ما شـئت واحتكمـي ::: فحرامـــي فيـــك تحليـــل
والّـــذي أرجـــو النجـــاة بـــه ::: مـــا لقلـــبي عنـــك تحويـــل
مـــا لـــداري منـــك مقفـــرةٌ ::: وضـــميري منـــك مـــأهول
أيخـــون العهـــد ذو ثقـــة ::: لا يخـــون العهـــد مســـؤول
وأخـــو حبّيـــك في تعـــبٍ ::: مطلـــق مـــرّاً ومغلـــول

مـــا فراغـــي عنـــك مشـــتغل ::: بـــل فراغـــي بـــك مشـــغول
وبـــدت يـــوم الـــوداع لنـــا ::: غـــادة عيطـــاء عطبـــول
حاســـــراً أو ذات مقنعـــــة ::: ذات تـــاج فيـــه إكليـــل
أيّ عطفيهـــا بـــه انصـــرفت ::: أرجٌ بالمســـك معلـــول
تتعـــاطى شـــدّ معجرهـــا ::: ونطـــاق الخصـــر محلـــول
بأداليـــلٍ لهـــا قتـــلٍ ::: حبّـــذا تلـــك الأداليـــل
فبنفســـي دمـــعٍ مشـــطتها ::: ومثانيهـــا المراســـيل
ســـبقت بالـــدمع مقلتـــها ::: فلـــها بالـــدّمع تفصـــيل
ورمـــت بالسّـــحر مـــن كثـــب ::: فـــدفين الـــدّاء مقتـــول
لاحظـــت بالسّـــحر عابثـــة ::: فحســـام الصّـــبر مفلـــول
شملنـــا إذ ذاك مجتمـــعٌ ::: وجنـــاح الـــبين مشـــكول
ثمّ ولّـــت كـــي تودّعنـــا ::: كحلـــها بالـــدمع مغســـول
لا تخـــاف الـــدّهر طـــائره ::: فـــأذاه عنـــك معقـــول
أيّهـــا النـــازي مطيّتـــه ::: لأغاليطـــك تحصـــيل
قـــد تـــأوّلتم علـــى جهـــة ::: ولنـــا في ذاك تأويـــل
إنّ دلّـــيلاك يـــوم غـــدا ::: بـــك في الحـــين لضـــلّيل
قاتـــل المخلـــوع مقتـــول ::: ودم القاتـــل مطلـــول
قـــد يخـــون الّـــرمح عاملـــه ::: وســـنان الـــرّمح مصـــقول
وينـــال الـــوتر طالبـــه ::: بعـــدما تســـلو المثاكيـــل
ســـار أو حـــلّ فمتبّـــع ::: بـــالّتي يكبـــو لهـــا الفيـــل
لا تنجّيـــه مذاهبـــه ::: لهـــر بوشـــنجٍ ولا النّيـــل
ومـــدين القتـــل مـــرهَن ::: بـــدماء القـــوم مقتـــول
بـــأخي المخلـــوع طلـــت يـــداً ::: لم يكـــن في باعهـــا طـــول
وبنعمـــاه الّـــتي ســـلفت ::: فعلـــت تلـــك الأفاعيـــل
وبـــراعٍ غـــير ذي شـــفق ::: جالـــت الخيـــل الأبابيـــل
يا ابـــن بيـــت النّـــار موقـــدها ::: مـــا لحاديـــه ســـراويل

أيّ مجـــد فيـــك نعرفـــه ::: أيّ جـــدّ لـــك بهلـــول
مـــن حســـينٌ أو أبـــوك ومـــن ::: مصـــعب غالتـــهم غـــول
وزريـــــق إذ تخلّفـــــه ::: نســـبٌ عمـــرك مجهـــول
تلـــك دعـــوى لا نتقاشـــها ::: وأبـــــوّات مراذيـــــل
أســـرة ليســـت مباركـــة ::: غيرهـــا الشـــمّ البـــهاليل
مـــا جـــرى في عـــود أثلـــتكم ::: مـــاء مجـــد فهـــو مـــدخول
قـــدحت فيـــه أســـافله ::: وأعاليـــــه مجاهيـــــل
إنّ خـــير القـــول أصـــدقه ::: حـــين تصـــطكّ الأقاويـــل
كـــن علـــى منـــهاج معرفـــة ::: لا تغرّنـــــك الأباطيـــــل
إنّ للإصـــــعاد منحـــــدراً ::: فيـــه للـــهاوي أهاويـــل
ولريـــب الـــدّهر عـــن عـــرض ::: بـــالرّدي عـــلّ وتنـــهيل
يعســـف الصـــعبة رائضـــها ::: ولهـــا بالعســـف تـــدليل
ويخـــون الـــرّمح حاملـــه ::: وســـنان الـــرّمح مصـــقول
وينـــال الثـــأر طالبـــه ::: بعـــدما تســـلو المثاكيـــل
مضـــمر حقـــداً ومنصـــله ::: مغمـــد في الجفـــن مســـلول

قال: فلما قرب عبد الله بن طاهر مني، استوحشت من المقام خوفاً على نفسي، ورأيت بعدي وتسليمي حرمي عاراً باقياً، ولم يكن لي إلى هربي بالحرم سبيل، فأقمت على أتم خوف مستسلماً للاتفاق، حتى إذا كان اليوم الذي قيل إنه ينزل فيه العسكر بهذه النواحي أغلقت باب حصني، وأقمت هذه الجارية السوداء ربيئة تنظر لي على مرقب من شرف الحصن، وأمرتها أن تعرفني الموضع الذي ينزل فيه العسكر قبل أن يفجأني، ولبست ثياب الموت أكفاناً، وتطيبت، وتحنطت.

فلما رأت الجارية العسكر يقصد حصني، نزلت فعرفتني، فلم يرعني إلا دق باب الحصن فخرجت، فإذا عبد الله بن طاهر، واقف وحده،

منفرد عن أصحابه، فسلمت عليه سلام خائف، فرد علي غير مستوحش، فأومات إلى تقبيل رجله في الركاب، فمنع ألطف منع وأحسنه، ونزل على دكان على باب الحصن.

ثم قال: ليسكن روعك، فقد أسأت الظن بنا، ولو علمنا أنا بزيارتنا لك نروعك ما قصدناك.

ثم أطال المسألة، حتى رأى الثقة مني قد ظهرت، فسألني عن سبب مقامي في البر، وإيثاري إياه على الحاضرة، ورفاهة عيشها، وعن حال ضيعتي ومعاملتي في ناحيتي، فأجبته بما حضر لي.

حتى إذا لم يبق من التأنيس شيء أفضى إلى مساءلتي عن حديث نصر بن شبث، وكيف الطريق إلى الظفر به، فأخبرته بما حضرني.

ثم أقبل علي وقد انبسطت في محادثته كل الانبساط، فقال: أحب أن تنشدني القصيدة التي فيها:

يا ابن بيت النار موقدها :: ما لحاديه سراويل

فقلت: أصلح الله الأمير، قد أربت نعمتك على مقدار همتي، فلا تكدرها بما ينغصها.

فقال: إنما أريد الزيادة في تأنيسك، بأن لا تراني متحفظاً مما خفت، وعزم علي في إنشادها، عزم مجد فقلت: يريد أن تطرأ على سمعه، فيثور ما في نفسه، فيوقع بي. ولم أجد من إنشادها بداً، فأنشدته القصيدة، فلما فرغت منها، عاتبني عتاباً سهلاً، فكان منه أن قال: يا هذا، ما حملك على تكلف إجابتي؟ فقلت: الأمير أصلحه الله، حملني على ذلك بقوله:

وأبي من لا كفاء له :: من يسامي مجده؟ قولوا!

:

فقلت كما تقول العرب، وتفتخر السوقة على الملوك، وكنت لما بلغت إلى قولي:

يا ابن بيت النّار موقدها ::: ما لحاديه سراويل

قال لي: يا ابن مسلمة، لقد أحصينا في خزائن ذي اليمينين بعد موته، ألفين وثلثمائة سراويل من صنوف الثياب، ما أصلح في أحدها تكة، سوى ما استعمل في اللبس، على أن الناس يقلون اتخاذ السراويلات في كساهم.

فاعتذرت إليه بما حضرني من القول في هذا، وفي جميع ما تضمنته القصيدة، فقبل القبول، وبسط العذر، وأظهر الصفح.

وقال: قد دللتنا على ما احتجنا إليه، من معرفة أمر نصر بن شبث، أفتستحسن القعود عنا في حربه. ولا يكون لك في الظفر به أثر يشاكلنا إرشادك لوجوه مطالبه؟ فاعتذرت إليه بلزوم ضيعتي ومنزلي، وعجزي عن السفر للقصور عن آلته.

فقال: نكفيك ذلك، وتقبله منا، ودعا بصاحب دوابه، فأمره بإحضار خمسة مراكب من الخيل الهماليج بسروجها ولجمها المحلاة، وبثلاث دواب من دواب الشاكرية، وخمسة أبغل من بغال الثقل، وأمر صاحب كسوته بإحضار خمسة تخوت من أصناف الثياب الفاخرة، وأمر خازنه بإحضار خمس بدر دراهم، فأحضر جميع ذلك، ووضع على الدكان الذي كان عليه جالساً بباب الحصن.

ثم قال لي: كم مدة تأخرك عنا إلى أن تلحق بنا؟ فقربت الموعد، فقام ليركب، فابتدرت إلى يده لأقبلها، فمنعني، وركب، وسار الجيش معه، وما ترك أحداً ينزل، وكفى الله مؤونتهم، وخرجت السوداء، فنقلت الثياب والبدر، وأخذ الغلمان الكراع، وما لقيت عبد الله بعدها.

قال عيسى بن فرخان شاه: فأقمت عند محمد بن يزيد يومي وليلتي، فأضافني أحسن ضيافة، وكانت مذاكرته لي، وأدبه، ألذ إلي من كل شيء، فأسقطت عنه جميع خراجه في تلك السنة، وانصرفت[1].

قال القاضي التنوخي: ووقع إلي هذا الخبر، بخلاف هذا، فأخبرني أبو الفرج الأصبهاني، قال: لما قال عبد الله، قصديته التي فخر فيها بمآثر أبيه وأهله، وبقتل المخلوع، عارضه محمد بن يزيد الأموي الحصني، وهو رجل من ولد مسلمة بن عبد الملك، فأفرط في السب، وتجاوز الحد في قبح الرد، فكان فيما قال:

يا ابن بيت النار موقدها ::: ما لحاديه سراويل
من حسين وأبوك ومن ::: مصعبٌ غالتهم غول
نسب في الفخر مؤتشب ::: وأبوّات أراذيل
قاتل المخلوع مقتول ::: ودم المقتول مطلول

وهي قصيدة طويلة.

فلما ولي عبد الله مصر، ورد إليه تدبير الشام، علم الحصني أنه لا يفلت منه إن هرب، ولا ينجو من يده حيث حل، فثبت مكانه، وأحرز حرمه، وترك أمواله وكل ما يملكه في موضعه، وفتح باب حصنه، وهو يتوقع من عبد الله أن يوقع به.

قال: فلما شارفنا بلده، وكنا على أن نصبحه، دعاني عبد الله في الليل، فقال: بت عندي، وليكن فرسك معداً، ففعلت، فلما كان في الحسر، أمر غلمانه وأصحابه أن لا يرحلوا حتى تطلع الشمس، وركب هو وأنا وخمسة من خواص غلمانه، وسار حتى صبح الحصني، فرأى بابه مفتوحاً، ورآه جالساً مسترسلاً، فقصده وسلم عليه، ونزل عنده.

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص٥٨ - ٦٠.

وقال: ما أجلسك ها هنا، وحملك على أن تفتح بابك، ولم تتحصن من هذا الجيش المقبل، ولم تتنح عن عبد الله بن طاهر، مع علمك بما في نفسه منك، وما بلغه عنك؟ فقال: إن الذي قلت لم يذهب عني، ولكني تأملت أمري، وعلمت أني قد أخطأت عليه خطيئة حملني عليها نزق الشباب، وغرة الحداثة، وأني إن هربت منه لم أفته، فباعدت الحرم، واستسلمت بنفسي وبكل ما أملك، فإنا أهل بيت قد أسرع فينا القتل، ولي بمن مضى من أهلي أسوة، وأنا واثق بأن الرجل إذا قتلني، وأخذ مالي، شفى غيظه، فلم يتجاوز ذلك إلى الحرم، ولا له فيهن أرب، ولا يوجب جرمي إليه أكثر مما بذلته.

فوالله، ما أجابه عبد الله بدموعه تجري على لحيته، ثم قال له: أتعرفني؟.

قال: لا والله.

قال: أنا عبد الله بن طاهر، وقد أمن الله روعك، وحقن دمك، وصان حرمك، وحرس نعمتك، وعفا عن ذنبك، وما تعجلت إليك وحدي، إلا لتأمن، قبل هجوم الجيش، ولئلا يخالط عفوي عنك، روعة تلحقك.

فبكى الحصني، وقام فقبل يده، فضمه عبد الله إليه، وأدناه، ثم قال له: أما إنه لا بد من العتاب، يا أخي، جعلني الله فداك، قلت شعراً في قومي أفخر بهم، ولم أطعن فيه على نسبك، ولا ادعيت فضلاً عليك، وفخرت بقتل رجل هو وإن كان من قومك، فهو من الذين ثأرك عندهم، وقد كان يسعك السكوت، وإن لم يسعك، أن لا تغرق ولا تسرف.

فقال: أيها الأمير، قد عفوت فاجعله عفواً لا يخالطه تثريب، ولا يكدر صفوه تأنيب.

قال: قد فعلت، فقم بنا تدخل إلى منزلك، حتى توجب علينا حقاً وذماماً بالضيافة.

فقام مسروراً فأدخلنا منزله، وأتانا بالطعام فأكلنا، وجلسنا نشرب في مستشرف له، وأقبل الجيش، فأمرني أن أتلقاهم فأرحلهم، ولا ينزل أحد منهم إلا في المنزل، وكان على ثلاثة فراسخ من الحصن، فنزلت، فرحلتهم، وأقام عنده إلى العصر، ثم دعا بدواة، فكتب له بتسويغه خراجه ثلاث سنين.

ثم قال له: إن نشطت، فالحق بنا إلى مصر، وإلا فأقم بمكانك.

فقال: أتجهز، وألحق بالأمير.

ففعل، ولحق بنا، فلم يزل مع عبد الله، لا يفارقه، حتى رحل إلى العراق، فودعه، وأقام ببلده[1].

نحن في حاجة إلى ابن أسلم :

حبس عبد الله بن طاهر، محمد بن أسلم الطوسي، فكتب إليه بعض إخوانه يعزيه عن مكانه.

فأجابه: كتبت إلي تعزيني، وإنما كان يجب أن تهنيني، أريت العجائب، وعرضت علي المصائب، إني رأيت الله تعالى يتحبب إلى من يؤذيه، فكيف من يؤذى فيه، إني نزلت بيتاً سقطت فيه عني فروض وحقوق، منها الجمعة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعيادة المريض، وقضاء حقوق الإخوان، وما نزلت بيتاً خيراً لي في ديني منه.

فأخبر بذلك ابن طاهر، فقال: نحن في حاجة إلى ابن أسلم، أطلقوه.

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص٦٠.

فأفرج عنه[١].

يميل إلى ولد أبي طالب:

لمّا ولّى عبد الله بن طاهر بن الحسين مصر والشّام، وأطلق حكمه دخل على المأمون بعض إخوانه يوما فقال: يا أمير المؤمنين إنّ عبد الله ابن طاهر يميل إلى ولد أبي طالب، وهواه مع العلويّين، وكذلك كان أبوه قبله، فحصل عند المأمون شيء من كلام أخيه من جهة عبد الله ابن طاهر، فتشوّش فكره وضاق صدره. فاستحضر شخصا وجعله في زيّ الزّهّاد، والنّسّاك الغزاة ودسّه إلى عبد الله بن طاهر وقال له:

امض إلى مصر، وخالط أهلها، وداخل كبراءها واستملهم إلى القاسم بن محمّد العلويّ، واذكر مناقبه، ثمّ بعد ذلك اجتمع ببعض بطانة عبد الله بن طاهر، ثمّ اجتمع بعبد الله بن طاهر بعد ذلك وادعه إلى القاسم بن محمّد العلويّ، واكشف باطنه، وابحث عن دفين نيّته وائتني بما تسمع. ففعل ذلك الرّجل ما أمره به المأمون، وتوجّه إلى مصر، ودعا جماعة من أهلها، ثمّ كتب ورقة لطيفة ودفعها إلى عبد الله بن طاهر وقت ركوبه، فلمّا نزل من الرّكوب وجلس في مجلسه، خرج الحاجب إليه وأدخله على عبد الله بن طاهر، وهو جالس وحده، فقال له: لقد فهمت ما قصدته، فهات ما عندك فقال: ولي الأمان؟ قال: نعم فأظهر له ما أراده ودعاه إلى القاسم بن محمّد. فقال له عبد الله، أو تنصفني فيما أقوله لك؟. قال: نعم قال: فهل يجب شكر النّاس بعضهم لبعض عند الإحسان والمنّة؟ قال: نعم، قال: فيجب عليّ وأنا في هذه الحالة الّتي تراها من الحكم والنّعمة، والولاية، ولي خاتم في المشرق، وخاتم في المغرب، وأمري فيما

(١) المصدر السابق، ص٦١.

بينهما مطاع، وقولي مقبول. ثمّ إنّي ألتفت يمينا وشمالا فأرى نعمة هذا الرّجل غامرة، وإحسانه فائضا عليّ، أفتدعونني إلى الكفر بهذه النّعمة، وتقول اغدر وجانب الوفاء، واللّه لو دعوتني إلى الجنّة عيانا لما غدرت ولما نكثت بيعته، وتركت الوفاء له. فسكت الرّجل فقال له عبد اللّه:

واللّه، ما أخاف إلّا على نفسك. فارحل من هذا البلد، فلمّا يئس الرّجل منه وكشف باطنه وسمع كلامه رجع إلى المأمون فأخبره بصورة الحال فسرّه ذلك، وزاد في إحسانه إليه، وضاعف إنعامه عليه(١).

الخصاصة لا تداوى بالمنى:

حكى الجاحظ: أن بعض الكتاب سأل عبد الله بن طاهر حاجة، فوعده قضاءها، وطالت أيام مطاله الانجاز، فكتب إليه: أما بعد، فقد كان وعدك تلقاني مكتسياً بشاشة عمرو بن مسعدة، وأرى إنجازه تأخر تأخر من خلع عليه عبوس أحمد بن أبي خالد! وكتب في آخره:

ولقد علمت وإن نصبت لي المنى ::: أنّ الخصاصة لا تداوى بالمنى
فلئن وفيت لأمضنّ بشكركم ::: ولئن أبيت لأحملنّ على القضا
النذل يلحف في السؤال ولا ترى ::: للحرّ إلحافاً ولو أكل الثرى

فأنجزها عبد الله بن طاهر(٢).

- لا ينبغي للملك أن يظلم وبه يدفع الظلم ولا يبخل ومنه يتوقع الجود. وكان يقول: من داخل الملك فليدخل أعمى وليخرج أخرس. ومن كلامه: سمن الكيس ونيل الذكر لا يجتمعان(١).

(١) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم، ٣٦٦٧/٨.
(٢) ابن الأبار، إعتاب الكتاب، ص١٨.
(١) الثعالبي، الإعجاز والإيجاز، ص٨٢.

معنى إذا سرقت فاسرق درة:

حدثنا الليث بن محمد بن الليث أبو نصر المروزي، قال: سمعت أبا نصر محمد بن يحيى بن طاهر الخزاعي المروزي، يقول: سمعت عبد الله بن منصور بن طلحة، يقول: سمعت عمي عبد الله بن طاهر، يقول: سألني المأمون أمير المؤمنين، فقال: يا أبا العباس! ما معنى إذا سرقت فاسرق درة، وإذا زنيت فازن بحرة، فقلت: أويخبرني أمير المؤمنين، قال: ليس هذا حثاً على الزنا، ولا على السرقة، ولكن إذا رمت الزنا من الحرة تعذر عليك، وإذا رمت السرقة للدرة تعذر عليك لأنها مصونة فلا تقدر عليها[1].

– أَمِيلُ مَعَ الذّمَامِ على ابْنِ عَمِّـي ::: وأَحْمِلُ لِلصَّدِيقِ علـى الّشـقِيق
وإنْ أَلْفَيْـتَني مَلِكـاً مُطَاعـاً ::: فإنَّكَ واجـدِي عَبْـدَ الصَّـدِيق
أُفَـرِّقُ بَـيْنَ مَعْـرُوفِي ومَنِّـى ::: وأَجْمَعُ بَـيْنَ مَـالي والحُقُـوقِ[2]

إنك لمنفسح الأمل!

وكتب عبد الله بن طاهر الخراساني إلى الحسن بن عمر التغلبي: أما بعد، فقد بلغني ما كان من قطع الفسقة الطريق ما بلغ، فلا الطريق تحمي، ولا اللصوص تكفي، ولا الرعية ترضي، وتطمع بعد هذا في الزيادة! إنك لمنفسح الأمل! وأيم الله لتكفيني من قبلك أو لأوجهن إليك رجالا لا تعرف مرة من جهم، ولا عدي من رهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله[1].

صفة المحبة:

أبو بكر الورَّاق قال: سأل المأمونُ عبد الله بنَ طاهر ذا الرِّياستين عن

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ١٧٩/١.
(٢) ابن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء، ٨/١.
(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١٤/١.

الحبّ ما هو؟ فقال: يا أمير المؤمنين إذا تقادحتْ جواهر النُّفوس المُتقاطعة بوَصْل المُشاكلة انبعثت منها لمْحَة نور تَسْتضيء بها بواطنُ الأعضاء، فتحرّك لإشراقها طَبائع الحَياة، فيتصوَّر من ذلك خَلْق حاضر للنَّفس، مُتَّصِل بخَواطِرها يُسمى الحب[1].

وبم يجب؟

قال عطّاف: بينا عبد الله بن طاهر مقبل من منزل عبيد الله بن السّريّ بمصر حتى إذا دنا من بابه إذا بشيخ قد قام إليه فناوله رقعةً كانت معه وقال: أصلح الله الأمير! نصيحة واجبة فافهمها، فأخذ الرقعة ودخل، فما هو إلا أن دخل وخرج الحاجب فقال: أين صاحب الرقعة؟ فقام إليه الشيخ فأخذ بيده فأدخله إلى عبد الله فقال: قد فهمت رقعتك هذه وما تنصحت به إلينا فانصفني في مناظرتك. فقال الرجل: ليقل الأمير ما أحب. قال: أخبرني هل يجب شكر الناس بعضهم لبعض؟ قال: نعم. قال: وبم يجب؟ قال: بإحسان المحسن وبفضل المنعم. قال: صدقت، جئت إليّ وأنا على هذه الحال التي ترى خاتمي بفرغانة وآخر ببرقة وحكمي ونهيي وأمري جائز فيما بين هذين الطرفين وقد جمع لي من العمل ما لم يجمع لأحد قطّ من ولاءة المشرق والمغرب والشرطة وما خرج من هذه الطبقة ولست ألتفت إلا إلى نعمة هؤلاء القوم ومنّتهم، لا أستفيء إلا بظلها ولا أعرف غيرهم سادة ولا كبراء ولا أئمة ولا خلفاء، فأردت أن أكفر هذه النعمة وأجحد هذا المعروف وأبايع رجلاً ما امتحن للتقوى ولا أفاد علماً للهدى ولا جرت له على مِلّي ولا ذِمّيّ يد سالفة ولا نعمة سائرة، افترى على الله جل ذكره، ولو فعلت هذا الذي دعوتني إليه كنت ترضى به في مكارم الأخلاق وشكر المنعمين قال: فسكت

(١) المصدر السابق، ١٩٢/١.

الرجل ولم يحر جواباً، وكان دعاه إلى بيعة ابن طباطبا. وقال بعضهم: إنه كان دسيس المأمون[١].

ويعطى بهذا ثلاثة آلاف:

ولمّا ولي طاهر بن عبد الله بن طاهر خراسان دخل الشعراء يهنئونه، وفيهم تمام بن أبي تمام فأنشده: السريع:

هَنَـــاك رَبُّ النـــاس هنَاكـــا :: ما من جزيـــل الملـــك أعطاكـــا
قرَّت بما أعطِيت يـــا ذَا الحِجَـــى :: والبـــأسِ والإنعـــامِ عَيْناكـــا
أشـــرقتِ الأرضُ بِمَـــا نِلْتَـــهُ ::: وأوْرَقَ العـــودُ بجَـــدْوَاكا

فاستضعف الجماعةُ شعره، وقالوا: يا بُعدَ ما بينه وبين أبيه فقال طاهر لبعض الشعراء: أجبه، فقال:

حيـــاك ربُّ النـــاس حيَّاكـــا :: إنَّ الـــذي أمَّلْـــتَ أخطاكـــا
فقلـــتَ قـــولاً فيـــه مـــا زانـــهُ :: ولـــو رأى مَـــدْحاً لآســـاكا
فهـــاك إن شـــئتَ بهـــا مدحـــةً ::: مثـــل الـــذي أعطيـــتَ أعْطاكـــا

فقال تمام: أعز الله الأمير، وإنَ الشّعْرَ بالشعر رباً، فاجعلْ بينهما صنجاً من الدراهم، حتى يحلّ لي ولك فضحك وقال: إلا يكن معه شعرُ أبيه، فمعه ظرف أبيه؛ أعطوه ثلاثة آلاف درهم فقال عبد الله بن إسحاق: لو لم يعط إلاّ لقول أبيه في الأمير أبي العباس - رحمه الله - يريد عبد الله بن طاهر:

يقولُ في قَـــوْمَسٍ صَـــحْبِي وقـــد أخذَتْ :: منا السُّرَى وخُطَا المَهْرِيةِ القُـــودِ
أمطلع الشمسِ تبغي أن تَـــؤُمَّ بنا؟ ::: فقلتُ: كلاّ، ولكن مَطلعَ الجـــودِ

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ٥٤/١.

فقال: ويعطى بهذا ثلاثة آلاف[١].

لا للكهانة والتظنّي:

وليّ عبدُ الله بن طاهر رجلاً بريدَ ما وراء النهر، فكتب إليه: أنَّ ها هنا قوماً من العرب قد تعصبُوا وتأشبوا، أظنُّ أمَرهم سيرتقي إلى ما هو أغلظ منه. فكتب إليه عبدُ الله: إنما بُعِثتَ للأخبار السابقة والحوادث الظاهرَة لا للكهانة والتظنّي[٢].

كأنهُما قُرْطان بينهما وجَهٌ حسنٌ:

كتب محمدُ بن عبد الملك إلى عبد الله بن طاهر: لو لم يْكن من فضل الشُكر إلا أنَّه يُرى بين نعمة مقصورة عليه أو زيادة منتظرة، فقال: عبدُ الله لكاتبه: كيف ترى. مَسْمع هاتين الكلمتين؟ فقال: كأنهُمَا قُرْطان بينهما وجَهٌ حسنٌ [٣].

القرآن أَجلُّ:

حدثنا محمد بن إسحاق النحوي قال، حدثنا أبو العيناء عن علي بن محمد الجرجاني قال: اجتمعنا بباب عبد الله بن طاهر من بين شاعر وزائرٍ، ومعنا أبو تمام، فحجبنا أياماً، فكتب إليه أبو تمام:

أَيُّهذا العزيزُ قد مَسَّنَا الضُّرُّ ::: جميعاً وَأَهْلَنَا أشْتَاتُ
ولنَا في الرِّحَال شيخٌ كبيرٌ ::: وَلَدَيْنا بضَاعَةٌ مُزْجَاةُ
قَلَّ طُلاَّبُهَا فأَضْحَتْ خَسَاراً ::: فَتِجَارَاتُنَا بِهَا تُرَّهَاتُ
فاحْتَسِبْ أَجْرَنَا وَأَوْفِ لنَا الكَيْلَ ::: وَصَدِّقْ فإنَّنَا أَمْوَاتْ

فضحك عبد الله لما قرأ الشعر، وقال: قولوا لأبي تمام لا تعاود مثل هذا الشعر، فإن القرآن أجل من أن يستعار شيء من ألفاظه للشعر،

(١) القيرواني، زهر الأداب وثمر الألباب، ٣٤٤/١.
(٢) الآبي، نثر الدر، ٥٧/٥.
(٣) الآبي، نثر الدر، ٨٢/٥.

قال: ووجد عليه.

قال محمد بن إسحاق الختلي، وكان يتوكل لعبد الله بن طاهر: لما قدم أبو تمامٍ على عبد الله بن طاهر أمر له بشيءٍ لم يرضه ففرقه، فغضب عليه لاستقلاله ما أعطاه، وتفريقه إياه، فشكا أبو تمام ذلك إلى أبي العميثل شاعر آل طاهر، وأخص الناس بهم، فدخل على عبد الله بن طاهر فقال له: أيها الأمير، أتغضب على من حمل إليك أمله من العراق، وكد فيك جسمه وفكره، ومن يقول فيك:

يقُولُ في قُومَسٍ صَحْبِي وَقدْ أَخَذَتْ ::: مِنَّا السُّرَى وخُطَى المَهْرِيَّةِ القُودِ
أَمَطْلِعَ الشّمْسِ تَنْوِي أَنْ تَؤُمَّ بنَا؟ ::: فَقُلتُ: كلاّ، ولكنْ مَطْلِعَ الجُودِ

قال: فدعا به ونادمه يومه ذلك، وخلع عليه، ووهب له ألف دينار وخاتما كان في يده له قدر(١).

عليل الخط:

ونظر عبد الله بن طاهر إلى خط بعض كتابه فلم يرضه، فقال: " نحوا هذا عن مرتبة الديوان فإنه عليل الخط، ولا يؤمن أن يعدي غيره ". وقالوا: " رداءة الخط إحدى الزمانتين، كما أن حسنه إحدى البلاغتين " (٢).

أحسن الكلام؟

قال عبد الله بن طاهر: عجبني أمير المؤمنين من رؤيا رآها، فسألته عنها فذكر أنه رأى في منامه كأن رجلاً جلس مجلس الحكماء فقلت له: من أنت؟ فقال: أنا أرسطاطاليس الحكيم، فقلت له: أيها الحكيم، ما أحسن الكلام؟ قال: ما يستقيم في الرأي، فقلت: ثم ماذا؟ قال: ما

(١) الصولي، أخبار أبي تمام، ص٢٩ - ٣٠.
(٢) الصولي، أدب الكتاب، ص١٠.

استحسنه السامع، قلت: ثم ماذا؟ قال: ما لا تخشى عاقبته. ثم قال المأمون: لو كان حياً لما كان يتكلم بأحسن مما تكلم به فيما رأيته[١].

كيف كنت بعدي؟

صافح أبو العميثل عبد الله بن طاهر عند قدومه من سفر فقبل يده، فقال له عبد الله: خدش شاربك كفي، فقال: شوك القنفذ لا يضر برثن الأسد. فتبسم عبد الله وقال: كيف كنت بعدي؟ قال: إليك مشتاقاً، وعلى الزمان عاتباً، ومن الناس مستوحشاً؛ فأما الشوق إليك فلفضلك، وأما العتب على الزمان فلمنعه منك، وأما الاستيحاش من الناس فإني لا أراهم بعدك. فاحتبسه، فلما حضر الشراب سقاه بيده فقال:

نادمت حراً كأن البدر غرته ::: معظماً سيداً قد أحرز المهلا
فعلني برحيق الراح راحته ::: فملت سكراً للذي فعلا[٢]

ومن ابنك؟

قال إبراهيم بن غسان: خرجنا يوماً مع عبد الله بن طاهر إلى الميدان، فاعترضته امرأة برزة، فقالت له: أيها الأمير، كادي وكاسبي وواحدي من الدنيا ابن لي في حبس الأمير منذ أربع سنين، فإن رأى الأمير أن يمن به على ضعفي، فعل. قال لها: ومن ابنك؟ قالت: إبراهيم بن الحكم البخاري؛ قال لها: هيهات! ما ترينه إلا على سريره، وضرب دابته. فقالت بالفارسية: فأين الله؟ فسمعها فقال: يا إبراهيم، ما قالت العجوز؟ قلت: ما أدري أيها الأمير. قال: ولكني أدري، أحضروها؛ فأحضرت بين يديه وإن فرائصها لترعد حتى أوقفت بين يديه. فقال: كيف قلت؟ قالت: ما قلت شيئاً، قال: بلى،

(١) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ١٧٩/١.
(٢) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ٤٧٠/٢.

قولي وليس عليك بأس. قالت: قلت فأين الله؟ قال: صدقت والله، علي بابنها. قال: فكأني أنظر إليه وقد جيء به على أعناق الرجال مكبلاً في الحديد. فقال: أطلقوا عنه. فأطلق! وقال لها: خذيه. ثم التفت إلى الشعراني فقال: انظر كم لزمها من النفقة منذ حبس ابنها فأضعفه لها، وأعطها ما تتحمل به إلى بخاري(١).

عجلوها له:

أبو العميثل دخل على عبد الله بن طاهر في يوم من أيام الخريف وعليه قباء خز فقال: يا أبا العميثل، ما أعددت للشتاء؟ قال: خلع الأمير. فقال: عجلوها له(٢).

ربحنا عليك وخسرت علينا:

ويروى عن أبي السمط أنه قال: دخلت على الأمير عبد الله بن طاهر، فقال لي: إني بت البارحة قلقاً أرقاً بتذكري ذا اليمينين، فارثه لي في مقامك هذا بأبيات تجعل لي لذكره طريقاً سهلاً. فوقفت ساعة، ثم قلت:

إنّ المكارمَ إذ تولى طاهرٌ ::: قطعَ الزمانُ يمينها وشمالها
إنَّ المنايا لو يبارزُ طاهراً ::: لاقتْ، بوقعِ سيوفهِ، آجالها
أرسى عمادَ خلافةٍ من هاشم ::: ورمى عمادَ خلافةٍ، فأزالها
بكتِ الأسنةَ طاهراً، لما رأت ::: روى النجيعُ بسيفهِ أهالها
ليت المنون تجانفت من طاهرٍ ::: ولوتْ بذورة من تشاجى لها
ما كنتُ، لو سلمتْ يمينا طاهر ::: أرزا، ولا أسلُ الحواث ما لها

فأمر لي بخمسة آلاف درهم، وقال: ربحنا عليك وخسرت علينا. وثم

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية،١٦٣/٣.
(٢) الثعالبي، اللطف واللطائف، ص٩.

اعطاه في اليوم الثاني مثلها، ثم في اليوم الثالث(١).

– سحابُ الصبى عنا جميعاً تقشعا ::: فأورقَ عودُ الحلم فينـــا، وأينعـــا
خليليَ قد بانَ الشبابُ، وأصبحتْ ::: ديارُ التصـــابي واللــذاذةِ بلقعـــا
عنيتُ زمانـــاً بالشـــباب، ولم أزلْ ::: بجدتـــهِ، قبـــل المشـــيب، ممتعـــا
فلما تفرقنا كـــأنَّ الـــذي مضـــى ::: من العيشِ لم ننعم بـــه ليلـــةً معـــا
وعاذلـــةٍ هبـــت بليـــلٍ تلـــومني ::: على أربعٍ، أكرمْ بما هـــنَّ أربعـــا
رأتني أهينُ المالَ في طلـــبِ العلـــى ::: وأبذلهُ للضـــيف جـــاءَ مروعـــا
وأغضي على أشياءَ، ممـــا تـــريبني ::: ولو شئتُ غصَّ المرءُ بالماءِ مجرعـــا
وأركبُ حدَّ السيفِ في حومةِ الوغى ::: إذا لم أجدْ إلا إلى السيفِ مفزعـــا
وأسحبُ ذيلي في الرخـــاء بخـــردٍ ::: حسانٍ، كنظمِ الدرِّ لمـــا ترصـــعا
فيوماً تـــراني في شـــباب أجرهـــا ::: ويوماً تـــراني في الحديـــد مقنعـــا
أعاذلَ من لم يبذلِ المالَ فيِّ العلـــى ::: يكن للتي يســـمو إليهـــا مطيعـــا
فلستُ ببدعٍ في سموي إلى العلـــى ::: ورفضي دنيـــاتِ الأمـــور ترفعـــا
أبي رجعَ الإســـلامَ غضـــاً لأهلـــهِ ::: وقد مالَ ركناهُ، بهم، وتضعضـــعا
وآبَ علـــى مخلوعهـــا بمصـــمم ::: فطارَ من الـــدنيا جنانـــاً مفزعـــا
عشيةَ ألقى الموتَ بالخلـــدِ بركـــه ::: ولله يوم كانَ مـــا كـــانَ أشـــنعا
وكان حســـينٌ لا كفـــاء لفضـــلهِ ::: وجدُّ أبي كان الـــرئيسَ المشـــيعا
أولئكَ أصـــلٌ، لم تخنـــهُ قرومـــهُ ::: ولم يلـــدوا إلا همامـــاً سميـــدعا
أعاذلَ من لم يغضِ عيناً على قذىً ::: يعشْ واحداً في الناسِ، حتى يودعا

ومن مراثي عبد الله قوله يرثي أخاه:

منْ ذا يســـاعدني علـــى الـــدهرِ ::: أمْ مـــنْ يعـــينُ بعـــبرةٍ تجـــري
دهـــرٌ غـــدا مـــن غـــير مـــأثرةٍ ::: عنـــدي، ولا نبـــلٍ، ولا وتـــرِ
إلاّ تكـــنْ تـــرةٌ لـــديكَ لـــه ::: فلقـــد رمـــاكَ بقاصـــم الظهـــرِ
فغدا علـــى كهـــفِ الأنـــامِ، إذا ::: ما ضـــنَّ عنـــا الغيـــثُ بـــالقطرِ

(١) النشابي الإربلي، المذاكرة في ألقاب الشعراء، ص١٨.

عمـــتْ مصـــيبتهُ، ولا جلـــلٌ ::: ما عـــمَّ أهـــلَ البـــدوِ والحضـــرِ
ولقد يكـــونُ وحولـــهُ عصـــبٌ ::: كالليـــثِ وســـطَ مـــزاعمٍ غـــبرِ
لا يســـأمونَ، ولا يـــرونَ لهـــم ::: حصناً، سوى الهنـــديّ، والصـــبرِ
فمضـــــى وقلـــــبي لـــــه ألمٌ ::: متوقـــــدٌ كتوقـــــد الجمـــــرِ
عجبـــاً لأرضٍ كـــان يســـكنها ::: ولقـــد يضـــيقُ بجـــوده الغمـــرِ
حـــتى إذا أودى بـــه حـــدثٌ ::: وارتـــهُ عنـــا ظلمـــة القـــبرِ
لا كالحســـين نمـــا لصـــاحبهِ ::: وشجى لأهـــلِ النكـــثِ والغـــدرِ
يا ابن الجحاجحةِ الـــذين مضـــوا ::: فضلوا الأنـــامَ بأحســـنِ الـــذكرِ
الـــواهبينَ طريـــفَ مـــا لهـــم ::: وتليـــدهُ في العســـرِ واليســـرِ
يسقونَ ضيفهمُ الحليـــبَ مـــن ال ::: لأدمِ الغـــزارِ، مـــواترَ الـــدرِّ
حـــتى إذا ضـــنت بـــدرتها ::: درتْ لضـــيفهمُ مـــن النحـــرِ
وهمُ الملوكُ على الأنـــامِ، وهـــم ::: أهلُ القبـــابِ، وساســـةُ الأمـــرِ
فورثت صالحَ ما حـــووا، ولقـــد ::: زينـــتُ ذاكَ بأطيـــب الخـــبرِ(١)

وقد ماتت الجارية:

قال النشابي الإربلي: وقد بلغني أن بعض الجواري كانت تهوى سيدها، فباعها، فاشتد وجدها عليه، فقالت:

نأتْ دارُ من أهوى فما أنا صـــانعُ ::: أمصطبرٌ للـــبين، أم أنـــا جـــازعُ
كفى حزنـــاً أني تحنيـــتُ عامـــداً ::: ولم أخشَ فجعَ البين، والبينُ فاجعُ
فـــإن تمنعـــوني أنْ أبـــوحَ بحبـــهِ ::: فليسَ لقلبي من جوى البين مـــانعُ

فلما سمع المشتري شعرها ردها إلى مولاها. وبلغ ذلك عبد الله بن طاهر، فكتب إلى نائبه أبي القاسم، يأمره أن يتعرف خبرها ويمتحنها. فركب أبو القاسم إلى مولاها، فأقرأه الكتاب، فأخرج إليه الجارية، فامتحنها عنتاً، وقال:

(١) النشابي الإربلي، المذاكرة في ألقاب الشعراء، ص٣٦ - ٣٧.

بـــديعُ صـــدٍّ، قريـــبُ هجـــرٍ ::: جعلتـــــهُ منـــــه لي مـــــلاذا

فقالت:

فعـــــاتبوهُ، فقـــــال كـــــبراً ::: إنْ ماتَ عشـــقاً يكـــونُ مـــاذا؟

فقال:

قـــد مـــاتَ مـــن قبلـــهِ جميـــلٌ ::: وعـــــروةٌ مـــاتَ قبـــلَ هـــذا

فقالت:

فكلـــهمْ ذواقَ كـــأسَ حتـــفٍ ::: والحـــبُّ، يـــا عـــاذلي، علـــى ذا

فكتب نائب عبد الله بن طاهر بما شاهد، فأمره أن يشتريها. فورد الكتاب، وقد ماتت الجارية(١).

العجم والشعر:

ودخل الضبي على عبد الله بن طاهر، فأنشد شعراً حسناً وبحضرته أعرابي؛ فقال الأعرابي: ممن تكون؟ قال: من العجم. قال: وما للعجم والشعر وإنما الشعر للعرب، وكل من قاله من العجم فإنما نزا على أمه أعرابي. فقال: وكذلك من لا يقول الشعر منكم، فإنما نزا على أمه أعجمي إذاً؟ فأفحمه(٢).

لكثرة ثنائي عليك بالباطل:

وقال عبد الله بن طاهر لرجل ما بال شدقك معوجاً؟ قال: عقوبة عاقبني الله بها لكثرة ثنائي عليك بالباطل(٣).

من كلامه:

- لا تمنعوا العلم طالبه، فإنه أوحش جانباً من أن يستقر إلا عند

---

(١) النشابي الإربلي، المذاكرة في ألقاب الشعراء، ص٦٣.
(٢) الحُصري، جمع الجواهر في الملح والنوادر، ص٤٥.
(٣) الوطواط، غرر الخصائص الواضحة، ص٢٤٠.

أهله(١).

- المال غاد ورائح، والسلطان ظل زائل والإخوان كنوز وافرة(٢).

- إن لكل شيء حياة وموتا فمما يحيي اللب محادثة الألباء ويحيي الود محادثة الأوداء ويحي العز مضافرة الأعزاء ويحي الذل مظاهرة الأذلاء ويحيي الشجاعة مصاحبة الشجعاء ويحيي الكرم مواصلة الكرماء ويحيي الحياء مكاثرة أهل الحياء ويحيي اللؤم معاشرة اللئام (٣).

- تذاكر ناس من أهل الفضل كتمان السر في مجلس عبد الله بن طاهر فقال عبد الله بن طاهر:

ومستودعي سرا تضمنت سره ::: فأودعته في مستقر الحشا قبرا

فقال ابنه عبيد الله:

وما السر في قلبي كثاو بقبره ::: لأني أرى المقبور ينتظر النشرا
ولكنني أخفيه حتى كأنني من الدهر ::: يوما ما أحطت به خبرا (٤)

- من سعى رعى، ومن لزم المنام رأى الأحلام(٥).

- المال غاد ورائح والسلطان ظل زائل والإخوان كنوز وافرة(٦)

– ما حكّ ظهري مثل ظفري، ولأن أخطئ مع الاستبداد ألف خطأ أحب إليّ من أن أستشير، فألحظ بعين النقص والحاجة (١).

(١) مختصر تاريخ دمشق، ٤ /٢٢٦.
(٢) المصدر السابق، ٤ /٢٢٧.
(٣) أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك، ص١٣.
(٤) المصدر السابق، ص٢٨.
(٥) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ١٣٣/١.
(٦) الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ٢٦٥/١.
(١) عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي، تحسين القبيح وتقبيح الحسن،

- آفة الشاعر البخل لأنه يقول خمسين بيتاً وفيها بيت رديء، فلا يحتمل قلبه أن يسقطه[١].

- ووقع عبد الله بن طاهر في قصة ساع: سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين[٢].

- أهدى عبد الله بن السري إلى عبد الله بن طاهر لما ولاه مصر مائة وصيفة، مع كل واحدة بدرة، وبعثها إليه ليلاً فردها وكتب إليه: لو قبلت هديتك ليلاً قبلتها نهاراً، وما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون[٣].

- وما أحسن ما قال عبد الله بن طاهر في صفة الدنيا حين كتب إلى المعتصم: أما بعد، فإن الدنيا قد عاينت نفسها بما أبدت من تصرفها، وأنبأت عن مساوئها بما أظهرت من مصارع أهلها، ودلت على عوراتها بعين حالاتها، وقطعت ألسنة العز فيها عين زوالها. وشهد إخلاق شؤونها على فنائها. فلم يبق لمرتاب في أمرها ريب، ولا لناظر في عواقبها شك، بل عرفها جل من عرفها معرفة يقين، وكشفوها أبرز تكشف، ثم أضلتهم الأهواء عن منافع العلم، ودلتهم الآمال بغرور، فلجوا في غمرات العجز، فسبحوا في بحورها موقنين بالهلكة، ورتعوا في عراضها عارفين بالخدعة، وكان يقينها شكاً، وعلمهم جهلاً، لا بالعلم انتفعوا، ولا بما عاينوا اعتبروا، قلوبهم عالمة جاهلة، وأبدانهم شاهدة غائبة، حتى طرقتهم المنية، فأعجلتهم عن الأمنية، فبعثتهم القيامة. وأقدمتهم الندامة، وكذلك الأمل: ينسئ

تحقيق: نبيل عبد الرحمن حياوي، دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت / لبنان -، ص٥٧.

(١) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ٣٦/١.
(٢) المصدر السابق، ١٧٩/١.
(٣) المصدر السابق، ١٨٨/١.

طويلاً ويأخذ وشيكا، فانتفع امرؤ بعلمه وجاهد هواه أن يضله، وخاف أمله أن يغره، وقوي يقينه على العمل، ونفي عنه الشك بقطع الأمل، فإن الهوى والأمل إذا استضعفا اليقين صرعاه، وإذا تعاونا على ذي غفلة خدعاه، فصريعهما لا ينهض سالماً وخديعهما لا يزال نادماً، والقوي من قوي عليهما، والحارس من احترس منهما؛ ألبسنا الله وإياكم جنة الحذر، ووقانا وإياكم سوء القضاء والقدر[١].

- قال عبد الله بن طاهر في علته: لم يبق علي من لباس الزمان إلا العلة والخلة، وأشدهما علي أهونهما على الناس، لأن ألم جسمي بالأوجاع أهون علي من ألم قلبي بالحق المضاع[٢].

- عتب عبد الله بن طاهر على كاتب له فنحاه فرفعَ إليه رقةً يعتذرُ فها، فوقع عبد الله بين سطورها: قلة نظرك لنفسك حرمك سني المنزلة، وغفلتك عن حظّك حطتك عن أعلى الدرجة، وجهلك موضع النعمة، أحل بك الغير والنقمة، وعماك عن سبيل الجعة، أسلكك طريق المشقة، حتى صرت من قوة الأمل معتاضاً شدة الوجل، ومن رخاء العيش معتقباً يأس الأبد، وحتى ركبت مطية المخافة بعد مجلس الأمن والكرامة، وصرت موضعاً للرحمة بعد أن كنت موضع الغبطة. على أني أرى أملك أمريك بك أدعاهما إلى المكروه إليك، وأوسع حاليك لديك أضعفهما متنفساً عليك، كقول القائل:

إذا ما بدأت امرءاً جاهلاً ::: ببر فقصر عن حملهِ
ولم تلقه قابلاً للجميل ::: ولا عرف العز من ذلهِ

(١) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ٢٢١/١.
(٢) المصدر السابق، ٣٣٨/١.

فسمه الهــوان فــإن الهــوان داء ::: لــذي الجهــل مــن جهلــهِ[١]

- لا ينبغـي للملـك أن يظلـم وبـه يسـتدفع الظلـم ولا أن يعجـل ومنـه تلتمس الأناة ولا أن يبخل ومنـه يتوقـع الجـود وقـالوا ينبغـي للملـك أن يكون سـخياً لا يبلـغ التبـذير وحـافظـاً لا يبلـغ البخـل وشـجاعاً لا يبلـغ التهور ومحترساً لا يبلغ الجبن وقائلاً لا يبلـغ الهـذر وصـموتاً لا يبلـغ الغي وحليماً لا يبلغ العجز[٢].

ومن شعره:

هو القائل للمعتصم:

إن التي أمطرت بالند صوب ردى ::: باتت تـألق بالقـاطول للـروم.
إن الفتوح علـى قـدر الملـوك ::: وهمات الولاة وإقـدام المقـاديم.

وله:

يبيت ضجيعي السيف طوراً وتارة ::: تعض بهامات الرجـال مضـاربه.
أخو ثقة أرضاه في الروع صـاحباً ::: وفوق رضاه أنني أنـا صـاحبه.
لـيس في كـل سـاعة وثـوان ::: تتـهيأ صـنائع الإحسـان
فـإذا أمكنـت تقـدمت فيهـا ::: حـذراً مـن تعـذر الإمكـان
نبهتـه وظـلام الليـل منسـدل ::: بين الرياض دفينـاً في الريـاحين
فقلت: خذ، قال: كفي لا تطاوعني ::: فقلت: قم، قال: رجلي لا تواتيني
إني غفلت عن الشـافي فصـيرني ::: كمـا سـليب العقـل والـدين

- اغتفر زلتي لتحرز فضل الشكر منّي ولا يفوتك أجري

لا تكلـني إلى التوسـل بالعـذ ::: ر لعلّي أن لا أقـوم بعـذري [٣]
– لَعَمْرُكَ مَا بِالْعَقْلِ يُكتَسَبُ الغنى ::: ولا باكْتِساب المالِ يُكتَسبُ العَقْلُ

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية،٢/٩٧.
(٢) الوطواط، غرر الخصائص الواضحة، ص٩.
(٣) وفيات الأعيان، ٣ /٨٦.

وقال عبد الله بن طاهر

– أقــام ببلــدة ورحلــت عنــه ::: كلانــا بعــد صــاحبه غريــب
أقل النــاس في الــدنيا ســرورا ::: محب قد نــأى عنــه الحبيــب[١]
أليس إلى ذا صار آخــر أمرنــا ::: فلا كانت الدنيا القليل ســرورها
فلا تعجبي يا نفــس ممــا ترينــه ::: فكل أمور الناس هذا مصــيرها[٢]
إنَّ ذا السنّ يلقــى حتفــه أبــداً ::: ممثلاً بــين عينيــه مــن الوجــل
وذو الشباب لــه شــأوٌ يماطلــه ::: فلا يزالُ بعيــد الهــمّ والأمــلِ[٣]

- ولعبد الله بن طاهر في السيف:

أخو ثِقةٍ أرضاهُ في الرّوعِ صــاحِباً ::: وفوقَ رضاهُ أنّني أنــا صــاحِبُهْ[٤]
وجــــه يــــدلُّ النــــاظرين ::: عليــــه في اللّيــــلِ البَهــــيمْ
فكأنــــــــه روحُ الحَيــــــــا ::: ةِ يَهْــبُّ مِسْــكيّ النســيمْ
في خــــــدِّه ورد الجَمَــــــا ::: ل يُعَــلُّ مــن مــاء النعــيمْ
ســقْمُ الصّــحيح المُســتَقِلِّ ::: وَصــحة الرَجُــلِ السَّــقيم[٥]

وأهدى عبد الله بن طاهر إلى المأمون فرساً وكتب إليه: قد بعثتُ إلى أمير المؤمنين بفرسٍ يلحق الأرانب في الصَّعْداء، ويجاوِزُ الظِّباءَ في الاستواء، ويسبق في الحَدور جَرْيَ الماء، فهو كما قال تأبّط شرّاً:

ويَسْبقُ وَفْدَ الرِّيح من حيث يَنتحِي ::: بمُنْخَرِق مــن شَــدِهِ المُتَــدارِكِ[٦]
نفســك قــد أعطيتــها مناهــا ::: فــاغرةً نحــو مناهــا فاهــا[٧]
وكل محــبٍ جفــا مــن يحــب ::: جفتــه الســـلامة والعافيــة

(١) الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ٣٩٤/٢.
(٢) المصدر السابق، ٦٠٠/٢.
(٣) الثعالبي، المنتحل، ص٢٩.
(٤) الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص٦٤.
(٥) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ١٧٧/١.
(٦) القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب، ٢٨٢/١.
(٧) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ٣/١.

أيـــــام لم تلـــــج النـــــوى ::: بـــين العصـــا ولحائهـــا[١]
ألم تر أن الدهر يهــدم مــا بــنى ::: ويأخذ ما أعطى ويفسد ما أسدى
فمن سره إلا يــرى مــا يســوؤه ::: فلا يتخذ شيئاً يخاف لــه فقــدا[٢]
طلبت أخاً محضاً صحيحاً مســلماً ::: نقياً من الآفات في كــل موســم
لأمنحه ودي فلــم أجــد الــذي ::: طلبت، ومن لي بالصحيح المســلم
فلما بــدا لي أنــني غــير مبتلــى ::: من الناس إلا بــالمريض المســقم
صبرت ومن يصبر يجد غب ضــره ::: ألذ وأشهى من جنى النحل في الفم
ومن لم يطب نفساً ويستبق صاحباً ::: ويغفر لأهل الود يصرم ويصرم[٣]
– الـــــبرقُ في مُبْتَسَـــــمِهْ ::: والخمـــــــرُ في مُلْتَثَمِـــــــهْ
ووجهُـــــــهُ في شَـــــــعْرِهِ ::: كقَمَـــــــر في ظُلَمِـــــــهْ
نــــامَ رَقـــيبي سَـــكَراً ::: يَحرُســـــني في حُلُمِـــــهْ
وبـــاتَ مـــن أهـــوى معـــي ::: يَـــزُقُّني ريـــقَ فَمِـــهْ[٤]
نُزولُ الهوى سقمٌ على المْرءِ فادِحُ ::: وفي بَدني للحُـبِّ داعٍ وصـائحٌ
يَرى أَن لي ذنباً إذا قُلـت مُنْبِئـاً ::: لِمُنْ عادَني في الحُـب: إني صـالحِ
إذا المْرءُ لم تَقرحْ بطــون جفونــه ::: فما قَرِحَتْ في الجِسْمِ مِنهُ الجَوانحُ
وما الشاحجاتُ البارحاتُ نــوائحٌ ::: ولكنَّ أَعضاءَ المُحــبِّ نــوائِح[٥]
خليلــيَّ للبغضــاء حــالٌ مبينــةٌ ::: وللحبِّ آيــاتٌ تــرى ومعــارفُ
فما تنكرُ العينانِ فالقلــبُ منكــرٌ ::: وما تعرفُ العينانِ فالقلبُ عارفُ[٦]
صبٌّ كئيــبٌ يشــتكيكَ الهــوى ::: كَما اشتَكى خصرُكَ منْ ردفِكــا
لِســانُه عــنْ وصــفِ أســقامِهِ ::: أكلُّ منهُ عن مــدى وصــفِكا[١]

(١) المصدر السابق، ٣٨٠/١.
(٢) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية،٤٦٣/٢.
(٣) أبو حيان التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٨٥.
(٤) السري الرفاء، المحب والمحبوب و المشموم و المشروب، ص٣٩.
(٥) المصدر السابق، ص٤٨.
(٦) السري الرفاء، المحب والمحبوب و المشموم و المشروب، ص٥٨.
(١) المصدر السابق، ص٦٤.

ثـلاثَ عيـون مـن النَّـرجسِ	:::	علـى قـائمٍ أخضـر أملـسِ
كياقوتـةٍ بـين درٍّ عـلا	:::	زبرجـدةً مُنيـة الأَنفـسِ
يـذكّرني ريحُهـنَّ الحـبي	:::	بَ فيُنغصُـني لـذَّةَ المجلـسِ
وأحسنُ مـا في الوجـوهِ العيـو	:::	نُ وأشبهُ شيءٍ مـن النَّـرجسِ(١)
اسـقِني سـبعاً تِباعـاً	:::	وأدِرْهُـنَّ سِـراعا
قهـوةٌ يحسـبُها النـا	:::	ظـرُ إنْ صُـبّتْ شُـعاعا
يـا خليلـيَّ احسُـواها	:::	واكشـفا عنـها القِناعـا
بَكِّـرَ اللائـمُ يلحـا	:::	نِي فـأغوى مـا اسـتطاعا (٢)
– اشـتَعَلَ الـرَّأسُ فأخفيتُـهُ	:::	وَكَـلَّ مِقْراضِـي فأَعْفَيْتُـهُ
وكلَّمـا حاولـتُ قَصّـاً لـه	:::	وقلـتُ في نفسـي أفنيتُـهُ
عـاوَدَني مِـن غـدِهِ طالِعـاً	:::	كـأنَّني بـالأمسِ ربَّيتُـهُ
أَرومُ مـا ليسـتْ لـه حِيلـةٌ	:::	أعيـانيَ الشَّـيْبُ فخلَّيتُـهُ(٣)
يبيت ضجيعي السيف طوراً وتارة	:::	تعض بهامات الرجـال مضـاربه
أخو ثقة أرضاه في الحرب صـاحباً	:::	وفوق رضاه أنـني أنـا صـاحبه
وليس أخو العليـاء إلا فـتى لـه	:::	بها كلف مـا تسـتقر ركائبـه(٤)
إذا ما صديقي ضرّني سوء فعلـه	:::	ولم يـك عمـا سـاءني بمفيـق
صبرت على أشياء منـه تـريبني	:::	مخافة أن أبقـى بغـير صـديق(٥)
أميلُ مَعَ الزمانِ على ابـن عَمِّـي	:::	وأقضي للصديقِ علـى الشـقيقِ
وأغضي للصديقِ علـى المسـاوي	:::	مخافةَ أن أصيرَ بلا صديقِ (١)

(١) المصدر السابق، ص٨٤.
(٢) المصدر السابق، ص١٤٢.
(٣) العبدلكاني الزوزني، حماسة الظرفاء، ص٢.
(٤) الزمخشري، ربيع الأبرار، ٣٣/١.
(٥) الوطواط، غرر الخصائص الواضحة، ص١٠٩.
(١) الثعالبي، من غاب عنه المطرب، ص٢٣.

خطب عبد الله بن طاهر

خطب عبد الله بن طاهر الناس، وقد تيسر لقتال الخوارج فقال: إنكم فئة الله المجاهدون عن حقه الذابون عن دينه، الذائدون عن محارمة، الداعون إلى ما أمر به من الاعتصام بحبله والطاعة لولاة أمره الذين جعلهم رعاة الدين ونظام المسلمين، فاستنجزوا موعود الله ونصره بمجاهدة عدوه وأهل معصيته الذين أشرو وتمردوا وشقوا العصا وفارقوا الجماعة، ومرقوا من الدين، وسعوا في الأرض فسادا، فإنه يقول تبارك وتعالى:{إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ} [محمد: ٧]، فليكن الصبر معقلكم الذي إليه تلجؤون وعدتكم التي بها تستظهرون، فإنه الوزر المنيع الذى دلكم الله عليه والجنة الحصينة التي أمركم الله بلباسها غضوا أبصاركم، واخفتوا أصواتكم في مصافكم، وامضوا قدما على بصائركم فارغين إلى ذكر الله والاستعانة به كما أمركم الله فإنه يقول:{إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ } [الأنفال: ٤٥]، أيدكم الله بعز الصبر ووليكم بالحياطة والنصر [(١)].

* * *

(١) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ١٤٤/٣ - ١٤٥.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الحمد لله رب العالمين حمداً طيباً مباركاً فيه، كما يحب ربُّنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه وعزِّ جلاله، غير مَكْفِيٍّ ولا مكفورٍ ولا مودَّع ولا مستغني عنه ربُّنا، ونسأله أن يوزعنا شكر نعمته، وأن يوفّقنا لأداء حقه، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته،وأن يرزقنا الشهادة في سبيله، وأن يجعل ما قصدنا له في هذا الكتاب وفي جميع أقوالنا وأفعالنا خالصاً لوجهه الكريم، ونصيحة لعباده. فيا أيها القارئ له، لك غُنْمُه وعلى مؤلفه غُرْمُه، لك ثمرتُه وعليه تَبِعَتُه، فما وجدتَ فيه من صوابٍ وحقٍ فاقبله ولا تلتفت إلى قائله، بل انظر إلى ما قال لا إلى من قال: وقد ذمَّ الله تعالى من يَرُدَّ الحقَّ إذا جاء به مَن يبغضه، ويقبله إذا قاله من يحبه: فهذا خُلُقُ الأمة الغضبية أي: اليهود. فقد قال ابن القيم رحمه الله: " اقبل الحق ممن قاله وإن كان بغيضاً، ورُدَّ الباطل على من قاله وإن كان حبيباً ".

وقرر أنه لا يردُّ كل قول من أخطأ جملة، بل لا بد من تمييز الحق من الباطل، فقال: " فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة، وأهدرت محاسنه، لفسدت العلوم والصناعات ".

وقال أيضًا: ".. فإن كل طائفة معها حق وباطل، فالواجب موافقتهم فيما قالوه من الحق، ورد ما قالوه من الباطل، ومن فتح الله له بهذه الطريق فقد فتح له من العلم والدين كل باب، ويسر عليه من الأسباب " (١).

وما وجد القارئ فيه من خطأ فإن قائله لم يألُ جهد الإصابة، ويأبى

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ص٣٧٨.

الله إلا أن يتفرد بالكمال، كما قيل:

والنَّقْصُ في أصلِ الطبيعــةِ كــامنٌ ::: فَبَنُو الطبيعةِ نَقْصُــهم لا يُجْحَــدُ

وكيف يُعْصَمُ من الخطأ من خُلق ظلوماً جهولاً، ولكن من عُدَّت غلطاتُه أقربُ إلى الصوابِ ممن عُدَّت إصاباتُه، وعلى المتكلم في هذا الباب وغيره أن يكون مصدر كلامه عن العلم بالحق، وغايته النصيحة لله، ولكتابه، ولرسوله، ولإخوانه المسلمين، وإن جعلَ الحقَ تبعاً للهوى: فسَدَ القلبُ والعملُ والحالُ والطريقُ... والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على خاتم المرسلين محمدٍ وعلى آله أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

الفقير إلي عفو ربه ومغفرته ورضوانه

رجب محمود إبراهيم بخيت

* * *

المصادر والمراجع

- الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع.
- أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، شعب الإيمان، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.
- خليفة بن خياط أبو عمر الليثي العصفري، الطبقات، تحقيق: د. أكرم ضياء العمري، الناشر: دار طيبة - الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٢ - ١٩٨٢.
- محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو عبدالله البخاري الجعفي، التاريخ الكبير، تحقيق: السيد هاشم الندوي،دار الفكر.
- الإتليدي، إعلام الناس بما وقع للبرامكة.
- أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي [ت: ٢٧٧هـ]، المعرفة والتاريخ، تحقيق د أكرم العُمَري، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨١.
- أبو إسحاق الشيرازي، طبقات الفقهاء، هذبهُ: محمد بن جلال الدين المكرم (ابن منظور)، المحقق: إحسان عباس، دار الرائد العربي، ١٩٧٠، بيروت - لبنان.
- شمس الدين أبوعبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ).

١- تذكرة الحفاظ، الناشر: صحح عن النسخة القديمة المحفوظة في مكتبة الحرم المكي تحت اعانة وزارة معارف الحكومة العالية الهندية دار احياء التراث العربي.

٢- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري.دار الكتاب العربي.لبنان/ بيروت. الطبعة: الأولى.١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٣- سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة بيروت - الطبعة التاسعة ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.

٤- العبر في خبر من غبر، المحقق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية - بيروت.

٥- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت - لبنان.

- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، طبعة جديدة محققة الطبعة الاولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

- أبو المحاسن بن تغربردي: النجوم الزاهرة.

- السيوطي: طبقات الحفاظ.

- الحنبلي: شذرات الذهب.

- تقي الدين أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح، طبقات الفقهاء الشافعية، تحقيق محيي الدين علي نجيب، دار البشائر الإسلامية، ١٩٩٢م، بيروت.

- ابن الأثير، الكامل في التاريخ.

- محمود خطاب، قادة فتح السند وأفغانستان.
- محب الدين الخطيب، مع الرعيل الأول.
- ابن مفلح، الآداب الشرعية.
- أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، ط دار النهضة ببيروت، ١٩٧٢ م.
- حسان حلاق، العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطي، الأندلس / صقلية الشام، ط الدار الجامعية ببيروت، ١٩٨٦ م.
- محمد زيتون،المسلمون في المغرب والأندلس، ط دار الوفاء للطباعة، القاهرة ١٩٨٤ م.
- المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط القاهرة، ١٣٠٢ هـ، أزهارالرياض في أخبار عياض، ط القاهرة، ١٩٤٢م.
- ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ليفي بروفنسال، ط دار الثقافة ببيروت.
- أبو عبد الله بن سعد بن أحمد السلماني (لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: د. يوسف علي طويل، ط الأولى، دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت - ٢٠٠٣ هـ - ١٤٢٤ هـ.
- د / السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ط مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.
- د / علي حسن الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة، ط دار قباء، القاهرة.

- د/ سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ط دار النهضة العربية، بيروت.
- محمد عبدالله عنان،دولة الإسلام في الأندلس، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١ و ٢٠٠٣ م.
- د/ محمد كمال شبانة،الأندلس، دراسة تاريخية، ط القاهرة، ٢٠٠٨ م.
- ابن الآبار القضاعي،الحلة السيراء، ط بيروت، ١٩٦٢ م.

ابن الخطيب:.

١- الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط القاهرة، ١٩٧٧م.
٢- أعمال الأعلام في من بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق ليفي بروفنسال، ط بيروت ١٩٥٦م.
٣- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ط تونس.
٤- نفاضة الجراب في غلالة الاغتراب.
٥- اللحمة البدرية في الدولة النصرية.

- ابن حزم الأندلسي،رسائل ابن حزم، ط المؤسسة العربية للدراسة والنشر.
- ابن حيان القرطبي،المقتبس من أنباء أهل الأندلس، ط دار الكتاب العربي.
- ابن خلكان،وفيات الأعيان، تحقيق د / إحسان عباس، ط دار صادر.
- أشباخ،تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة

محمد عبد الله عنان، ط مؤسسة الخانجي، ١٩٥٨ م.

د / علي محمد الصلابي:.

١- دولة المرابطين.

٢- دولة الموحدين.

٣- الدولة الأموية.

٤- عمر بن عبد العزيز.

٥- أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

٦- سيرة عثمان بن عفان .

- أبو بكر أحمد بن مروان بن محمد الدينوري القاضي المالكي، المجالسة وجواهر العلم، دار ابن حزم - لبنان/ بيروت - ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

- محمد بن حبان البستي أبو حاتم، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٣٩٧ - ١٩٧٧م.

- محمد بن محمد بن علي بن همام بن راجي الله بن سرايا بن داود، سلاح المؤمن في الدعاء والذكر،، تحقيق محيي الدين ديب مستو، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م.

- محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الثانية، - ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

- محمد بن علي بن عطية الحارثي المشهور بأبي طالب المكي، قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام

التوحيد، تحقيق: د.عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة: الثانية ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

- محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ)، موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، تحقيق مأمون بن محيي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، سنة النشر: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
- أبو التراب سيد بن حسين بن عبد الله العفاني، نداء الريان في فقه الصوم وفضل رمضان، قدم له: أبو بكر الجزائري - محمد صفوت نور الدين - محمد عبد المقصود، توزيع: دار ماجد عسيري - جدة.
- عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة: الرابعة.
- مصطفى شيخ إبراهيم حقي، رد البلاء بالصدقة.
- ماجد إسلام البنكاني أبي أنس العراقي، تحذير الأنام بما في الأقوال والأفعال من الآثام.
- أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، الأمالي في لغة العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.
- المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح.
- ابن الحداد، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس.
- ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد.
- الشيخ بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، الكشكول، تحقيق:

محمد عبد الكريم النمري،دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

- شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق د.مفيد محمد قميحة، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦.
- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية - بيروت،.
- أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، زهر الأداب وثمر الألباب، تحقيق: أ. د / يوسف على طويل، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م.

أبو حيان علي بن محمد ابن العباس التوحيدي:.

١- الإمتاع والمؤانسة، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان الطبعة: الأولى - ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م.
٢- البصائر والذخائر.
٣- الصداقة والصديق.

- اليوسي، زهر الأكم في الأمثال و الحكم.
- الوطواط، غرر الخصائص الواضحة.
- المحبي، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة.
- البلاذري، أنساب الأشراف.
- الوشاء، الموشى.
- ابن طيفور، بلاغات النساء.

- عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد، أبو حامد، عز الدين (المتوفى: ٦٥٦هـ)، شرح نهج البلاغة، المحقق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- أسامة بن منقذ، لباب الآداب.
- أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، تحقيق خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.
- الزجاجي، الأمالي.
- الخالديان، الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين.
- ابن حمدون، التذكرة الحمدونية.
- الرقيق القيرواني، قطب السرور في اوصاف الخمور.
- خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢ م.
- أبو أحمد العسكري، المصون في الأدب.
- أبو الصفا صلاح الدين خليل بن عز الدين أيبك بن عبد الله الألبكي الصفدي، الشعور بالعور، تحقيق: الدكتور عبد الرزاق حسين، دار عمار - عمان - الأردن - ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨هـ.
- أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، مجمع الأمثال، محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة - بيروت.

- الزمخشري، ربيع الأبرار.
- السجستاني، المعمرون والوصايا.
- ابن حبيب، عقلاء المجانين.
- المظفر بن الفضل، نضرة الاغريض في نصرة القريض.
- ثعلب، مجالس ثعلب.
- الدميري، حياة الحيوان الكبرى.
- تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله التقي الحموي المعروف بابن حجة، طيب المذاق من ثمرات الأوراق، تحقيق: أبو عمار السخاوي، دار الفتح - الشارقة - ١٩٩٧م.
- أبو الربيع سليمان بن بنين بن خلف بن عوض تقي الدين المصري، إتفاق المباني وافتراق المعاني، تحقيق يحيى عبدالرؤوف جبر، دار عمار - عمان، الطبعة الأولى، ١٩٨٥.
- أبي الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الموصلي، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية - بيروت، ١٩٩٥م.
- الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب النفائس.
- عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة،الطبعة الرابعة.
- ابن الأبار، إعتاب الكتاب.

- أبو الفرج الأصبهاني، الإماء الشواعر.
- شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.
- عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الإشبيلي أبو محمد، العاقبة في ذكر الموت، تحقيق خضر محمد خضر، مكتبة دار الأقصى - الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ - ١٩٨٦.
- ابن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء.
- الثعالبي، المنتحل.
- الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه.
- الصولي، أخبار أبي تمام.
- السري الرفاء، المحب والمحبوب و المشموم و المشروب.
- النشابي الإربلي، المذاكرة في ألقاب الشعراء.
- الحُصري، جمع الجواهر في الملح والنوادر.
- العبدلكاني الزوزني، حماسة الظرفاء.
- أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥.
- عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج ابن الجوزي:.
١- صفة الصفوة، تحقيق: محمود فاخوري - د.محمد رواس قلعه جي، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩ - ١٩٧٩.
٢- الأذكياء.

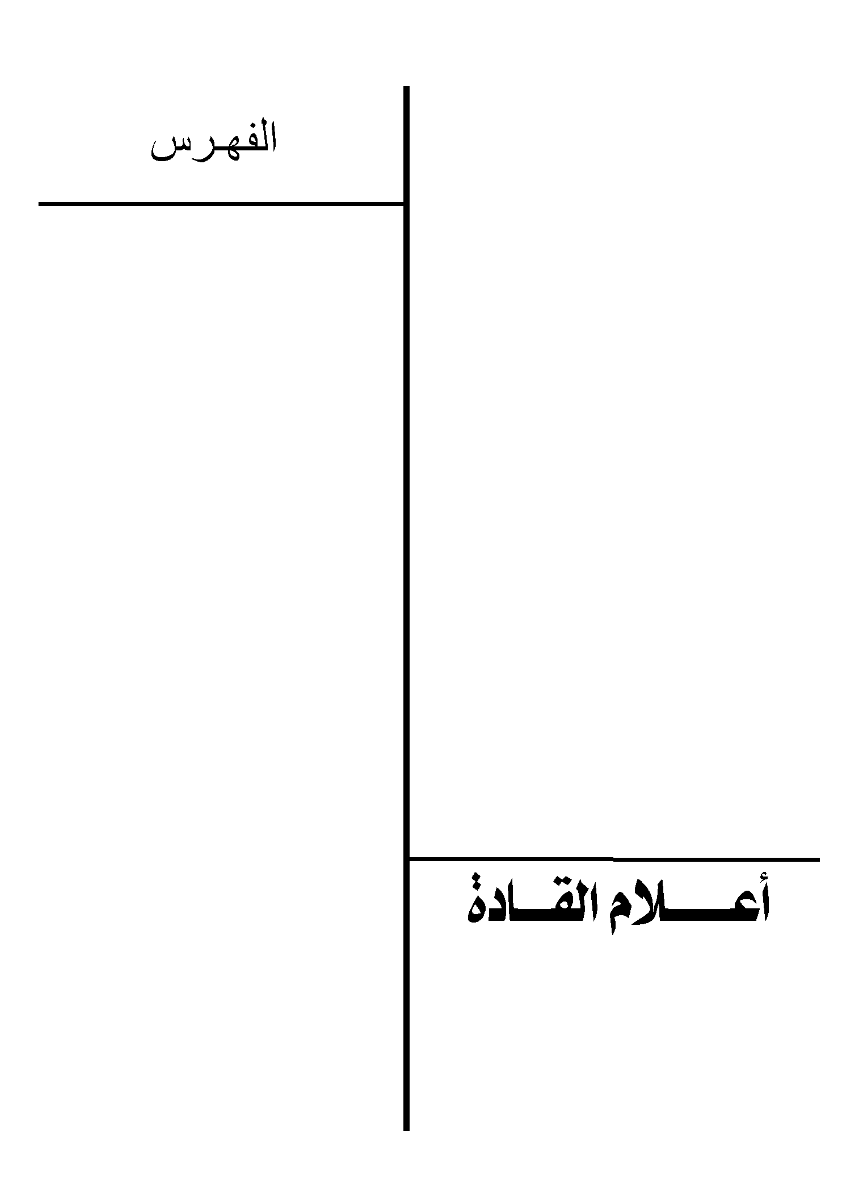
٣- أخبار الحمقى والمغفلين،المكتب التجاري - بيروت.
٤- أخبار النساء.
٥- أخبار الظراف والمتماجنين، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجاني، دار ابن حزم - بيروت - ١٩٩٧م.
٦- مناقب الإمام أحمد.
٧- التبصرة.
٨- ذم الهوى، تحقيق مصطفى عبد الواحد.
- أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي.
يتيمة الدهر.
١- الإعجاز والإيجاز، دار الغصون - بيروت / لبنان - ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
٢- تحسين القبيح وتقبيح الحسن، تحقيق: نبيل عبد الرحمن حياوي، دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت / لبنان.
٣- اللطف واللطائف.
٤- من غاب عنه المطرب.
- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ.
١- البخلاء، تحقيق: أحمد العوامري بك - علي الجارم بك، دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت - ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.
٢- البيان والتبيين، تحقيق: المحامي فوزي عطوي، دار صعب - بيروت.
٣- الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الجيل، لبنان/ بيروت، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٤- المحاسن والأضداد،مكتبة الخانجي - القاهرة / مصر - ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
٥- البرصان والعرجان.
محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (المتوفى: ٢٨٥هـ)،.
١- الفاضل.
٢- الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار الفكر العربي - القاهرة، الطبعة: الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.
٣- التعازي والمراثي.
- يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري أبو يوسف:.
١- أدب المجالسة وحمد اللسان وفضل البيان وذم العي وتعليم الإعراب، دار الصحابة للتراث - طنطا.
٢- بهجة المجالس وأنس المجالس.
- ابن دريد.
١- المطر والسحاب.
٢- تعليق من أمالي ابن دريد.
- القاضي التنوخي.
١- نشوار المحاضرة.
٢- المستجاد من فعلات الأجواد.
٣- الفرج بعد الشدة.
- أبو الحسن علي بن محمد الماوردي.

١- تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك، تحقيق محي هلال السرحان وحسن الساعاتي، دار النهضة العربية - بيروت - ١٩٨١م.

أدب الدنيا والدين.

* * *


الفهـرس
أعـــلام القـادة

الفهـرس

* * *

المقدمة	٣
الحرب في الإسلام	١٠
القائد الأحنف بن قيس	١٩
القائد قتيبة بن مسلم	٦٦
القائد محمد بن القاسم	٨٧
القائد عقبة بن نافع	٩٤
القائد موسى بن نصير والقائد طارق بن زياد	١١٨
القائد عبد الرحمن الغامض	١٤٩
القائد المهلب بن أبى حضرة	١٦٠
القائد الحجاج بن يوسف الثقفى	١٧٨
القائد مسلم بن عقبة المري	٢٦٦
القائد حبيب بن مسلمة	٢٧٦
القائد سلمان بن ربيعة الباهلى	٢٨٤
القائد عبد الرحمن بن ربيعة	٢٨٩
القائد يزيد بن المهلب	٢٩٣
القائد مسلمة بن عبد الملك	٣١٣
القائد طاهر بن الحسين	٣٣٩
القائد عبد الله بن طاهر بن الحسين	٣٦٢
الخاتمة	٤٠٥
المصادر والمراجع	٤٠٧